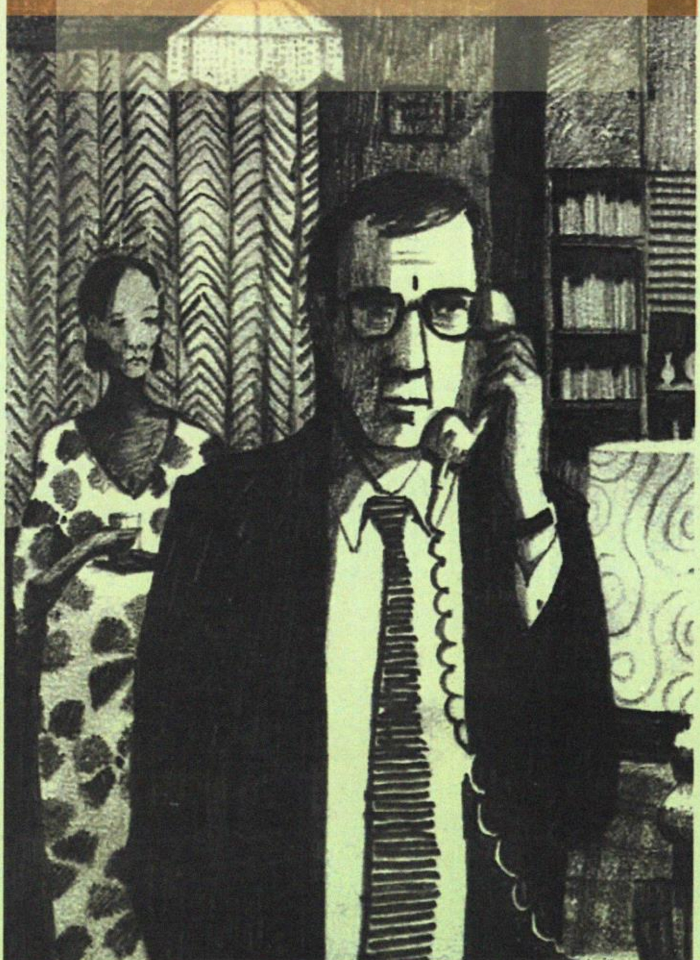
جراهام جرين

العنصر الإنسانى

ترجمة: سمير محفوظ بشير



المركز القومى للترجمة

2739

سلسلة الإبداع القصصى

العنصر الإنسانى

(رواية)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2739
- العنصر الإنسانى
- جراهام جرين
- سمير محفوظ بشير
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة:

The Human Factor

By: Graham Greene

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

العنصر الإنساني

(رواية)

تأليف : جراهام جرين
ترجمة : سمير محفوظ بشير

2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جرين ، جراهام ، ١٩٠٤ – ١٩٩١

العنصر الإنسانى / تأليف: جراهام جرين؛ – ترجمة : سمير محفوظ بشير

القاهرة ؛ المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٦

٤٠٤ ص؛ ٢٤ سم.

١ – القصص الإنجليزية

(أ) بشير ، سمير محفوظ (مترجم)

(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع / ٩٨٥٦ / ٢٠١٥

الترقيم الدولى :978-977-92-0278-5

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

الجزء الأول

الجزء الثانى

الجزء الثالث

الجزء الرابع

الجزء الخامس

الجزء السادس

الجزء الأول

لا أعرف إلا أن من يشكّل علاقة ما يضيع؛ فقد دخلت جرثومة الفساد روحه.

"جوزيف كونراد"

الفصل الأول

منذ أن التحق كاسل بالخدمة فى الوكالة وهو شاب صغير، قبل ثلاثين عامًا، أصبح معتادًا أن يتناول غداءه فى مطعم عام يقع خلف شارع جيمس، لا يبعد كثيرًا عن مكتب عمله. وإذا سُئِل لماذا يتناول طعامه فى هذا المطعم تحديدًا، ربما سوف يذكر النوعية الممتازة من السجق الفاخر الذى يقدمه، لعله يفضل كثيرًا عما تقدمه سلسلة مطاعم "واتنى"، فمسألة نوعية السجق هى التى ترجح تفضيلاته. إنه شخص تجده دائمًا مستعدًا أن يحاسب على تصرفاته التى أكثرها برىء للغاية، كذلك هو من الناس الذين يهتمون بشكل بالغ بمراعاة الدقة فى مواعيدهم.

ما إن تدق الساعة معلنة الواحدة ظهرا، حتى يكون مستعدًا للمغادرة، أما مساعده فى العمل، المدعو آرثر ديفيز– المشارك له فى المكتب– فإنه دائمًا ما يغادر المكتب لتناول غدائه الساعة الثانية عشرة ظهرا. لكن، نظريا، لا يعود بعد مرور ساعة. كان من المعروف أنه فى حالة ورود برقية عاجلة، على ديفيز هذا أن يتسلم البرقية المشفرة، لكن كليهما، على علم كامل، أنه بالنسبة لقسمهما الصغير هذا داخل تلك الإدارة الضخمة، ليس هناك فى الحقيقة ما يمكن أن ندعوه بالبرقيات العاجلة، أيضًا فإن الفرق الزمنى بين إنجلترا والأجزاء المختلفة من شرق إفريقيا وجنوبها، وهما الجهتان اللتان تعتبران نطاق عملهما، هو زمن كاف تماما، حتى فى حالة مدينة جوهانسبرج، حيث لا يزيد الفرق الزمنى إلا قليلاً على ساعة واحدة، ولا يوجد أحد من موظفى الوكالة يمكن أن يتهم بأى تأخير فى استقبال رسالة ما؛ فمصير العالم– كما اعتاد ديفيز أن يقول– لن يتحدد مصيره أبدًا فى قارتهم الإفريقية هذه، مهما كان عدد السفارات التى تفتتحها الصين أو روسيا من أديس أبابا حتى كوناكرى، أو مهما كان عدد الكوبيين الذين يذهبون إلى تلك البلاد الإفريقية.

كتب كاسل إلى معاونه تلك المذكرة: إذا وصلنا رد من زائير عن رسالتنا رقم ١٧٢، أرسل نسخة منها إلى وزارة المالية، كذلك إلى "FO" ثم نظر إلى ساعته، لقد تأخر مساعده ديفيز عشر دقائق عن المعتاد.

بدأ كاسل في حشو حافظة أوراقه – وضع فيها مذكرة موضحا بها ما سوف يشتريه لزوجته من محل الجبن الواقع في شارع جيرمين، كذلك مكتوب فيها ضرورة قيامه بشراء هدية لابنه الذي لم يكن لطيفًا معه هذا الصباح، هما (٢ باكو شيكولاتة مالتيزر)، كذلك أن يشتري الجزء الثاني من الرواية بالغة الطول (كلاريسا هارلاو)، علما أنه لم يقرأ في الجزء الأول من هذه الرواية أبعد من الفصل التاسع والخمسين.

بمجرد أن شعر بأن باب المصعد يغلق، ثم يسمع وقع خطوات ديفيز في الممر، حتى غادر غرفته. لقد فات موعد تناوله السجق إحدى عشرة دقيقة، فهو خلافا لديفيز، تجده ملتزما تمامًا بمواعيده، وتلك واحدة من مزايا التقدم في العمر.

آرثر ديفيز هذا، زميله في المكتب مشهور بتصرفاته الشاذة. يمكن مشاهدته وهو قادم الآن من نهاية الممر الطويل الأبيض، يرتدي ملابسه التي ترسمه كأنما هو قادم للتو من إجازة قضاها في الريف ممتطيًا الجياد، أو أنه قد حضر الآن من حلبة للسباق، حيث إنه يرتدي جاكتا رياضيًا يغلب عليه اللون الأخضر، يضع في جيب الجاكت منديلا قرمزيا منقطا، كما لو أنه مرتبط بطائفة طوطمية، لكنه في الواقع يشبه ممثلاً لم يجد دوره، فهو يحاول أن يتابع دورًا يناسب ملبسه، ثم نجده يخطئ ويتلجلج في الأداء. يشبه وهو داخل لندن كأنما هو قادم من الريف، لكنه عندما يزور كاسل في منزله القائم في الريف، يبدو كأنما هو سائح قادم من المدينة.

قال ديفيز وعلى وجهه الابتسامة الدائمة: "أرى أنك كالمعتاد، ملتزم بمواعيدك".

أجاب كاسل، معتذرا عن الانتقاد الذي لم يعبر عنه: "ساعتي دائمًا ما تسرع في سيرها، أعتقد أنها تعاني من عقدة الاضطهاد".

تساءل ديفيز متلاعبًا وهو ينظر ناحية حافظة كاسل: "هل تعمل فى تهريب أسرار الدولة كالمعتاد؟".. كانت أنفاسه عطرة، فهو من المدمنين على شرب خمر البورت.

"أوه، لقد تركت هذه الهواية جانبا لتكون من نصيبك لتبيع كما تشاء، بالتأكيد سوف تحصل على سعر أفضل عن طريق معارفك الغامضين".

"طبعا، المماثلون لك".

"وبعد ذلك، أنت أعزب، والعازب فى حاجة إلى المزيد من المال بالمقارنة بالرجل المتزوج، أما عنى، فإننى مضطر إلى أن أقتسم تكاليف المعيشة..".

"آه، لكن ما رأيك فيما تفعلونه بالبقايا، حيث يمكن لكم أن تغيروا من شكل شريحة اللحم لتصبح فطيرة من نوع شبرد، وتصنعونها أيضًا على شكل كرات اللحم الغريبة الشكل، فهل كل هذا يستحق؟ الرجل المتزوج بالكاد يستطيع أن يجرع كأسًا من البورت المعتبر".

دخل ديفيز الغرفة المشتركة وضرب الجرس مستدعيًا السكرتيرة سنثيا. كان ديفيز هذا يحاول جاهدًا أن يجعل سنثيا هذه تميل إليه، لكن وهى ابنة ميجور- جنرال، بالطبع سوف تسعى للحصول على لعبة أفضل قدرًا.. مع ذلك، استمر الشاب فى المحاولة والأمل، وقد شرح نظريته بوضوح كامل، من أنه يفضل أن يغازل من هى داخل قسمه؛ فهذا لم ينظر إليه أحد باعتبار أن به بعض المخاطر الأمنية، لكن كاسل كان يعلم تمامًا مدى ارتباط ديفيز بهذه الفتاة، وأنه راغب فى أن يرتبط بها، لكنه فى الوقت نفسه مغرم بالمرح والحرية التى تتيحها له حياة العزوبية.

مرة قام كاسل بزيارة ديفيز فى شقته، التى يتشارك فيها مع رجلين يعملان بإدارة الحفاظ على البيئة، وتقع فوق محل للعاديات ليست بعيدة عن منطقة كلاريدج؛ بذلك تعتبر تقريبًا فى وسط المدينة. عندما دخل كاسل غرفة الاستقبال، لاحظ أنها مزدحمة بالصحف والمجلات ذات الأذواق المتعددة – مثل صحف نيوستيسمان، بنتهاوس ومجلة نيتشر – مبعثرة جميعها على الأريكة، كذلك هناك عدد من الأقداح، لعلها خاصة بحفل أقامه

أحدهم، محشورة فى الأركان كى تقوم خادمة النهار بالتصرف فيها. قال له ديفيز حينذاك "المفروض أن تسكن فى مكان أقرب لعملك مثلى".

كان رد كاسل: "أنت تعلم ما يدفعونه لنا كراتب، كذلك أنا رجل متزوج".

"إنه خطأ جسيم فيما يختص بالحكم على الأمور".

"هذا لا ينطبق على، فأنا أحب زوجتى".

"بالطبع أنت عندك منزلك الخاص، كذلك لديك "ابن الحرام"، لكننى أنا لا أتحمل الأطفال والبورت فى الوقت نفسه"

"ما حدث هو أننى أيضًا مغرم بابن الحرام كما تدعوه".

استعد كاسل لأن يهبط أربع درجات السلم متوجهًا إلى منطقة بيكاديللى، عندما اعترضه البواب قائلاً: "يا سيدي، ميجور توملينسون يود مقابلتك".

"البريجادير توملينسون؟"

"نعم، تجده فى الغرفة أ٣".

لم يكن كاسل قد قابل هذا البريجادير سوى مرة واحدة، منذ عدة أعوام، وهى مدة أطول من أن يحصيها. مثلاً قابله فى اليوم الأول من تعيينه – وهو اليوم الذى تم فيه وضع اسمه فى سجل اللائحة الرسمية لأسرار الدولة عندما كان هذا البريجادير ضابطا صغيرًا للغاية، هذا إذا كان هذا الرجل بالفعل ضمن سلك الضباط. كل ما يتذكر عنه هو شارب أسود يرفرف فى الهواء كأنما هو شيء يطير فوق حقل من ورق النشاف الأبيض الحيادى، ولعله تم اختياره هكذا لأسباب أمنية. كانت لطخة توقيعه بعدما وقع كاسل على لائحة أسرار الدولة هو العيب الوحيد فى هذا السجل الذى يلطخ صفحتها، وشبه مؤكد أن هذه الصفحة بالذات قد أرسلت منذ زمن للمحرقة، فقد قامت قضية درايفوس(*) الشهيرة

(*) درايفوس هو ضابط يهودى كان يعمل فى الجيش الفرنسى، وقد اتهم ظلمًا بالتجسس على بلاده عام ١٨٩٤ .

بتعريض أسرار الدولة إذا تم إلقاء أى أوراق مهمة فى سلة المهملات، وهذا ما حدث منذ قرن من الزمان.

"انزل تحت ثم اتجه يسارًا"... هكذا أرشده البواب عندما وجده سوف يتجه إلى مكان خاطئ.

دعاه البريجادير توملينسون قائلاً: "ادخل يا كاسل". كان شاربه الآن أبيض مماثلاً فى اللون ورق النشاف، وبمرور الأيام استطاع أن ينمى لنفسه كرشًا صغيرًا خلف صديرى مزدوج الجيوب. فقط هى وظيفته الغامضة التى استمرت ثابتة بلا تغيير. لا أحد يعلم إلى أى فرقة عسكرية كان ينتمى قبلاً، هذا إذا كان لهذه الفرقة أى وجود أصلاً، فكل الألقاب التى تنتشر فى هذا المبنى تعتبر جزءًا من عملية التخفى العالمية.

قال: "لا أظنك قد تعرفت على الكولونيل دانترى من قبل".

"لا، لا أعتقد...كيف حالك يا سيدى؟".

دانترى هذا، على الرغم من بزته الأنيقة ووجهه الذى يشبه البلطة، فقد أعطى انطباعًا من أنه من ذلك النوع المغرم بحياة الحرية والانطلاق، أكثر مما هو معروف عن ديفيز. إذا كان قد ظهر على ديفيز أنه قادر أن يكون على راحته وهو فى باحة مشبوهة، لكن بالتأكيد سوف يكون دانترى هذا كأنما هو فى بيته وهو داخل حظيرة فاخرة أو مستنقع للطيور الغريبة. كان من عادة كاسل أن يشعر بالابتهاج وهو يرسم اسكتشات براقة لزملائه فى العمل، بل حتى أحيانًا كان يضع تصوراته تلك على الورق أيضًا.

قال دانترى: "أعتقد أننى أعرف شخصًا قريبًا لك يعمل فى وكالة كوربسى".... كان الرجل يتحدث بشكل متفتح، لكن بدا عليه أنه متعجل؛ من المحتمل أن وراءه مهمة اللحاق بقطار ينقله إلى شمال البلاد من محطة كنجز كروس.

شرح البريجادير توملينسون: "الكولونيل دانترى هو مكنستنا الجديدة". لاحظ كاسل على الفور كيف أن دانترى جفل وهو يستمع إلى هذا الوصف: "لقد خلف ميريديث فى مجال تحقيق عنصر الأمان فى هذا المبنى. لست متأكدًا أنك قابلت ميريديث من قبل".

خاطب كاسل دانترى مباشرة: "أعتقد أنك تقصد ابن عمى روجر، إننى لم أره منذ عدة سنوات، أعتقد أنه يعمل الآن فى وزارة المالية".

تدخل البريجادير توملينسون فى الحديث، حريصا على أن يكون الحوار داخل نطاق طول موجته: "كنت أشرح للكولونيل دانترى حقيقة الأوضاع هنا".

قال دانترى: "عن نفسى، أقول إننى درست القانون كنشاط استثنائى تال، أعتقد أنك يا كاسل مغرم بقراءة كتب التاريخ".

"نعم، لكن باهتمام أعتبره ثالثًا فى الأهمية".

تدخل توملينسون مرة أخرى "لقد شرحت للكولونيل دانترى أنك أنت وديفيز بمفردكما اللذان تتعاملان مع البرقيات بالغة السرية فيما يختص باهتمامات القسم 6أ".

"طبعًا، هذه إذا اعتبرت ما يصلنا من معلومات تعتبر من أدق أسرار الدولة، مع العلم أن رئيسنا واطسن يطلع عليها أيضًا".

قال دانترى، بطريقة بها بعض لمحات عدم الاهتمام "أعتقد أن ديفيز هذا، هو جامعى، أليس كذلك؟".

"أرى أنك بالفعل بدأت فى مذاكرة واجباتك المنزلية".

"فى الحقيقة، منذ وقت قليل كان لى حديث مع ديفيز هذا".

"إذن هذا هو السبب الذى جعله يتأخر عشر دقائق فى مسألة تناوله طعام الغداء".

كانت الابتسامة التى ارتسمت على وجه دانترى تشبه مسألة فتح جرح مؤلم. إنه شخص يمتلك شفتين حمراوين، تنفرجان عن أطرافهما بصعوبة بالغة، قال: "لقد تحدثت مع ديفيز عنك، لذا سوف أتحدث معك عنه بشكل مباشر. يجب عليك أن تعذر المقشة الجديدة، فعلىَّ أن أتعرف على كل الخيوط". أضاف بعد ذلك وقد اختلطت عليه الاستعارات: "على الإنسان أن يتابع عجلة الآلة — هذا بالطبع لا يقلل من شأن الثقة التى نوليها لكما. بهذه المناسبة، هل قام بتحذيرك؟".

"لا، لكن لماذا يمكن لك أن تصدقنى، فلعلنا معًا من المتآمرين".

بدأ الجرح ينزف مرة أخرى، ثم ينغلق بشكل بات.

"أعتقد أنه من الناحية السياسية، هو يميل إلى اليساريين، أليس كذلك؟".

"إنه عضو فى حزب العمال، أعتقد أنه أخبرك بذلك بنفسه".

"بالطبع، ليس هناك أى عيب أو خطأ فى ذلك. لكن ماذا عنك أنت...؟".

"أنا لست مغرمًا بالسياسة، أعتقد أن ديفيز قد أخبرك بهذا أيضا".

"لكننى أعتقد أنك تذهب أحيانًا لتنتخب؟".

"لا أعتقد أننى ذهبت أنتخب مرة منذ نهاية الحرب، فالأحوال تبدو هذه الأيام — كأنما هى مضخة الأسقفية".

قال دانترى وقد بدت على وجهه علامات الاعتراض: "فعلا، إنها نقطة لها وجاهتها". أدرك كاسل أن قول الحق هو فعل خاطئ، فهو، فيما عدا فى وقت المناسبات المهمة، دائمًا ما يفضل أن يقول الحق، لأن الحق يمكن التأكد منه. نظر دانترى إلى ساعته قائلاً: "لن أستبقيك طويلاً.. لدى قطار علىَّ أن ألحق به من محطة كنجز كروس".

"لكى تقضى الإجازة الأسبوعية فى الصيد بالبندقية؟".

"نعم، كيف علمت بذلك؟".

"إنه الإلهام".، مرة أخرى ندم على إجابته هذه، فمن الأسلم والأصوب أن يكون المرء واضح فى تصوراته. كانت هناك أوقات، تنامت فيها عنده حواس معينة بسبب كر السنين، فيها تمنى أن يحقق التكامل الشامل، حيث يبدو بشخصية مختلفة تحلم بتحقيق قدر من المجد الدراماتيكى على مسرح لورد.

"بالتأكيد أنت لاحظت كساء بندقيتى المجاور للباب".

قال كاسل، الذى لم يكن قد انتبه لوجود هذه البندقية من قبل: "نعم، كانت هى المرشدة لى"... سعد بعد ذلك عندما لاحظ أن دانترى مقتنع بهذا التفسير.

أخذ دانترى يشرح مهمته: "ليس هناك شأن شخصى فى كل هذا كما تعلم. عملى هو مجرد التفتيش الروتينى. هناك الكثير من التعليمات التى يهملها الموظفون، إنها الطبيعة الإنسانية. مثلاً التعليمات التى تنص على عدم اصطحاب الموظف لمستندات عمله خارج المصلحة..".

أخذ دانترى يحدق بتدقيق فى حافظة كاسل، وبالطبع لو كان هو ضابط أو سيد مهذب إذن لتبرع فورًا بتقديم حافظته للتفتيش وهو يهزل مستريحًا، لكن كاسل لا يعتبر نفسه ضابطًا، أيضًا لا يضع نفسه فى مصاف السادة المهذبين. كان يود أن يرى إلى أى مدى يمكن فيه أن تمتد يد هذه المكنسة الجديدة تحت المائدة لتكنس، لذا قال: "أنا لست متوجهًا الآن إلى منزلى، فقط خارج لتناول غدائى".

مد دانترى يده مطالبا بالمحفظة: "إذن لن تمانع، أليس كذلك...؟ لقد تقدمت بالطلب نفسه إلى زميلك ديفيز".

"لم يكن ديفيز حاملاً لمحفظة أو شنطة عندما شاهدته منذ قليل".

احمر وجه دانترى قليلاً بسبب خطئه هذا، ولعله سوف يشعر بخجل مماثل لو تمكن من إصابة طائر ببندقيته هذه. قال دانترى: "أوه، لعله الشخص الآخر الذى نسيت اسمه".

اقترح عليه البريجادير: "تقصد رئيس القسم واطسن؟".

"نعم، واطسن".

قال كاسل: "إذن أنت كنت تفتش رئيسنا أيضًا؟".

"هذا جزء من عملى".

فتح كاسل محفظته، وأخرج منها نسخة من صحيفة بيركهامستيد.

تساءل دانترى "ما هذا؟".

"إنها صحيفتى المحلية، كنت ناويًا أن أقرأ فيها أثناء الغداء".

"آه نعم، هذا أمر طبيعى. لقد نسيت أنك تعيش فى مكان بعيد، ألا ترى أن هذا متعب لك؟".

"المسافة لا تزيد على ساعة بالقطار، إننى فى حاجة لأن يكون مقامى داخل منزل كامل ملحق به حديقة، وكما ترى، أنا لدى طفل، كذلك أمتلك كلبًا، لا يمكن بالطبع أن تحتفظ بكليهما فى شقة بالمدينة. هذا وضع غير مريح".

"ألاحظ أيضًا أنك تقرأ رواية "كلاريسا هارلاو". هل أنت معجب بهذه الرواية؟".

"نعم كثيرًا، لكن كما تعلم، هذه الرواية مكونة من أربعة أجزاء".

"وما هذه الورقة؟".

"إنها قائمة بالأشياء التي أود أن أتذكر إحضارها معى".

"تتذكر؟".

"قائمة بما سوف أشتريه من هنا".. كان مكتوبًا تحت عنوان منزله المطبوع، ١٢٩ شارع طريق الملك (اثنين مالتيزر. نصف رطل شاى إيرل جراى. جبن من نوع ونسلبديل أو جلوسستر؟ لوسيون بعد الحلاقة: من نوع ياردلى).

"ما المالتيزر؟".

"إنه نوع من الشيكولاتة، يجب أن تجرب هذا الصنف. إنها لذيذة، ومن رأيى أنها أفضل من نوع الكيت كات".

"هل تعتقد أنها من الأنواع التى تصلح تقديمها هدية لمضيفتى؟ أود أن أقدم لها شيئًا غير عادى".. ثم أخذ ينظر فى ساعته: "ربما يمكن لى أن أرسل البواب، ما زال هناك لدى وقت، من أين تشتريه؟".

"يستطيع البواب أن يشتريه لك من محال ABC بشارع ستراند".

" ABC؟".

"هذا اختصار لجملة: شركة الخبز المنفوخ".

"خبز منفوخ..ما هذا بحق السماء...؟ حسنًا، هناك وقت كافٍ للشراء. هل أنت متأكد أن هذا التيزر سيؤدى الغرض؟".

"بالطبع، طعمها مختلف".

"محال فورتنم على بعد خطوات من هنا".

"لن تستطيع الحصول عليها فى هذه المحال، فهى شيكولاتة رخيصة للغاية".

"أنا لا أود أن أظهر كإنسان حريص أو بخيل".

"إذن عليك بالتركيز على الكمية، أخبر البواب بأن يشترى لك ثلاثة أرطال منها".

"ما الاسم مرة أخرى، ويا حبذا لو تخبر البواب بفحوى طلبى هذا أثناء خروجك".

"عملية الفحص انتهت؟ هل ثبت أننى نظيف؟".

"أوه، نعم. نعم. أنا أخبرتك يا كاسل أنها مجرد رسميات".

"إذن أتمنى لك صيدًا موفقًا".

"غاية الشكر".

قام كاسل بنقل الرسالة إلى البواب.

قال هذا الأخير: "تقول "ثلاثة أرطال؟" من شيكولاتة المالتيزر؟".

"نعم".

"ثلاثة ارطال من المالتيزر؟".

"نعم".

"هل هذا يلزمه أن اصطحب معى سيارة نقل؟".

قام البواب باستدعاء مساعد البواب، ذلك الذى كان منهمكًا فى الاطلاع على مجلة بنات. قال له: "عليك أن تشترى ثلاثة أرطال من المالتيزر للكولونيل دانترى".

بعد قيام المساعد بعمل بعض الحسابات العقلية أجاب: "هذا يعنى نحو ١٢٠ باكو شيكولاتة".

قال كاسل: "لا أبدًا، الموضوع ليس بهذا القدر من السوء، أعتقد أن ما يهمه هو الوزن".

ثم تركهما منهمكين فى عمل حساباتهما. لقد تأخر لمدة خمس عشرة دقيقة عن احتلال مكانه فى المطعم، وبالتأكيد تم شغل مكانه المفضل. قام بعد ذلك بالتهام طعامه واحتساء مشروباته سريعًا، قضى فى ذلك ثلاث دقائق. قام بعد ذلك بشراء لوسيون الحلاقة من صيدلية تقع فى منطقة قنطرة جيمس، والشاى من محال جاكسون، لكنه للأسف اكتشف أن الشيكولاتة من نوع المالتيزر قد نفدت من محال ABC – أخبره مساعد البياع بأنه قد طلب منهم شراء كمية ضخمة من هذه الشيكولاتة، لذا اضطر كاسل إلى أن يشترى شيكولاتة من نوع الكيت كات. اكتشف بعد ذلك أنه قد تأخر على ديفيز ثلاث دقائق فقط.

خاطب زميله بالقول: "لم تخبرنى قط أننا كنا معرضين للفحص والتفتيش".

"لقد أقسمت أن أكون كتومًا، هل أمسك عليك شيئًا؟".

"ليس بالضبط".

"لكنه وجد ممنوعات معى، سألنى ما الموجود فى جيب المحفظة الماكنتوش. كان بداخلها تقرير كان قد ورد من العميل ٥٩٨٠٠. كنت أريد أن أقرأه مجددا وأنا أتناول غدائى".

"ماذا كان قوله؟".

"أوه، لقد تركنى أذهب بتحذير. قال لى إن التعليمات قد أنشئت كى يلتزم بها الجميع؛ هذا جعلنى أفكر فى مسألة الأخ بليك(*) وما السبب الذى دعاه للهروب؟ لكننى أقول إن هذا الرجل استطاع إن يهرب من عبء تسديد ضريبة الدخل ومن الضغط النفسى والمسئوليات الجسام، وها نحن الآن نعانى بسبب ما فعله".

"دانترى هذا يعرف قريبًا لى يعمل فى وكالة كوربس. فى مثل هذه الأحوال، هذا يحدث فرقا".

* * *

(*) جورج بليك :هو جاسوس بريطانى كان يعمل لحساب السوفييت. اكتشفت خيانته عام ١٩٦١ وحكم عليه بالسجن ٤٢ عامًا، لكنه استطاع الهرب من السجن عام ١٩٦٦ وتوجه إلى روسيا.

الفصل الثانى

كان من عادة كاسل أن يلحق بقطار الساعة السادسة والنصف مساء من محطة إيستون. هذا القطار يصل به إلى بلدته بيركهامستد الساعة السابعة وعشرين دقيقة بالضبط، هناك يجد دراجته فى انتظاره بالمحطة؛ فهو على معرفة وثيقة برجل المسئول عن قطع التذاكر منذ عدة أعوام ويترك دراجته فى عهدة هذا الرجل لحين عودته، ثم يركبها ويسلك طريقا طويلاً حتى يصل منزله، كل هذا من أجل التريض فقط. يعبر أولا كوبرى القناة، ثم مدرسة تيودور حتى يصل إلى الطريق العام، بعدها يعبر الكنيسة الأسقفية الحجرية التى تحتوى داخلها على خوذة أحد الصليبيين.. بعد ذلك يعبر منحدر الشيلترن حتى يصل إلى منزله المستقل نوعًا ويقع فى طريق كنجز. يصل إلى هناك دائمًا الساعة السابعة والنصف، إلا إذا كان قد أرسل إنذارًا تليفونيًا من لندن يفيد تأخره لسبب ما. كان هذا الوقت ملائما لأن يقول "تصبح على خير" لابنه؛ ثم يحتسى كأسًا أو كأسين من الويسكى قبل تقديم وجبة العشاء فى الثامنة.

كل من يعمل فى وظيفة غريبة الشكل، نرى أن كل ما له صلة بالروتين اليومى، يكتسب لديه قيمة كبرى؛ لعل السبب فى ذلك هو أنه عندما عاد من جنوب أفريقيا، اختار أن يعود إلى موطن مولده، إلى القناة التى تحف حولها أشجار الصفصاف الباكية، إلى المدرسة وإلى أنقاض قلعة كانت شهيرة فى زمانها، استطاعت أن تتحمل حصارا عنيفا فرضه عليها الأمير جون الفرنسى، ومن يعلم؟ لعل واحدًا من أسلافه كان أحد الفنانين المهرة فى إنشاء القلاع. هذه القلعة تشتمل الآن على عدة مرتفعات عشبية وبعض الساحات لها جدران صخرية، تواجه القناة وخط السكك الحديدية. فى الخلفية، هناك طريق طويل يمتد من هذه البلدة تحيطه سياجات خضراء من نبات الزعرور وأشجار الكستناء الإسبانية إلى

أن يصل المرء إلى منطقة النزهة العامة. منذ أعوام كثيرة سابقة، تقاتل سكان هذه البلدة لإقرار حقهم فى السماح لبهائمهم بالرعى فى منطقة المنتزه العام هذه، لكن مع قدوم القرن العشرين، أصبح من المشكوك فيه أن يجد أى حيوان– ما عدا أرنب أو جدى – علفًا وسط نباتات السرخس وما يشبه.

عندما كان كاسل طفلاً صغيرًا، ظل بعض بقايا أطلال الخنادق القديمة باقيًا فى منطقة النزهة العامة، ذلك الذى كان محفور عميقًا فى بطن الطفلة الحمراء أثناء الحرب الألمانية الأولى، قام بحفرها أعضاء من جماعة "OTC" كذلك بعض المحامين الشبان الذين كانوا يتدربون هناك قبلما يتم ترحيلهم لكى يموتوا فى بلجيكا أو فرنسا كأعضاء من وحدات رسمية. من الخطورة بمكان أن يتجول إنسان هناك دونما معرفة كاملة بالمحاذير، حيث إن هذه الخنادق حفرت عميقًا مشابهة فى ذلك الخنادق القديمة القبيحة الشكل التى كانت منتشرة حول مدينة ايبرس البلجيكية، ومن الممكن أن يقع فيها الغريب فجأة وتنكسر ساقه. أما الأطفال الذين عاشوا هنا ولديهم المعلومات الكافية؛ فإنهم كانوا يتجولون ويلعبون هنا على حريتهم، إلى أن بدأت هذه المعارف تبهت وتختفى. أما كاسل، لسبب ما، فدائمًا ما كان مُلمًا بأحوال هذه المنطقة، وأحيانًا فى أيام إجازاته من العمل، يقوم باصطحاب ابنه سام قابضا على يده مرشدًا إياه إلى أماكن للاستخفاء المجهولة للغير، لافتا أنظاره نحو المخاطر المتعددة المنتشرة فى منطقة النزهة العامة. كم من غارات وحرب عصابات اشترك فيها كاسل وهو ولد صغير. حسنًا، هو ذا أيام حرب العصابات قد عادت من جديد، وأصبح حلم اليقظة محققًا وواقعيًا. إنه يتوق أن يعيش هكذا دومًا بكل ما اعتاد عليه زمنًا طويلاً، حيث يشعر بالأمان الكامل، مماثلاً لذاك العجوز المنهك الذى يعود مرة أخرى ليعاشر ذلك السجن الذى يعرفه جيدا.

دفع كاسل دراجته صاعدا شارع كنجز. لقد اشترى منزله هذا بمساعدة جمعية بناء بعد عودته إلىْ إنجلترا. كان بإمكانه أن يدخر مالاً لو قام بدفع الثمن نقدًا، لكنه لم يشأ أن يبدو مغايرًا أو مختلفًا عن نظّار المدارس الذين تراصت منازلهم على جانبى الشارع؛ حيث لا تتيح لهم المهايا التى يحصلون عليها إدخار أى مبلغ إضافى؛ لذلك، وللسبب ذاته، استبقى الزجاج المصنفر المزوق بشكل الفارس الضاحك فوق الباب الخارجى. إنه ليس مغرما

بشكله، حيث يظن أن منظره يرتبط بمهنة صناعة الأسنان – وكثيرًا ما يعمل هذا الزجاج المصنفر على تخبئة شكل مقعد متهالك عن أعين العابرين – لكن مرة أخرى، لأن جيرانه توافقوا مع هذه النوعية من الزجاج، استبقى بابه كما هو. لاحظ أن نظار المدارس هؤلاء ما زالوا متمسكين بجماليات أهل شمال أكسفورد؛ لذا نجد أن الكثير منهم يتناولون أقداح الشاى مع المدرسين، وهناك أيضًا، فى شارع بانبرورى، تعثرت دراجته على مكان مناسب للركن، فى صالة تحت السلالم.

فتح باب منزله باستخدام مفتاح ماركة ييل. فكر مرة أن يشترى قفلاً غاطسًا أو شيئًا آخر متميزًا معروضًا فى محال متعددة بشارع سانت جيمس، لكنه استطاع أن يكبح رغبته تلك – فجيرانه هؤلاء مستريحون مع مفاتيح ييل، ولم تحدث قط حوادث سرقات منذ أمد قريب فى منطقتهم، سوى ما حدث فى بلده بكسمور، يمكن لها أن تقنعه بالتغيير.

كانت الصالة خالية، كذلك غرفة الاستقبال التى يمكن أن يطلع عليها خلال بابها المفتوح... لم يكن هناك أى صوت صادر من المطبخ. لاحظ فورا أيضًا أن زجاجة الويسكى لم تكن فى مكانها وبجوارها السيفون على البوفيه. لقد انتهكت عادة السنين الطوال، لذا شعر بالقلق كما لو أنه تعرض لوخز حشرة. نادى "سارة"، لكنه لم يتلق أى إجابة. وقف داخل باب الصالة بجوار مربض المظلات يتفحص بلمحات سريعة كل المناظر المألوفة لديه، مع المنظر المفقود – زجاجة الويسكى – لذا حبس أنفاسه. لقد اعتاد دائمًا، منذ وصولهم، بالتنبؤ من أن هناك مصيبة فى انتظارهم. إنه يعلم يقينًا عندما يتحقق ذلك، يتوجب عليه أن لا يصاب بالهلع .... عليه أن يغادر سريعًا دونما أى محاولة لالتقاط أى شيء مهشم أو مكسور من حياتهما معًا لسبب ما، فكر فى ابن عمه الذى يعمل فى وزارة الخزانة، كما لو أنه تميمة تستطيع أن توفر لهم الحماية، أو قدم أرنب يجلب الخير... ثم، استطاع أن يستعيد أنفاسه مرة أخرى عندما سمع صوتًا صادرًا من الدور العلوى ثم وقع أقدام سارة هابطة السلم.

"حبيبى، إننى لم أسمعك. كنت أحادث الدكتور باركر".

تبعها الدكتور باركر، رجل فى متوسط العمر، وهناك شامة على شكل فراولة تحتل مكانا على خده الأيسر، يرتدى ملابس رمادية اللون، ويظهر قلمان حبر بارزان من جيب الجاكت، لعل أحدهما ليست سوى بطارية صغيرة لفحص الزور.

"ما الموضوع؟".

"أصيب سام بالحصبة يا عزيزى".

قال الدكتور: "سوف يعبر هذا المرض بسلام، فقط دعوه فى حالة من الهدوء مع تقليل الإضاءة".

• "هل تشرب كأسا من الويسكى يا دكتور؟".

"لا، أشكرك. ما زالت لدىَّ زياراتان، ويبدو أننى قد تأخرت عن تناول عشائى".

"من أين يكون قد التقط هذا المرض؟".

"أوه، هناك وباء منتشر. لا تنزعج، هجوم هذا المرض معتدل".

عندما غادر الطبيب، قام كاسل بتقبيل زوجته، مر بيده على شعرها الأسود المنتصب، ثم لمس خديها. شعر بأن ملامح وتقاطيع وجهها الأسود ربما تشبه إنسانا يلتقط قطعة من تمثال تام الصنع قوامه تلك النقوش المتناثرة فوق عتبات فندق مخصص للسواح البيض. كان يؤكد لنفسه أن أثمن ما لديه فى الحياة ما زال آمنًا. مع نهاية كل يوم، دائمًا.ما يخامره شعور معين كأنما قد غادرها منذ أعوام طوال تاركًا إياها بلا معين... مع ذلك، لا أحد هنا يهتم بنوعية دمائها الإفريقية ، ولا يوجد هنا أى قانون يهدد بقاء حياتهما معًا. هنا هما من الآمنين وأكثر أمانًا مما يحلمان.

سألته: "مالك؟".

"كنت قلقا. كل شيء كان يبدو أمامى الليلة كأننا فى الستينيات أو السبعينيات. لم أعثر عليك هنا، كذلك لم أشاهد زجاجة الويسكى".

"يا لك من مخلوق متمسك دومًا بعاداته".

بدأ فى تفريغ حافظته؛ بينما كانت تجهز له كأس الويسكى.

تساءل كاسل مرة أخرى: "هل حقًا لا يوجد أى شىء يمكن أن يقض مضجعك؟ إننى لم أعجب قط بالطريقة التى يتحدث بها الأطباء، لا سيما عندما يؤكدون شيئًا ما".

"لا يوجد شيء".

"هل يمكن أن أصعد كى أراه؟".

"إنه نائم الآن، الأفضل ألا توقظه. لقد أعطيته قرص إسبرين".

وضع الجزء الأول من رواية كلاريسا فى حافظته. قالت له:

"هل أنهيتها؟"

"لا، يساورنى شك فى إمكانية إنهائها، فالحياة قصيرة للغاية".

"لكن دائمًا ما كنت أظن أنك من المغرمين بقراءة الروايات الطويلة".

"يبدو أننى سوف أقدم على شراء روية الحرب والسلام قبل فوات الأوان".

"إنها ليست لدينا".

"سوف أشتريها غدا".

وضعت بكل دقة ربع كأس ويسكى بمعايير الحانات الإنجليزية، ثم أحضرته إليه وجعلت يده تقبض على الكأس، كما لو كانت هى رسالة لا تود أن يطلع عليها أحد، حيث إن درجة استيعابه للشرب معروفة لديها.. إنه لا يشرب شيئًا أكثر قوة من البيرة عندما يكون مع زملائه أو مع غريب وهما فى البار، فكل شكل من أشكال السكر ينظر نحوها بعين الشك بسبب نوعية عمله. فقط هو ديفيز الذى يجرؤ على أن يقرع كأسه مع آخرين بلا اهتمام ولا يجفل عندما يشاهده أحد، لكن على كل حال، إنه يتميز بنوع خاص من التهور الذى يصدر من لدن مشاعر شاب كامل البراءة. أما كاسل، فإنه فقد إلى الأبد كل من خاصيتى التهور أو البراءة منذ أن كان مقيمًا فى جنوب إفريقيا، بينما كان متوقعًا حدوث المصيبة.

تساءلت سارة: "أعتقد إنك لا تهتم إذا أكلت هذه الليلة لحمًا باردًا؟ كنت مشغولة تمامًا مع سام طوال الأمسية".

"بالطبع لا".

أحاطها بذراعه، لقد كان عمق حبهما لبعض له ملمح سرى مماثلاً لربع الكأس من الويسكى الذى تجرعه، ولأن يتحدث عن ذلك مع الآخرين، هذا يعنى قدوم المخاطر. الحب فى حد ذاته هو مخاطرة كاملة، والروايات الأدبية طالما أخبرت عن ذلك، مثال شخصية ترستان وأنّا كارنينا، حتى شخصية لفليس التى تحركها الشهوة عندما اطلع عليها فى الجزء الأخير من رواية كلاريسا. كانت الجملة التى طالما تمسك بها دومًا هى: "إننى مغرم بزوجتى"، يكررها حتى أمام ديفيز.

قال كاسل: "إننى أتعجب، كيف يكون حالى بدونك".

"ما تفعله نفسه الآن، كأسان قبل العشاء فى الثامنة".

"عندما حضرت ولم تكونى فى مجال نظرى مستعدة بالويسكى، أصابنى خوف وجزع".

"خوف من ماذا؟".

"أن أترك وحيدًا. يا له من إنسان بائس ديفيز هذا، دائمًا يرجع إلى بيته ليزامل لا شيء".

"لعل لديه معينًا لا ينضب من التسليات".

"هنا أعثر على تسليتى الوحيدة مع الشعور بالأمان".

"وهل الحياة خارج المنزل بهذا القدر من الخطورة؟". قامت بأخذ رشفة من كأسه ومسته بشفتين رطبتين بروج من نوعية J&B، فهو دائمًا ما يشترى لها هذه النوعية بسبب اللون، وكأس مترعة بالويسكى والصودا لن تكون أقوى من نوع ضعيف من ماركة أخرى.

دق جرس التليفون الموضوع على مائدة بجوار الأريكة. قام برفع السماعة قائلاً: "هالو"، لكن لم يرد عليه أحد بالقول "هالو". صمت وهو يعد حتى أربعة ثم وضع السماعة فى مكانها عندما سمع تكة قطع الاتصال.

"لا أحد؟".

"كنت أتوقع أن تكون نمرة خاطئة".

"لقد حدث معى مثل هذا ثلاث مرات هذا الشهر، ودائمًا ما يحدث هذا وأنت غائب فى العمل. بالطبع لا يمكن أن نظن أنه لص يود معرفة ما إذا كنت حاضرا فى المنزل أم لا؟".

"لا يوجد هنا شيء يستحق السرقة".

"يا حبيبى، الإنسان يقرأ الكثير من القصص المرعبة، مثل هؤلاء الذين يضعون الجوارب فوق رءوسهم. إننى أكره فترة الغروب قبل حضورك إلى المنزل".

"لهذا السبب اشتريت لك الكلب بولر، أين بولر؟".

"إنه فى الحديقة يأكل بعض الحشائش. هناك شيء ما قد أزعجه. على أى حال، أنت تدرى جيدًا كيف يكون حاله فى محضر الغرباء، دائمًا ما يحرك ذنبه ترحيبًا بهم".

"أعتقد أنه سوف يعارض فقط من يغطون وجوههم بالجوارب".

"سوف يظن أنهم يفعلون هكذا كى يسعدوه. هل نسيت ما حدث يوم الكريسماس مع القبعات المصنوعة من الورق.... كنت أظن قبل حضوره أن نوعية الكلاب البوكسر هى أشرسها".

"إنه هكذا، لكن فقط مع القطط".

حدث صرير للباب، التفت كاسل سريعًا: ظهر بوز بولر المربع الشكل وهو يجاهد فى فتح الباب إلى نهايته، ثم اندفع بكل جسمه الذى يشبه جوال البطاطس لينحط فوق حِجر كاسل، أخذ الرجل فى إزاحته جانبا "انزل يا بولر، انزل أرضًا".... لاحظ كاسل أن

هناك شريطًا طويلاً من لعاب بولر قد استقر على ساق بنطلونه. قال: "إذا كان هذا نوع ترحيبه، إذن سوف نجده يبتسم لكل لص".... بدا بولر فى العواء بشكل متشنج وهو يلوى مؤخرته، مماثلاً لكلب يشكو من الديدان، ويتحرك للخلف فى اتجاه الباب.

"اسكت يا بولر".

"إنه فقط يود أن يتنزه".

"فى هذه الساعة؟ أعتقد أنك قلت إنه مريض".

"يبدو أنه أكل الكثير من الحشائش".

"اصمت يا بولر، أيها الملعون. لا نزهة اليوم".

استكان بولر وأخذ لعابه يسيل على الباركيه.

"شعر رجل قراءة العداد بالرعب من منظره هذا الصباح، لكن بولر أراد أن يتعاون معه".

"لكن رجل العدادات يعرفه من قبل".

"هذا الشخص هو موظف جديد".

"جديد؟ لماذا؟".

"أوه، من نعرفه أصيب بالأنفلونزا".

"هل طلبت رؤية بطاقته".

"طبعًا يا حبيبى، هل ما زلت خائفًا من اللصوص؟ توقف عن صنع هذا يا بولر، توقف".... كان بولر منهمكا فى لحس أعضائه الخاصة، مشابهًا ما يفعله عضو المجلس المحلى وهو يحتسى الشوربة.

قام كاسبل بالمرور فوق الكلب متجهًا إلى الصالة. أخذ يتفحص العداد بكل دقة، لكن لم يبد له أن هناك شيئًا ما غير عادى، لذا عاد.

"هل أنت قلق بشأن ما؟".

"فى الحقيقة، لا شيء تقريبًا. شيء ما حدث فى المكتب اليوم. أتانا رجل جديد من فرقة الأمن بالوكالة وجثم بكل وزنه فوقنا.... هذا جعلنى متوترا – لقد قضيت فى هذه المصلحة أكثر من ثلاثين عاما، لذلك من المفترض أن أكون شخصًا موثوقًا منه. سوف يفتشون جيوبنا المرة المقبلة عندما نخرج لتناول طعام الغداء. لقد فتش حافظة أوراقى".

"كن منصفا يا عزيزى، إنها ليست غلطتهم... إنها غلطة الوظيفة".

"أصبح الوقت متأخرًا لتغيير ذلك".

"لا شيء يمكن أن يكون متأخرًا". ود لو كان قادرًا على تصديقها. قامت بتقبيله مرة أخرى، بينما تتحرك ذاهبة إلى المطبخ لإحضار اللحم البارد.

عندما جلسا معًا، احتسى هو كأسًا أخرى من الويسكى، قالت له: "للتفكه فقط، أنت أصبحت مفرطًا فى الشرب".

"فقط فى المنزل، لا أحد يرانى غيرك".

"أنا لا أعنى تأثير ذلك على عملك، لكن خوفى كله بسبب صحتك. أنا لا أهتم إطلاقا بعملك".

"أبدًا".

"إنها ليست سوى إدارة تابعة لوزارة الخارجية، وكل إنسان يعلم ما يعنيه هذا، لكنك مضطر إلى أن تتحرك جاعلاً فمك دائمًا مطبقًا كأنك مجرم. إذا أنت أخبرتنى – أنا زوجتك– ماذا فعلت اليوم، سوف تجدهم وقد وضعوك داخل جوال. كم أود أن يحدث هذا معك. ما الذى فعلته اليوم؟".

"أخذت أثرثر مع ديفيز. سجلت بعض الملاحظات عن بعض الروابط. أرسلت برقية واحدة. أوه، كذلك أجريت مقابلة مع ضابط الأمن الجديد. إنه يعرف قريبى الذى كان يعمل فى وكالة كوربس".

"أى قريب هذا؟".

"روجر".

"هذا المتكبر الذى يعمل الآن فى وزارة الخزانة؟".

"نعم".

فى طريقه إلى غرفة النوم قال: "هل من الممكن أن أطل على ابننا سام؟".

"بالطبع، لكن سوف تجده مستغرقًا فى النوم الآن".

تبعهما بولر وترك بعض من بونبون لعابه على ملاءة السرير.

"ياه يا بولر".

أخذ الكلب فى هز ما تبقى من ذيله كأنما من تعرض للمديح. على الرغم من أن هذا الكلب من نوع البوكسر، لكنه لا يتمتع بقدر كبير من الذكاء، على الرغم من أنه كلف مالاً كثيرًا فى شرائه، ولعل صنفه، لا يتمتع بالكمال الشامل.

كان الولد نائمًا بشكل قطرى على سريره، رأسه لا يستقر على المخدة، بل فوق صندوق داخله عدد من الجنود المصنوعين من الرصاص. إحدى قدميه السوداوين كانت خارج الغطاء، بينما هناك تمثال ضابط دبابات محشور بين أصابع قدميه. راقب كاسل زوجته وهى ترتب وضع الغلام، حيث التقطت الضابط وأزاحت تمثال جندى مظلات من تحت فخذه. كانت تتصرف مع جسده بإهمال الخبير والولد مستغرق فى النوم.

قال كاسل: "يبدو ساخنًا وجافًا".

"بالطبع سوف تكون هكذا إذا وصلت درجة حرارتك إلى الدرجة ١٠٣".

بدا على الولد أنه من منبت إفريقى أكثر من والدته. تراءى فى الحال فى مخيلة كاسل صورة فوتوغرافية لمجاعة كاملة ؛ كذا منظر جثة ملقاة على أرض الصحراء بينما النسور فى العلا تراقب.

"بالتأكيد هذه درجة مرتفعة".

"ليست هكذا بالنسبة لولد صغير".

كان دومًا ما يصاب بالاندهاش من مدى ثقتها بنفسها.... يمكن لها أن تصنع طبقًا جديدًا دونما تلجأ لكتاب فى فنون الطبخ، كذلك ليس هناك أى شىء يمكن أن ينكسر إذا وصل بين يديها. الآن قامت بدفع الولد عنيفًا كى يستقر على جانبه، وبكل حزم قامت بتغطيته دونما يطرف للولد جفنا.

"إنه فتى يحسن النوم".

"ما عدا فى حالة تعرضه للكوابيس".

"هل حلم بكابوس آخر؟".

"دائمًا هو الحلم نفسه .. كلانا نصعد القطار أما هو فيترك وحيدًا. وعلى الرصيف هناك شخص- لا يعلم من هو- يقبض على ذراعه. هذا أمر يجب ألا يزعجه أبدا، فهذا هو سن الأحلام المزعجة. لقد قرأت فى مكان ما أن هذه النوعية من الأحلام تتوارد عندما تبدأ المدرسة فى التهديد. كنت أتمنى لو لم يلتحق بمدرسة الإعدادية تلك، وربما يكون قد تعرض لبعض المتاعب هناك، أحيانًا وإلى حد ما، تمنيت ألا يكون هنا تمييز عنصر أيضًا".

"إنه ولد بارع فى مسابقات العدو، وفى انجلترا، لا يصادفك أى نوع من المشكلات إذا كان المرء جيدًا فى رياضة معينة".

وهما فى السرير، استيقظت من نومها الأول قائلة، كما لو أن هذا الفكر قد طرأ على ذاكرتها جراء حلم: "شيء غريب، أليس كذلك، من أنك أصبحت مغرمًا بسام".

"بالطبع أنا كذلك، لما لا؟ ظننت أنك مستغرقة فى النوم".

"ليست هناك مشكلة "بالطبع" فى مسألة اقتناء ابن حرام صغير".

"إنه الوصف نفسه الذى يطلقه عليه ديفيز دائمًا".

سألت وهناك مظاهر الجزع على وجهها: "ديفيز؟ إنه بالطبع لا يعرف شيئًا؟ بالتأكيد هو لا يعرف؟".

"لا، لا تنزعجى هكذا... إنها عبارة يستخدمها بالنسبة لأى طفل".

"أنا سعيدة للغاية لأن والد سام مستقر الآن على بعد ست أقدام فى باطن الأرض".

"نعم، كذلك أنا، يا له من شيطان بائس. ربما كان قد تزوجك فى النهاية".

"لا بالطبع. لقد كنت مغرمة بك منذ البداية، حتى عندما حبلت بسام، كنت فى الواقع أحبك أنت. إنه يعتبر ابنًا لك أكثر من كونه ابنًا له، بل حاولت أن أفكر فيك وهو يجامعنى. كان هو على شكل سمكة فاترة. وفى الجامعة كانوا يدعونه باسم "العم توم". أما عن سام، فهو لن يكون فاترًا، أليس كذلك؟ إما بارد وإما حار، لكن ليس فاترًا".

"لماذا نتحدث الآن عن هذا التاريخ القديم؟".

"لأن سام مريض، ولأنك مشغول البال. عندما أشعر بعدم الأمان أتذكر شعورى عندما علمت أننى مضطرة إلى أن أخبرك بما يشغلنى، لا سيما عن تلك الليلة التى قضيناها عبر الحدود فى مدينة لورنزو ماركيز(*) فى فندق بولانا. فكرت هناك، هو ذا سوف يرتدى ملابسه مرة أخرى ويتركنى إلى الأبد... لكن أنت لم تفعل ذلك. استمر وجودك معى وتجامعنا على الرغم من وجود سام بالداخل".

ناما معًا هادئين، بأسلوبهما نفسه فى السنوات الأخيرة، كتف تلامس كتفًا. تعجب، هل هذا هو هناء التقدم فى العمر، الذى كثيرًا ما شاهد مفاعيله على وجوه غرباء عنه،

(*) لورنزو ماركيز: هو الاسم القديم لعاصمة موزامبيق واسمها الحالى مابوتو وتبعد عن بريتوريا بجنوب إفريقيا مسافة ٧٠ كيلو مترًا.

وسوف ينعم هو أيضًا به، لكن على أى حال، سوف يموت هو قبلما تصل هى إلى مرحلة السن المتقدمة. هذه المرحلة بالذات، لن يتشاركا فيها".

سألته: "ألم يشملك حزنًا يومًا لأننا لم نتشارك فى صنع طفل؟".

"يكفى ما نشعر به من مسئوليات تجاه سام".

" أنا لا أهزل. ألا كنت تفضل أن يكون لنا طفل مشترك من صلبنا؟".

أدرك هذه المرة أن هذا التساؤل يصعب تفادى عدم الإجابة عنه.

أجاب: "لا".

"لما لا؟".

"أنت تودين البحث تحت الأحجار كثيرًا يا سارة. إننى أحب سام لأنه ينتمى إليك، ولأنه ليس من صلبى. لا أود أبدًا أن أشاهد شيئًا من نفسى أنظر إليه. إننى الآن لا أرى سوى ما هو بعض منك. لا أود أن أستمر إلى الأبد. أريد للظبى أن يتسمر فى مكانه".

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

(١)

أبدى الكولونيل دانترى ملاحظة موجهة بنصف قلب إلى ليدى هارجريفز؛ بينما كان ينفض الطين الذى علق بحذائه قبلما يدخل القصر "إنه صباح مناسب تمامًا لممارسة الرياضة، بينما الطيور تحلق بكثافة فى السماء هذا اليوم".

قال هذا بينما تجمع باقى الضيوف القادمين بسياراتهم خلفه، طابعين على وجوههم مظاهر السعادة والحبور الاضطراري، مشابهين فريق كرة يحاول إبداء بعض مما يكتنف روحهم الرياضية من حبور، وليس لما يتعرضون له فعلاً من شعور بالبرد كذلك الغوص فى ذلك الطين اللزج.

قالت ليدى هارجريفز: "المشروبات فى انتظاركم، ساعدوا أنفسكم. سوف يكون الغداء جاهزًا فى ظرف عشر دقائق".

كانت هناك سيارة أخرى تصعد التل خلال المنتزه بعيدًا. أحد الواقفين انفجر ضاحكًا وسط هذا الجو البارد الرطب، قائلاً: "إنه بافى، أخيرًا هو قادم فى الوقت المناسب لتناول الغداء".

تساءل دانترى: "ماذا عن قالب اللحم بالكلاوى، سمعت أنك مشهورة بها".

قالت ليدى هارجريفز: "تقصد فطيرتى، هل فعلاً استمتعت بصباح جميل يا كولونيل؟". كان فى رنة صوتها لكنة أمريكية خفيفة؛ وهذه الخفة كانت مقبولة حقا، مماثلة للشذى الذى تبثه روائح عطرية نفيسة.

"لا أرى كثيرًا من الديوك البرية محلقة، لكن كل شيء غير ذلك يسير على ما يرام".

نادت هى عبر كتفه: "هارى، وأنت كذلك يا نيكى، أين دودو، هل تاه منكم ؟".

لا أحد يجرؤ أن ينادى على دانترى باسمه الأول، لأن لا أحد يعرفه، لذا بشعور من العزلة أخذ يراقب كسم مضيفته الطويل الرشيق وهى تعرج قليلاً هابطة سلالم مدخل القصر كى تحيى هارى وتقبله على الخدين.

دلف دانترى داخلا وحيدًا إلى غرفة الطعام، حيث كانت المشروبات فى الانتظار على البوفيه. هناك شاهد رجلا قصيرًا سمينًا بخدود حمراء يرتدى بزة من التويد، ظن أنه قد رآه من قبل فى مكان ما، كان هذا مشغولا فى إعداد كأس صافية من المارتينى، أيضًا كان يرتدى نظارات بأذرع فضية تلمع فى الضياء. خاطبه دانترى بالقول: "اخلط لى كأسا معك، إذا كنت حقًا تصنعها من خمر صاف".

قال الرجل ضئيل الحجم: "عشرة إلى واحد، مع هفة من الفلينة، هكذا؟ أنت دانترى؟ لقد نسيتنى. أنا بيرسفال. لقد قست ضغطك يومًا".

"آه، نعم. دكتور بيرسفال. نحن تقريبًا نعمل فى الوكالة نفسها، أليس كذلك؟".

"هذا حقيقى، لقد أراد س أن نتلاقى بشكل هادئ هنا – ما كان لازمًا لكل هذا اللغو الفارغ المتمثل فى هذا التجمع. لا أستطيع أن أستجمع نفسى بهذا الشكل، هل هذا يحدث معك أيضا؟ مع ذلك، المشكلة هى أننى لست محبًا لصيد الطيور بالبندقية. أنا أحب صيد السمك. هل هى المرة الأولى التى تحضر فيها إلى هنا؟".

"نعم، لكن متى أنت وصلت؟".

"فى وقت مبكر نوعًا، نحو الظهر. إننى عفريت السيارات الجاجوار، لا أستطيع أن أسير بها أقل من المئة".

أخذ دانترى ينظر نحو المائدة، كان هناك عدد من زجاجات البيرة موضوعًا فى كل مكان على المائدة. إنه ليس من المعجبين بالبيرة، لكن لسبب ما يعتبر هذا المشروب متماشيًا

مع مباريات الصيد، ولعلها تتمازج مع لعب العيال الذى تحتمه تلك المناسبة الرياضية... لكن دانترى ليس ولدًا صغيرًا، والصيد بالبندقية يعتبر بالنسبة إليه رياضة تستلزم أكبر قدر من المهارة التنافسية – لقد كان هو يومًا بطلاً من أبطال العدو، يلعب للفوز بجائزة كأس الملك. لاحظ أيضًا أن وسط المائدة مشغولاً بعدة قصعات مليئة بقطع الشيكولاتة ماركة مالتيزر. لقد شعر بإحراج بالغ الليلة الماضية عندما قدم إلى ليدى هارجريفز شحنة من هذه القطع المغلفة. كان واضحًا أنها لم تتفهم فحوى هذه الهدية أو كيف تتصرف فيها. شعر دانترى بأنه قد تعرض للمهانة عمدًا على يد ذلك الرجل كاسل، لكنه كان يشعر بأن قطع الشيكولاتة فى وضع أفضل وهى داخل تلك القصعات الفضية وأكثر قبولاً عندما كانت محشورة داخل الشنط البلاستيك.

سأل بيرسفال: "هل تحب شرب البيرة؟".

"إننى مغرم بأى شيء به كحول، ما عدا صنف فيرنى – برانكا".

بعد ذلك، اندفع داخلا باقى المعازيم – بافى، دودو، أيضًا هارى وديكى، ثم بدأ كل الأواني والأقداح يتذبذب ويترجرج بكل مرح وحبور. كان دانترى سعيدا بتواجد بيرسفال لأنه لا أحد من هؤلاء يعرف الاسم الأول له.

لسوء الحظ، تم فصله عن بيرسفال وهم على المائدة، أما هذا الأخير فإنه سريعًا ما أنهى زجاجة البيرة الأولى وبدأ فى الثانية. شعر دانترى بالخيانة، حيث بدا على بيرسفال أنه منسجم تمامًا مع من يجاورانه، كما لو كانا هما أيضًا من أعضاء فى الوكالة العتيدة. بدأ الرجل فى سرد حكاية تختص بإحدى مغامراته فى صيد الأسماك، ما جعل المدعو ديكى يغرق فى الضحك. كان دانترى يجلس بجوار الشخص الذى يعتقد أن اسمه بافى، أما الآخر على الجانب الثانى فهو رجل متقدم فى العمر له وجه محام؛ قد قدم نفسه إليه، اسمه مرتبط بإحدى العائلات المعروفة، ربما يكون النائب العام أو المحامى العام، لكن دانترى لا يتذكر أيهما؛ عدم تأكده هذا وقف عائقًا أمامه ليبدأ معه حوارًا.

فجأة قال بافى: "يا إلهى، أعتقد أن هذه هى شيكولاتة المالتيزر".

سأله دانترى: "هل تعرف المالتيزر؟".

"لم أذق واحدة منها منذ أمد طويل. كنت دائمًا ما أشتريها فى السينما وأنا صغير. طعمها رائع، وبالتأكيد لا أعتقد أن هناك صالة سينما قريبة من هنا؟".

"فى الحقيقة، لقد جلبتها معى من لندن".

"أنت تذهب للسينما، إننى لم أدخل سينما منذ عشرة أعوام، إذن هم ما زالوا يبيعون فيها المالتيزر؟".

"يمكن لك أن تشتريها من المحال أيضًا".

"لم أعرف ذلك قط، من أين اشتريتها؟".

"من أحد فروع محال **ABC**".

"**ABC** ؟".

ردد دانترى ما سمعه من كاسل: "أى شركة الخبز المنفوخ".

"شيء عجيب فعلاً، ما هو الخبز المنفوخ؟".

"لا أعلم".

"يا لها من أشياء غريبة يبتكرونها هذه الأيام، لن أندهش أبدا، كذلك أنت، لو كانوا يشكلون فطائرهم الآن باستخدام الكمبيوتر؟"... مال الرجل أمامًا والتقط باكو من الشيكولاتة، ثم أخذ يشخللها عند أذنه كما يفعل مع السيجار.

نادت عليه ليدى هارجريفز وهى فى آخر المائدة: "بافى! ليس قبل أن تتذوق شرائح اللحم بالكلاوى".

"آسف يا عزيزتى. لم أستطع المقاومة، لم أتذوق هذه النوعية منذ أن كنت ولدًا صغيرًا"؛ ثم خاطب دانترى بالقول "الكمبيوترات هذه هى آلات عجيبة، لقد دفعت مرة خمسة جنيهات كى يعثر لى عن زوجة".

تساءل دانترى وهو يلمح الخاتم الذهبى الذى يتزين به الرجل: "أنت غير متزوج؟".

"لا. دائمًا ما أحتفظ بهذا الخاتم بغرض الحماية فقط. كما تعلم، لم يكن الأمر جديًا، إننى مغرم بتجربة الوسائل الجديدة، أن يقدم المرء على ملء نموذج فى طول ذراعك، تذكر فيه مؤهلاتك، اهتماماتك، وظيفتك وماذا تملك؛ ثم تناول باكو مالتيزر آخر "دائمًا هذا ما يحدث".

"هل حصلت على طلبك؟".

"نعم، أرسلوا لى فتاة. نعم فتاة! عمرها خمسة وثلاثين عامًا اليوم. كنت مجبرًا على أن أعزمها على قدح من الشاى، بينما أنا لم أتذوق الشاى منذ وفاة والدتى. قلت لها: يا عزيزتى، هل تمانعين لو احتسينا الويسكى بدلاً من الشاى؟ أعلم أن الجرسون هنا من الممكن أن يحقق لنا ذلك ، قالت لى إنها لا تشرب الخمور، لا تشرب!".

"لقد خدعك الكمبيوتر".

"كانت تحوز على درجة علمية فى الاقتصاد من جامعة لندن، ونظارات ضخمة، كذلك صدر مسطح. قالت إنها طباخة ماهرة، قلت لها إننى معتاد على تناول طعامى فى مطاعم هوايت".

"هل رأيتها بعد ذلك؟".

"نعم، لكننى لم أحادثها، مرة واحدة وهى داخل أتوبيس عام؛ بينما كنت أخطو على درجات النادى. شيء محرج حقًا! لأننى كنت مع ديكى فى ذلك الوقت. وهذا ما يحدث عندما يسمحون للأتوبيسات العامة أن تسير فى شارع سانت جيمس. لن يشعر أحد بالأمان الآن".

بعد شرائح اللحم بالكلاوى، أتت تورتة من الدبس وأخرى من جبن ستلتون، قام سير هارجريفز بتوزيع كئوس البورت. سادت مشاعر غامضة بعدم الارتياح انتشرت حول المائدة، كما لو أن فترة الإجازة قد طالت نوعًا. أخذ بعضهم فى النظر عبر النوافذ

ملاحظين تلك السماء الرمادية: بعد ساعات قليلة سوف يختفى ضوء النهار. أخذوا يشربون البورت سريعًا، كما لو أنهم يشعرون بالذنب لأنهم فى الواقع لم يحضروا إلى هنا لمجرد النهل من متعة الأكل والشرب – ما عدا بيرسفال، ذاك الذى لم يبد عليه أى اهتمام. كان يسرد عليهم قصة أخرى من مغامراته مع السمك؛ بينما هناك أربع زجاجات بيرة فارغة بجواره.

قال المحامى العام – أو لعله النائب العام؟ بشكل متثاقل: "يجب أن نتحرك الآن، الشمس تشرع فى المغيب". إنه لم يحضر للمتعة، لكن للتنفيذ، وقد تعاطف دانترى مع ما أبداه الرجل من مظاهر القلق.

فى الحقيقة، يجب على سير هارجريفز أن يفعل شيئًا، لكن هارجريفز كان تقريبًا مستغرقًا فى النوم. فبعد خدمة طويلة فى المستعمرات – وهارجريفز كان مستشارًا إقليميًا لما كان يسمى فى ذلك الحين الشاطئ الذهبى – اعتاد حينذاك أن يختار لغفواته أصعب الظروف غير الملائمة، حتى وهو وسط رؤساء القبائل المتخاصمين، الذين دأبوا على أحداث أكبر قدر من الإزعاج بما يفوق ما يحدثه بافى الآن.

صاحت ليدى هارجريفز من آخر المائدة: "جون، استيقظ". فتح الرجل عينين زرقاوين هادئتين غير مهتزتين قائلاً: "إنها تعسيلة قطط فقط".

قيل عن هذا الرجل إنه عندما كان شابا فى مكان ما بمنطقة الأشانتى الإفريقية أنه أكل من بعض لحوم البشر، لكن شهيته لم تفسد أو يصيبها شيئًا. طبقًا للقصة، أخبر حاكم المنطقة بالقول: "يا سيدي، لم أستطع أن أشكو أو أتذمر، فقد كانوا فى الواقع يكرموننى بدعوتى كى أتناول الطعام الوحيد المتوافر لديهم فى ذلك الحين".

قال مخاطبا دانترى: "أعتقد أنه قد حان الوقت لأن نشرع فى مناقشة موضوع المذبحة".

قام بطئ نفسه من على المائدة وأخذ فى التثاؤب، ثم خاطب زوجته: "كان اللحم بالكلاوى رائعًا يا عزيزتى".

أخذ دانترى يراقبه حسدًا. كان يحسده أولا بسبب مركزه، فهو من القلائل الذين أتوا من خارج نطاق الخدمة كى يعين فى وظيفة س. لا أحد داخل الوكالة يعلم لماذا عين فى هذه الوظيفة الخطيرة بالذات ؛ فكل أنواع التأثيرات العميقة تم تخمينها، فخبرة هذا الرجل فى مجال المخابرات اكتسبها فى إفريقيا أثناء نشوب الحرب. أيضًا حسده بسبب زوجته؛ فهى سيدة وافرة الثراء، أنيقة للغاية، أمريكية قحة. إنه زواج أمريكى، يبدو أنه لا يمكن أن يوضع فى خانة الزواج من أجنبية؛ فلكى يتزوج هذا الرجل من أجنبية كان يتوجب عليه أن يحصل على إذن خاص بذلك، وكثيرًا ما كان هذا الطلب يقابل بالرفض، لكن أن يتزوج من أمريكية، ربما يكون هذا مقبولاً تماما، لأنه بذلك يعمل على تقوية العلاقات. تعجب أيضًا دانترى عما إذا كانت ليدى هارجريفز قد تم تدقيق أحوالها بواسطة وكالة م١٥ البريطانية، وهل أجازتها أيضًا وكالة FBI الأمريكية أم لا.

* * *

أخذ سير جون هارجريفز (س) يحجل فى المكان، يتناول عددًا من السيجار، يصب كئوسًا من الويسكى، يحرك النار فى المدفأة، قائلاً : "أنا عن نفسى لا أتمتع كثيرًا بمسألة الصيد بالبندقية، لم أباشر هذه النوعية من الصيد فى إفريقيا، لم أطلق شيئًا سوى زر الكاميرا، لكن زوجتى مغرمة بالعادات الإنجليزية القديمة. تقول دائمًا إنك إذا كنت مالكا لأرض شاسعة، إذن هناك طيور تطير فوقها. لكننى أخشى أنه لم يكن هناك عدد كبير من طيور التدرج يا دانترى".

قال دانترى: "لكن على كل حال، قضينا وقتًا ممتعًا".

قال دكتور بيرسفال: "كنت أتمنى لو ذهبت إلى جدول ملىء بسمك اللوت".

سير جون "أوه، نعم. صيد السمك هو هوايتك، أليس كذلك؟ يمكن لنا القول إننا الآن إزاء مسألة صعبة".... أخذ يقلب فى قطع الخشب المحترقة فى المدفأة: "لكننى أحب رؤية الشرار وهو يتطاير. يبدو أن هناك ثغرة أمنية فى القسم رقم ٦".

بيرسفال: "هنا فى الوطن أم بميدان العمل بالخارج؟".

"لست متأكدًا، لكن يراودنى شعور ملح من أنها تحدث هنا فى الوطن. فى أحد الأقسام التى تتعامل مع إفريقيا – قسم ٦أ".

دانترى: "لقد أجريت زيارة إلى القسم ٦أ، كزيارة روتينية تقليدية، فى الأساس كى أتعرف على الناس هناك".

"نعم، هذا ما قيل لى، لهذا السبب طلبت حضورك إلى هنا، أيضًا كى تتمتع بعملية الصيد، هل هناك أى شيء لفت نظرك أثناء عملية التفتيش هذه؟".

"الإجراءات الأمنية هناك بها نوع من الخلخلة والتهاون، لكن هذا ينطبق أيضًا على باقى الأقسام. مثلاً أجريت تفتيشًا على ما يضعه الموظفون فى محافظهم أثناء فترة خروجهم لتناول وجبة الغداء، لكننى لم اعثر على حالات خطيرة، إلا أننى اندهشت من

مقدار المحافظ التى يحملها الموظفون وهم خارجين...بالطبع هو إنذار ليس إلا، لكن هذا الإنذار ربما يخيف رجلاً عصبيًا ، وبالطبع لا يمكن لنا أن نطلب منهم أن يخلعوا ملابسهم".

"إنهم يفعلون هكذا فى مناجم البحث عن الماس، لكننى اتفق معك من أن خلع الملابس فى منطقة وست إند سوف يبدو إجراء غير عادى".

تساءل بيرسفال: "هل لاحظت أن أحدهم كان مخالفًا للتعليمات؟".

"ليس بشكل خطير، كان ديفيز الذى يعمل فى قسم ٦أ يحمل معه تقريرًا قال إنه كان يود أن يعيد قراءته أثناء فترة الغداء. بالطبع قمت بتحذيره، جعلته يترك التقرير بعهدة البريجادير توملينسون. قمت أيضًا بمتابعة أى مصدر للشبهة، فالفحص والتفتيش أصبح الآن أكثر كفاءة منذ أن أثيرت قضية بليك، لكن ما زال لدينا عدد قليل من الناس الذين كانوا معنا فى تلك الأيام السيئة. بعض منهم كان يعمل منذ أيام فضيحة برجس وماكلين(*) ، ويمكن لنا أن ندقق فى شأنهم، ونكرر ذلك، لكن من الصعوبة بمكان أن نلتقط رائحة باردة".

س (سير جون): "بالطبع من الممكن أن يكون مصدر الثغرة من الخارج لكن الدليل مزروع هنا. إنهم يحاولون عرقلتنا، كذلك يحاولون هدم القواعد الأخلاقية القويمة ويسيئون إلى علاقاتنا مع الأمريكيين، لذا أقول إن المعلومة تفصح بأن هناك ثغرة ما، وإذا أصبحت تلك على شكل معلومة عامة، ربما تكون فى تلك الحالة أكثر خطورة بالمقارنة بالثغرة ذاتها".

بيرسفال: "هذا ما كنت أفكر فيه، ما الأسئلة التى سوف تطرح فى مجلس العموم، بذلك تبرز مرة أخرى كل الأسماء القديمة أمثال فارسال، قضية بورتلاند، فيلبى. لكن إذا أصبح مصير هذه المسألة هو العلانية، فليس أمامنا سوى القليل الذى يمكن لنا أن نصنعه".

(*) الفضيحة المدعوة باسم «كامبريدج خمسة» حيث هرب العميلان البريطانيان برجس وماكلين إلى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٥١ وحصلهما الثالث وهو فيلبى عام ١٩٦٣.

س: "أعتقد أنه سوف يتم تعيين لجنة ملكية يتم بها غلق باب الزريبة، لكن دعنا نفترض للحظات أن هذه المسألة تسعى للحصول على معلومات وليس بهدف إشعال فضيحة. القسم رقم ٦ يعتبر أقل الإدارات التى فى إمكانها ارتكاب ذلك. لا يوجد أى أسرار ذرية لها ارتباط بإفريقيا.. هناك لا يوجد سوى حرب العصابات، الحروب القبلية، المرتزقة، ديكتاتوريين صغار، فشل فى إنتاج بعض المحاصيل، فضائح فى الإسكان، مناجم ذهب. لا يوجد ما يمكن أن ندعوه بالأسرار؛ لذلك أتعجب، فربما يكون الدافع هو بكل بساطة إحداث فضيحة ما، كى يتم التأكيد على إمكانية وسهولة اختراق جهاز الاستخبارات البريطانية مرة أخرى".

تساءل بيرسفال: "هل هى ثغرة مهمة؟".

"من الممكن لنا أن ندعوها قطرة صغيرة، أساسًا هى لها شكل اقتصادى، لكن الشىء المثير فى الموضوع أنها بغض النظر عن كونها اقتصادية الفحوى؛ فإن لها صلة بالصينيين. فهل ممكنا أن الروس وهم يؤكدون تواجدهم فى إفريقيا رغبوا فى استخدام خدماتنا للحصول على معلومات تفيد الصينيين؟".

بيرسفال: "هناك القليل من المعلومات الثمينة التى يمكن أن يعلمونها عن طريقنا".

"لكن أنت تعلم ما هو النظام والشكل فى مركز كل جهة، الشىء الوحيد الذى لا يتحمله أى أحد هو الكارت الفارغ الأبيض".

"لما إذن لا نقوم بإرسال نسخة كروبونية لما نرسله للأمريكيين، مع تحياتنا الخالصة؟ المفروض أن هناك نوعًا من الانفراج فى العلاقات، أليس كذلك؟ سوف ينقذ هذا كل جهة من كثير من المتاعب".

أخرج بيرسفال من جيبه أنبوبة صغيرة ونشر أمامه نظارته، ثم مسحها بمنديل نظيف.

قال سير جون: "اخدم نفسك بالويسكى، إننى متيبس فى حركاتى بعد موقعة الصيد المؤلمة. هل لديك أى أفكار معينة يا دانترى؟".

"معظم من يعملون فى القسم رقم ٦ هو تم تعيينهم بعد بليك، وإذا كانت كل متعلقاتهم غير آمنة، إذن لن يكون أحد فى أمان".

"على كل حال، يبدو أن مصدر الشبهة صادر من القسم رقم ٦ – ومن المحتمل أن يكون المصدر تحديدا هو الفرع ٦أ أو من الخارج".

"رئيس القسم ٦ هو واطسن، يعتبر إلى حد ما من التعيينات الجديدة، وقد تم فحص أحواله بتدقيق كامل. ثم هناك كاسل؛ وهذا الرجل عمل معنا منذ مدة طويلة، لقد أحضرناه من بريتوريا بجنوب إفريقيا منذ سبع سنوات لأنهم احتاجوه فى القسم ٦أ، وكانت هناك أسباب شخصية لفعل ذلك؛ مشكلات بخصوص الفتاة التى أراد أن يتزوجها. إنه ينتمى إلى فترة التراخى فى الفحص والتدقيق، لكننى استطيع القول إنه لا غبار عليه. هو بالفعل شخص كئيب، لكنه يعتبر من الدرجة الأولى فيما يختص بالتعامل مع الملفات – على وجه العموم، أرى أن الشخص الفائق الذكاء الطموح هو الأكثر خطورة. كاسل هذا متزوج الآن وسعيد، للمرة الثانية، لأن زوجته الأولى توفيت، ولديه الآن ولد واحد. يمتلك منزلاً مرهونًا فى منطقة مترولاند، أما عن التأمين على الحياة فهو يدفع أقساطه بانتظام. لا يحوز أى مستوى معيشى مرتفع ولا يسعى إطلاقًا لامتلاك سيارة. أعتقد انه يركب دراجة كل يوم من محطة السكة الحديد حتى منزله. يعتبر فى المستوى الثالث فيما يختص بتاريخ المؤسسة. تجده إنسانًا حريصًا وله كفاءة فى العمل، والشخص الذى يدعى روجر الذى يعمل فى وزارة الخزانة هو قريب له".

"إذن أنت تظن أنه لا غبار عليه؟".

"هو يتصف ببعض الطباع الغريبة، لكن لا أقول أنها خطيرة. مثلاً هو الذى اقترح على أن اشترى الشيكولاتة ماركة مالتيزر التى أحضرتها معى إلى الليدى هارجريفز".

"مالتيزر؟".

"إنها قصة طويلة، لن أزعجك بها الآن. ثم هناك المدعو ديفيز. لا أعلم ما إذا كنت أنا سعيدا بالغاية بديفيز هذا أم لا، على الرغم من التفتيش عليه بشكل إيجابى".

"من فضلك يا بيرسفال، صب لى كأس ويسكى أخرى أيها الرجل الطيب، كل عام أقول لنفسى إنها سوف تكون آخر مرة أخرج فيها للصيد بالبندقية".

بيرسفال: "لكن فطائر اللحم بالكلاوى التى تقدمها زوجتك رائعة فعلاً، لن أستطيع أبدًا تعويضها أو البعد عنها".

"أجرؤ على القول إنه يمكن لنا أن نعثر على عذر كاف لها".

"يمكن لك أيضًا أن تضع بعض أسماك التروت فى الجدول..".

شعر دانترى للمرة الثانية بنوع من الحسد؛ حيث شعر مرة أخرى بأنه معزول. فهو ليست لديه حياة عامة مع زملائه فى العالم خارج نطاق عمله فى مجموعة الأمن. وحتى بالنسبة لاستخدام البندقية، يشعر بأنه متخصص فى ذلك فقط، بينما قيل عن بيرسفال إنه مهتم بجمع الصور المختلفة، أما عن س فإنه قد انفرج أمامه عالم كامل من التواجد بسبب زوجته الأمريكية الثرية. كل ما يمكن لدانترى أن يتشارك معه هو فطيرة باللحم والكلاوى– ربما للمرة الأولى أو الأخيرة.

قال س: "أخبرنى أكثر عن ديفيز".

"إنه خريج جامعى، درس الرياضيات وعلوم الطبيعة. قضى مدة خدمته العسكرية فى الدرماستون. لم يعاونه أحد بشكل مفضوح على الأقل. هو من طائفة المشائين، وبالطبع ينتمى إلى حزب العمال".

"مماثلاً لخمس وأربعين فى المئة من الشعب".

"نعم، بالطبع نعم، لكن مع ذلك...هو أعزب، يعيش وحيدًا، يتصرف بكل حرية، مغرم بشرب البورت، يراهن فى السبق. بالطبع هذه كلها تمثل طريقة كلاسيكية لتفسير كيف يمكن له أن يصرف على...".

"ما الذى يمكن أن ينفق عليه بجوار البورت؟".

"حسنًا، لديه سيارة جاجوار".

قال بيرسفال "مماثلاً لى، أعتقد أنه ليس وواجبًا أن نسألك كيف تم اكتشاف هذه الثغرة؟" .

"ما كان ممكنا لى أن أطلب منكما الحضور إلى هنا إذا لم أستطع أن أخبركما بذلك. واطسن يعلم هذه المسألة، لكن لا أحد غيره يعلم فى القسم ٦. مصدر المعلومة هو شخص غير عادى .. إنه متعاون سوفيتى الأصل يعمل فى مكانه" .

سأل دانترى: "هل يمكن أن تكون الثغرة قد صدرت من قسم ٦ ثم من الخارج؟" .

"من الممكن، لكننى أشك فى ذلك. حقيقة الأمر تبدو كأن هناك أحد التقارير قد ورد مباشرة من مدينة لورنزو ماركيز. إنه يبدو على شكل كلمة بكلمة لما كتبه عميلنا رقم ٦٩٣٠٠، تقريبًا كأنه صورة فوتوغرافية من الأصل، لذا يمكن للمرء الظن أن مصدر الثغرة هناك لو لم يوجد بعض التصحيحات والتشطيبات، وهى أخطاء كان من الممكن ملاحظتها هنا بمقارنة هذا التقرير بما ورد بالتقرير الأصلى" .

اقترح بيرسفال: "أليس من الممكن أن من فعل ذلك هو سكرتير؟" .

"لقد بدأ دانترى فى فحص هؤلاء بالذات، أليس كذلك يا دانترى؟ هؤلاء بالذات يتعرضون للتدقيق أكثر من غيرهم. وهذا يترك لنا كل من واطسن، كاسل وديفيز" .

قال دانترى: "الشىء الذى يزعجنى هو أن ديفيز كان هو الوحيد الذى اصطحب معه تقريرًا كان صادرًا من بريتوريا. هو تقرير ليست له أهمية تذكر، لكن له صلة بالصينيين. قال إنه يود أن يعيد قراءته أثناء تناوله طعام الغداء، وقد تناولنا هذا الموضوع لاحقًا مع واطسن، وتأكدنا منه عن هذه الحقيقة " .

سأل س: "ما الذى تقترح صنعه بشأن هذه المسألة؟" .

"يمكن لنا أن نطبق أقصى درجات البحث والتدقيق بمساعدة القسم رقم ٥؛ كذلك القسم المخصوص على كل فرد بالقسم رقم ٦. على الخطابات، المكالمات التليفونية، نضع وسائل تنصت فى أماكنهم، نراقب تحركاتهم" .

"لو كانت المسائل بهذا القدر من السهولة يا دانترى، لما شغلت نفسى بإحضارك إلى هنا، فهذا الموسم هو التالى فى الأهمية فيما يختص بصيد طيور التدرج، وكنت أعلم أن هذه الطيور سوف تصيبك بخيبة الأمل".

قام هارجريفز برفع ساقه المضرورة بكلتا يديه وأراحها تجاه المدفأة: "لنفرض أننا أثبتنا أن ديفيز هو المجرم – أو كاسل أو واطسن – ما الذى يمكن أن نفعله حينئذ؟".

قال دانترى: "بالتأكيد تلك مسألة يهتم بها القضاء".

"ويتبع ذلك بالطبع ظهور العناوين العريضة فى الصحف، وتجرى محاكمة أخرى باستخدام الكاميرات، ولا أحد فى الخارج سوف يعلم كم كانت حادثة التصرف ضئيلة وغير مهمة. ومهما كان هذا الشخص، فإنه لن يحكم عليه بأربعين عامًا سجنًا مثلما حدث مع بليك، ولعله سوف يقضى عشر سنوات فى السجن ثم يخرج إذا كان سلوكه حسنا".

"هذا الأمر لا يهمنا على الإطلاق".

"بالطبع لا يا دانترى، لكننى لا أشعر بأى قدر من السرور لعقد مثل هذه المحاكمة، ثم ما هى درجة التعاون التى سوف نلقاها من الأمريكيين فيما بعد ذلك؟ أيضًا لا تنسى مصدر معلوماتنا. إنه ما زال فى موقعه، لا أود أن نكشفه أو نضيعه، إنه ما زال مفيدًا لنا".

قال بيرسفال: "بشكل ما، أعتقد أنه من الأفضل أن نغمض أعيننا كأى زوج طيب، وأن ننسب أى شيء حدث إلى إدارة أو قسم غير مهم فى معلوماته، أن نتناسى أشياء".

احتج دانترى: "وأن نشجع وقوع مثل هذه النوعية من الجرائم؟".

قال بيرسفال وهو يصوب ابتسامة تجاه س كأى زميل متآمر معه: "نحن جميعًا نرتكب الجرائم فى مكان ما، ألا يحدث هذا معنا؟ إنها طبيعة عملنا".

قال س: "المشكلة هى أن هذا الموقف يشبه قليلاً حالة زواج غير مستقر. فى الزواج، إذا كان الحبيب يشعر بالسأم من زوجه، يمكن له أن يثير نوعًا من الفضائح، بذلك تكون له اليد العليا، حينئذ يمكن له أن يختار الوقت الذى يناسبه. فى الحقيقة، إننى لا أود إثارة أى نوع من الفضائح".

كان دانترى يكره اللسان الفضفاض، فهذه النوعية من التزويق فى الحديث تشبه بالنسبة إليه كأنها شفرة لا يمتلك مفتاح تفسيرها. لديه الحق فى أن يقرأ فحوى البرقيات والتقارير التى تعتبر من الأسرار العليا للدولة، لكن هذه النوعية من الثرثرة تشبه سرًا غامضًا لم تتح له فرصة الحصول على تفهم كنهها. قال: "عن نفسى، أفضل أن أستقيل من عملى على أن أخبئ شيئًا". وضع الكأس بعنف على المائدة لدرجة إنه شرخ الكأس الكريستالية. فكر، هو ذا ليدى هارجريفز وقد أصرت ثانية على أن تستخدم الكئوس الكريستال، أضاف: "آسف".

س: "بالطبع أنت محق يا دانترى. لا تهتم بما حدث للكأس. أرجوك لا تظن أننى قد أحضرتك إلى هنا كل هذه المسافة كى أدعك تجعل الأمور تسقط من بين أيدينا. إذا كانت لدينا أدلة كافية... لكن إجراء محاكمة ليست بالضرورة هى الأسلوب الصائب. الروس لا يسلكون عادة هذا السبيل مع رجالهم. لقد كانت محاكمة بتكوفسكى(*) سببًا فى جعلنا جميعًا نشعر بالفخار بالرقى الخلقى والتمدين الذى انتشر، بل وهم حتى بالغوا فى أهميته، بالضبط كما فعلت وكالة CIA. إننى ما زلت متعجبًا، لما نصبوا له هذه المحاكمة. كنت أود لو كُنت أنت لاعب للشطرنج، هل تلعب الشطرنج يا دانترى؟".

"لا، إننى ألعب البريدج".

"الروس لا يلعبون البريدج، أو هكذا كما فهمت".

"هل هذا له أى قدر من الأهمية؟".

"نحن نلعب معًا عدد من المباريات يا دانترى. نعم نلعب مباريات، كلنا نفعل ذلك، لذا من الأهمية بمكان ألا تنظر للعبة باهتمام بالغ وإلا خسرناها. يجب أن نكون مرنين، لكن من المهم أن نلعب معًا اللعبة والمباراة نفسهما".

(*) هو ضابط سوفيتى كان قد أخطر إنجلترا وأمريكا أن الاتحاد السوفيتى قد نصب صواريخ طويلة المدى فى كوبا.

"آسف يا سيدي، أننى لا افهم عما تتحدث".

كان دانترى مدركًا أنه قد احتسى قدرًا كبيرًا من الويسكى، ولاحظ أيضًا أن س وبيرسفال عمدًا أن لا يتبادلا النظرات معًا – لم يودا أن يحقراه. فكر، إنهما يمتلكان رءوسا قدت من الصوان، نعم من الصوان.

قال س "هل يمكن أن نتناول كأس أخرى من الويسكى، أو ربما لا. لقد كان يومنا طويلاً ومطيرا، بيرسفال...؟".

قال دانترى: "أنا أود كأسا أخرى". قام بيرسفال بصب الكئوس، أضاف دانترى: "أنا آسف عندما أبدو هكذا صعبًا، لكننى أود أن تتفتح أمامى الأمور أفضل من ذلك قبلما أنام، وإلا جافانى النوم".

س: "فى الحقيقة الموضوع سهل للغاية، افعل أقصى ما عندك من وسائل البحث والتقصى، وهذا ربما يجعل الطائر يجفل ولا تحدث متاعب أخرى. سوف يدرك فى الحال ما الذى يجرى – هذا إذا كان مذنبًا حقًا. ويمكن أن نفكر فى استخدام نوع من أنواع الاختبارات المعروفة، كذلك استخدام التقنية التى ندعوها الخامسة التى نادرًا ما تفشل. وعندما نتأكد تمامًا أنه رجلنا، يبدو من وجهة نظرى أننا بكل بساطة علينا أن نتخلص منه. بلا محاكمة أو علانية. وإذا أمكن لنا أولاً أن نتوصل إلى معرفة من هم الذين يتواصل معهم، فهذا أفضل كثيرًا. لكن يجب علينا ألا نخاطر بحدوث هروب عام ثم قيام مؤتمر صحفى يعقد فى موسكو. أيضًا عملية القبض عليه هى مسألة خارج التفكير. إذا افترضنا أنه واحد من ضمن القسم رقم ٦، فليس هناك أى معلومات يمكن أن يدلى بها يمكن أن تسبب أضرارا تماثل للفضيحة التى سوف تلى نصب محاكمة له".

"تقول إنه يتوجب علينا أن نتخلص منه؟ أنت تعنى...".

"أعلم أن موضوع التخلص هذا هو أمر جديد علينا، إنه خط تتقنه وكالات معينة مثل KGB و CIA؛ لهذا السبب أردت أن يحضر معنا بيرسفال كى يقابلك. ربما نحتاج إلى بعض من رجاله من العلميين، وليس هناك شىء أفضل من ذلك، هؤلاء الحاصلون على

درجة الدكتوراه. لا داعى أبدًا لحدوث استجواب إذا أمكن تحاشى حدوث ذلك. حدوث الانتحار هو أمر سهل، لكن هذا الفعل سوف يتبعه الكثير من الاستفسارات والبحث، وربما يقود إلى قيام مساءلة فى مجلس العموم. كل إنسان يعلم الآن معنى وعمل "شعبة الشئون الخارجية" بالمجلس؛ حينئذ سوف يثار موضوع "هل تدخل تلك المسألة فيما يختص بالأمن العام؟ وأنت تعلم نوعية هذه الأسئلة التى قد يطرحها بعض الجالسين فى الأرائك الخلفية. لا أحد يصدق الإفادات الرسمية، لا سيما الأمريكيين".

بيرسفال: "نعم، إننى متفهم هذا الموضوع تمامًا. يجب أن يموت هذا الشخص بكل هدوء، بسلام، على ألا يلحق هذا المسكين أى ألم. مظاهر المعاناة قد تبدو على ملامح وجهه، وربما يكون له قريب أو حبيب علينا أن نأخذ رد فعله فى الاعتبار، كل ما هو مطلوب هو موت طبيعى..".

س: "الموضوع فيه قدر من الصعوبة، كما أظن، مع كل هذه المضادات الحيوية الجديدة التى تظهر فى السوق . لو افترضنا أنه مثلاً هو ديفيز، وهو شخص لا يزيد على الأربعين إلا قليلا، أى أنه فى شرخ الشباب".

"أوفقك على ذلك. ربما يمكن لنا أن ندبر له حالة ذبحة صدرية، إلا إذا ...هل يعلم أحد ما إذا كان مدمنًا للخمر ..".

"أنت قلت شيئًا عن كثرة احتسائه لخمر البورت، أليس كذلك يا دانترى؟".

دانترى "أنا لم أقل أنه مذنب بشىء".

س: "ولا واحد منا قال ذلك. نحن فقط نستخدم ديفيز كمثال...كى يساعدنا فى امتحان المشكلة ككل".

بيرسفال: "أود أن أطلع على تاريخه المرضى، ويجب علىَّ أيضًا أن أتعرف عليه أكثر بابتكار عذر ما، وبطريقة ما سوف أجعله مريضا، أليس كذلك؟ ذلك إذا قلنا إنه ...".

س: "أنت ودانترى يمكن لكما أن تدبرا ذلك بطريقة ما. ليس هناك تعجل بالغ. يجب أن نكون فى تمام التأكد أنه رجلنا .. إنه يوم طويل، وصادفنا الكثير من الأرانب لكن القليل من طيورِ التدرج ... اذهبوا الآن لتناما فى سلام. سوف يصلكما الإفطار على صوان. هل تأكلان بيضا باللحم المقدد أم بالسجق؟ شاى أمَ قهوة؟".

بيرسفال: "لوازم العودة للعمل تستلزم قهوة، لحمًا مقددًا، بيضًا وسجقًا، إذا كان هذا متاحًا".

س: "التاسعة صباحا؟".

"التاسعة صباحا".

س: "وأنت يا دانترى؟".

"فقط قهوة وتوست. الساعة الثامنة إذا أمكن. لا أستطيع النوم متأخرًا، فهناك الكثير من العمل فى انتظارى".

س: "يجب عليك أن تبحث عن الراحة أفضل من ذلك".

❊ ❊ ❊

(٣)

يضطر كولونيل دانترى إلى أن يحلق ذقنه باستمرار. كان قد حلقها قبل حفل الغداء، لكنه الآن يحلقها قبل النوم. إنه محتاج لأن ينجز ذلك باستخدام جهازه الريمنجتون. حرك بأصبعه غبارة صغيرة كانت عالقة بطرف الحوض، شعر بالرضى بعدها. قام بعد ذلك بتشغيل جهازه الخاص بنفث المياه بين الأسنان. كان الصوت الخفيض للماكينة سببًا كافيًا لأن يستمع إلى طرق على باب الحمام، ثم اندهش للغاية وهو يشاهد فى المرآة الباب يفتح ويدلف منه الدكتور بيرسفال المتهيب قليلاً.

"آسف لإزعاجك يا دانترى".

"تفضل ادخل. هل نسيت أن تحزم شيئًا يخصك؟ أى شيء يمكن أن أعيره لك؟".

"لا، أبدا، فقط أردت أن أبادلك كلمة قبل النوم .... هذه الآلة التى فى يدك عجيبة فعلاً، على الموضة أيضا، هل تعتقد أنها تفضل فرشة الأسنان؟".

"الماء يتخلل ما بين الأسنان، وقد أوصانى طبيب الأسنان باقتنائها".

"إننى دائمًا ما أحمل معى خلة الأسنان لهذا الغرض"... تناول من جيبه علبة كارتيير حمراء فاخرة، "شكلها جميل، أليس كذلك؟ ثمانية عشر قيراط. كان والدى يستخدمها قبلى".

"أعتقد أن ما أستخدمه أنا هو صحى أكثر".

"أوه، لست متأكدًا تمامًا من هذه المعلومة، ما معى ينظف سريعًا. لقد عملت مستشارًا طبيًا عامًا كما تعلم، فى شارع هارلى، قبلما أنضم إلى معرضنا هذا. لا أعلم لماذا رغبوا فى تعيينى؛ ربما كى يجدوا من يوقع لهم على شهادات الوفاة". أخذ بعد ذلك يتجول فى غرفة دانترى مظهرًا اهتمامًا بكل ما يراه...."آمل أن تتجنب دومًا كل المشتريات التى يقال إن بها فلورايد، كله كلام فاضى".... توقف بعد ذلك أمام صورة فوتوغرافية داخل برواز

وموضوعة على التسريحة: "هل هذه صورة زوجتك؟".

"لا، إنها صورة ابنتى".

"فتاة جميلة".

"أنا منفصل عن زوجتى".

"عن نفسى، أنا لم أتزوج قط، ولكى أخبرك بالحقيقة، أقول إننى لم أبد أى اهتمام بصنف النساء. لا تظن السوء بى – كذلك ولا بالأولاد أيضًا. كل اهتمام لى ينحصر فى العثور على جدول مائى يحفل بسمك اللوت...هل تعرف الجدول المائى أوب؟".

"لا".

"إنه جدول صغير به أسماك ذات أحجام كبيرة".

"لا يمكن القول إننى قد أبديت اهتمامًا كبيرًا بصيد السمك" بدأ دانترى فى توضيب أغراضه.

"طبعًا قد تعجب لماذا حضرت إليك هكذا، يصعب علىَّ دومًا أن أطرق أى موضوع بسهولة، هذه الحالة تشبه موضوع الصيد مرة أخرى، أنت قد تضطر إلى أن ترمى بخيط الصيد مئة مرة قبلما تحقق المراد".

"إننى لست سمكة، والوقت الآن ما بعد منتصف الليل".

"يا زميلى العزيز، إننى فعلاً فى غاية الأسف. أعدك بأننى لن أستبقيك دقيقة أزيد من المعتاد. كل ما أرغب فيه هو ألا تدلف إلى سريرك وأنت فى حالة من الانزعاج".

"وهل أنا منزعج؟".

"يخيل إلىَّ أنك أصبت بصدمة لما أبداه س من آراء – أعنى بشكل عام".

"نعم، لعلى كنت كذلك".

"إنك لم تقض وقتًا طويلاً معنا، وإلا كنت قد أدركت كيف أننا نعيش فى خانات مختلفة، بالطبع أنت تعلم ما هى الخانات".

"ما زلت غير قادر على متابعتك".

"نعم، أنت قلت ذلك من قبل، أليس كذلك؟ موضوع التفهم الكامل ليس بهذه الدرجة من الضرورة داخل مؤسستنا هذه. أرى أنهم خصصوا لك غرفة بن نيكلسون".

"إننى...".

"لقد أعطونى غرفة ميرو، المليئة بالتحف. فى الحقيقة كل هذه الديكورات كانت بناء على اقتراحاتى. كانت الليدى هارجريفز تود أن تحفل كل غرفة بالصور والتحف الرياضية كى تتلاءم مع موضوع صيد طيور التدرج".

"إننى لم أتفهم قط هذه الصور الحديثة".

"حاول أن تلقى نظرة متفحصة على تلك الصورة التى رسمها نيكلسون، يا له من توازن عجيب. إنها على شكل مربعات ذات ألوان مختلفة. مع ذلك، تجدهم فى حالة من الانسجام مع بعضهم البعض. لا تصادم أو تنافس. هذا الرسام يمتلك عينًا ماهرة. لو حاولت أن تغير ولو لون مربع واحد منهم، أو حاولت حتى أن تغير حجم أحدهم، سوف يفسد المعنى فى الحال". أشار بيرسفال إلى مربع اصفر اللون "هنا يربض قسمك رقم ٦، وهو مربعك منذ الآن. لست مضطرًا إلى أنَ تشغل بالك بما يجرى داخل المربع الأزرق أو الأحمر. كل ما عليك فعله هو أن تشير إلى رجلنا المطلوب وتترك كل شىء بعد ذلك علينا. أنت غير مسئول تمامًا عما يحدث داخل المربع الأزرق أو الأحمر. فى الواقع، أنت حتى لست مسئولا عما يحدث فى المربع الأصفر أيضًا. ما عليك فعله هو أن تقدم تقريرك، بلا ضمير متألم أو أى إحساس بالذنب".

"أى أن أشترك فى فعل معين لكن لا أهتم بما يصاحبه من نتائج، أليس هذا ما تود نقله إلىَّ؟".

"النتائج تتقرر فى مكان آخر يا دانترى. يجب عليك ألا تنظر إلى مناقشاتنا الليلة هذه بكل هذا التحفز. للعلم أفيدك أن س مغرم بطرح العديد من الأفكار فى الهواء ثم يراقب أين تقع. إنه من المعجبين بحدوث الصدمات. أنت بالطبع علمت بقصة آكلى لحوم البشر. وعلى حد علمى، فإن المجرم – إذا كان هناك مجرم – سوف يسلم إلى يد البوليس بطريقة محافظة تماما. لا شيء يدعوك أن تبقى متيقظًا طوال ليلتك. فقط من فضلك حاول أن تتفهم محتوى هذه الصورة، لا سيما المربع الأصفر. إذا استطعت فقط أن تراه بعينى، سوف تهنأ بنوم هادئ هذه الليلة".

* * *

الجـزء الثانـى

الفصل الأول

(١)

بينما كان كاسل يسير فى الشارع، شاهد رجل عجوز- شابا بشعر يتدلى على أكتافه، يحملق بنظرة تأملية سمائية تنتمى للقرن الثامن عشر.

كان كاسل قد ركب قطارًا مبكرًا عن المعتاد، لذا أتيحت له مهلة قدرها ثلاث أرباع الساعة حتى يدخل مكتبه. كانت منطقة سوهو بلندن فى هذه الساعة المبكرة ما زالت محتفظة ببعض التوهج والبراءة التى يتذكرها منذ أيام الشباب. عند هذا الركن بالذات، سمع للمرة الأولى لسانًا أجنبيًا، وفى المطعم الصغير الرخيص المجاور شرب كأسه الأولى من النبيذ؛ كان عبور شارع كومبتون العجوز فى تلك الأيام هو الوسيلة الوحيدة المعروفة لمن يرغب عبور المانش. فى الساعة التاسعة صباحًا، كل علب الليل والعرى مغلقة، وليس هناك سوى مجموعة اللطائف التى تواردت على ذهنه هى المفتوحة. لا يشاهد سوى الإعلانات التى وضعت فوق أجراس الأبواب - مثل لولو وميمى وما شابه - فهى المؤشر الوحيد على النشاطات التى تزدهر فى فترة ما بعد الظهر وفى المساء بشارع كومبتون القديم. كانت المياه العذبة تجرى، بينما الزوجات المبكرات فى القيام يسرن تحت سماء مغبرة غائمة حاملات سلال متخمة بالسلامى والسجق، وعلى وجوههن مظاهر الظفر والانتصار. لم يتبد مظهر أى رجل بوليس فى هذا المشهد البراق، على الرغم من أنه مع حلول الظلام سوف تجدهم يسيرون على شكل ثنائيات. عبر... كاسل هذا الشارع الآمن ودخل مكتبة اعتاد أن يتعامل معها منذ عدد من الأعوام.

إنها مكتبة محترمة غير عادية كى تكون موجودة فى هذه المنطقة من سوهو. لا تشبه على الإطلاق تلك المكتبة التى تواجهها على الطرف الآخر من الشارع وتحمل يافطة بسيطة

بعنوان "كتب" بحروف قرمزية. كانت نافذة عرض المكتبة الأخرى تعج بمجلات نسائية لا تشاهد أحدًا مقبلاً على شرائها .:.. إنها تشبه علامة ذات مؤشر سهل التفسير لكنه عاجز؛ تدل على طبيعة هذه الاهتمامات الخاصة التى يسهل العثور عليها فى الداخل. لكن فى مكتبة "هاليداى وابنه" التى تواجه مكتبة "الكتب" القرمزية، فإنك تلاحظ فى داخل نافذة العرض كتبًا من إنتاج بنجوين وإفرى مان، كذلك كتب قديمة من الكلاسيكيات العالمية. لا يشاهد كاسل هاليداى الابن أبدًا داخل هذه المكتبة، فقط هو الأب مستر هاليداى، بظهره المحنى وشعره الأبيض، تحيطه هالة من الأدب الجم كما لو كانت هى بذلة قديمة يود أن يدفن بها. تجده دومًا منهمكًا فى كتابة خطابات العمل بخط جميل منمق؛ وكان فى تلك اللحظة مشغولا بكتابة واحد منها.

ما أن شاهد الزبون داخلاً، حتى أبدى ملاحظة كلها اعتبار وأدب: "إنه صباح خريفى رائع يا مستر كاسل"... قال ذلك وهو يمهر خطابه بجملة: "خادمك المطيع".

"كانت هناك لمحة من الصقيع منتشرة هذا الصباح فى أرجاء الريف".

"مع ذلك، يعتبر الوقت مبكرًا لحدوث ذلك".

"هل يا ترى أجد عندك نسخة من كتاب "الحرب والسلام"؟ إننى لم أقرأ هذه الرواية من قبل، ويبدو أن الوقت قد أزف لأن أقرأها".

"إذن أنت قد انتهيت بالفعل من قراءة رواية "كلاريسا" يا سيدي؟".

"لا، لكن أخشى القول أشعر بأننى فى موقف دقيق، كلما أفكر فى كل هذه الأجزاء المكملة التى سوف تصدر..أرغب فى التغيير".

"الطبعة التى كانت تصدرها دار ماكملان من "الحرب والسلام" لم تعد تطبع، لكن أعتقد أن لدىَّ نسخة قديمة فى مجموعة كلاسيكيات العالم فى نسخة واحدة، وهى من ترجمة إيلمر مود، ولا يمكن لأحد أن يفوق إيلمر مود فى ترجمة أعمال تولوستوى. إنه لم يكن مجرد مترجم، بل كان يعرف الكاتب كصديق".

وضع الرجل قلمه جانبًا وبدا على وجهه بعضًا من إمارات الأسى، حيث إن بعد كتابته لجملة: "خادمك المطيع"؛ لم تجد قريحته بشىء آخر.

"إنها الترجمة التى أود الحصول عليها، بالطبع أريد نسختين".

"ما أحوالك يا سيدى، هذا إذا أذنت لى أن أسالك هذا السؤال".

"ابنى مريض، عنده الحصبة. أوه، لكننى لا أشعر بالانزعاج، لا توجد تعقيدات".

"إننى سعيد للغاية لسماع ذلك يا مستر كاسل. مرض الحصبة ممكن له فى هذه الأيام أن يسبب قلقًا متزايدًا. كل شىء على ما يرام فى المكتب، كما أعتقد؟ لا توجد أزمات فى العلاقات الدولية؟".

"لا شيء وصل لأسماعى. كل شيء هادئ. إننى أفكر جديًا فى طلب الخروج على المعاش".

"آسف لسماع ذلك يا سيدي. نحن فى حاجة لرجال مثلك اختبروا الأسفار كى يتعاملوا مع الشئون الخارجية. أثق فى أنهم سوف يعطونك معاشًا جيدًا، أليس كذلك؟".

"أشك فى ذلك. كيف الحال مع عملك هنا؟".

"كل شىء هادئ يا سيدى، هادئ جدا. الموضات تتغير. إننى أتذكر أيام الأربعينيات وكيف أن الناس كانوا يصطفون لشراء نسخة من رواية واحدة من الكلاسيكيات. هناك طلب قليل على مثل هذه الكتب العظيمة حاليًا. العجوز أصبح أكثر عجزًا؛ والشباب – حسنًا، يبدو أنهم سوف يظلون شبابا مدة أطول، أذواقهم تختلف تمامًا عن أذواقنا... نشاط ابنى أفضل منى كثيرًا – فى ذلك المحل عبر الشارع".

" لعله يستقبل نوعيات غريبة من البشر".

"إننى أفضل ألا أعتمد على ذلك يا مستر كاسل. كل من العملين سوف يظلان مختلفين، وكثيرًا ما صممت أن يكون الوضع هكذا. لا يجرؤ أى رجل بوليس على أن يحضر إلى هنا للحصول على ما أسميه – بينى وبينك – رشوة؛ لكن لا أظن أن هناك ضررًا كبيرًا يمكن أن

يحدث من الأشياء التى يبيعها ابنى. إنه يشبه موضوع الوعظ للمتحولين، كما أظن، فأنت لا يمكنك يا سيدي أن تفسد الفاسد".

"يومًا سوف أقابل ابنك هذا".

"إنه يحضر إلى هنا فى الأمسيات ليساعدنى فى توضيب كتبى. هو لديه رأس أفضل منى فيما يختص بالتعامل مع الأرقام. وكثيرًا ما نتحدث عنك يا سيدي. إنه يبدى اهتمامًا خاصًا بما تقدم أنت لشرائه. أعتقد أنه أحيانًا يحسدنى على نوعية العملاء الذين يتعاملون معى، على الرغم من أنهم قليلون. إنه دائمًا ما يحصل على نوعية من العملاء الماكرين يا سيدي، إنهم ليسوا من النوع الذى يتناقش فى نوعية الكتاب كما يحدث بينى وبينك".

"يمكن لك أن تخبره بأن لدىَّ نسخة من رواية "مسيو نيكولاس" التى أود أن أبيعها، وهى بالطبع ليس من نوعية أكواب الشاى التى تحتسيها أنت، كما أظن".

"لست متأكدًا يا سيدى أن هذا الكتاب يمكن أن يسير معه أيضًا، فهو نوع من الكلاسيكيات التى تعترف بأنه ذو عنوان غير مغرٍ كى يتوافق مع مزاج زبائنه، كذلك هو غالى الثمن. يمكن أن يوصف فى الفهارس باعتباره من الأعمال "الجنسية" أكثر من كونه من "الطرائف". بالتأكيد من الممكن أن يجد له مستعيرًا، فمعظم كُتب ابنى تسير فى مجال الاستعارة كما تفهمها. هم يشترون الكتاب يومًا، ثم يستبدلونه فى اليوم التالى. كتبه ليست من النوعية التى تغرى بالاحتفاظ بها دومًا كما لو كانت مجموعة روايات والتر سكوت".

"لن تنسى بالطبع أخباره (مسيو نيكولاس)".

"أوه، لا يا سيدي، وهو من تأليف رستيف دى لا بريتون، طبعة محدودة، نشرته دار رودكر. لدىَّ ذاكرة كالموسوعة فيما يختص بكل الكتب القديمة. هل ستأخذ نسخة رواية (الحرب والسلام) معك؟ هذا إذا سمحت لى بخمس دقائق أبحث عنها فى البدروم".

"يمكن لك أن ترسلها لى بالبريد إلى مدينتى بيركهامستد. لن يتاح لى وقت للقراءة هذا اليوم، فقط لا تنسى أن تخبر ابنك..".

"إننى لا أنسى أبدًا أى رسالة على توصيلها يا سيدي، ألا ترى ذلك؟".

بعدما غادر كاسل المكتب، عبر الشارع وأخذ ينظر قليلاً فى نافذة عرض المكتبة الأخرى. كل ما رآه داخلها هو منظر شاب بوجهه كثير من النمش يجتهد فى شق طريق له بين أكوام من مجلات "الرجال فقط" كذلك مجلة "بنتهاوس"... كانت هناك ستارة قماشية معلقة فى نهاية المحل، من المحتمل أنها فى الداخل تحتوى على كتب وروايات أكثر أهمية وثمنا مخصصة للعملاء الأكثر خجلاً، ولعلها تحتوى فى الداخل على شخص هاليداى الشاب الذى لم يتح الحظ الحسن لكاسل أن يطلع على هيئته – هذا إذا كان الحظ الحسن هو التعبير المناسب.

* * *

(٢)

للمرة الأولى يصل ديفيز إلى المكتب قبله، لذا خاطب كاسل قائلاً: "لقد حضرت مبكرًا اليوم، لقد قلت لنفسى – لعل المكنسة الجديدة ما زالت تكنس عندنا، لذا فكرت...أن أبدى مظهرا كله حماس للعمل...هذا بالطبع لا يمثل أى نوع من الضرر".

"لن يظهر دانترى هنا صباح الاثنين. لقد ذهب إلى مكان ما ليمارس هواية الصيد بالبندقية. هل وصلنا أى شيء من زائير؟".

"لا شيء. ما زال الأمريكان يطالبون بمعلومات إضافية عن مهمة الصينيين فى زنزبار".

"ليس لدينا شيء جديد يمكن أن نمدهم به، الأمر على العموم متروك إلى إدارة م١٥".

"ربما تفهم من الإثارة التى يحدثونها أن زنزبار هذه قريبة للغاية من بلادهم، كأنما هى كوبا".

"هى تقريبًا هكذا – فى عصر الطائرات النفاثة".

حضرت سنثيا ابنة الميجور– جنرال مصطحبة معها قدحين من القهوة وبرقية. كانت ترتدى بنطلونًا بنيًا وسويتر برقبة السلحفاة. هذه الفتاة لديها شيء ما يتوافق مع طباع ديفيز، فهى أيضًا تتصرف بشكل كوميدى. وإذا كان ديفيز غير مستاء من كونه متخصصًا فى عمليات الرهان غير الشرعى، نجد أن سنثيا– المعجونة بالطباع المنزلية – تبدو جريئة كأنما هى فرد من جنود الصاعقة. الشيء المؤسف معها هو أن قدراتها على تهجى الكلمات رديئة للغاية، لكن لعل هناك شيئًا من الطابع الأليزابيثى يكتنفها بخصوص مسألة قدرتها على التهجى، كذلك فيما يختص باسمها. من المحتمل أنها تسعى للحصول على من يشبه الشاعر فيليب سيدنى(*)، لكنها حتى الآن لا تجد أمامها سوى ديفيز.

(*) شاعر إنجليزى مرموق، عاش فى عصر الملكة إليزابيث الأولى وتوفى عام ١٥٨٦.

أخبرت كاسل بقولها: "إنها برقية واردة من مدينة لورنزو ماركيز".

"إنها حمامتك يا ديفيز".

اطلع ديفيز على البرقية قائلاً: "كلمات البرقية مهمة للغاية، تقول إن برقيتكم رقم ٢٥٣ المرسلة فى ١٠ سبتمبر مشوهة، من فضلك أعد. إنها حمامتك يا سنثيا، أسرعى إلى مكتبك واكتبى كود هذه البرقية من جديد كأى فتاة ناصحة، حاولى أن يكون تهجى الكلمات هذه المرة صائبًا". خرجت سنثيا، فاستكمل حديثه: "هل تعلم يا كاسل، هذا مفيد للغاية. أذكر أننى عندما التحقت بهذه المؤسسة، كُنت شخصًا رومانتيكيًا، أفكر فى الأسرار الذرية. لقد قبلونى فى هذه الوظيفة لأننى كُنت ماهرًا فى علوم الرياضيات، أيضًا كانت معلوماتى فى علم الطبيعة ليست سيئة".

"الأسرار الذرية يختص بها القسم رقم ٨".

"ظننت أننى على الأقل سوف أتعلم بعض الخبرات الخاصة، مثل استخدام الحبر السرى. أنا متأكد أنك تعرف كل أسرار الحبر السرى".

"مرة كنت أعرفه، كذلك حتى استخدام فضلات الطيور. لقد حصلت على عدد من الدروس عنها قبلما يرسلوننى إلى مهمة قبل نهاية الحرب. أعطونى أيضًا صندوقًا خشبيًا صغيرًا أنيقًا رصت فيه زجاجات صغيرة مثل تلك التى يستخدمها الأطفال فى دروسهم الكيميائية. أيضًا أعطونى عددًا من ابر الخياطة البلاستيكية".

"لماذا؟".

"كى أفتح بها الخطابات".

"وهل فعلاً استعملتها، أعنى فى فتح الخطابات؟".

"لا، ولو أننى جربت ذلك يوما. لقد علمونى ألا افتح الخطاب من ظرفه، لكن من جانبه، ثم عندما أغلقه مرة أخرى، علىَّ أن استخدم الصمغ نفسه. كانت المشكلة هى أننى لم أحصل على الصمغ المناسب، لذلك كنت مضطرا أن أحرق الخطاب بعد قراءته. على كل حال لم يكن ذا أهمية بالغة، كان خطاب غرام".

"وماذا عن حصولك على مسدس من نوع لوجر، كان لديك هذا النوع أم قلم حبر متفجر؟".

"لا، لم نكن فى ذلك الحين متمسكين تمامًا بأفكار جيمس بوند. لم يسمح لى بأن أحمل مسدسا، وسيارتى الوحيدة كانت من نوع موريس مانيور".

"كان من المفروض أن يكون لدينا مسدس مشترك من نوع لوجر، فهذا هو زمن الإرهاب".

"لكن مع ذلك، نحن لدينا جهاز محلل الشفرات". قال كاسل ذلك محاولاً أن يسرى عن ديفيز. كان على وعى بالحوار المشبع بالمرارة الذى يسرى بينهما كثيرًا عندما يكون ديفيز ليس فى حالته الطبيعية، أن يكون قد أسرف فى شرب البورت، مترادفًا مع خيبة أمله مع الفتاة سنثيا...

"هل تعاملت يومًا مع محلل أصوات يا كاسل؟".

"أبدًا.. لم يحدث".

"ولا حتى مع جهاز قديم مماثل لذلك أيام الحرب؟ ما أكثر المعلومات سرية التى أصبحت فى حوزتك يا كاسل؟".

"مرة علمت التاريخ التقريبى لعملية غزو".

"نورماندى؟".

"لا طبعًا، فقط فى منطقة الأزور".

"هل فعلاً تم غزو هذه المنطقة؟ لقد نسيت أو لعل لم تصلنى هذه المعلومة من قبل. حسنًا أيها العجوز، أعتقد أنه لزامًا علينا الآن أن نشحذ أسناننا ونقدم على فحص حقيبة زائير اللعينة. هل يمكن لك أن تخبرنى لماذا الأمريكيون مهتمون بتنبؤاتنا فيما يختص بمحصول النحاس؟".

"أعتقد أن الموضوع له صلة بالموازنة، وأن هذا من الممكن أن يؤثر فى برنامج المساعدات – ربما تكون حكومة زائير قد تعرضت إلى أغراء معين بهدف استكمال مساعداتها من طرف آخر. وكما ترى، ها نحن الآن أمام التقرير٣٩٧، وهناك شخص باسم سلافى سوف يتناول طعام الغداء يوم ٢٤ مع رئيس هذه الدولة".

"هل يتوجب علينا أن نرسل هذه المعلومة إلى الأمريكيين؟".

"بالطبع".

"وهل تعتقد أنهم سوف يمنحوننا سرا صغيرًا من أسرار صناعة الصواريخ الموجهة فى المقابل؟".

بالتأكيد، كان هذا اليوم هو من أسوأ أيام ديفيز. كان يلمع فى عينيه لمحة من لون أصفر. الله وحده يعلم ما الخليط الذى جرعه الليلة الماضية قبلما يتوجه إلى سريره العزابى القائم أيضًا فى شارع ديفيز...قال الشاب وهو مكتئب: "كان بإمكان جيمس بوند أن يحصل على سنثيا قبل وقت طويل، وهما الآن مستلقيان فوق شاطئ رملى تحت أشعة الشمس الحارة. مرر لى كارت فيليب سيبا من فضلك".

"رقمه كم؟".

"٣/ ٥٩٨٠٠".

"ما الذى يسعى إليه؟".

"هناك تقولات تدعى أن تركه الخدمة باعتباره مديرًا لمصلحة البريد فى كنشاسا كان إجباريا. اتهم بأنه كان يحوز عددًا كبيرًا من الطوابع المشوهة ليضمها لمجموعته الخاصة، بهذا نحن نخسر أكبر عملائنا نفوذا فى زائير".

وضع ديفيز رأسه بين يديه وأطلق صيحة تشبه عواء الكلاب معبرًا عن مدى شجنه الحقيقى. قال كاسل: "أعلم مقدار معاناتك يا ديفيز. أحيانًا أشعر برغبة قوية لأن أحيل نفسى للمعاش...أو أن أغير من طبيعة وظيفتى".

"إنه وقت متأخر لصنع ذلك".

"أتعجب، كثيرًا ما كانت سارة تدعونى أن أنشغل بتأليف كتاب".

"عن الأسرار الرسمية".

"ليس عنا، لكن عن التفرقة العنصرية".

"لا يمكن لك أن تدعى أنه سوف يكون فى خانة الكتب الأكثر مبيعًا".

توقف ديفيز عن الكتابة فى كارت ديبا، قائلاً: "أنت تهزل أيها العجوز. لا تفكر فى هذا الموضوع، لا أستطيع تحمل العمل فى هذا المكان بدونك. سوف أفرقع إذا لم يتواجد أحد هنا أستطيع أن أشاركه الضحك على مختلف الأمور. إننى هنا أخشى حتى تبادل الابتسامات مع الآخرين، حتى مع سنثيا. إننى أحبها، لكن هى مخلصة بشكل لعين، لدرجة أنها من الممكن أن تبلغ عنى باعتبارى خطرًا على الأمن العام، وأن تخبر بذلك الكولونيل دانترى الذى يشبه جيمس بوند الذى ما كان ليتورع عن قتل الفتاة التى نام معها، فقط هى لم تنم معى قط".

"فى الحقيقة، لم أكن جادًا فى تنفيذ فكرتى هذه. كيف لى أن أترك هنا؟ إلى أين أتوجه من هنا؟ إلا إذا قدمت طلبًا جديًا لتسوية معاشى. عمرى الآن الثانية والستين يا ديفيز، وقد فات موعد إحالتى للمعاش. أحيانًا أظن أنهم قد نسونى، أو ربما يكونون قد أضاعوا ملف خدمتى".

"هنا فى هذا الورق يطلبون أثرًا عن شخص يدعى أجبو، وهو موظف يعمل فى راديو زائير. وهو ذا يقدمه لنا العميل ٥٩٨٠٠ باعتباره شخصًا يصلح لأن يكون متعاونًا معنا بشكل جزئى".

"لأى غرض؟".

"لديه صديق براديو غانا".

"هذا لا يبدو له قيمة كبرى. على أى حال، غانا ليست من المناطق التى تحت نطاق عملنا. حول هذا الموضوع إلى قسم ٦ب، وحاول أن ترى ما إذا كانوا فى حاجة إليه أم لا".

"لا تكن متعجلاً يا كاسل، لا نرغب بالطبع فى أن نخسر كنزا. من يدرى ما سوف ينبع من العميل أجبو؟ من غانا يمكن لنا أن نخترق راديو غينيا، وهذا سوف يجعل من موضوع بتكوفسكى متواريًا فى الظلال. يا له من انتصار، لم يحدث من قبل أن تغلغلت الولايات المتحدة هكذا فى أعماق إفريقيا السوداء".. بالتأكيد، كان هذا اليوم هو من أسوأ أيام ديفيز.

قال كاسل "لعلنا نحن نراقب أغبى مظاهر الأشياء السارية فى قسمنا ٦أ".

عادت سنثيا تحمل مظروفا إلى ديفيز قائلة: "عليك أن توقع هنا كإيصال بالاستلام".

"ما الذى يوجد داخل هذه الظرف؟".

"ما الذى أعلمه؟ إنه وارد من الإدارة". ثم قامت بالقبض على ورقة صغيرة مفردة "هل هذا كل شيء؟".

"نحن لا نعانى من زحمة عمل هذه الأيام يا سنثيا، هل أنت حرة كى تتناولى طعام الغداء معى؟".

"لا، على أن أحضر أشياء لطعام العشاء الليلة".. ثم قامت بغلق الباب وراءها بحزم بالغ.

"أوه حسنًا، ربما فى وقت آخر. دائمًا ننتظر هذا الوقت الآخر"... فتح الظرف "يا ترى ما الذى يفكرون فيه لاحقا؟".

تساءل كاسل "ما المشكلة؟".

"ألم تتسلم شيئًا مثل هذا؟".

"أوه، فحص طبى؟ طبعًا. لا أستطيع أن أحصى عدد المرات التى تم فيها فحصى

طبيًا فى زمنى. هذا موضوع خاص بالتأمين على الحياة – أو المعاش. قبلما يرسلوننى إلى جنوب إفريقيا، قام الدكتور بيرسفال – ربما لم تتقابل مع هذا الدكتور – حاول أن يقنعنى بأننى أعانى من مرض السكر، لذا أرسلونى إلى الاختصاصى الذى اكتشف أننى أعانى من قلة السكر وليس كثرته...يا لهذا المسكين بيرسفال. أعتقد أنه لم يباشر مهنة الطب العام لأنه يعمل فى مؤسستنا هذه ، وعنصر الأمن هنا هو أكثر أهمية من التشخيص السليم للأمراض".

"هذا الزفت موقع عليه من بيرسفال – إيمانويل بيرسفال – يا له من اسم. هل تعتقد أنهم ينتوون أن يرسلونى إلى الخارج؟".

"هل تحب أن ترحل من هنا؟".

"دائمًا كنت أحلم أن يبعثوا بى إلى لورنزو ماركيز، فرجلنا هناك عليه الدور فى التغيير. بالتأكيد سوف أجد هناك خمر البورت الممتاز، ألا يجدر أن يكون هكذا؟ أعتقد أنه حتى الثوار يشربون البورت، لكن يا حبذا لو أمكن أن أصطحب معى أيضًا سنثيا".

"كنا أظن أنك تفضل حياة العزوبية".

"إننى لم أتحدث عن الزواج، جيمس بوند لم يفكر قط فى الزواج. إننى مغرم بالطبخ البرتغالى".

"ما هو منتشر هناك الآن هو الطبخ الإفريقى. هل تعلم شيئًا عن أى مكان يعتبر بعيدًا عن برقيات العميل ٦٩٣٠٠؟".

"لقد جمعت ملفًا كاملا عن علب الليل والمطاعم فى هذه المدينة قبل قيام ثورتها اللعينة، ولعلها جميعًا الآن مغلقة. مع ذلك، لا أعتقد أن العميل ٦٩٣٠٠ يعرف نصف ما أعرفه عما يحدث هناك، فهو ليست لديه الملفات. على كل حال، هو شخص جاد بشكل محزن ... أعتقد أنه يصطحب معه العمل حتى السرير. فكر فيما يمكن لنا نحن الاثنين أن نفعله كى نخفض من تكاليف المعيشة".

"أنتما الاثنان؟".

"سنثيا وأنا".

"يا لك من إنسان حالم يا ديفيز. هى لن ترضى بك أبدا. تذكر والدها الميجور-جنرال".

"كل إنسان له حلمه الخاص. ما حلمك يا كاسل؟".

"أوه، أود أن يتوافر لى الأمن والأمان، لكنه ليس من نوعية أمن دانترى. أن أخرج على المعاش براتب شهرى جيد يكفينى أنا وزوجتى".

"كذلك ابن الحرام الصغير".

"نعم، أيضًا ابنى ابن الحرام الصغير".

"هم ليسوا كرماء فى تقدير المعاش فى إدارتنا هذه".

"لا، أعتقد أن أحدًا منا سوف يحقق حلمه".

"على كل حال .... أعتقد أن هذا الفحص الطبى ربما يعنى شيئًا يا كاسل. أتتذكر تلك المرة التى سافرت فيها إلى لشبونة، حيث قام رجلنا هناك باصطحابى إلى كهف فى مدينة إستوريل، حيث يمكن سماع خرير المياه وهى تسرى تحت المائدة...إننى لم ألتهم فى حياتى جمبرى يفضل ما أكلته هناك. وقد قرأتِ عن مطعم مفتخر يقع فى مدينة لورنزو ماركيز... إننى حتى أحب خمورهم الخضراء يا كاسل. فى الحقيقة، كان واجبًا أن يرسلونى إلى هناك بدلاً عن العميل ٦٩٣٠٠، إنه لا يقدر المعيشة الرائعة. أنت تعرف جيدًا هذا المكان، أليس كذلك؟".

"قضيت ليلتين هناك مع سارة، منذ سبع سنين فى فندق بولانا".

"فقط ليلتين؟".

"كنت مضطرًا أن أغادر بريتوريا بعجلة واضحة – أنت تعلم ذلك – قبل أن تلحقنى

تلك الإدارة المدعوة بوس (BOSS). إننى لا أشعر بالاطمئنان وأنا بالقرب من الحدود المشتركة. كنت أود أن أضع محيطا مائيا بين بوس هذه وبين سارة".

"أوه، نعم، أنت لديك سارة. أنت محظوظ. فى فندق بولانا. بينما فى الخارج ينبسط المحيط الهندى".

تذكر كاسل شقة العذاب التى يتشارك فيها ديفيز... الزجاجات الفارغة، مجلات بنتهاوس ونيتشر، لذا قال: "إذا كنت بالفعل جادا، سوف أتحدث بهذا الشأن مع واطسن، أحاول أن أضعك ضمن حركة التنقلات".

"إننى جاد تمامًا. أود أن أهرب من هنا يا كاسل بشكل يائس".

"هل أمورك بهذه الدرجة من السوء؟".

"نحن نجلس هنا نكتب برقيات لا معنى لها. نحن نشعر بأننا مهمون لأننا نعرف القليل الذى يزيد عما يعرفه شخص آخر عن محصول الفول السودانى، وما قاله موبوتو فى جلسة عشاء خاصة...هل تعلم أننى حاولت الالتحاق بهذا المؤسسة لكى أستمتع فقط بالإثارة والتشويق؟ التشويق يا كاسل. إننى لا أعلم كيف تحملت العمل هنا كل هذه الأعوام؟".

"ربما كونى متزوجًا، هذا ما ساعد".

"إذا حدث وتزوجت، فإننى لا أود أن أقضى حياتى هنا. إننى متعب لدرجة الموت من هذا القطر اللعين يا كاسل. انقطاع الكهرباء، الإضرابات، التضخم. إننى لا أهتم بمشكلة ارتفاع أسعار الأطعمة، ما يحبطنى هو الارتفاعات التى تحدث فى أثمان البورت المفتخر. لقد التحقت بهذه المؤسسة آملاً أن يبعثوا بى إلى الخارج، بل وقد تعلمت اللغة البرتغالية، لكننى أجد نفسى جالسا هنا أجيب عن برقيات مقبلة من زائير، يذكرون فيها ماذا حدث فى محصول الفول السودانى".

"كنت أظن أنك مستمتع بحياتك يا ديفيز".

"أوه، أننى أشعر بالمرح فقط عندما أسكر قليلاً. إننى أحب هذه الفتاة يا كاسل. لا أستطيع أن أمحوها من ذاكرتى. لذا تجدنى أتخذ لنفسى صورة المهرج لكى أجعلها تبتهج،

وكلما زدت فى هذا المظهر قل اهتمامها بى. ربما إذا رحلت إلى لورنزو ماركيز...لقد قالت لى مرة إنها تود أن ترحل إلى الخارج".

دق جرس التليفون: "هل هذا منك يا سنثيا".. لكن المكالمة لم تكن صادرة منها، كان من واطسن رئيس القسم رقم ٦: "هل من يحادثنى هو كاسل؟".

"لا، أنا ديفيز".

"أعطنى كاسل".

قال كاسل: "نعم، أنا هنا، ما الموضوع؟".

"س يود أن يرانا معًا. هل يمكن لك أن تفوت على وأنت نازل؟".

* * *

(٣)

كان طريقًا طويلاً يؤدى إلى أسفل، ذلك لأن مكتب الرئيس س على بعد طابق تحت الأرض، وقد تأسس عام ١٨٩٠ عندما كان قبلاً بدرومًا يخزن فيه أحد المليونيرات زجاجات الخمور. أما الغرفة التى انتظر فيها واطسن وكاسل إلى حين انبثاق اللون الأخضر ليدخلا مكتب س، كانت قبلاً المخزن الذى يحوى الفحم والخشب، أما مكتب س فإنه كان مخزنا يحفظ داخله أفضل أنواع الخمور فى لندن. قيل إنه عندما استولت الهيئة على هذا المنزل عام ١٩٤٦، وبدأ المهندسون فى إعادة تصميم المبنى، تم اكتشاف حائط مزيف، خلفه كان يرقد كالمومياوات الكنز المخفى لهذا المليونير من زِجاجات تحوى أفخر أنواع الخمور. وقد تم بيعها – كما تحكى القصة – بواسطة كاتب تابع لوزارة الأشغال إلى مخازن الجيش والبحرية بالسعر العادى لنبيذ المائدة. هناك احتمال كبير أن تكون هذه القصة غير حقيقية، لكن عرضت بعض الزجاجات التاريخية فى صالة مزادات كريستى، نجد ديفيز يقول: "هذه أيضًا كانت من ضمن أملاكنا".

ظل الضوء الأحمر لمدة طويلة، بدا الأمر كأنما هو انتظار سيارة تتوقع إجلاء حطام سيارة أخرى تعرضت لحادث أمامها.

سأل كاسل رئيسه واطسن: "هل تعلم أسباب استدعائنا؟".

"لا، هو فقط طلب منى أن أقدم إليه رجال الإدارة رقم ٦ الذين لم يلتق معهم من قبل. وقد فعل ذلك مع قسم ٦ب، والآن حان دوركما. المطلوب منى أن أقدمك ثم أترككما معًا. هذا هو الموضوع . يبدو الأمر فى نظرى كأننا نعاين واحدة من مخلفات المرحلة الاستعمارية".

"لقد قابلت س السابق مرة واحدة، قبلما أرحل إلى الخارج للمرة الأولى. كان يضع على عينيه نظارة سوداء . كان أمرًا متعبًا أن يحملق المرء فى نظارة سوداء، لكن كل ما فعله هو أنه شد على يدى وتمنى لى حظًا سعيدًا. بالطبع لا يفكروا أن يبعثوا بى إلى الخارج مرة أخرى؟".

"لا، لكن لماذا؟".

"هذا يذكرنى بأن أحدثك بشأن ديفيز".

تحول الضوء إلى اللون الأخضر.

قال كاسل: "كنت أتمنى لو أننى حلقت ذقنى أفضل من ذلك".

كان سير هارجريفز، خلافًا عن س السابق، ليس مخيفًا على الإطلاق. كان يرسى على مكتبه طوق شبك فيه عددًا من طيور التدرج الميتة، ومشغولاً بالحديث فى التليفون.

"لقد أحضرتهم معى هذا الصباح، فكرت مارى أنهم ربما يعجبونك"... أشار بإصبعه تجاه مقعدين.

إذن فهذا هو المكان الذى قضى فيه كولونيل دانترى إجازته الأسبوعية، هذا ما فكر فيه كاسل. هل كان منهمكًا فى اصطياد هذه النوعية من الطيور، أم لكى يقدم تقريرًا يختص بالأمن؟ جلس كاسل على المقعد الأنشف محافظا على البروتوكول ومقتضيات الأدب.

قال هارجريفز قبلما ينهى المكالمة: "إنها فى صحة جيدة، فقط تعانى قليلاً من أعراض الروماتيزم فى ساقها المريضة، هذا كل شيء".

قال واطسن: "هذا هو موريس كاسل يا سيدي، إنه يرأس قسم ٦أ".

قال كاسل: "أن أرأس قسمى، ذلك يوحى بقدر كبير من الأهمية، لا يوجد سوى اثنين منا".

"أنت تتعامل مع مصادر فى غاية السرية، أليس كذلك؟ هكذا ما تصنعه أنت ومعك ديفيز الذى يعتبر تحت رئاستك".

"كذلك واطسن يعلم تلك الأسرار".

"طبعا، هذا حقيقى. لكن واطسن يشرف على كل الإدارة رقم ٦، أنت تغوص كثيرًا فى مسألة تسيير الأمور بإدارتك يا واطسن؟".

قال واطسن: "أرى أن قسم ٦ج هو الذى يستلزم منى أكبر اهتمام. مستر ولكنز رئيس هذا القسم لم يقض وقتًا طويلاً معنا، لذا عليه أن يبذل وقتًا أكبر فى عمله".

"حسنا، لن أبقيك طويلاً يا واطسن، أشكرك لإحضار كاسل إلى هنا".

أخذ هارجريفز يربت على ريش واحدة من الطيور الميتة، قال: "مماثلاً لولكنز، على أن أبذل جهدًا أكبر، حيث أرى أن كل الأمور تشبه إلى حد كبير تلك التى كانت سائدة عندما كنت شابًا أعمل فى جنوب إفريقيا. هنا أرى أن واطسن يشبه المفتش الريفى، وأنت كمفتش ترأس إقطاعية. لك كامل الحرية فى إدارة منطقتك. بالطبع أنت تعرف إفريقيا جيدًا هل هذا صحيح؟".

"فقط هى جنوب إفريقيا".

"نعم، لقد نسيت. جنوب إفريقيا هذه لا تشبه إطلاقا إفريقيا الحقيقية، ولا حتى شمال إفريقيا، هذه الأخيرة تعتبر ضمن اختصاص قسم ٦ج، أليس كذلك؟ كان دانترى يشرح لى كل هذه المسائل أثناء فترة الإجازة الأسبوعية".

"هل تمتعت بالصيد يا سيدي؟".

"بشكل متوسط. ولا أعتقد أن دانترى قد حصل على الرضى الكامل. يجب عليك أنت أن تحضر فى الخريف المقبل وتجرب حظك".

"إننى لم أوفق فى ذلك يا سيدي. لم أطلق رصاصة واحدة فى حياتى، ولم أصوب حتى على أى بنى آدم".

"آه، نعم، إنهم من أفضل أهداف التصويب. أقول لك الحق، صيد الطيور يصيبنى بالملل".

نظر س إلى ورقة كانت موضوعة على مكتبه "لقد أديت عملاً جيدًا وأنت فى بريتوريا بجنوب إفريقيا، أنت موصوف هنا باعتبارك موظفًا من الدرجة الأولى، حيث قمت بتخفيض تكلفة شغل الموقع هناك بشكل محسوس".

"لقد تسلمت العمل هناك بعد انتهاء عمل رجل كان ماهرًا فى تجنيد العملاء، لكن لم تكن له خبرة كافية بالاقتصاد والمال، لكن أنا عملت لفترة فى بنك قبل نشوب الحرب".

"كتب دانترى هنا إنك تعرضت لبعض المتاعب عندما كنت فى بريتوريا".

"إننى لا أدعوها متاعب، لقد وقعت فى مصيدة الحب".

"نعم، هذا ما أعلمه، من فتاة إفريقية. من فتاة يدعون أنها تنتمى لإحدى قبائل البنتو(*) دون تحديد. لقد انتهكت قوانين هذه القبيلة".

"إننا متزوجان الآن وفى أمان، لكنا تعرضنا لبعض المتاعب عندما كنا هناك".

"نعم، وهذا ما قدمت به تقريرا لنا. أتمنى أن كل واحد من أهلنا يفعل مثلك عندما تواجهه بعض المتاعب. لقد كنت أنت خائفا أن يقدم بوليس جنوب إفريقيا على تمزيقك إربًا".

"لم يكن الموقف يسمح بأن أترك الأمور بدون ممثل محصن للدولة".

"ها أنت ترى أننى قد فحصت ملفك جيدًا. لقد تم إرسال تعليمات إليك بأن تغادر هذه الدولة على الفور، على الرغم من أننا لم نفكر للحظة أنه يمكن لك أن تعود برفقة هذه الفتاة".

"لقد قامت الرئاسة العليا بفحصها جيدًا، ولم يعثروا على ما يعيبها. ألم أكن محقًا طبقًا لوجهة نظرك أن أهربها أيضا؟ لقد كنت أستخدمها كوسيلة وصل مع عملائنا الإفريقيين. كانت قصتى التى تمسكت بها لتبرير تواجدى هناك هى أننى كنت أخطط لعمل دراسة واقعية وحاسمة لمسألة التفرقة العنصرية فى وقت فراغى، لكن كان فى مقدور البوليس هناك أن يدمروها ويقضوا عليها، لذا سافرت بها إلى سوازيلاند ثم إلى مدينة لورنزو ماركيز".

(*) هناك نحو ٤٠٠ نوع من شعوب إفريقيا يتحدثون لغة البانتو.

"أوه، لقد تصرفت حسنًا يا كاسل. وأنت الآن متزوج منها وعندكما طفل. هل كل الأحوال على ما يرام؟".

"حسنا، فى الوقت الحالى، ابنى مصاب بالحصبة".

"آه، إذن يجب أن تنتبه لعينيه. عيونه هى نقطة الضعف فى هذا المرض. الموضوع الحقيقى الذى شئت بسببه أن أراك هى زيارة سوف تتم بعد أيام قليلة، حيث سوف يحضر إلى هنا مستر كورنيلوس مولر، وهو واحد من الرؤساء فى هيئة (بوس). أعتقد أنك كنت تعرفه عندما كنت فى بريتوريا".

"حقا، كنت أعرفه".

"سوف نجعله يطلع على بعض الأمور التى تتعامل أنت معها فى عملك. بالطبع، بشكل كاف ومحدد، لكننا نؤمن بأننا حقًا متعاونون مع جنوب إفريقيا بشكل ما".

"إنه يعرف عن زائير أكثر مما نعرف".

"إنها موزامبيق التى تعتبر مصدر اهتمامه الرئيسى".

"فى هذه الحالة، أرى أن ديفيز هو رجلك يا سيدي، فهو المتخصص فى هذا الشأن أكثر منى".

"أوه، نعم بالطبع، ديفيز. إننى لم أقابل ديفيز هذا حتى الآن".

"هناك شيء آخر يا سيدي. عندما كنت فى بريتوريا، لم أتوافق قط مع هذا المدعو مستر مولر. وإذا فحصت ملفى جيدًا، سوف تكتشف أنه هو الذى حاول أن يبتزنى تحت طائلة قوانين العنصرية، وهذا ما جعل سابقك أن يدعونى للخروج من هناك بأسرع ما يمكن. لا أعتقد أن هذا سوف يوطد علاقاتنا الشخصية؛ لذا من الأفضل أن يكون هو ديفيز الذى يتعامل معه".

"على كل حال، أنت تعتبر رئيسًا لديفيز، وأنت كذلك الذى يعتبر الشخص المناسب للتعامل مع هذا الرجل. وكما أعلم، لن يكون الأمر سهلاً عليك بينما كليكما شاهرا سكينه، لكن هو الذى سوف يفاجأ. أنت تعلم بالطبع ما الذى يمكن أن يطلع عليه. من الأهمية بمكان أن نلاحظ عملائنا؛ حتى لو كان يستتبع ذلك أن نبقى بعض المواد مخبأة فى الظلام. ديفيز هذا ليس لديه خبرتك الشخصية فى التعامل مع هيئة بوس هذه وعميلهم مستر مولر".

"لماذا نحن مضطرون أن نطلعه على أى شيء يا سيدى؟".

"هل خطر على بالك يومًا يا كاسل، ما الذى يمكن أن يحدث للعالم الغربى إذا تم غلق مناجم الذهب فى جنوب إفريقيا بسبب الحروب العنصرية؟ ويحدث بعد ذلك أن نخسر الحرب مثلما حدث فى فيتنام، وأن يحدث كل هذا قبلما يتفق السياسيون على ابتكار بديل للذهب، بينما تعتبر روسيا هى المصدر الرئيسى؛ حينئذ سوف يصبح الموقف أكثر تعقيدا بالمقارنة بأيام أزمة البترول. أما عن مناجم الماس...أعلمك أن مجموعة شركات دى بير "De Beers" هى أكثر أهمية من شركات جنرال موتورز. الماس لا يشيخ مثلما يحدث مع السيارات؛ بل وهناك مظاهر أخرى أكثر أهمية من الذهب والماس، إنه اليورانيوم. أعتقد أنه لم يصل لأسماعك بعد خبر تلك الوثيقة السرية التى أصدرها البيت الأبيض عن عملية يدعونها باسم (العم ريموس)".

"لا، لكن كانت هناك أقاويل متداولة ..".

"سواء أعجبك الحال أم لا، أقول لك إننا نحن بالإضافة إلى جنوب إفريقيا كذا الولايات المتحدة، كلنا شركاء فى عملية العم ريموس هذه.. هذا يعنى أنه يتوجب علينا أن نكون لطفاء مع مستر مولر هذا ؛ حتى لو أنه قام بابتزازك يومًا".

"وعلى أن أجعله يطلع على...".

"على معلومات عن رجال الميليشيات، كذلك العقبات السارية التى يمكن أن تؤثر فى روديسيا، أيضًا رأينا فى الحكام الجدد بموزامبيق، كذلك الاختراقات الروسية والكوبية، أيضًا بعض المعلومات الاقتصادية..".

"ليس هناك الكثير باقيًا، ألا ترى ذلك؟".

"كن حريصا نوعًا فيما يختص بتدخلات الصينيين، فرجال جنوب إفريقيا معتادون على وضعهم فى كومة واحدة مع الروس، وسوف يصل اليوم الذى نحتاج فيه للصينيين. أنا لست معجبا بتجمع العم ريموس هذا مماثلاً لك. إنه يمثل ما يدعوه السياسيون بالسياسة الواقعية، والواقعية لا تجعل أى إنسان قادرًا على أن يسير بعيدًا مع نوع إفريقيا التى اعتدت عليها. فى الحقيقة، لقد أحببت إفريقيا يا كاسل، أما الصينيون فإنهم لا يحبونها، ولا الروس ولا حتى الأمريكان؛ لكن علينا أن نتماشى مع البيت الأبيض والعم ريموس ومستر مولر . كم كانت الأمور سهلة أمامنا أيام الزمن القديم عندما كان فى مقدورنا أن نتعامل مع رؤساء القبائل والأطباء المشعوذين والمدارس المنتشرة وسط الأدغال، كذا الشياطين وملكات الأمطار. إفريقيا التى فى خيالى ما زالت هى إفريقيا التى وصفها الكاتب ريدر هاجرد. لم تكن قط بالمكان السيئ . والإمبراطور شاكا كان أفضل كثيرًا من الفيلد مارشال أمين دادا(*) . أوه، حسنا، اصنع أفضل ما لديك مع مولر هذا، إنه الممثل الشخصى لرئيس منظمة بوس. أقترح أن تراه للمرة الأولى فى منزلك — سوف تكون تحية صادمة له".

"لا أعلم ما إذا كانت زوجتى سوف ترحب بذلك أم لا".

"أخبرها بأننى طلبت منك تنفيذ ذلك. سوف أترك هذا الأمر لك ؛ إذا كان هذا الأمر نوعا..".

استدار كاسل متجهًا إلى الباب، ثم تذكر أمرًا.

"هل يمكن أن أحدثك بشأن يختص بديفيز يا سيدي؟".

"طبعا، ما هو؟".

(*) هو عيدى أمين (١٩٢٠-٢٠٠٣) رئيس أوغندا من (١٩٧١- ١٩٧٩). كان رئيسًا فاسدًا متوحشًا تسبب فى مقتل أكثر من ١٠٠ ألف من مواطنيه. أشعل حربًا مع تنزانيا، وقبل هزيمته هرب أولا إلى ليبيا ثم استقر فى السعودية إلى حين وفاته عام ٢٠٠٣.

"إنه قضى وقتًا طويلاً جالسًا على مقعد فى لندن. أعتقد أنه فى أول فرصة يمكن أن نبعث به

إلى لورنزو ماركيز. أن نستبدله بالعميل ٦٩٣٠٠، الذى بالتأكيد محتاج الآن إلى تغيير للجو".

"هل ديفيز هو الذى اقترح عليك ذلك؟".

"ليس بالضبط. لكننى متأكد أنه سوف يسر إذا خرج من هنا — إلى أى مكان آخر. إنه فى حالة عصبية يا سيدي".

"لما هذا؟".

"أعتقد أنه يعانى بسبب حبه لفتاة معينة، كذلك أصيب بمرض تعب المكاتب".

"أوه، أستطيع تفهم مسألة تعب المكاتب. سوف نرى ما يمكن أن نفعل بشأنه".

"إننى قلق عليه نوعًا".

"أعدك بأننى سوف أضع مسألته هذه فى بالى يا كاسل. بهذه المناسبة، يجب أن تكون زيارة مولر هذا فى غاية السرية. أنت تعلم بالطبع كيف أننا نحرص على إبقاء صناديقنا محكمة الإغلاق ضد تسرب المياه. يجب أن يكون هذا هو صندوقك الخاص. إننى حتى لم أخطر واطسون. وأنت يجب ألا تخبر ديفيز أبدًا".

* * *

الفصل الثانى

فى الأسبوع الثانى من شهر أكتوبر، كان الولد سام لا يزال فى العزل بشكل رسمى، ولم تحدث له مضاعفات، لذا يمكن اعتبار أنه لا خطر يمكن أن يهدد مستقبله؛ ذلك المستقبل الذى دائمًا ما ينظر إليه كاسل باعتباره كمينا غير متوقع؛ لذا وهو يسير فى الشارع الرئيسى فى صباح يوم أحد، شعر برغبة فجائية تجتاحه لأن يعبر عن بعض شكره لخالقه، حتى لو كان هذا موجهًا لأسطورة، ولأن سام كان قد سلم من هذا المرض، لذا دخل، لعدة دقائق ودلف إلى خلفية كنيسة أسقفية، حيث كانت الخدمة قد قاربت على نهايتها. لاحظ أن المصلين قد ارتدوا أفضل ثيابهم، ومعظمهم ممن بلغوا منتصف العمر أو كبار السن، جميعهم واقفين منتبهين، يرتلون بنوع من التراخى، كما لو أنهم يشعرون داخليًا بنوع من الشك فى الحقائق: "هنالك تل أخضر يلمع بعيدًا وليس هناك سورا يحيط بالمدينة". هذه الكلمات البسيطة، المصبوغة بلون محدد، ذكرت كاسل بالخلفيات التى كثيرًا ما نلمحها فى الرسوم البدائية، أما السور الذى يحيط بالمدينة، فإنه يشبه بالتأكيد ذلك الركام المتجمع خلف محطة السكك الحديد، أيضًا تلك الأنقاض المتناثرة فوق التلال الخضراء فى منطقة النزهة العمومية ببلدته، حيث كان ينتصب فوق إحدى تلك القمم التى تشبه فى الشكل مؤخرة البندقية عمودًا عمودًا، لعله كان يومًا يُشنق فوقه واحد من الناس.

للحظات، كاد أن ينسجم معهم مؤمنا باعتقاداتهم الجازمة – فليس هناك بأس من أن يتمتم بكلمات صلاة يشكر فيها إله طفولته، إله المراعى والقلعة القديمة، كذلك يشكر لأن المرض لم ينهك طفل سارة كثيرًا. فجأة حدث دوى صوتى بدد كلمات الترنيمة، وهز زجاج النافذة الغربية وجلجل خوذة الصليبى القديمة التى ارتكزت فوق عمود؛ هذا أدى إلى تذكيره بمحتوى ذلك العالم الذى ترعرع ونما. خرج سريعًا واشترى صحف يوم الأحد، كان العنوان الرئيسى لصحيفة سانداى إكسبريس هو "العثور على جثة طفل فى قلب الغابة".

فى فترة ما بعد الظهر، اصطحب كاسل معه سام كذلك الكلب بولر فى فسحة عبر منطقة النزهة العامة، تاركا سارة نائمة. كان يود أن يترك بولر فى المنزل، لكن غضب واحتجاج الكلب ربما يؤدى إلى إيقاظ سارة، لذلك أرضى نفسه بالتفكير أنه ربما لا يصادف بولر قطة فى طريقه وهما فى منطقة النزهة. كان هذا الخوف دائمًا مثارًا، حيث حدث يومًا فى فترة الصيف منذ ثلاث سنوات، أن لعبت الأقدار خدعة دنيئة أصابت عائلة كانت تستمتع بمباهج الغابة المجاورة للشاطئ. هؤلاء أحضروا معهم قطة مرفهة يلتف حول رقبتها طوق أزرق ينتهى بزمام حريرى قرمزى اللون. هذه القطة — وهى من النوع السيامى — لم يتح لها أى فرصة، ولا حتى أن تطلق صرخة ألم وحيدة، قبلما يهجم عليها بولر وينهش ظهرها نازعًا بعضًا من جلد كتفها، كأنما هو رجل يرفع جوالاً فوق سيارة نقل، بعدها هرول بولر بكل تؤدة وعظمة كى يختفى وسط الأشجار، يهز رأسه ذات اليمين واليسار، لعل أنظاره تقع على وجه قطة أخرى؛ بذلك ترك كاسل بمفرده لكى يواجه حزن وغضب هؤلاء المتنزهين.

لذلك، انتظر كاسل حتى بزوغ الشمس، وأبقى بولر مقيدًا فى سلسلته طوال مسيرتهما معًا على طول شارع كنجز، لكن ما أن عبرا القناة وكوبرى السكة الحديد، كذلك مجموعة المنازل الجديدة (هذه المنازل بنيت منذ ربع قرن، لكن أى شيء لم يكن له وجود عندما كان كاسل طفلاً، يعتبر بالنسبة إليه جديدا) هناك أطلق سراح بولر. فى الحال، كأى كلب مدرب، مد فى سيره وفرغ فضلاته على حافة الممر، بكل تؤدة ومزاج، والعيون تحملق أماما، لكنها مهتمة تمامًا بما يحدث فى الداخل. فقط فى مثل هذه المناسبات الصحية يبدو فيها بولر ككلب زكى. كاسل ليس من المغرمين ببولر؛ لقد اشتراه لتحقيق هدف محدد، هو أن يطمئن سارة، لكن ثبت بالدليل القاطع أن هذا للكلب لا يصلح أبدًا ليكون كلبًا للحراسة، لذا هو يعتبر مسئولية جديدة مضافة. لكن بولر، بعواطفه الكلبية التى ينقصها الحكم السديد والتمييز السليم، كان مغرمًا بكاسل أكثر من أى إنسان آخر.

تحولت نباتات السرخس إلى ذلك اللون الذهبى الداكن الخريفى اللطيف. لم يكن هناك سوى القليل من الزهور المتناثرة بين الأجمات. قام كاسل بالبحث المجتهد عن تلك التلال

الطينية التى تشبه قواعد البنادق، وكانت منتصبة منذ زمن، لكن بلا توفيق، لقد احتجبت جميعها فى أكوام من خضرة متعبة للنظر.

تساءل سام: "هل يقومون بإطلاق الرصاص على الجواسيس فوق هذه القمم؟".

"لا بالطبع، من الذى وضع هذه الفكرة فى دماغك؟ كانت بكل بساطة قواعد تدريب على إطلاق النار أثناء الحرب العالمية الأولى".

"لكن بالطبع هناك جواسيس. جواسيس حقيقيين؟".

"أعتقد ذلك، لما تسأل؟".

"غرضى أن أكون متأكدا من هذه المعلومة، هذا كل ما فى الأمر".

تذكر كاسل كيف أنه عندما كان فى عمر سام، تقدم بسؤال إلى والده عما إذا كانت هناك فعلا جنيات، وكانت الإجابة أقل صدقًا من إجابته الحالية. والده كان رجلا عاطفيًا؛ كان يود أن يؤكد لابنه بأى وسيلة من أن الحياة لها قيمة كبرى، وإنه من الظلم البين أن يتهم الرجل بعدم الصدق؛ فالجنيات التى ربما كان يدافع عنها بحرارة، ليست إلا رمزًا يمثل شيئًا هو على الأقل يعتبره حقيقيا.

قال سام: "هل هناك جواسيس مماثلون للعميل ٠٠٧ ؟".

"حسنا، ليس تمامًا". حاول كاسل أن يغير من الموضوع، لذا أضاف: "عندما كنت طفلا صغيرا، ظننت أن هناك تنينًا يعيش هنا داخل جب عميق يقع وسط هذه الخنادق".

"أى من هذه الخنادق؟".

"لا يمكن لك أن تراها الآن، بسبب انتشار نباتات السرخس فوقها".

"ما التنين؟".

"كما تعلم إنها تلك المخلوقات الضخمة التى تنفث نارًا من أفواهها".

"مثل الدبابة؟".

"حسنًا، نعم، أعتقد أنه يماثل الدبابة". كان هناك انقطاع فى خيالاتهما، وهذا أحبط كاسل، لذا أضاف قائلاً: "هم أشبه بسحالى ضخمة للغاية"... أدرك بعد ذلك أن الولد قد شاهد العديد من الدبابات، لكن عالم السحالى كان قد اختفى حتى قبل ولادته.

"هل رأيت أنت تنينا من قبل؟".

"مرة شاهدت دخانًا يصدر من داخل خندق، وفكرت أنه ربما يكون صادرا من فم تنين".

"هل أصبت بالرعب؟".

"لا، كنت أشعر بالخوف من أشياء أخرى أيام طفولتى... كنت أكره مدرستى، وكان لى عدد قليل من الأصدقاء".

"لما كرهت المدرسة؟ هل مسموح لى بأن أكره المدرسة؟ أعنى مدرسة حقيقية؟".

"لسنا جميعًا نواجه نفس الأعداء. ربما أنت لا تحتاج إلى تنين لكى يساعدك، لكننى أنا احتجت. كل العالم كره التنين صديقى وأرادوا قتله. كانوا خائفين من الدخان واللهب الذى يصدر من فمه عندما يكون غاضبا. كنت معتادًا على أن أخرج متسللاً ليلاً من غرفة نومى وأقدم له علب السردين ليأكلها. كان يطبخ هذه الوجبة بالنار المنبعث من تنفسه، فهو كان يحب التهام طعامه وهو ساخن".

"هل هذا حدث معك بالفعل؟".

"بالطبع لا، لكن يبدو الأمر فى نظرى الآن كأنما هو قد حدث بالفعل. كنت أرقد على سريرى فى الداخلية وأنا أبكى تحت الغطاء، لأن هذا كان هو الأسبوع الأول من التيرم الأول من العام الدراسى، بينما ما زال أمامنا اثنى عشر أسبوعًا حتى نحصل على الإجازة. كنت أشعر بالخوف من كل ما يجرى حولى. كان الوقت شتاء، فجأة لاحظت أن زجاج نافذتى قد تجمع فوقه بخار حار. مسحت هذا البخار بإصبعى ونظرت تحت، كان التنين هناك. إنه لم يغادر منطقة النزهة من قبل لأن أيدى الناس كلها كانت تشير ضده، بل وحتى

رجال البوليس، كانوا يحتفظون داخل دواليبهم ببنادق خاصة للتعامل معه إذا حضر حتى المدينة. لكن مع ذلك، هو ذا أراه الآن، راقدًا بكل استكانة يطلق بأنفاسه أبخرة حارة. وكما ترى، لقد سمع هو أن المدرسة قد بدأت من جديد، وعلم أننى لست سعيدًا وأشعر بالوحدة. إنه كان أكثر ذكاء من أى كلب، أكثر ذكاء من بولر".

"أنت تجر ساقى وتضحك على".

"لا، أنا فقط أتذكر".

"ما الذى حدث بعد ذلك؟".

"صنعت أمامه عدة إشارات تعنى "هناك خطر. ابتعد"؛ لأننى لم أكن متأكدا أنه يعلم بمسألة رجال البوليس الذين يحتفظون بالبنادق الخاصة داخل دواليبهم".

"هل رحل؟".

"نعم، لكن ببطء شديد، ينظر خلفًا من فوق ذيله، كما لو أنه لا يود أن يتركنى، لكننى لم أعد أخشي من الوحدة بعد ذلك. على الأقل ليس كثيرًا. فقط كان علىَّ أن أصدر إشارة معينة، فى الحال يترك مكمنه فى منطقة النزهة ويحضر على الفور ليساعدنى. كان لدينا العديد من الإشارات والأكواد والتفاهمات المختلفة".

"مثلما يفعل الجواسيس".

قال كاسل محبطًا "نعم، أعتقد ذلك. مثل الجواسيس".

تذكر كاسل كيف أنه يومًا رسم خريطة لمنطقة النزهة هذه، بكل خنادقها وكل طرقها الخفية المندسة خلف الأعشاب. وهذا يشبه عمل الجواسيس أيضا. قال: "حان الوقت كى نعود إلى المنزل، سوف تنشغل عليك والدتك".

"لا، هذا لن يحدث. أنا معك. أريد أن أرى كهف التنين".

"فى الحقيقة، لا يوجد تنين".

"لكن أنت لست متأكدا تماما، أليس كذلك؟".

بصعوبة بالغة، عثر كاسل على الخندق القديم، أما الحفرة التى كان من المفروض أن يرقد فيها التنين، فإنها الآن مليئة بشجيرات التوت البرى. وبينما يجاهد فى سيره، خبطت قدمه فى علبة قصدير صدئة وطوحتها إلى الأمام.

قال سام: "ألا ترى، أنت بالفعل كنت تحضر طعامًا للتنين"، تقدم الولد بمشقة فى طريقه ونظر، لكن ليس هناك تنينًا أو حتى هيكله العظمى، قال: "ربما يكون رجال البوليس قد قبضوا عليه أخيرا". ثم تناول علبة القصدير، قال: "إنها علبة سجاير وليس سردين".

هذه الليلة، قال كاسل لسارة وهما راقدان على السرير: "هل تظنين أن الوقت لم يفتنى بعد؟".

"يفوتك عن ماذا؟".

"أن أترك وظيفتى الحالية".

"بالطبع لم يفتك الوقت، أنت لست عجوزًا بعد".

"ربما نضطر أن ننتقل من هنا".

"لكن لماذا؟ هذا المكان صالح ومناسب كغيره".

"ألا تودين أن تسافرى للخارج؟ فهذا المنزل لا يعتبر منزلاً بالمعنى المفهوم. ربما إذا حصلت على عمل بالخارج...".

"أرغب أن يظل سام راكزا فى مكان واحد، لذا عندما يبتعد عنه، يكون فى استطاعته أن يعود إليه، إلى مكان عرفه وأحبه منذ طفولته. كما حدث معك عندما عدت إلى هنا. إلى شيء قديم، شيء مغموس بالأمن والأمان".

"التى هى فى الواقع مجموعة من الأنقاض القديمة بجوار محطة للسكك الحديدية".

"نعم".

تذكر تلك الأصوات البورجوازية، جميعهم محتشمون مكتسون بالرزانة، مرتدون ملابس يوم الأحد، يرتلون فى تلك الكنيسة المبنية بحجارة الصوان، معبرين بذلك عن لحظاتهم الأسبوعية للتعبير عن اعتقاداتهم وإيمانهم "هناك تل أخضر يلمع بعيداً، وليس هناك سورا يحيط بالمدينة".

قالت: "لكن هذه الأنقاض لها منظر عام جمالى الشكل".

"لكن أنت لا تستطيعين أبدًا أن تعودى إلى مهد طفولتك".

"هذا أمر مختلف، أننى لم أشعر هناك قط بالأمان، إلى أن عرفتك. لَم يكن هناك أنقاض فى موطنى، بل أكواخ".

"أود أن أخبرك أن مولر قادم إلى هنا يا سارة".

"كورنيلوس مولر؟"

"نعم، إنه رجل مهم الآن، وعلىَّ أن أكون ودودًا معه، بموجب أوامر صارمة".

"لا تقلق، إنه غير قادر الآن أن يسبب لنا أى ضرر".

"بالطبع لا: لكننى لا أود أن تنزعجى".

"ولماذا أنزعج؟".

"أراد س أن ندعوه لزيارتنا هنا فى منزلنا".

"إذن دعه يحضر، واجعله يراك وأنت معى...كذلك سام".

"أتوافقين؟".

"بالطبع أوافق. مضيقة سوداء للسيد كورنيلوس مولر، كذلك هناك طفل أسود".

ضحكا معًا بلمسة خفيفة من الخوف.

* * *

الفصل الثالث

(١)

ديفين، كما كان هذا حاله يوميًا منذ ثلاثة أسابيع "كيف حال ابن الحرام الصغير؟".

"أوه، كل شيء انتهى، إنه في أحسن حال الآن. في الليلة الماضية، رغب أن يعلم متى سوف تزورنا مرة أخرى. إنه يحبك، لا أدرى لماذا؟ كثيرًا ما يتحدث عن تلك النزهة التى قمنا بها الصيف الماضى، أيضًا لعبة الاستخفاء، يبدو أنه يظن أنك أفضل شخص فى أداء قواعد هذه اللعبة. يظن أيضًا أنك جاسوس. إنه يتحدث كثيرًا عن الجواسيس، كما كنا نفعل ونحن صغار عندما كنا نكثر الحديث عن الجنيات. ألم تفعل ذلك؟".

"هل يمكن لى أن أستعير والده لهذه الليلة فقط؟".

"لماذا؟ ما الذى حدث معك؟".

"حضر إلى هنا الدكتور بيرسفال وأنت فى خارج مكان العمل، تحدثنا كثيرًا. هل تدرى شيئًا، أعتقد أنهم يسعون لبعثى إلى خارج البلاد؟ لقد سألنى عما إذا كنت لا أمانع فى قيامى بإجراء بعض الاختبارات والفحوص الطبية كاختبارات الدم والبول، كذا أشعة على الكلى.. إلخ. قال أنه يجب أن نكون حذرين فيما يختص بالمعيشة فى الأجواء الحارة. إننى معجب به، يبدو عليه أنه من النوع الرياضى".

"رياضى فى مسابقات العدو؟".

"لا، هو فى الحقيقة ماهر فى رياضة صيد الأسماك، إنها رياضة تناصر الوحدة.

بيرسفال هذا يماثلنى إلى حد ما – لا زوجة. فكرنا أنه من المناسب أن نخرج معًا هذه الليلة ونتجول في المدينة. إننى لم أفعل ذلك منذ أمد طويل، فهؤلاء من يشاطروننى شقة السكن هم من رجال الحفاظ على البيئة، أى إنهم مجموعة من الحزانى. هل يمكنك أيها العجوز أن تتصرف لليلة كأنك رجل مطلق؟".

"آخر قطار يصلح معى يغادر محطة ليستون الساعة ١١,٣٠".

"سوف تكون الشقة كلها ملكًا لى هذه الليلة، لقد رحل رجلى البيئة لمناظرة منطقة موبوءة. يمكن إذن أن تعثر لنفسك على سرير. سرير مزدوج أو مفرد، ما تفضل؟".

"من فضلك، سرير مفرد. أنا رجل عجوز يا ديفيز. لا أدرى ما خططك أنت وبيرسفال هذا...".

"فكرت أن نتناول طعام العشاء فى مقهى المشويات، ثم نذهب إلى إحدى علب الليل لنشاهد عرضًا للعرى (الإستربتيز)".

"هل تظن أن بيرسفال من الممكن أن ينسجم مع هذه النوعية من العروض؟".

"لقد اختبرته، وهل من الممكن أن تصدق هذا؟ إنه لم يشاهد قبلاً أى عرض مثل هذا. قال لى إن بإمكانه أن يختلس بعض النظرات مع زميل يثق فيه. إنه يدرى تمامًا نوعية عملنا، وله طبيعة مشاعرنا نفسها، حيث إنه يحظر علينا أن نحضر مثل هذه النوعية من الحفلات لأسباب تتعلق بالأمن العام. وكما تعلم، لم تتح للجندى القديم جون توماس(*) أن يرفع رأسه وهو يراقب الأعداء، إنه شخص مشاكس، هذا هو الوصف اللائق به، لكن لو تعرض الجندى جون توماس للقتل، إذن فليرحمك الله، فسوف تقتل أنت أيضا. بالطبع الأمور مختلفة بالنسبة لك، فأنت رجل متزوج. يمكن لك دومًا أن تتحدث فى هذه الشئون مع سارة، لكن...".

(*) هو جندى بريطانى (١٨٨٦–١٩٥٤) شارك فى الحرب العالمية الأولى، فى فرنسا استطاع أن يتسلل إلى مكان قريب من الأعداء، وأعطى قيادته معلومات مهمة، وهذه الشجاعة أهلته لأن يحصل على وسام.

"ليس من المفروض أن نتحدث حتى مع زوجاتنا".

"لكننى أراهن أنك تفعل ذلك".

"لا، لا أفعل يا ديفيز، أو أتحدث مع الآخرين، فالكثير منهم مجندون من قبل م١٥– أوه، دائمًا ما أنسى أنهم غيروا تسميتنا إلى DI، أتعجب لما حدث هذا. أعتقد أن عندهم أيضًا إدارة مختصة بتطوير الكلمات والألفاظ".

"يبدو عليك أنه قد فاض الكيل بك".

"نعم، ربما حضور حفل كهذا يرفع قليلاً من معنوياتى. سوف أتصل بسارة تليفونيا لأخبرها – لكن بماذا؟".

"أخبرها بالحقيقة. قل لها إنك سوف تتناول العشاء مع أحد الرجال المهمين فى المصلحة. وهو عمل مهم بالنسبة لمستقبلك، وأننى سوف أجهز لك سريرًا. إنها تثق فى، تعلم أننى لن أضللك".

"ربما يكون قولك صحيحًا".

"اللعنة على كل شيء، أليست هذه هى الحقيقة خالصة؟"

"سوف أتصل بها عندما أخرج لأتناول غدائى".

"لما لا تفعل ذلك هنا، لذلك توفر بعض نقودك".

"أحب أن تكون مكالماتى خاصة".

"هل تعتقد أنهم يهتمون بالتنصت على مكالماتنا؟".

"ألا تفعل ذلك لو كنت مكانهم؟".

"أعتقد أننى سوف أفعل ذلك. لكن يا لها من مواد غبية وسخيفة تلك التى سوف يسجلونها على شرائط".

* * *

(٢)

انقضت الليلة بنصف نجاح، على الرغم من أن بدايتها كانت جيدة. كان الدكتور بيرسفال بأسلوبه غير المتحمس زميلاً جيدًا. لم يحاول قط أن يشعر كل من كاسل وديفيز بأنه يعتبر رئيسًا لهما، وعندما كان يرد ذكر الكولونيل دانترى، نجده وقد حكى عنه حكايات لطيفة ومضحكة - قال إنه عندما قابله منذ أسبوع مضى فى أسبوع ممارسة رياضة الصيد بالبندقية.. "هذا الرجل غير معجب بالفن المجرد، لا يرضى عن اتجاهاتى وما أحب. كل هذا لأننى لست مغرما بالصيد بالبندقية، فقط مغرم بصيد الأسماك".

كانوا جالسين فى بار ريموند رينو فى ذلك الوقت محشورين وراء مائدة صغيرة بالكاد تكفى لوضع ثلاث كئوس من الويسكى، هذا بينما كانت هناك فتاة جميلة تتمايل وتتقصع داخل شبكة معلقة.

قال ديفيز: "كم أود أن أشبكها بسنارتى".

كانت الفتاة تشرب من زجاجة خمر معلقة فوق الشبكة بخيط، وبعد كل جرعة تنزع عنها قطعة من ملابسها بلا اهتمام، أخيرًا أمكن للجميع أن يشاهدوا خطوط أردافها وراء عيون الشبكة، كما لو كانت أرداف فرخة تظهر داخل شبكة ربة منزل تسير فى أحد شوارع منطقة سوهو. مجموعة من رجال أعمال مدينة بيرمنجهام، أخذوا يصفقون بكل حمية وحماس. واحد منهم أخرج كارت ناديه عاليًا فوق رأسه ملوحا به، ربما لكى يظهر للجميع مدى عظم مستواه المادى.

تساءل كاسل: "ما الذى تصيده؟".

قال بيرسفال: "أساسا هى أسماك اللوت واللبيس".

"وهل هناك أى فرق بينهما؟".

"يا زميلى العزيز، كأنك تسأل صياد وحوش محترف، هل هناك فرق ما بين الأسد والنمر".

"ما الذى تفضله بينهما؟".

"المسألة لا تختص بما أفضل، أنا فقط أحب صيد السمك – سمك اللبيس هو الأقل ذكاء عن اللوت، لكن هذا لا يعنى أنه أسهل صيدًا. إنه يحتاج إلى تكنيك مختلف. هو مقاتل شرس .. يقاتل حتى النفس الأخير".

"وماذا عن اللوت؟".

"إنه الملك حقًا – إنه يخاف سريعًا – سواء سمع صوت صرير حذاء أو عصا، أى صوت يجعله يهرب سريعا، لذا عليك أن ترسى خيطك بالضبط فى المكان المناسب من الرمية الأولى وإلا..".

أحدث بيرسفال إشارة بيده، كما لو أنه يسحب إليه فتاة أخرى عارية، تخططت بألوان سوداء وبيضاء بفضل تناغم إشعاعات الأضواء. ظهرت كأنها حمار وحشى.

قال ديفيز وهو متحسر: "يا لها من مؤخرة!". جلس مكانه بينما هناك كأس مليئة بالويسكى على منتصف المسافة إلى شفتيه، يلاحظ الخدود وهى تتأرجح بدقة الساعات السويسرية نفسها، بحركة ماسية.

قال بيرسفال "بهذا كله، أنت لا تحسن أبدًا إلى ضغط دمك".

"ضغط دمى".

"كنت قد أخبرتك بأنه ضغط مرتفع".

"لا يمكن لك أن تزعجنى هذه الليلة بذلك. إنها ريتا رولز العظيمة بذاتها الليلة، ريتا الأولى والوحيدة".

"يجب أن تتعرض لفحص كامل إذا كُنت حقًا تفكر فى الخدمة بالخارج".

"إننى أشعر بكامل صحتى يا بيرسفال. لم يحدث أن شعرت بأفضل من ذلك".

"هنا يكمن الخطر".

"أنت تقريبًا جعلت الخوف يمسك بتلابيبى. تقول صرير حذاء أو عصا، هنا أدرك لماذا يتحتم على سمك اللوت أن...". أخذ رشفة من كأس الويسكى، بدا على وجهه تكشيرة كأنما هو يتجرع دواء مرًا، لذا وضع الكأس مرة أخرى على المائدة.

قام الدكتور بيرسفال بالضغط على ذراعه قائلاً: "إننى كنت أهزل معك يا ديفيز، أنتَ فى الواقع تشبه سمك اللبيس".

"هل تعنى أننى سمكة يسهل صيدها؟".

"يجب عليك أبدًا ألا تستهين بسمك اللبيس، فهو لديه جهاز عصبى دقيق. إنه مقاتل جيد".

"إذن أنا أشبه بالأكثر سمك القد".

"لا تحدثنى عن سمك القد، أنا لا أصيد أبدًا هذه النوعية من الأسماك".

انتشرت الأضواء ساطعة مرة أخرى. لقد انتهى العرض. وكل شيء، كما قررت إدارة العرض، يجب ألا يكون هناك تعارض مع القمة الرائعة التى بلغتها ريتا رولز فى عرضها المتع. تأخر ديفيز قليلاً عند البار كى يجرب حظه مع ماكينة فواكه. كان قد استخدم كل قطع نقوده المعدنية، لذا اضطر إلى أن يستعير من كاسل قطعتين.

عادت إليه مشاعر الإحباط. يبدو أن مناقشات الدكتور بيرسفال قد أزعجته، لذا قال "هذه ليست ليلتى".

قال بيرسفال: "ما رأيكما أن تحضرا معى إلى شقتى، لنستكمل سهرة الليلة".

"كنت أظن أنك تحذرنى من الإفراط فى الشرب".

"يا صديقى العزيز، لقد كنت أبالغ. مع ذاك، يعتبر الويسكى من أسلم المشروبات الكحولية".

"بدأت أشعر بأعراض بالمرض الآن".

فى شارع وندميل العظيم، كانت العاهرات واقفات داخل ممرات الأبواب تحت ظلال حمراء ينادين "تصعد معى يا حبيبى؟".

قال ديفيز: "أعتقد أنك سوف تحذرنى من ذلك أيضًا؟".

"حسنا، أرى أن انتظام الزواج أقل عبئًا على ضغط الدم".

غادرهما بعد ذلك الدكتور بيرسفال ليدلف إلى منزله القائم فى شارع ألنبى. كان منقوشا بجوار الباب الحرفين "D.6"، كما لو كان هذا المنزل من وحدات المؤسسة القديمة. شاهده كل من كاسل وديفيز وهو يسير على أطراف أصابع قدميه لكى لا يتبلل حذاؤه — هذا التصرف يعتبر فعلاً شاذًا لرجل اعتاد أن يخوض حتى ما بعد ركبتيه فى مياه الجداول وهو يصطاد.

قال ديفيز: "إننى آسف لأنه حضر معنا. كان من الممكن أن نقضى ليلة هنيئة بدونه".

"كنت أظن أنك معجب به".

"هذا ما حدث فعلا، لكنه أثار أعصابى الليلة بكل حكاياته عن صيد السمك، كذلك عن تكرار حديثه عن ضغط الدم، ما شأن ضغط دمى معه؟ هل هو حقًا طبيب؟".

"لا أعتقد أنه مارس مهنة الطب لعديد من الأعوام. إنه يعتبر ضابط الاتصال عينه س كى يشرف على مواقع الحرب البكتريولوجية ؛ وأعتقد أنه من الضرورى على من يرأس هذا الموقع أن يحوز على مؤهل طبى".

"إن هذا المكان الذى يدعونه (بورتون) يجعلنى أنكمش فى ذاتى وأرتعش. الكثيرون يتحدثون عن القنبلة الذرية، لكنهم يتجاهلون تمامًا تلك المؤسسة المندسة فى أعماق الريف، ولا أحد يجرؤ أن يسير قريبًا منها. لا أحد يمكنه أن يرتدى لباسًا واقيًا ضد

البكتريا، وإذا تم الاستغناء عن استخدام القنبلة الذرية، فما زالت هناك أنبوبة الاختبار الصغيرة المهلكة".

استدارا وسارا فى شارع كلاريدج – كانت هناك سيدة نحيفة القوام ترتدى فستانًا طويلاً تصعد سيارة رولز رويس، يتبعها رجل عبوس يستجلى ساعته خلسة – بدا عليهما كما لو كانا اثنين من الممثلين فى مسرحية إدواردية.... إنها الثانية صباحا. لاحظ كاسل وهو يصعد حتى شقة ديفيز أن مشمع السلم به فتحات صغيرة تشبه تلك التى ترى فى الجبن من نوع جروير. عندما دخلا الشقة، لاحظ أيضًا أن باب المطبخ مفتوح وهناك أكوام من الأطباق المستخدمة تزحم الحوض. قام ديفيز بفتح دولاب المطبخ ليظهر عدد من زجاجات الخمر شبه الفارغة – قوانين الحفاظ على البيئة لا تسرى داخل هذه الشقة – حاول ديفيز أن يعثر على زجاجة بها من الويسكى ما يكفى كأسين، قال: "حسنا، سوف نمزج عدة أنواع مع بعضها، علما أن ما تبقى فى كل هذه الزجاجات هو خليط أيضا"؛ لذا قام بخلط ما تبقى فى زجاجة جونى ووكر مع ما تبقى فى زجاجة هوايت هورس، بذلك استطاع أن يكون ربع زجاجة.

تساءل كاسل: "ألا يوجد لديكم من يهتم بالنظافة؟".

"هناك امرأة تأتى مرتين كل أسبوع، ونحن نحفظ لها كل المخلفات؟".

فتح ديفيز بابا قائلاً "هذه هى غرفتك. أخشى القول إن السرير غير معد للاستخدام، سوف تحضر المرأة غدا". ثم التقط منديلاً قذرًا من الأرض وحشره داخل درج كنوع من التنظيم المنزلى، ثم قاد كاسل مرة أخرى إلى غرفة الاستقبال وأزاح بعض الصحف فوق مقعد ملقيا إياها على الأرض.

قال ديفيز "أفكر فى أن أغير اسمى رسميًا".

"تغيره إلى ماذا؟".

"ديفيز الساكن فى شارع ديفيز، هذا له وقع لطيف وراق". ثم وضع قدمه فوق الأريكة مضيفا: "كما تعلم، ذلك الخليط من الخمر الذى ابتكرته الآن له طعم رائع، إنه

ابتكار وسوف أدعوه باسم هوايت ووكر، وربما أكتسب ثروة من تطبيق هذه الفكرة، ويمكن لك أن تنشر إعلانات عن هذه النوعية من الخمور بوضع شكل صورة فتاة جميلة بجوار الزجاجة. ما الذى تظنه فى الدكتور بيرسفال هذا؟".

"ظهر عليه أنه متشبع بعواطف الود والصداقة، لكن هذا لا يمنعنى من أن أبدى نوعًا من التعجب".

"ما هو؟".

"لماذا كلف نفسه أن يقضى الأمسية معنا، ما الذى يريده؟".

"كان يهدف إلى أن يقضى أمسية ظريفة مع أناس يمكن أن يتحادث ويتجاوب معهم. لماذا تنظر إلى أبعد من ذلك؟ ألم تتعب من حرصك الدائب على جعل فمك مغلقا وسط صحبة متنوعة؟".

"إنه لم يفتح فمه بتوسع ورحابة حتى معنا".

"لقد فعل ذلك قبل حضورك".

"عن ماذا؟".

"عن المؤسسة القائمة فى منطقة بورتون. من الواضح أننا نتفوق عن الأمريكان فى نوعية معينة من المهام، وإنهم قد سألونا أن نركز بحثنا عن شخص بسيط لا يهاب الموت، يكون مناسبا للعمل على ارتفاعات معينة، فى الوقت نفسه يمكن له أن يتعايش مع الظروف الصحراوية... مع تفصيلات كثيرة أخرى، مثل التكيف مع درجة حرارة الجو. ذلك ربما يشير إلى الصين، أو ربما إفريقيا".

"لكن لما يخبرك بكل هذه المعلومات؟".

"حسنًا، من المفترض أننا نعرف القليل عن الصينيين عن طريق اتصالاتنا الإفريقية، فمنذ تقريرنا الذى قدمناه عن زنزبار، أصبحت سمعتنا فى الذرى".

"حدث هذا منذ عامين، والمعلومات التى صدرت فى هذا التقرير ليست مؤكدة حتى الآن".

"قال لى أنه لا يتوجب علينا أن نزيد هذا الموضوع بحثا، وألا نطلب استفسارات إضافية من عملائنا، فهذا موضوع سرى للغاية، فقط علينا أن نجعل عيوننا مفتوحة بالنسبة إلى أى إشارة يمكن أن ترد فى تقرير معين تؤكد أن الصينيين مهتمين بـ "هيل بارلور"، ثم علينا أن نبلغه بهذه المعلومات".

"لما تحدث معك فى هذا الشأن ولم يبلغنى أنا؟".

"أوه، أعتقد أنه كان ينتوى أن يتحدث معك، لكن أنت تأخرت قليلاً عنا".

"لقد استبقانى دانترى. كان فى إمكان بيرسفال أن يحضر إلى مكتبنا إذا أراد أن يتحدث فى أى شأن".

"ما الذى يزعجك؟".

"أنا فقط متعجب، هل حقًا أراد أن يخبرك بما هو حقيقى أم لا".

"إذن ما السبب ...؟".

"ربما يود أن يزرع حديثا وواقعة مزيفة".

"بالطبع هذا لا يصلح معنا، نحن لسنا من مرددى الأحاديث، سواء كنت أنت أو أنا أو واطسن".

"هل تحدث فى هذا الشأن مع واطسن؟".

"لا – فى الحقيقة – ردد أمامى المثال الخاص بالصناديق المحكمة الغلق لكى لا تتسرب المياه داخلها. قال أن الموضوع فى غاية السرية، لكن هذا لا يسرى عليك، هل يسرى؟".

"من الأفضل ألا تدعهم يعلمون أنك قد تحدثت معى فى هذا الشأن".

"أيها الرجل العجوز، يبدو أنك قد أصبت بمرض المهنة، أى الشك".

"نعم، إنها عدوى مريعة، لهذا أفكر أن أعتزل هذا العمل".

"لكى تزرع الخضروات؟".

"لكى أفعل أى شيء غير سرى أو له أهمية، وإلى حد ما لا يسبب ضررًا. مرة كدت التحق بوكالة للإعلانات".

"كن حذرا، هؤلاء هم أيضًا لديهم أسرار ... أسرار المهنة".

دق جرس التليفون القائم عند مقدمة السلالم، تشكى ديفيز: "معقول أن يحدث هذا فى تلك الساعة المتأخرة. هذا فعل غير اجتماعى البتة، يا ترى من المتحدث؟" ثم جاهد كى ينهض من فوق الأريكة.

اقترح عليه كاسل: "لعلها الراقصة ريتا رولز تطلبك".

"صب لنفسك كأسًا أخرى من هوايت ووكر".

لم تتح الفرصة لكاسل لكى يصب لنفسه كأسًا قبلما ينادى عليه ديفيز قائلاً "إنها سارة، تطلبك يا كاسل".

كانت الساعة فى حدود الثانية والنصف صباحًا، لذا داهمه القلق. هل يا ترى حدثت تعقيدات مع الغلام وهو فى العزل؟ سأل "سارة، ما الأمر، هل هو سام؟".

"يا حبيبى، أنا آسفة، أنت لم تكن فى السرير، أم كنت؟".

"لا. ما الموضوع؟".

"إننى خائفة".

"بخصوص سام؟".

"لا، ليس سام. لكن جرس التليفون دق عندى مرتين منذ منتصف الليل، ولا أحد يرد".

قال مستريحًا "النمرة المخطئة نفسها فى الرقم، هذا يحدث دائمًا".

"هم يعلمون أنك غائب عن المنزل. إننى خائفة يا موريس".

"ما الذى يمكن أن يحدث فى شارع كنجز؟ هناك مركز للبوليس يبعد عنا بمئتين ياردة، أيضًا معك بولر، أليس هو بجوارك؟".

"إنه مستغرق فى النوم، يصدر منه شخير".

"لو كان فى استطاعتى إذن لكنت قد عدت، لكن لا توجد قطارات الآن، ولن يجرؤ أى تاكسى أن ينقلنى فى هذه الساعة".

قال ديفيز: "يمكن لى أن أصطحبك بسيارتى".

"لا، بالطبع لا".

قالت سارة "لا ماذا؟".

"كنت أتحدث مع ديفيز. قال إنه مستعد أن ينقلنى بسيارته".

"أوه، لا. لا أود ذلك. أننى أشعر بالراحة بعدما تحدثت معك. سوف أوقظ بولر".

"هل حالة سام مطمئنة؟".

"إنه فى أحسن حال".

"لديك رقم مركز البوليس، سوف يحضرون إليك فى ظرف دقيقتين".

"أنا إنسانة غبية، مجرد غبية، أليس كذلك؟".

"غبية محبوبة".

"بلغ ديفيز أسفى، واستمتعا بالشرب".

"تصبحى على خير يا حبيبتى".

"تصبح على خير يا موريس".

كان استخدام اسمه الأول علامة على الحب ... عندما يكونان معًا، يعتبر استخدام اسمه الأول علامة على الرغبة فى تبادل الحب. أما مناداة الإعزاز، مثل: يا عزيزى ويا عزيزتى؛ فهى تمثل تحيات كل يوم عندما يكونان معًا. لكن استخدام الاسم الأول له خصوصية معينة، لا يجب الإفصاح عنها بعيدًا عن نطاق القبيلة. وفى قمة ممارسة الحب، تصيح عاليًا مرددة اسمه الأول. سمعها الآن تضع السماعة، ظل قليلاً مستمرًا فى لصق السماعة لأذنه.

تساءل ديفيز: "ليس هناك ما تشكو منه سارة؟".

"هذا لا يحدث مع سارة أبدًا".

عاد كاسل إلى غرفة الاستقبال وصب لنفسه كأسًا، قال: "أعتقد أن تليفونك مراقب".

"كيف علمت ذلك؟".

"لا أعلم، كل ما فى الأمر هو نوع من الحدس، أحاول الآن تذكر ما الذى جعل هذه الفكرة تخطر على بالى".

"نحن لسنا نعيش فى العصر الحجرى. لا أحد فى أيامنا هذه يعلم ما إذا كان تليفونه مراقب أم لا".

"إلا إذا كانوا مهملين أو أنهم يودون أن تعلم أن تليفونك مراقب".

"ما الذى يدعوهم لجعلى أدرك ما يفعلونه.؟"

"ربما لإخافتك، من يدرى؟".

"على أى حال، لماذا يراقب تليفونى؟".

"إنها مسألة لها صلة بمعايير الأمن. إنهم لا يثقون فى أحد، لا سيما أناس فى مراكزنا الوظيفية. نحن نمثل عندهم مصدر خطورة متعاظمة. من المفترض أننا على علم بقمة تلك الأسرار الملعونة".

"أننى لا اشعر بأننى أمثل مصدر خطورة".

"شغل الجرامافون".

يحتفظ ديفيز بمجموعة ضخمة من موسيقى البوب، منتظمة بطريقة تفوق أى شيء آخر داخل هذه الشقة. كانت مصنفة بكل دقة كما لو كانت ملكًا للمتحف البريطانى. هى من أفضل أسطوانات البوب المرتبة طبقًا لأعوام إنتاجها، وسريعًا ما ترد لذاكرة ديفيز أى منها، كما لو أنه يحرص على الفوز بسباق الدربى".

قال: "أنت بالطبع تفضل سماع الموسيقى القديمة الكلاسيكية، أليس كذلك؟".. لذلك وضع موسيقى قطعة "ليلة يوم صعب".

قال كاسل: "اجعل الصوت أعلى من ذلك".

"لا يستحب أن يكون صوت هذه القطعة بالذات عاليا".

"مع ذلك، ارفع درجة الصوت".

"إنها أفضل وهى هكذا".

"سوف أشعر بالخصوصية أكثر".

"لعلك تظن أيضًا أن هناك أجهزة تنصت داخل الشقة؟".

"لن أندهش إذا حدث ذلك".

"بالتأكيد أصابتك العدوى"،

"محادثة بيرسفال معك تلك تشغل بالى ؛ أنا بكل بساطة لا أصدقها...رائحتها مزعجة. أعتقد أنهم يسعون وراء اكتشاف ثغرة ويحاولون معرفة مصدرها".

"ذلك لا يزعجنى أيضًا، فهذا من صميم عملهم. ألا ترى ذلك؟ لكن ليس من الشطارة أن يتمكن أحدهم من باكتشاف الخدعة هكذا سريعًا".

"نعم – مع ذلك، ربما تكون قصة بيرسفال هذه حقيقية وصحيحة. حقيقية لكن قد تم اكتشاف شيئًا ما. وأى واحد مشتبه فيه سوف يعمل على اكتشاف الملغوب إذا...".

"إذن أنت تعتقد أنهم ربما يظنون أننا الجواسيس؟".

"نعم، واحد منا أو كلينا".

"لكن ربما نحن نعلم جيدًا أننا لسنا كذلك، إذن من يهتم؟ لقد فات موعد نومنا يا كاسل، إذا كان هناك ميكرفون تحت المخدة لن يسمعوا شيئًا سوى شخيرى".

ثم قام بإيقاف الموسيقى قائلاً: "نحن لا نصلح أن نكون عملاء مزدوجين، سواء أنا أو أنت".

خلع كاسل ملابسه وأطفأ النور، كانت تلك الغرفة الصغيرة مزدحمة وغير مرتبة. حاول أن يرفع ضلفة الشباك، لكن الحبل كان مقطوعًا. أخذ يحملق فى شارع بداية النهار. لا أحد يمر؛ ولا حتى رجل بوليس، فقط هى سيارة أجرة وحيدة تقف على بعد من شارع سيفيز فى اتجاه شارع كلاريدج. دوى صوت سيارة بوليس من مكان ما فى حدود شارع بوند، ثم بدأ تساقط مطر خفيف. هذا أعطى وهجًا قاتم اللون للرصيف، يشبه معطف أمطار رجال البوليس. ضم ستارة النافذة واستلقى على السرير، لكن النوم جافاه. هناك

تساؤل بدأ يطارده ما جعله متيقظا لفترة طويلة: هل دائمًا ما توجد سيارة أجرة تقف دومًا قريبًا من شقة ديفيز؟ وهل عليه أن يسير حتى الاتجاه الآخر من شارع كلاريدج كى يكتشف ذلك؟ قبلما يستغرق فى النوم، داهمه تساؤل آخر قضى مضجعه.. تعجب، هل ربما هم يستخدمون ديفيز كى يراقبونه؟ أو هل هم يستخدمون ديفيز البرىء لكى يصلوا إليه عن طريق ورقة عملة عليها علامة؟ إنه لا يصدق قصة دكتور بيرسفال عما ذكره عن هيئة بورتون؛ مع ذلك، كما أخبر ديفيز، ربما تكون القصة حقيقية.

* * *

الفصل الرابع

(١)

بدأ كاسل ينشغل فعلاً على ديفيز. فى الحقيقة، كان ديفيز يهزل من عصبية زميله، لكن مع ذلك، كانت هذه العصبية عميقة ومتوغلة، وقد بدت مسألة عدم مشاغبة ديفيز للآنسة سنثيا علامة غير مريحة، كذلك أصبحت نوعية أفكار ديفيز ليس لها أدنى صلة بصميم عملهم. مرة، عندما سأله كاسل: "من هو العميل ٤ / ٦٩٣٠٠ ؛" قال ديفيز: "إنها غرفة مزدوجة فى فندق بولانا تطل على البحر". مع ذلك، لا يمكن القول إن هناك ما يعيب صحته؛ لقد أجرى فحصا طبيا كاملا بمعرفة الدكتور بيرسفال.

قال ديفيز: "كالعادة نحن فى انتظار وصول برقية من زائير، علمًا بأن العميل ٥٩٨٠٠ لا يفكر إطلاقا فينا، بينما هو جالس هناك فى رحاب أمسية حارة يستمتع بكل المشهيات بلا اهتمام بما يجرى فى العالم".

قال كاسل "يجب أن نسجل ذلك على الورق ونرسل تنبيها نقول فيه: ١٨٥، لا تكرار، لا إجابة تصل منه"... فعل ذلك ووضع الورقة فى درج خشبى متنقل لكى تتعامل معها سنثيا كالمعتاد.

كان ديفيز فى هذا اليوم مزدهيا، فهناك منديل حريرى قرمزى مع زهر أصفر يتدليان من جيب الجاكت يشبهان علما يتباهى فى يوم ساكن، أما ربطة عنقه فهى بلون أخضر بنقط قرمزية. حتى المنديل الذى يستخدمه، فإنه كان يتدلى من كم قميصه ويبدو جديدًا– بلون أزرق طاووسى – إنه بالتأكيد قد ارتدى هذه الملابس الفخيمة كأنه ينتوى اللحاق برحلة بحرية.

سأله كاسل: "هل تمتعت بإجازة أسبوعية جيدة؟".

"نعم، أوه نعم. بطريقة ما. هادئة للغاية. فقد رحل زملائى فى السكن من رجال البيئة بعيدًا لكى يتشمموا دخان مصنع فى جلوسستر، مصنع لبان".

حضرت إليهما فتاة اسمها باتريشيا (هذه الفتاة ترفض دومًا أن يدعوها أحد باسم الدلع وهو بات) من غرفة السكرتارية، واستلمت منهما برقية وحيدة. هذه الفتاة مماثلة لسنثيا، ذات منبت عسكرى، فهى ابنة عم البريجادير توملينسون: فعملية تعيين أحد يكون على صلة قرابة مع رجال فى الخدمة فى هذه المؤسسة يعتبر أمرًا جيدًا فى مجال الأمن، فهذا ربما يسهل عملية المتابعة، ما دام كثير من العلاقات والارتباطات سوف يكون بالطبع مزدوج الشكل.

سألت الفتاة، كما لو كانت معتادة على العمل فى أمور أكثر أهمية مما يجرى فى قسم ٦أ "هل هذا كل ما عندكم؟".

أخبرها كاسل وهو يغلق الباب وراءه: "أخشى يا بات أن هذه البرقية تمثل كل قدرتنا فيما يمكن أن ننجزه اليوم".

قال له ديفيز: "ما كان واجبًا أن تغيظها بهذا الشكل، وربما تشكونا إلى واطسن فيجعلنا هذا مستمرين فى العمل بعد انتهاء اليوم الدراسى ونحن نكتب برقيات".

"بالمناسبة، أين هى سنثيا؟".

"هذا يوم إجازتها؟".

قام ديفيز بتسليك زوره بطريقة تفجيرية — كعلامة على بدء واحدة من مغامراته — ثم تلون وجهه بلون أحمر.

قال: "كنت أنتوى أن أسألك ...هل لديك مانع أن أزوغ الساعة الحادية عشرة؟ وسوف أعود الساعة الواحدة ظهرًا، هذا وعد منى، فليس لدينا عمل عاجل مطلوب إنجازه؛ إذا طلبنى أحد يمكن أن تقول له إننى قد ذهبت إلى طبيب الأسنان".

"المفروض أن ترتدى بذلة سوداء، بذلك يمكن لك أن تقنع دانترى، فهذه البهرجة التى تتزين بها لا تتناسب أبدًا مع زيارة لطبيب الأسنان".

"بالطبع أنا لن أذهب لطبيب الأسنان..فى الحقيقة، عندى موعد مع سنثيا التى قالت إنها سوف تقابلنى فى حديقة الحيوانات لكى نشاهد معًا حيوانات الباندا الضخمة. هل تعتقد أنها قد بدأت تضعف من جهتى؟".

"أنت فى الواقع أسير الغرام، هل تنكر ذلك؟".

"كل ما أنا فى حاجة إليه يا كاسل هى مغامرة جدية. مغامرة غير محددة المدة. شهر، سنة، قرن من الزمان. إننى أشعر بالتعب من الجهد الذى أبذله فى ليلة واحدة. أعود إلى شقتى من شارع كنجز بعد حضور حفل ينتهى الساعة الرابعة صباحا وبصحبتى عاهرة غبية. فى صباح اليوم التالى؛ أظن أن الأمور قد سارت بشكل جيد والفتاة كانت ممتازة. مع ذلك، كنت أتمنى لو كان أدائى أفضل من ذلك، وكان من الممكن أن يتحقق هذا لو لم أخلط الخمور التى عندى...ثم بعدها أفكر، كم سوف يكون حالى أفضل بينما سنثيا ترحل معى إلى مدينة لورنزو ماركيز. أنا فى الواقع أستطيع أن أتحدث وأتسامر مع سنثيا ؛ وهى فى استطاعتها تمامًا أن تساعد وتعين الجندى القديم جون توماس عندما تتحدث قليلاً عما تعانيه فى عملك. أما فتيات وطيور تشيلسى، ما أن تنتهى المتعة معهن، يردن فى الحال معرفة أشياء محددة. ما نوعية عملك؟ أين يقع مكتبك؟ وقد اعتدت معهن التظاهر بأننى ما زلت أعمل لحساب الدرماستون، لكن كل إنسان يعلم أن هذا المكان قد أغلق أبوابه، إذن ما الذى يجب أن أدلى به؟".

"أن تذكر شيئًا آخر فى المدينة".

"لا شيء يجعل هذه الطيور مشتاقة ومتلهفة أكثر من ذكر المال".

بدأ فى تنظيم مكتبه، أغلق ملفه المكون من بطاقات، وكانت هناك صفحتان مكتوبتن على الآلة الكاتبة فوق مكتبة، قام بوضعهما فى جيبه".

قال كاسل: "ها أنت تأخذ مرة أخرى أشياء من مكتبك؟ كن على حذر من دانترى، لقد ضبطك مرة من قبل".

"لقد انتهى هذا الرجل من التدقيق فى قسمنا، ويتجول الآن فى الإدارة رقم ٧. على أى حال، هذا كله ليس سوى الكلام الفارغ نفسه، وللعلم أقول لك إننى سوف أتبع التعليمات وأدمر أى مستند بعد قراءته، أعنى كل هذه الأوراق الملعونة. سوف أجعل ما بها "مستقرا فى ذاكرتى"؛ بينما أنا فى انتظار وصول سنثيا . هى بالتأكيد سوف تتأخر فى الوصول إلى موعدنا".

"تذكر حادثة درايفوس. لا تلقى بشىء فى سلة المهملات بالشارع، حتى لا يعثر عليها أحد الزبالين".

"سوف أحرق الصفحتين أمام سنثيا عربونًا للمحبة". تقدم نحو الباب ثم رجع مرة أخرى قائلاً : "أرجو أن تتمنى لى التوفيق يا كاسل".

"بالطبع، ومن كل قلبى".

هذه الجملة المبتذلة صدرت بكل حرارة وبلا وعى من لسان كاسل. هذا أدهشه حقا، كما لو أنه يخترق كهفًا مألوفًا ارتاده يومًا فى أجازة كان قد قضاها على شاطئ البحر، حيث لاحظ مرسومًا على صخرة صورة مألوفة تمثل رسمًا بدائيًا لوجه إنسان، طالما أخطأ فى تفسيره قبلا ظانا إياه أنه من إنشاء نوع من الفطريات.

بعد نصف ساعة، رن عنده جرس التليفون، سمع صوت نسائى يقول: "ج . و يود التحدث مع أ. د".

رد كاسل: "للأسف، لا يمكن أ. د أن يتحدث مع ج. و".

تحدث الصوت النسائى متشككا: "من المتحدث؟".

"شخص يدعى م. ك".

"انتظر لحظة من فضلك"... وصله بعد ذلك فاصل من العواء بنبرة عالية فى سماعة التليفون، ثم صدر صوت واطسن بلا شك من هذه الخلفية الكلبية: "أقول، هل المتحدث معى هو كاسل؟".

"نعم".

"يجب أن أتحدث مع ديفيز".

"ليس موجود الآن هنا".

"أين هو؟".

"سوف يعود الساعة الواحدة ظهرًا".

"هذا وقت متأخر، أين هو الآن؟".

"ذهب لعيادة طبيب الأسنان". قال كاسل ذلك مترددًا، فهو لا يحبذ أن يتورط فى مشكلات كذب الآخرين؛ فهذا يؤدى التى تعقيد كثير من الأمور.

"يجدر بنا أن نحدث تشويشًا فى التليفون" حدثت هنا حالة التخبط المعتادة: واحد منهما ضغط على الزر الأيمن أسرع من اللازم، لذا عاد الإرسال العادى، بينما الآخر يحدث التشويش. أخيرًا عندما أصبحت أصواتهما واضحة مرة أخرى، قال واطسن: "هل يمكنك أن تعيده فورا إلى مكان العمل؟ إنه مطلوب للحضور إلى مؤتمر".

"لا أحسن حقًا أن أنتزعه من كرسى طبيب الأسنان. على كل حال، أنا أيضًا لا أعلم من هو طبيبه، وهذا ليس مدونا فى السجلات".

"لا؟" قالها واطسن وهو مستاء، أضاف: "إذن بالتأكيد ترك مذكرة مكتوبًا فيها عنوان طبيبه".

هو ذا واطسن يود أن يمارس دور وكيل النيابة مجددًا، لكنه لم يفلح، فربما كان تكامله الواضح يقف عقبة فى سبيل قدرته على إطلاق الأحكام، كذا اللهجة المتشبعة بالأخلاق

والسلوك الحسن، التى يجب أن تستغل فقط بواسطة القضاة، وليس جديرا أن يتحلى بها صغار المستشارين. لكن فى إدارة "الشئون الخارجية"، استطاع هذا الرجل أن يصعد سريعًا، تساعده فى ذلك تلك الخاصية التى لم تسنده عندما كان فى السابق محاميًا، وجعلته يصعد سريعًا إلى مقام أعلى سبق به رجلاً مثل كاسل الذى يعتبر من جيل أقدم.

قال واطسن: "كان من المفروض أن يخطرنى قبل خروجه".

"ربما حدث أنه شعر بألم بالغ فى أسنانه".

"الرئيس س يود أن يكون هو بالذات حاضرًا، فهناك تقرير معين يود أن يناقشه فيما بعد. لقد استلمتم بالطبع هذا التقرير، كما أظن".

" لقد ذكر لى موضوع تقرير جديد، أعتقد أنه يماثل كل التقارير الفارغة التى نتسلمها".

"تقول فارغة؟ إنه فى قمة السرية، ما الذى فعله بهذا التقرير".

"أعتقد أنه قد أودعه فى الخزانة".

"هل لديك مانع أن تتأكد من ذلك؟".

"سوف أسأل السكرتيرة الخاصة به – أوه، لا أستطيع، إنها فى إجازة اليوم. هل هذا له درجة قصوى من الأهمية؟".

"بالتأكيد س يظن ذلك. أعتقد أنه لازمًا عليك أن تحضر أنت أيضًا إلى هذا المؤتمر ما دام هو غير متاح، على الرغم من أن هذه المسألة تعتبر حمامة من ضمن حمامات ديفيز. الغرفة رقم ١٢١ الساعة ١٢ بالضبط".

(٢)

هذا المؤتمر لم تكن له أهمية عاجلة، كان هناك عضو من القسم م١٥ حاضرا، وهو شخص لم يشاهده كاسل من قبل. كانت النقطة الجوهرية فى موضوع جدول الأعمال هى ضرورة إحداث تفرقة واضحة تمامًا أكثر من الماضى فى تحديد دقيق لمسئوليات كل من م١٥ ، م١٦. قبل الحرب، لم تعمل إدارة م١٦ قط داخل الأراضى البريطانية، والأمن الداخلى ترك كلية للإدارة م١٥. هذا النظام كسر فيما يختص بإفريقيا مع سقوط فرنسا وضرورة إرسال مندوبين من الأراضى البريطانية ليستقروا فى المستعمرات التابعة لحكومة فيشى؛ لكن مع عودة السلام، فإن النظام القديم لم يعد إلى نصابه المعتاد، فقد توحد كل من تنزانيا وزائير بشكل رئيسى ليصبحا دولة واحدة وتصبح عضوًا من أعضاء مجموعة الكومنولث، لكن كان من الصعوبة بمكان اعتبار جزيرة زنزبار مستعمرة بريطانية بينما كان ينتشر فيها بعض المعسكرات الصينية. وقد حدث الارتباك عندما أصبح لكل من م١٥و م١٦ مندوبين لهما فى دار السلام، والعلاقات بينهما لم تكن دائمًا ودية أو بها أى نوع من التقارب.

قال س وهو يفتتح المؤتمر: "المنافسة هى من الأمور المحمودة إلى حد ما، لكن أحيانًا ما نجد أن عنصر الثقة المتبادلة ناقصًا. نحن لسنا دائمًا ما نتبادل آثار العملاء، وأحيانًا ما كنا نكلف نفس الرجل ليعمل فى التجسس وضد التجسس".. توقف عن الحديث ليعطى رجل م١٥ فرصة لكى يعبر عن رأيه.

كان هناك عدد قليل من الرجال الذين يعرفهم كاسل، ما عدا واطسن. كان هناك رجل ضئيل الحجم رمادى الشعر له تفاحة آدم بارزة، قيل عنه إنه أقدم رجل فى المؤسسة العامة، اسمه شلتون. بدأ التحاقه بالعمل قبل حرب هتلر. هذا الرجل لم يخلق لنفسه أعداء على الإطلاق، والآن تعتبر منطقة عمله هى إثيوبيا. كان هذا الرجل مصدرًا موثوقًا به للتعرف على إنجازات رجال الأعمال فى القرن الثامن عشر، وكثيرًا ما كان يستدعى لاستشارته فى صالة مزادات سوثبى. أيضًا كان من الحضور من يدعى ليكر، له شعر بلون جنزبيلى

وشارب جنزبيلى أيضًا، مهمته تنحصر داخل حدود الجمهوريات العربية القائمة فى شمال إفريقيا.

توقف رجل م١٥ عن التحدث عن اشتباك الخيوط، رد عليه س قائلاً: "حسنا، هذا هو لب الموضوع، وتمثل لب اتفاقية روما. أعتقد أننا نعلم مواقع كل منا أفضل. كان أمرًا محمودًا لك حضورك معنا هنا يا بولر".

"بولين".

"آسف، يا بولين. إذا لم تظن أنه ينقصنا كرم الضيافة، أخبرك أن لدينا بعض الأمور الداخلية التى هى فى حاجة إلى نقاش مستفيض".

عندما أغلق بولين الباب وراءه، قال س "إننى لا اشعر أبدًا بالسعادة فى محضر هذه النوعيات من رجال م١٥. هم دائمًا ما يتلفعون بجو بوليسى، وهذا أمر طبيعى بالتأكيد لأن طبيعة عملهم تختص مكافحة التجسس. بالنسبة لى، أرى أن التجسس هو عمل الناس المحترمين، لكن بالطبع، أنا من جيل قديم".

من ركن بعيد، تحدث بيرسفال. لم يكن كاسل قد لاحظ تواجده من قبل، قال: "إننى دائمًا ما كنت معجبا بالعاملين فى م١٩".

تساءل ليكر، وهو يربت على شاربه، الذى كان على وعى كامل من أنه واحد من قلائل العسكريين النابغين ضمن رجال م١ المتعددين "ما مهام م١٩؟".

قال بيرسفال: "لقد نسيت، لكن دائمًا ما كنت ألاحظ أنهم ودودون".

هنا عوى شلتون، فتلك كانت دائمًا هى عادته عندما يضحك.

قال واطسن: "أليس مهمتهم هى التعامل مع طرق الهروب المختلفة فى أوقات الحروب، أم إن تلك واحدة ضمن مهام م١، لم أكن أظن أنهم ما زالوا منهمكين فى هذه المهام؟".

قال بيرسفال بأسلوبه الطيب المشجع لصنف الأطباء، كما لو أنه يشرح عرضا من أعراض مرض الإنفلونزا: "أوه، حسنًا. فى الحقيقة أنا لم أشاهد أحدا منهم منذ وقت طويل، ربما يكونون قد عزلوا".

تساءل س: "بهذه المناسبة، هل سيفيز موجود معنا؟ هناك تقرير أود مناقشته معه. أعتقد أننى لم أقابله من قبل أثناء جولتى فى القسم رقم ٦".

قال كاسل: "إنه فى زيارة لطبيب الأسنان".

اشتكى واطسن: "إنه لم يخبرنى بذلك يا سيدي".

"أوه، ليس الموضوع مستعجلا. لا يوجد شيئا يختص بإفريقيا له هذه الدرجة من الاستعجال، فالتغييرات التى تحدث هناك بطيئة وهى دائمًا مؤقتة. أتمنى أن يحدث هذا الأمر أيضًا مع أوروبا". جمع الرجل أوراقه ودلف خارجا، مماثلاً لذلك المضيف الذى يشعر بأن الأحوال السائدة فى المنزل سوف تفشل حالا بدونه.

قال بيرسفال "هذا شيء غريب فعلا، عندما شاهدت سيفيز لآخر مرة، كانت ضروسه فى أفضل حال. قال لى أنه لم يعان قط من أسنانه ولا يوجد أى آثار لتراكم الجير عليها. بهذا المناسبة يا كاسل، أرجو أن تدلنى على طبيب أسنانه، فقط لاستكمال ملفه الطبى. وإذا كان يشكو من أسنانه، حينئذ سوف أرشده إلى الأطباء الذين نتعامل معهم، هذا أفضل أمنيا".

* * *

الجزء الثالث

الفصل الأول

قام الدكتور بيرسفال بدعوة سير جون هارجريفز للغداء معه فى نادى ريفورم. كانا معتادين على تناول الغداء معًا بشكل متواتر مرة فى نادى ريفورم وأخرى فى نادى ترافيلز مرتين من أيام السبوت، ذلك عندما يرحل معظم أعضاء الناديين إلى الريف. كان شارع بول مول بلون معدنى رمادى يبدو على شكل حفر فكتورية وقد تزين الشارع بنوافذ طويلة؛ بينما الصيف الهندى أوشك على الأفول وتم تغيير توقيت الساعة، ويمكن للمرء أن يشعر باقتراب الشتاء وسط هفة ريح بسيطة. بدأت وجبه الغداء بتقديم قطع سمك اللوت المدخنة، هذا ما دعا سير هارجريفز أن يعترف للدكتور بيرسفال بأنه يفكر جديًا فى محاولة ملء الجدول الذى يفصل أرض المنتزه عن الأرض المزروعة فى عزبته بالأسماك. ثم أضاف: "سوف أحتاج إلى مشورتك فى هذا الشأن يا ايمانويل". كانا يناديان على بعضهما بالاسم الأول لكليهما عندما يكونان معًا فى أمان.

لفترة طويلة تحدثا عن صيد أسماك اللوت، أو بالأصح أن الدكتور بيرسفال هو الذى كان يفرط فى الحديث عن ذلك ... إنه موضوع ينظر إليه سير جون باعتباره محدودًا، لكنه كان يعلم أن بيرسفال يستطيع أن يتوسع فيه حتى حضور أطباق الغداء؛ مع ذلك، وبالصدفة البحتة، استطاع أن يغير موضوع هذا الحديث كى يفتح معه موضوع الالتحاق بالنوادى.

قال بيرسفال: "إذا كنت أتمتع بضمير صالح، إذا ما ظللت فى هذا النادى، إننى عضو فيه فقط بسبب ما يقدم فيه من طعام – لا سيما سمك اللوت المدخن، إذا سمحت لى بهذا القول يا جون؛ فهو أفضل ما يقدم فى لندن من طعام".

"إننى معجب بنوعية ما يقدم من طعام فى نادى ترافيلز أكثر".

"آه، لكنك تنسى ما يقدم هنا من شرائح اللحم بالكلاوى. أعلم انك لن ترضى بقولى هذا، لكن مع ذلك أفضل هذا الطبق هنا أكثر مما قدمته لنا زوجتك. هنا المعجنات تحتفظ بالشوربة من بعيد، أما الرقاق فهو يمتص الشوربة مصًا، كذلك فى شأن الفطائر يمكن القول إنها تتعاون جيدًا مع الشوربة".

"لكن لماذا يمكن لضميرك أن يعانى يا إيمانويل، هذا بافتراض أنك فى الأساس تحوز على ضمير ؛ وهذا فى الغالب إفتراض غير محتمل".

"بالتأكيد تعلم أنه كى يصبح المرء عضوًا هنا، عليه أن يوقع على تعديل القانون الذى صدر عام ١٨٦٦. فى الحقيقة، هذا القانون ليس بهذه الدرجة من السوء كالقوانين التى لحقت به، مثل قانون إعطاء حق الانتخاب لمن بلغ سن الثامنة عشرة، الذى فتح الباب لبعث تلك الفكرة الضارة التى تقول إن (للرجل الواحد صوت واحد). حتى الروس يتبعون ذلك المبدأ لأغراض دعائية، لكن هم على درجة من البراعة حيث يؤكدون أن أى شيء قابل للتصويت فى وطنهم، لكن على شرط ألا يكون له أى أهمية على الإطلاق.

"يا لك من إنسان رجعى يا إيمانويل.. مع ذلك، أؤمن بأن هناك شيئًا فيما ذكرته عن الفطائر والمعجنات. يمكن لنا أن نجرب تذوق نوعية أخرى من الفطائر العام المقبل، إذا كنا لا نزال قادرين على أن نصطاد الطيور بالبندقية".

"إذا لم تتمكن، فسوف يكون هذا بسبب قاعدة "رجل واحد صوت واحد". كن أمينًا يا جون، واعترف كيف وكم صنعت هذه الفكرة الغبية الهشة فى إفريقيا".

"أعتقد أنه يلزم مرور وقت كاف حتى تبزغ ديمقراطية حقيقية هناك".

"ذلك الشكل الصحيح من الديمقراطية لن ينجح أبدا".

"هل حقًا تريد أن تعود إلى نظام التصويت الذى يقتصر على ملاك المنازل فقط يا إيمانويل؟" لن يستطيع هارجريفز أن يستدل على مدى جدية دكتور بيرسفال فى هذا الشأن.

"نعم، لما لا، فالحصيلة اللازمة لرجل حتى يتسنى له أن يدلى بصوته سوف يتم تعديلها بشكل جيد كل عام للتعامل مع عوامل التضخم. وربما يكون الحصول على دخل لا يقل عن أربعة آلاف جنيه كافيًا كى يتاح للفرد أن يدلى بصوته. هذا سوف يتيح لعمال المناجم ورجال البحر أيضًا فرصة للانتخاب، وذلك سوف ينقذنا من كثير من المتاعب".

بعد احتساء القهوة، سارا معًا، بتوافق تام، سالكين المضايق الجلادستونية حتى أدركتها علامات القشعريرة المرتبطة بمنطقة بول مول. كانت الأحجار المزخرفة التى تزين قصر سانت جيمس تزهو وتلمع مماثلة لشعلة نار تخفت خلال هذا الطقس الرمادى. أما رجال الحراسة على الأبواب فإنهم كانوا يخفقون بلون ملابسهم القرمزية. عبرا بعد ذلك وسط المنتزه، هنا قال الدكتور بيرسفال: "إذا عدنا مرة أخرى إلى أسماك اللوت..".

اختارا أن يجلسا على أريكة حيث يمكن لهما أن يراقبا طيور البط تسير بلا معاناة؛ كأنها مجموعة من قطع الألعاب المغناطيسية تسبح عبر الجدول. كلاهما كانا يرتديان نفس السترات الثقيلة نفسها من التويد، مماثلة لكل ما يلتحف به من يفضلون العيش باختيارهم فى الأرياف. سار أمامهم رجلاً فوق رأسه قبعة شكل السلطانية؛ كان يحمل شمسية وقد تجهم وجهه وهو مستغرق فى أفكار تخصه.

قال بيرسفال: "هذا الرحل اسمه براونى، فى آخر اسمه حرف الياء".

"أنت تعرف عددًا كبيرًا من الناس يا إيمانويل".

"إنه واحد من المستشارين الاقتصاديين لرئيس الوزراء. هذا الرجل أعطيه صوتى مهما كان مقدار ما يكتسبه من دخل".

"حسنًا، دعنا نتحدث قليلاً فيما يختص بعملنا، ألا يجدر بنا فعل ذلك؟ الآن نحن بمفردنا. أعتقد أنك كنت تخشى أن تكون مراقبًا صوتيًا ونحن داخل نادى ريفورم".

"لما لا، وقد أحاط بنا العديد ممن أدعوهم – صوت واحد لرجل واحد – من المتعصبين. وإذا كان فى مقدورهم أن يمنحوا أصواتهم لمجموعة من آكلى لحوم البشر..".

"يجب عليك ألا تبخس حقوق آكلى لحوم البشر، بعض من أعتبرهم من أعز أصدقائى كانوا من هذه النوعية من البشر. والآن كما ترى، هو ذا براونى الذى ينتهى اسمه بحرف الياء قد ابتعد عنا".

"كنت أتفحص بعض الأمور بكل دقة أنا ودانترى، شخصيًا أنا مقتنع أن ديفيز هو الرجل الذى نبحث عنه".

"هل دانترى مقتنع بهذا أيضا".

"لا، لكن كل الدلائل لها شكل ظرفى. وبالتأكيد هى كذلك. دانترى يتمتع بعقلية قانونية. لا يمكن لى أن أدعى أننى أحب دانترى هذا، فهو لا يتمتع بروح مرحة؛ لكنه بشكل طبيعى تجده دائمًا ما يحكم ضميره. لقد قضيت ليلة منذ عدة أسابيع مع ديفيز هذا. لاحظت أنه لا يمكن أن يدعى سكيرا، مماثلاً لكل من بورجس وماكلين، لكنه مع ذلك يشرب الكثير وقد زاد من صفته تلك منذ أن بدأت مهمة فحصه طبيًا، كما أظن. لذا مماثلاً– لهؤلاء الاثنين ومعهما فيلبى، من الواضح أنه تحت وطأة نوع من الإجهاد، بعض من مظاهر الإحباط الجنونى – وهذا الإحباط عادة ما تكون له لمسات وملامح محددة تعتبر ضرورية لكل عميل مزدوج. إنه مهتم للغاية لكى يبعث به إلى الخارج، ومن المحتمل أن يحدث هذا ما دام يعلم أنه مراقب، ولعلهم قد حذروه وطلبوا منه أنه يجب أن يهرب. بالطبع سوف يكون تحت سيطرتنا إذا رحل إلى لورنزو ماركيز، بينما يكون وجوده هناك هو أفضل مكان بالنسبة لهم".

"لكن ماذا عن الدليل؟".

"هذه ما زالت ضمن الأمور المختلطة، لكن هل فى استطاعتنا أن ننتظر ظهور الدليل القوى يا جون. البديل هو كاسل (وأنت تتفق معى أنه فى إمكاننا أن نتحكم فى واطسن)، وقد بحثنا مليًا فى أمور كاسل هذا بكل دقة وتدقيق. هو يتمتع بزواج ثان سعيد، فقد قتلت

زوجته الأولى فى ظروف الحرب الخاطفة، وقد عاش أيام طفولته وسط عائلة محترمة، والده كان طبيبا – واحدًا من المتمسكين بالعادات القديمة، وكان عضوًا فى حزب الأحرار، لكن، وأرجو أن تلاحظ ذلك، هو لم يلتحق بنادى ريفورم. كان يرعى مرضاه طوال حياته وينسى أن يرسل لهم فواتير العلاج. الأم ما زالت على قيد الحياة – كانت هذه السيدة واحدة من رئيسات المراقبة أثناء أيام الحرب الخاطفة، وقد حصلت على ميدالية الملك جورج، فهى تعتبر واحدة من الأبطال وكانت دومًا تتابع حملات حزب المحافظين؛ لذا عليك أن تعترف بأنه من بيئة محترمة، ولا توجد علامات تدل على أن كاسل مفرط فى الشرب، أيضًا هو حريص فى إنفاقه. وبينما نرى ديفيز ينفق الكثير على شراء البورت والويسكى وسيارته الجاجوار كذلك يراهن كثيرًا فى سباق الخيل؛ مدعيًا انه خبير فى هذا الشأن وأنه يكسب الكثير ؛ وهذا عذر كلاسيكى كى ينفق أكثر من دخله الرسمى. قال لى دانترى أنه قد ضبطه يومًا ومعه تقرير وارد من العميل ٥٩٨٠٠ وخرج به. ادعى إنه كان يود أن يقرأه أثناء تناوله طعام الغداء. ثم أنت تتذكر ذلك اليوم الذى عقد فيه المؤتمر مع إدارة م ١٥، وقد طلبت أنت منه أن يكون حاضرًا. قيل إنه خرج لكى يزور طبيب أسنانه .... إنه لم يذهب قط إلى طبيب الأسنان (أسنانه فى أفضل حال – وهذا ما أعلمه جيدا) ثم بعد أسبوعين لاحقين حصلنا على دليل لتواجد ثغرة أخرى".

"هل تعلم إلى أين ذهب؟".

"كان دانترى قد كلف قسمًا مخصوصًا لمتابعته. لقد ذهب إلى حديقة الحيوانات ودخل من باب الأعضاء، أما الشخص الذى كان يتابعه فقد اضطر إلى أن يقف فى الطابور أمام الباب العادى، لذا فقد أثره . شيء لطيف".

"هل هناك فكرة عمن قابل؟".

"إنه رجل حذر، بالتأكيد علم أنه مراقب. وقد اعترف لاحقًا إلى كاسل بأنه لم يزر طبيب أسنانه. قال إنه قابل سكرتيرته (كان اليوم هو يوم إجازتها) عند قفص حيوانات الباندا، لكن كان هناك ذلك التقرير الذى وددت أنت أن تناقشه معه. إنه لم يوضع قط فى

الخزانة، وهذا ما تأكد منه دانترى".

"إنه لم يكن مهمًا. أوه، الموضوع كله ما زال غامضًا، هذا ما اعترف به، لكن كل هذه الأدلة لا تعتبر جازمة وقوية يا إيمانويل. هل قابل السكرتيرة؟".

"أوه، لقد قابلها فعلا وغادر حديقة الحيوانات معها، لكن ما الذى حدث فيما بينهما؟".

"هل حاولت أن تجرب معه خطة ورقة النقد المعلمة؟".

"أخبرته بقصة ملفقة خاصة بالاختبارات التى تجريها هيئة بورتون، لكن لا شيء وضح فى هذا الشأن حتى الآن".

"لا أعرف كيف سوف تتصرف فى المعلومات التى تحصلت عليها حتى الآن".

"فلنفرض إنه أصيب بالذعر وحاول أن يهرب بجريمته هذه؟".

"إذن يجب أن نتصرف بسرعة. هل قررت ما سوف تفعله معه؟".

"إننى أعمل فى فكرة لطيفة للغاية يا جون، أن نستخدم الفول السودانى".

"الفول السودانى؟".

"هذه الحبات الصغيرة المملحة التى تأكلها فى حفلات الكوكتيل".

"بالطبع أعرف ما هو الفول السودانى يا إيمانويل، لا تنسى أننى كنت مستشارا فى غرب إفريقيا".

"حسنا، فيها تنحصر الإجابة. هذا الفول السودانى عندما يفسد يصدر منه نوع من الفطر. يتسبب فى إنتاجه أسبيروجيلوس فلافوس، وأنا أعلم تمامًا أنك لم تكن بارعًا فى اللغة اللاتينية".

"بحق السماء، استمر".

"كى أسهل عليك الأمر، سوف أركز حديثى عما يفعله هذا الفطر. هذا الفطر ينتج مجموعة من المواد شديدة السمية تسمى بشكل جماعى أفلاتوكسين. هذا الأفلاتوكسين سوف يكون هو الإجابة لمشكلتنا الصغيرة".

"كيف يعمل".

"نحن لا ندرى تأكيدا مدى تأثيره فى البنى آدمين، لكن يبدو أنه لا حيوان له حصانة ضده، لذا بالتأكيد هذا ينطبق علينا أيضًا. الأفلاتوكسين يقتل خلايا الكبد. فقط يحتاج الأمر إلى أن يتعرض الشخص لهذه المادة لمدة ثلاث ساعات فقط. والأعراض التى تظهر على الحيوانات هى أنها تفقد الشهية للطعام وتكون معرضة للنوم العميق، وتصبح أجنحة الطيور ضعيفة. أما التشريح اللاحق فإنه يظهر حدوث نزيف ونخر فى الكبد واحتقان فى الكلى، هذا إذا سمحت لى باستخدام كل هذه التعبيرات الطبية، والموت يحدث فى ظرف أسبوع واحد".

"يا للعنة يا إيمانويل، ما دمت أحببت الفول السودانى. الآن لن أتمكن أبدًا من أكله مرة أخرى".

"آه، ليس هناك داعٍ لهذا القلق الشديد يا جون، الفول الذى يقدم لك هو منقى يدويًا— مع ذلك، أعتقد أنه من الممكن أن تقع حادثة، لكن بالمعدل الذى قد تنتهى فيه لأن تلتهم وعاء كاملاً منه. ليس من المحتمل أن يفسد هذا الصنف".

"يبدو أنك مستمتع بتجاربك هذه. أحيانًا يا إيمانويل تجعلنى أرتعش".

"يجب عليك أن تعترف بأنها وسيلة ناجزة وحل دقيق وصغير لمشكلتنا. والتشريح بعد الوفاة سوف يظهر فقط التدمير الذى حدث للكبد، وأتوقع أن الطبيب الشرعى سوف يحذر العامة ضد مخاطر الإفراط فى جرع خمر البورت".

"أعتقد أنك عملت جاهدا لكى تصل إلى هذا الأيرو..".

"اسمه أفلاتوكسين.. ليست هناك مصاعب جدية. لدىَّ صديق فى هيئة بورتون يجهز لى بالفعل كمية كافية منه. وأنت فى حاجة إلى كمية بسيطة جدًا منه، نحو ٠,٦٣، من المللى جرام لكل كيلوجرام من وزن الرجل. وبالطبع كنت قد قمت بوزن ديفيز، لذا أقول إنه فى حاجة إلى ٠,٥ من الجرام كى يحدث التأثير المطلوب. لكن كى نكون متأكدين تماما، نعطيه ٠,٧٥ من الجرام. واجب علينا أن نجرى بعض تجارب استخدام كميات أصغر من ذلك بالطبع. وهناك ميزة مهمة فى كل هذا، هو أننا سوف نحصل على معلومات قيمة توضح لنا مدى تأثير الأفلاتوكسين على البشر".

"ألم تكتشف قط يا إيمانويل أنك من الممكن أن تصدم نفسك؟".

"ليس هناك ما يدعو للصدمة فى هذه المسائل يا جون. فكر فى كل أنواع الميتات التى تناسب ديفيز. التليف الحقيقى سوف يكون بطيئًا للغاية، وبجرعة بسيطة من الأفلاتوكسين، بالكاد سوف يعانى. سوف يشعر برغبة قوية للاستغراق في النوم، وربما متاعب فى الساقين، ما دام لا يحوز على جناحين كالطيور، وبالطبع سوف نتوقع تعرضه لحالات من الشعور بالغثيان. وكى ينقضى أسبوع فقط لكى يحدث كل ذلك، هذا ما أعتبره مصيرًا محمودًا، ذلك عندما تفكر مدى المعاناة التى يتعرض إليها الآخرون".

"أنت تتحدث كما لو إننا قد أثبتنا عليه هذا الجرم".

"حسنًا يا جون، أنا متأكد تمامًا أنه رجلنا. فقط أنا فى انتظار صدور الضوء الأخضر منك".

"هذا إذا كان دانترى راضيا تماما..".

"أوه، دانترى...لا يمكن لنا يا جون أن ننتظر حتى يظهر الدليل الذى يتطلبه دانترى".

"قدم لى ولو دليل واحد قوى".

"لا أستطيع حاليا، لكن من الأفضل ألا ننتظر كثيرًا ظهوره. أنت بالطبع تتذكر ما

قلته فى تلك الليلة بعد انتهاء رحلة الصياد – عن الزوج الراضى الواقع تحت تأثير رحمة الحبيب. لا يمكن لنا احتمال وقوع فضيحة أخرى فى مؤسستنا يا جون".

مر بهما رجلا آخر يرتدى القبعة البرميلية وأطراف سترته مرفوعة إلى أعلى فى غبش شهر أكتوبر، بينما الأضواء بدأت تبرق واحدة تلى الأخرى فى مبنى وزارة الخارجية.

"دعنا نتحدث قليلاً عن جداول المياه المليئة بسمك اللوت يا إيمانويل".

"آه، اللوت. دع الآخرين يفتخرون بسمك السلمون – تلك الأسماك الزيتية الغبية التى تتابع حافزًا أعمى لكى تسبح عكس التيار، وذلك يجعلها صيدًا سهلاً. كل ما سوف نحتاج إليه هو أحذية برقبة طويلة وذراع قوى وكتاب جيد يعلمك الصيد، لكن أسماك اللوت – أوه، اللوت ... إنه الملك الحقيقى فى عالم الأسماك.

* * *

(٢)

يمتلك الكولونيل دانترى شقة مكونة من غرفتين بشارع سانت جيمس، وقد عثر عليها عن طريق عضو آخر فى المؤسسة. أثناء الحرب، كانت تلك الشقة تستخدم بواسطة وكالة م ١.٥ كمكان مناسب لإجراء مقابلات مع المرشحين للعمل فيها. كانت هناك ثلاث شقق فى هذه العمارة، يحرسها رجل عجوز يعيش فى غرفة بعيدة عن الأنظار تحت سقف هذه العمارة. أما شقة دانترى فهى تقع فى الدور الأول فوق مطعم (كان صخب الاحتفالات السفلية تجعله متيقظًا حتى الساعات الصغيرة والى أن تغادر آخر سيارة أجرة). فى الشقة التى تعلوه، يسكن أحد رجال الأعمال الذى أحال نفسه إلى المعاش. كانت له صلة يومًا بهيئة منافسات الحرب "SOE". أما الشقة الثالثة فيشغلها جنرال على المعاش حارب يومًا فى الصحراء الغربية. هذا الجنرال طاعن فى السن الآن، لذا لا يشاهد كثيرًا هابطا درجات السلم. لكن رجل الأعمال الذى كان يعانى من النقرس، فإنه بالكاد يستطيع أن يصل إلى نادى كارلتون عبر الشارع. لم يكن دانترى طباخًا ماهرًا، لذا عادة ما يقتصر على تناول وجبة واحدة بأن يقوم بشرا بضع قطع من اللحم البارد من محال فورتنم. إنه لا يحب الأندية؛ وإذا شعر بالجوع ، وهذه حالة نادرة، هناك واحد من سلسلة مطاعم أوفرتون ليس بعيدًا عنه. كانت غرفة نومه وحمامه يطلان على ساحة دقيقة قديمة تحتوى على مزولة شمسية ومحل صائغ للفضيات، قليل من الأفراد الذين كانوا يقطعون شارع سانت جيمس على وعى بوجود مثل هذه الساحة. إنها شقة تحفل بالخصوصية، ولا يمكن اعتبارها غير مناسبة لرجل وحيد.

للمرة الثالثة هذا اليوم، يستخدم دانترى جهاز الريمنجتون فوق وجهه، فشعر ذقنه ينمو بغزارة وهو فى وحدته هذه مماثلاً للشعر المتناثر فوق جثة. كان يستعد الآن لأن يحضر عشاء نادرًا مع ابنته. كان قد اقترح أن يدعوها إلى واحد من مطاعم أوفرتون حيث هو معروف هناك، لكنها أخبرته بأنها تود أن تأكل لحمًا مشويًا؛ مع ذلك، لم يرضها أن يدعوها إلى مطعم سمبسون، حيث كان دانترى معروفًا هناك أيضًا، قالت إن الجو هناك

ذكورى أكثر من المعتاد. أصرت على أن تقابله فى مطعم ستون القائم فى شارع بانتون، متوقعة أن تلقاه الساعة الثامنة مساء. إنها لم تزره قط فى شقته ؛ فهذا سوف يعتبر كأنه تصرف يسيء لوالدتها، على الرغم أنها تعلم تمامًا أن لا سيدة تشاركه هذا السكن. ولعل فرع مطاعم أوفرتون مكروهة لديها بسبب قربه من شقته.

كان دانترى يشعر دائمًا بالتوتر وهو يدخل مطعم ستون كى يسأله رجل يرتدى قبعة عالية عما إذا كان قد حجز مائدة أم لا. كان هذا المطعم بصورته القديمة يتذكره دانترى جيدًا عندما كان شابًا. لقد تعرض هذا المطعم للتدمير فى وقت الحرب الخاطفة، بعدها تم تجديده بديكور ثمين. تذكر دانترى متحسرًا الجرسونات القدامى لهذا المطعم بذيول بذلهم السوداء المغبرة، بينما تتناثر نشارة الخشب على الأرضية. كذلك البيرة القوية التى كان يحتسيها فى بورتون- ترنت. الآن كل المسار حتى الدور العلوى لهذا المطعم مثبتة فيه ألواح مرسوم عليها أشكال لا معنى لها لأوراق اللعب، ما يعتبر أكثر قبولا داخل صالات القمار، كذلك يتناثر عدد من التماثيل العارية التى تقف تحت مياه تتساقط من نافورة تلعب خلف لوح زجاجى يستقر فى نهاية المطعم. كانت هذه الظاهرة تضفى على دانترى إحساسًا خريفيا أكثر برودة من حالة الطقس الخارجى. ابنته كانت فى انتظاره بالداخل.

قال دانترى وهو مدرك أنه قد وصل قبل موعده بثلاث دقائق: "آسف لأننى تأخرت عليك قليلاً يا إليزابيث".

"لا بأس يا أبى، لقد طلبت لنفسى مشروبا".

"سوف أطلب لنفسى مشروب الشيرى".

"لدىَّ أنباء مهمة أود أن أخبرك بها، فقط هى والدتى التى تعلم بها".

"كيف حال والدتك؟" ... قالها دانترى بأدب جم. وكان هذا هو سؤاله الدائم الأول، ويشعر دومًا بالارتياح عندما يعبر عنه.

"إنها بصحة جيدة، سوف تقضى أسبوعًا أو أسبوعين فى برايتون كى تغير الهواء".

كان يتحدثان كما لو أنهما يقصدان شخصًا آخر بالكاد يعرفونه – أمر غريب أنه قد حدث له يومًا الاشتراك مع زوجته هذه فى متعة حسية، أنجبت لهما تلك الفتاة الجميلة الجالسة أمامه الآن منتصبة تشرب من كأسها. هبط عليه الآن مظاهر الحزن نفسها التى يشعر بها عندما يتقابل مع ابنته، حيث يغلب عليه شعوره بالذنب. لكن لما الذنب؟ هذا ما كان يحاجج به نفسه. إنه شخص من الممكن أن يوصف دائمًا بأنه إنسان مخلص.

قال: "أتمنى أن يكون الطقس جيدا". يعلم الرجل جيدًا أنه طالما سبب لزوجته هذه الكثير من مشاعر الملل، لكن لما يصبح هذا مصدرًا للشعور بالذنب؟ على كل حال، يعلم الرجل جيدًا أنه طالما وافقت على الزواج به، إذن هى تعلم أحواله تماما، باختيارها رغبت فى أن تدخل العالم البارد المغرق فى السكون. إنه دومًا يحسد الرجل الذى يشعر بحرية مطلقة لأن يقدم إلى منزله ليتحدث عن كل الأقاويل التى دارت فى مكتب عمله العادى.

"ألا تود أن تعرف أخبارى يا والدى؟".

فجأة، من وراء ظهرها، استطاع أن يلمح شخص ديفيز. كان ديفيز يجلس على مائدة مخصصة لاثنين منتظرًا، يطبل بأصابعه، وعيناه مركزتان على فوطته. تمنى دانترى ألا يرفع الرجل عينيه.

"تقولين أخبارا؟".

"هذا ما قلته بالفعل، فقط هى والدتى التى تعلم بها، كذلك بالطبع الآخر"... أضافت ذلك بضحكة محرجة. أخذ دانترى فى استعراض كل موائد القائمة على جانبى ديفيز، كان متوقعا أن يرى من يتتبعه جالسًا أيضًا هناك، لكن لم يكن هناك سوى زوجين عجوزين قاربا أن ينتهيا من طعامهما، ولا يبدو أنهما ينتميان للقسم المخصوص.

"يبدو عليك يا والدى أنك غير مهتم، ذهنك بعيدًا عنى بأميال".

"آسف، لقد شاهدت الآن شخصا أعرفه. ما تلك الأخبار السرية؟"

"سوف أتزوج".

"تتزوجين؟ وهل تعلم والدتك بذلك؟".

"لقد قلت توا أننى قد أخبرتها".

"آسف".

"لماذا تعرب عن أسفك لأننى سوف أتزوج؟".

"أنا لم أقصد ذلك، قصدت...بالطبع لست آسفا إذا كان هذا الشخص يستحقك. أنت فتاة بارعة لجمال يا إليزابيث".

"إننى لست معروضة للبيع يا والدى. أعتقد أنه فى أيامك كانت السيقان الجميلة كافية لرفع سعر السوق".

"ما عمله؟".

"إنه يعمل فى وكالة إعلانات، مختص بالدعاية لبودرة الأطفال ماركة جيمسون".

"وهل تلك وظيفة جيدة؟".

"حسنة جدًا. إنهم يصرفون بغزارة لكى يجعلوا بودرة جيمسون هذه فى المرتبة الثانية من جهة التصريف. لقد جهز كولين عدة عروض تليفزيونية رائعة، بل وكتب كلمات أغنية تمدح فى هذه البودرة".

"يبدو أنك معجبة به تماما؟ لكن هل أنت متأكدة...؟".

لقد طلب ديفيز مشروبًا آخر، وكان ينظر فى قائمة الطعام ؛ لكن بالتأكيد كان قد اطلع عليها من قبل عدة مرات.

"كلانا متأكد تمامًا من مشاعره يا والدى. على كل حال، كنا نعيش معًا طوال العام الماضى".

"أنا آسف"... هذا أعاد دانترى هذا القول ... يبدو أنها ليلة الاعتذارات: "لم أعرف هذه الحقيقة من قبل. هل كانت والدتك تعلم بها؟".

"بالطبع هى خمنت".

"إنها تراك أكثر منى".

شعر كأنه رجل راحل لكى يقضى فترة نفى طويلة وهو واقف الآن على حافة سور السفينة، متطلعا إلى حدود وطنه الذى يكاد أن يختفى ويهبط وراء الأفق.

"لقد أراد أن يحضر معى الليلة ليتعرف عليك، لكننى قلت له إننى أود أن أكون بمفردى معك هذه المرة".

هذه المرة! إنه صوت ينبئ عن حالة وداع طويل الأمد؛ إنه يلمح الآن خط الأفق فقط، أما شكل الأرض فقد اختفى تمامًا عن أنظاره.

"متى سوف تتزوجين؟".

"يوم السبت الموافق ٢١ فى الشهر، سوف يكون ذلك بمكتب التسجيل. إننا لم ندع أحدًا، ما عدا والدتى بالطبع وقليل من الأصدقاء. كولين ليس لديه والداين".

كولين، تعجب، من هو كولين؟ لكن بالطبع، هو رجل بودرة جيمسون.

"أنت بالطبع مرحب بحضورك، لكن طالما ساورنى شعور بأنك تخشى مقابلة والدتى".

بدا واضحًا أن ديفيز فقد كل أمل كان يساوره، وبينما يدفع ثمن ما شربه من ويسكى، رفع ناظريه عن الفاتورة فشاهد دانترى. كان الموقف كأنهما اثنان من المهاجرين قدما على سطح السفينة للغرض نفسه، لكى يستمتعا بإلقاء النظرة الأخيرة على وطنهما. كلاهما شاهد زميله وتعجبا، هل يقدما على الحديث معًا أم لا؟ استدار ديفيز متجها ناحية باب الخروج. نظر دانترى خلفه بكل أسف – على كل حال، ليست هناك حاجة لأن يتعارفا معًا، فكلاهما يبحر فى رحلة مستقلة طويلة الأمد.

وضع دانترى كأس بعنف على المائدة، فسال مشروب الشيرى، شعر فجأة بإحساسات كلها توتر فيما يختص بالدكتور بيرسفال. هذا الرجل ليس لديه أى دليل قوى

ضد نيفيز كى يقدمه أمام محكمة. إنه لا يثق أبدًا ببيرسفال هذا. تذكره وهم فى رحلة الصيد. بيرسفال هذا لم يشعر قط بالوحدة. إنه يضحك بالأسلوب نفسه الذى يتحدث به. يعرف الكثير عن الصور والرسوم، يشعر أنه على راحته وهو وسط الغرباء، ليست لديه ابنة تعيش مع غريب فى شقة لم يرها من قبل بل وأيضًا لا يعرف أين مكانها.

قالت: "فكرنا فى أن نحتسى بعض المشروبات بعد إتمام إجراءات الزواج فى فندق أو ربما فى شقة والدتى، وعلى والدتى أن ترحل إلى برايتون. لكن إذا أردت أن تحضر.. ".

"لا أعتقد أن هذا فى مقدورى. سوف أرحل فى إجازتي الأسبوعية". لقد كذب.

"أنت تتفق على ارتباطات قبل وقت طويل".

مرة أخرى كذب: "أنا مضطر لفعل ذلك، هناك الكثير من الارتباطات أمامى. إننى رجل مشغول دائمًا يا إليزابيث. لو كنت قد علمت أن.. ".

"فكرت فى أن أجعلها مفاجأة لك".

"علينا أن نطلب عشائنا؟ أنت سوف تحتاجين اللحم المشوى، لكن ألا تريدين لحم الضأن؟".

"لحم مشوى لى".

"هل سوف تقضيان شهرا للعسل؟".

"أوه، سوف نقضى يوم الإجازة الأسبوعية فى شقتنا، ربما عندما يحين وقت الربيع...فى وقتنا الحالى، كولين مهتم بحملة ترويج ضخمة لبودرة أطفال جيمسون".

"يجب علينا أن نحتفل بهذه المناسبة وأن نطلب زجاجة شمبانيا". إنه لا يحب الشمبانيا، لكن على الإنسان أن يؤدى واجبه.

"إننى أفضل بالأكثر أن أحصل على زجاجة من النبيذ الأحمر".

"يلزم علىَّ أن أفكر فى هدية زواجكما".

"أن تقدم لى شيكًا هو الأفضل؛ وأمر سهل بالنسبة إليك. أنت لست مغرمًا بموضوع التسوق. لقد قدمت لى والدتى سجادة جميلة".

"إننى لم احضر معى دفتر شيكاتى. سوف أرسل لك الشيك يوم الاثنين".

بعد العشاء، افترقا بالوداع فى شارع بانتون ، عرض عليها أن يصطحبها فى سيارة أجرة حتى شقتها، لكنها قالت إنها تفضل أن تسير على قدميها. إنه لا يعلم مكان شقتها المشتركة، فحياتها خاصة بها كما الحال معه. لكن فى حالته، ليس هناك الكثير الذى يمكن أن يحرص عليه. وليس كثيرًا أن اجتمعا معًا فى وجبات مشتركة، لأن هناك القليل الذى يمكن أن يتحدثا عنه معًا. لكن الآن، عندما أدركا أنهما لم يكونا بمفردهما، داهمه شعور بالإهمال والاستبعاد. قال: "ربما أستطيع أن أكون متاحًا أثناء الإجازة الأسبوعية المقبلة".

"سوف يسر كولين بمقابلتك".

"هل يمكن أن أحضر صديقًا معى؟".

"طبعا، أى إنسان، من سوف تحضره؟".

"لست متأكدا، ربما أحد زملائى فى العمل".

"هذا أمر مقبول، لكن كما تعلم؛ ليست هناك حاجة لأن تخاف من شيء. والدتى ما زالت تحبك".

أخذ يراقبها وهى تسلك طريقها مخترقة ميدان ليسستر و، ماذا بعد؟ – ليس لديه أى فكرة – وذلك قبلما يستدير غربًا سالكًا طريق شارع سانت جيمس.

* * *

الفصل الثانى

(١)

عاد الصيف الهندى لمدة يوم واحد، وافق كاسل على أن يخرجوا فى نزهة . لقد أصبح سام حرونًا بعد فترة عزل استمرت طويلاً، كان هناك اعتقاد مختمر فى ذهن سارة أن أى جرثومة ما زالت متبقية سوف تهرب حالاً وسط غابة أشجار الزان وأوراق الخريف. قامت فى الحال بتجهيز ترموس ملىء بشوربة البصل الساخنة، مع نصف دجاجة باردة سوف تتم تجزئتها يدويًا، وكمية من الكعك الناشف، كذلك عظمة ساق خروف خصصت للكلب بولر، أيضًا ترموس آخر من القهوة. وقد أضاف كاسل زجاجة صغيرة من الويسكى. كانت هناك بطانيتان للجلوس عليهما، حتى سام وافق على أن يأخذ معه معطفًا فى حالة اشتداد الريح.

قال كاسل: "إنه أمر جنونى أن نقوم بنزهة فى شهر أكتوبر".... كان سعيدًا بقرار القيام بهذه النزهة لأنها سوف تتيح له أن يهرب من محاذير العمل، كذا اللسان الزلق وعمليات التنبؤ... لكن حينئذ، وبالطبع، دق جرس التليفون. أخذ يجلجل كأنما هو سرينة سيارة البوليس، بينما كانوا يحزمون حاجياتهم على الدرجات.

قالت سارة: "إنهم نفس الرجال الذين يرتدون أقنعة. سوف يفسدون علينا رحلتنا. سوف أكون فى حالة من القلق المستمر لما يمكن أن يحدث لمنزلنا".

أجاب كاسل وهو مكفهر (بينما يضع يده على السماعة): "لا.لا تقلقى، إنه فقط ديفيز".

"ما الذى يريده؟".

"إنه فى بوكسمور بسيارته. إنه يوم جميل، لقد فكر فى أن يبحث عنى".

"أوه، ملعون هو ديفيز، لا يطلب شيئًا إلا ونحن قد أعددنا كل شيء. لا يوجد أى طعام فى المنزل ما عدا ما هو مخصص لعشائنا، وليس هناك ما يكفى أربعة أفراد".

"يمكن لك أن تذهبى بمفردك مع سام، وسوف أتعشى مع ديفيز فى مطعم سوان".

"لن تكون الرحلة مبهجة بدونك".

قال سام: "هل المتحدث هو مستر ديفيز؟ أنا أريده، يمكن أن يلعب معنا لعبة الاستخفاء. لسنا كفاية بدون مستر ديفيز".

قال كاسل: "يمكن أن نأخذ ديفيز معنا كما أعتقد".

"نصف فرخة على أربعة...؟".

"هناك ما يكفى من الكعك يكفى فصيلة بأثرها".

"لن يسر بالقيام برحلة فى أكتوبر إلا إذا كان مجنونا مثلنا".

لكن ثبت أن ديفيز يتمتع بالجنون مثلهم، قال إنه ليس مغرمًا بالرحلات التى تقام أيام الصيف الحارة حيث تتكاثر الدبابير والذباب، لكنه يفضل بالأكثر فصل الخريف؛ ولأنه ليست هناك أماكن كافية فى سيارته الجاجوار، لذا اتفق على أن يقابلهم فى مكان معروف لهم فى منطقة النزهة العامة. فى وجبة الغداء، استطاع أن يفوز بعظمة ترقوة نصف الدجاجة وجزء مهم منها؛ ثم تقدم بلعبة جديدة. على الآخرين أن يخمنوا ما يرغب فى الحصول عليه من الدنيا وذلك بإلقاء أسئلة عليه، وإذا عجزوا عن التخمين السليم، فإنه يتوقع الحصول على ما يرغب فيه.

هذا وقد استطاعت سارة أن تخمن أولى أمنياته بإلهام. لقد تمنى أن يصبح يومًا (فى قمة من ينظمون موسيقى البوب).

"أوه، حسنا، على أى حال هى أمنية صعبة المنال، فأنا– على كل حال– لا أعرف كيف أكتب النوتة الموسيقية".

فى الوقت الذى فيه تم التهام آخر كعكة، كانت شمس ما بعد الظهر خفيضة تطل فوق الشجيرات وبدأت الرياح فى الهبوب، كذلك استمرت أوراق الشجر النحاسية تهبط فوق سارية العام السابق. اقترح عليهم ديفيز أن يلعبوا لعبة الاستخفاء، لاحظ كاسل كيف أن سام كان يحدق فى وجه ديفيز بعيون مليئة بمشاعر عبادة الأبطال.

أخذوا يقترعون عمن يختبئ أولاً، فاز ديفيز بذلك. لذا ذهب وهو يحجل مبتعدا وسط الأشجار، ثم اختفى عميقًا وهو يهتز وسط معطفه الكثيف المنسوج من وبر الجمال؛ يبدو فيه كأنه دب هارب من حديقة الحيوانات. بعد عد حتى الستين، بدأ الباقون فى المطاردة. توجه سام نحو حرف منطقة النزهة، واتجهت سارة نحو منطقة أشردوج، أما كاسل فإنه دخل إلى قلب الغابة حيث رأى ديفيز آخر مرة يدخل. قام بولر بمتابعته، ولعله أراد أن يتقابل مع قطة. سمع كاسل صوت صفارة خفيضة أرشدته إلى مكان اختباء صديقه الجالس فى حفرة تحيط بها نباتات السرخس.

قال ديفيز: "هذا مكان اختفاء شديد البرودة فى الظل".

"أنت الذى اقترحت هذه اللعبة. كنا مستعدين أن نعود إلى المنزل. اهبط يا بولر. اهبط أيها الملعون".

"أعلم ذلك، لكن هل رأيت كم كان ابن الحرام الصغير مشتاقًا إلى هذه اللعبة".

"يبدو أنك تعرف الأطفال أفضل منى. إننى أفضل فى مسألة زجرهم. سوف نموت ونحن واقفون هنا".

"لا، لا تبتعد. كنت أتمنى أن تحضر إلى هنا. كنت أرغب أن أحادثك منفردًا بشأن شيء مهم".

"ألا ينتظر ذلك إلى الغد عندما نكون معًا فى المكتب؟".

"لا، لقد زرعت فى قلبى الشكوك عندما كنا معًا فى المكتب يا كاسل. أعتقد أن هناك من يتتبع خطواتى".

"لقد أخبرتك قبلاً أننى أظن أن تليفونك مراقب".

"أنا لم أصدقك. لكن منذ هذه الليلة...يوم الثلاثاء، اصطحبت سنثيا إلى صالة "سكوت"؛ وكان هناك رجلا معنا فى المصعد ونحن نهبط، بعدها كان متواجدًا داخل صالة سكوت يحتسى الخمر. ثم حدث فى اليوم نفسه، وأنا أقود سيارتى متجها إلى بيركهامستد – لاحظت أن هناك سيارة تسير ورائى من نوع ماربل آرش؛ وبمحض الصدفة، خيل إلى أننى أعرف قائد هذه السيارة، لكننى لم أتعرف عليه... إلا أننى رايته مرة أخرى يسير ورائى فى بوكسمور داخل سيارة أخرى ماركة مرسيدس".

"نفس الرجل الذى شاهدته فى صالة سكوت؟".

"بالطبع لا. لا يمكن أن يكونوا بهذه الدرجة من الغباء. لقد استدرت بسيارتى الجاجوار والطريق مزدحم لأنه كان هو يوم الأحد، لذا فقدته قبل وصولى بيركهامستد".

"نحن غير موثوق فينا يا ديفيز. لا أحد، لكن من يهتم إذا كنا نشعر بأننا أبرياء؟".

"أوه، نعم. أعلم أن ذلك يشبه تلك الأغنية القديمة التى تقول: من يهتم؟ أنا برىء، من يهتم؟ إذا أخذونى غفلة، سأقول، خرجت كى أشترى بعض التفاحات الذهبية وبعض ثمار الكمثرى".

"هل فعلا فقدته فى بيركهامستد؟".

"نعم، حسب معلوماتى، لكن ما فحوى الموضوع كله يا كاسل؟ هل هذا يعتبر تفتيشا روتينيًا، كما هى الحال مع دانترى؟ لقد قضيت أنت زمنا أطول فى هذا المعرض أكثر منا جميعا. بالتأكيد تعرف شيئا".

"لقد أخبرتك بكل شيء فى تلك الليلة التى قضيناها مع بيرسفال. أعتقد أن هناك ثغرة ما، وهم يشكون فى تواجد عميل مزدوج، لذا يجرون كل هذه الاختبارات الأمنية. هم لا يهتمون كثيرًا من قيامك بملاحظة ما يفعلون. يظنون أنه بذلك يمكن أن تفقد أعصابك إذا كنت مذنبا".

"أنا عميل مزدوج، هل تصدق ذلك يا كاسل؟".

"لا، بالطبع لا. ليس عليك أن تقلق. فقط كن صبورا. دعهم ينتهون من فحصهم هذا وهم أيضًا لن يصدقوا. أعتقد أنهم يجرون فحصًا مبدئيًا علىَّ أنا وعلى واطسن أيضًا".

على البعد، كانت سارة تنادى: "نحن نستسلم، استسلمنا"، لكن وصلهم صوت رفيع أبعد مقاما يقول: "أوه. استمر فى الاختباء يا مستر ديفيز، من فضلك يا مسر ديفيز..".

عوى بولر، وسخر ديفيز: "دائمًا الأطفال بلا رحمة".

كانت هناك شخللة وسط شجيرات السرخس حول مكان الاختباء وظهر سام "أمسكت بك"؛ ثم رأى كاسل "أوه، لكن أنت غششت".

قال كاسل: "لا. لم أستطع أن أنادى عليكما. لقد رفع علىَّ فوهة مسدسه".

"أين هذا المسدس؟".

"ابحث فى جيب الصديرى".

قال سام "لا يوجد سوى قلم حبر".

قال ديفيز: "إنه مسدس غاز على شكل قلم حبر. هل ترى هذا السن، إنه ينفث شيئًا مثل الحبر، فقط هو ليس حبرًا حقيقيًا، إنه غاز الأعصاب. لم يعط جيمس بوند قط مثل هذا السلاح – إنه سرى للغاية. ارفع يدك".

رفع سام يديه متسائلاً: "لكن، هل أنت جاسوس؟".

"لا، أنا عميل مزدوج أعمل لحساب روسيا. إذا كنت تقدر حياتك، عليك أن تعطنى فرصة أن أسبقك بخمسين ياردة". اندفع بعدها ديفيز خلال شجيرات السرخس وأخذ يجرى مرتبكًا يتدلى منه معطفه الثقيل ويصطدم بأشجار الزان. تابعه سام حتى منحدر، ثم آخر. وصل ديفيز إلى طريق آشردوج حيث كان قد ترك سيارته الجاجوار القرمزية، ثم

صوب قلمه الحبر تجاه سام وزعق برسالة تهديد تشبه ما كانت تكتبه سنثيا فى برقياتها "نزهة..أحب...سارة"؛ ثم قفز داخل سيارته وانطلق بها محدثًا صوتًا انفجاريًا.

قال سام مخاطبا كاسل: "اسأله أن يحضر مرة أخرى. من فضلك اسأله ذلك".

"بالطبع، لما لا؟ عندما يحين وقت الربيع".

"الربيع ما زال بعيدًا، كذلك سوف أكون فى المدرسة".

"سوف تكون هناك دائمًا إجازات أسبوعية". قال كاسل ذلك بلا اقتناع. تذكر كيف كان الوقت يجرى بطيئًا أيام طفولته. مرت عليهم سيارة متجهة إلى لندن. سيارة سوداء— لعلها كانت من نوع مرسيدس، لكن كاسل يعلم القليل عن السيارات.

قال سام: "إننى أحب مستر ديفيز".

"كذلك أنا".

"لا أحد يلعب لعبة الاستخفاء مثله، ولا حتى أنت".

* * *

(٢)

"لقد اكتشفت يا مستر هاليداى أننى لم أحرز تقدمًا فى قراءتى لرواية الحرب والسلام".

"أوه يا عزيزى، إنه كتاب عظيم، فقط إن صبرت عليه. هل بلغت بعد إلى مرحلة التقهقر من موسكو".

"لا".

"إنها رواية مرعبة".

"تبدو أقل رعبًا فى أيامنا هذه، أليس كذلك؟ على كل حال، كان الفرنسيون جنودًا – والثلوج ليست بفظاعة النابالم. أنت فقط تستغرق فى حالة من النوم العميق، هكذا يقولون؛ لكن لا تتعرض أبدًا لأن تحرق حيًا".

"نعم، يا له من شعور عندما أتذكر هؤلاء الأطفال الصغار المساكين فى فيتنام...لقد حاولت أن أنضم إلى واحدة من تلك المظاهرات التى ينظمونها هنا، لكن ابنى منعنى من تنفيذ ذلك. إنه دائمًا فى حالة قلق من تهجم رجال البوليس عليه فى محله الصغير هناك، على الرغم مما هو الضرر الذى يمكن أن يحدثه صدور كتاب أو اثنين، لا افهم. ودائمًا ما كنت أقول مما من يشترون مثل هذه الكتب– حسنًا، إنها لن تتسبب فى حدوث أضرار بالغة. هل يمكن أن تتسبب فى ذلك؟".

"لا بالطبع. إنهم ليسوا من زمرة الشبان الأمريكيين الظرفاء الذين يؤدون واجبهم، فهم مماثلون لما تفعله الطائرات التى تلقى بالنابالم. منهم من يرى أنه من المستحيل عليه أن يظهر واحدة من تلك الشظايا التى تبرز من ثنايا الجبل الثلجى التى تظهر نوعية الحياة التى يحياها".

"مع ذلك، ليس فى أيدينا ما يمكن أن نفعله. الحكومة عندنا تتحدث عن الديمقراطية، لكن ما نوعية الاهتمام الذى من الممكن أن يتبدى من هذه الحكومة فى كل من أعلامنا وترديداتنا؟ ما عدا ما يحدث منها أيام الانتخابات. إنها فقط تساعدهم فى اختيار أى الوعود التى يمكن لهم أن يكسروها ويخالفوها، هذا كل ما فى الأمر. وفى اليوم التالى نقرأ فى الصحف كيف أن هناك قرية قد زالت كلية من الوجود نتيجة خطأ قد حدث. أوه، هذا ما سوف يفعلونه فى جنوب إفريقيا قبل وقت طويل. كان الدور أولا يقع على الأطفال صفر الوجوه ؛ ثم يأتى الدور على الأطفال السود".

"دعنا نغير هذا الموضوع. اقترح علىَّ قراءة كتاب لا يتحدث عن الحروب".

"هناك دائمًا مؤلفات الكاتب ترولوب، ابنى من المعجبين الدائبين بهذا الكاتب القديم، على الرغم من أن كتب هذا المؤلف لا تتماشى كثيرًا مع نوعية ما يبيعه من كتب، ألا ترى ذلك؟".

"إننى لم أقرأ قط لترولوب، أليست مؤلفاته ذات صبغة كنسية؟ على كل حال، اسأل ابنك لكى يختار لى رواية وأن يرسلها لى إلى المنزل بالبريد".

"وهل صديقك أيضًا لم تعجبه رواية الحرب والسلام؟".

"لا، فى الواقع شعر بالملل منها قبلى. ربما شعر بأنها متخمة بوصف الحرب مثلى".

"يمكن لى بسهولة أن أعبر الطريق وأتحدث مع أبنى. أعلم أنه يفضل الروايات السياسية أو ما يدعوها بالاجتماعيات. سمعته مرة يقرظ فى رواية باسم "الطريقة التى نعيش بها الآن". إنه عنوان ظريف يا سيدي، دائمًا عصرى. هل تود أن تأخذ هذه الرواية معك الليلة؟".

"لا، ليس اليوم".

"أعتقد أنها سوف تكون نسختان كالمعتاد؟ إننى أحسدك لوجود صديق لك يمكن لكما أن تتناقشا معًا فى الأدب. هناك القليل من الناس هذه الأيام الذين يهتمون بالأدب".

بعدما غادر كاسل مكتبة هاليداى، سار حتى محطة سيرك بيكاديللى. ذهب ليبحث عن تليفون عمومى. اختار كابينة فى نهاية الصف ونظر خلال الزجاج على من يجاوره.. كانت عبارة عن فتاة سمينة مليئة بالنمش تكركر بالضحك وتمضغ اللبان، بينما تستمع لما يرضيها. وهو ممسك بالسماعة ليتحدث، سمع من يقول له: "هالو"، كان رد كاسل: "أنا آسف، النمرة خطأ مرة أخرى". غادر بعد ذلك الكابينة. لاحظ أن الفتاة قد أخرجت قطعة اللبان ولزقتها فى مؤخرة عدة التليفون، بينما كانت منسجمة فى حوار ممتع. انتظر كاسل قليلاً بجوار ماكينة تذاكر، أخذ يراقب الفتاة للحظات كى يتأكد من أنها لا تبدى أى اهتمام به.

* * *

(٣)

سألت سارة: "ماذا تفعل، ألم تسمعنى وأنا أنادى عليك؟".

نظرت نحو الكتاب الموضوع على المكتب، قالت "لقد ظننت أنك تعبت من هذه الرواية".

قام بالتقاط ورقة ووضعها فى جيبه: "إننى اجتهد فى كتابة مقال صحفى".

"أرنى إياه".

"لا، فقط إذا نشر".

"إلى من سوف ترسله؟".

"ربما إلى صحيفة نيوستيسمان أو إنكواير...من يعلم؟".

"لقد مر وقت طويل منذ كتبت شيئًا. أنا سعيدة لأنك بدأت من جديد".

"نعم، يبدو محتمًا علىَّ أن أبدأ بتجربة حظى من جديد".

* * *

الفصل الثالث

(١)

تناول كاسل كأس ويسكى أخرى. كانت سارة قد قضت وقتًا مع سام فى الدور العلوى؛ لذا جلس وحيدًا فى انتظار جرس الباب أن يدق، هكذا منتظرا...عاد بالذاكرة إلى مناسبة أخرى عندما انتظر فيها أكثر من الثلاثة أرباع الساعة، فى مكتب المدعو كورنيلوس مولر بجنوب إفريقيا. لقد أعطوه حينذاك نسخة من صحيفة راند ديلى ميل ليقرأ؛ وهى صدفة غريبة ما دامت هذه الصحيفة بالذات تعتبر هى المعترضة الرئيسية على معظم ما تفعله مؤسسة (بوس) التى كانت تستخدم مولر. فى صباح ذلك اليوم، قرأ مقالا أثناء إفطاره، لكنه الآن يعيد قراءة كل صفحة كى يقضى الوقت. وكلما رفع ناظريه نحو ساعة الحائط، تقابل مع عينى واحد من الموظفين اللذين جلسا بجمود خلف مكتبيهما. لعلهما كانا يتبادلان مراقبته. هل توقعا منه مثلاً أن يبرز موسا يفتح به شريانه؟ لكن التعذيب، هذا ما أخبر به نفسه، دائمًا من يكون من اختصاص بوليس الأمن العام، أو هكذا ما كان يؤمن به. على أى حال، فى حالته هذه، ليس هناك أى خوف من تعرضه لأى تعذيب من أى جهة .... إنه محمى بمزايا دبلوماسية، إنه أحد الأفراد الذين لا يجوز تعرضهم للتعذيب. مع ذلك، لا توجد مزايا دبلوماسية يمكن أن تحمى حبيبته سارة؛ لقد تعلم طوال العام الأخير من مقامه فى جنوب إفريقيا أن الحب والخوف لا يجتمعا.

أنهى كاسل احتساء كأسه، وصب لنفسه مقدارًا صغيرًا من الويسكى. يجب أن يكون حريصًا. نادت عليه سارة: "ما الذى تفعله يا عزيزى؟".

"فقط فى انتظار وصول مولر، كذلك احتسى كأس ويسكى أخرى".

"لا تشرب كثيرًا يا عزيزى".

لقد قرر أن يقوم بالترحيب بمولر أولاً بمفرده، وبالتأكيد سوف يصل هذه الرجل قادمًا من لندن مستقلاً سيارة تابعة لسفارة بلاده. هل يا ترى سوف تكون سيارة مرسيدس كما يفعل كل الرسميين التابعين لجنوب إفريقيا؟ كان س قد قال له: "حاول أن تتغلب على مظاهر الإحراج المبدئية، وبالطبع أترك العمل الجاد لنا وأنت موجود فى منزلك، من المحتمل أنه يكون فى استطاعتك التقاط بعض المؤشرات المفيدة...أعنى ما هو لدينا وما ليس لديهم. لكن بحق الإله يا كاسل، حاول أن تحتفظ بأعصابك".

الآن وهو يجاهد كى يحتفظ بأعصابه بواسطة كأس ويسكى ثالثة، بينما يستمع ويستمع إلى صوت أى سيارة تمر. لكن حركة المرور كانت ضعيفة فى تلك الساعة فى شارع كنجز؛ حيث إن كل المشتركين فى سبل المواصلات قد عادوا سالمين إلى منازلهم.

إذا كان الخوف والحب لا يتجزآن، كذلك هى الحال مع الخوف والكراهية. فالكراهية هى استجابة أوتوماتيكية للخوف، لأن الخوف مهين. وعندما سمح له أخيرًا بأن يلقى بصحيفة راند الجنوب إفريقية جانبًا، قاموا بمقاطعته وهو يقرأ افتتاحية الصفحة للمرة الرابعة، المذكور فيه احتجاج الصحيفة القوى ضد شرور فعال التفرقة العنصرية. شعر بقوة مدى جبنه وخوفه. كان استمرار بقائه فى جنوب إفريقيا لمدة ثلاثة أعوام، ثم عليها ستة شهور منذ أن وقع فى غرام سارة، هذا كله جعله يدرك يقينًا كم هو إنسان جبان.

كان فى انتظاره رجلان فى المكتب الداخلى، حيث جلس مستر مولر وراء مكتب ضخم مصنوع من أفضل أخشاب إفريقيا، لا يستقر فوقه سوى قاعدة خشبية مثبت عليها نتيجة العام، كذلك قاعدة تثبيت لامعة للأقلام، وملف يبدو أنه كان تحت الفحص والتدقيق. مولر هذا رجل أصغر عمرًا من كاسل، ولعله فى الخمسين من عمره، يمتلك وجهًا، فى الأحوال العادية، يمكن لكاسل بسهولة بالغة أن ينساه؛ فهو عبارة عن وجه داخلى، ناعم شاحب كأنما هو يخص كاتب فى بنك، أو موظف مدنى تافه، وجهه لا يوحى بإيمانه بأى معتقد، سواء إنسانى التوجه أو دينى، وجه على استعداد لتلقى الأوامر للعمل على إطاعتها فى الحال دون توجيه أى نوع من الأسئلة، وجه إنسان ممتثل، لكنه بالتأكيد ليس وجه بلطجى؛

على الرغم أن هذه الصفة الأخيرة قد تنطبق على الرجل الثانى المتأنق فى ملابسه الرسمية، الذى جلس وقدميه ممدودتين بكل صفاقة فوق ذراع مقعد كما لو أنه يود توعية الكل أنه مساو لأى إنسان؛ وجهه لا يتفادى أشعة الشمس؛ فهذا الوجه يصطبغ بنوع من التورد الجهنمى، كما لو أنه قد تعرض لفترات طويلة لحرارة لا يمكن لإنسان عادى أن يتحمل وقعها. كانت أذرع نظارة مولر ذهبية؛ فهو يعيش فى دولة كل أذرعها ذهبية.

قال مولر مخاطبًا كاسل بأدب كاف، يمكن اعتباره نوعًا من التحية: "اجلس"، لكن المقعد الوحيد المتبقى كان ضيقًا وصغيرًا، يشبه مقاعد الكنائس؛ لذا اضطر كاسل إلى أن ينحنى، ولم يكن هناك مسند قدم فوق تلك الأرضية الصلبة لكى يسند ركبتيه عليه. جلس فى هدوء، بينما الرجل الشاحب والرجل الآخر المتورد، يرقبانه ولا ينطقان بشىء. تعجب كاسل، كم من وقت سوف ينقضى قبلما ينتهى هذا الصمت. كان أمام كورنيلوسِ مولر ورقة سحبها من داخل ملف، بعد وهلة بدأ فى القرع عليها بنهاية قلم حبر ذهبى، دائمًا فى المكان نفسه، كما لو أنه يثبت وتدًا. كان صوت" تاب تاب تاب يسجل طول فترة الصمت، كما لو كانت هى الدقات المنتظمة لساعة حائط. قام الرجل الآخر بحك جلد ساقه ما فوق الجورب، وهكذا استمرت الـ" تاب تاب كذلك الحك حك".

أخيرًا تبرع مولر بالقول: "أنا سعيد باقتناعك بأهمية حضورك إلى هنا يا مستر كاسل".

"نعم، لم يكن الأمر مريحا تماما، لكن، هو ذا أنا هنا".

"أردنا أن نتجنب حدوث فضيحة لا ضرورة لها بالكتابة إلى سفير بلادكم".

أتى الدور الآن على كاسل ليظل صامتا، بينما يجتهد ليتفهم ما يعنيه بالفضيحة.

"هذا هو الكابتن فان دونك – وهو الذى تقدم إلينا بهذه المسألة. لقد شعر بأنه من الأنسب أن نتعامل نحن معها بدلاً من بوليس الأمن العام ؛ ذلك بسبب مركزك وعملك فى السفارة البريطانية. لقد كنت تحت المراقبة يا مستر كاسل لفترة طويلة، لكن اعتقالك بالنسبة لحالتك هذه، أشعر بأنها لن تخدم هدفًا عمليًا؛ فسوف تطالب سفارتك بتحقيق

المميزات الدبلوماسية. بالطبع يمكن لنا أن نعرض مسألتك أمام القضاء، ومن ثم ينتهى بك الأمر بإعادتك إلى الوطن، ولهذا من المحتمل أن يكون ذلك سببًا فى انتهاء عملك نهائيا. ألا ترى ذلك؟".

لم ينطق كاسل....

"لقد كنت متهورا، بل وأقول وكنت غبيًا، لكن عن نفسى لا أعتقد أن هذا الغباء يمكن له أن يتعرض لعقاب كأنه جريمة؛ مع ذلك، الكابتن فان دونك كذلك بوليس الأمن العام متمسكون برأى مخالف، رأى قانونى ؛ ولعلهم فى ذلك هم على صواب. إنه يفضل أن يتبع التعليمات الرسمية والقبض عليك واتهامك أمام المحكمة. يشعر بأن المميزات الدبلوماسية كثيرًا ما تبسط بلا داع لتحمى موظفين صغارًا تابعين لسفارة ما. إنه يود أن يناضل ضد هذه المسألة كمبدأ يتمسك به".

أصبح الجلوس داخل هذه المقعد الضيق مؤلما. ود كاسل لو كان فى استطاعته تحريك وركه، لكنه فكر فى أنه ربما يتم تفسير ذلك كأنما هى علامة ضعف. كان يحاول بكل قوة أن يتفهم مقدار ما يعرفونه ... حقًا تعجب، يا ترى كم عدد عملائه الذين وجهت إليهم اتهامات؟ كان يرى أن استمرار حريته النسبية قائمة كشىء يدعو للخجل والعار، ففى خضم أى حرب أصيلة، يمكن للضابط دومًا أن يموت مع رجاله، بذلك يحتفظ لنفسه بالاحترام الذاتى.

طلب منه الكابتن فان دونك: "ابدأ فى الحديث يا كاسل"... ثم انتزع قدميه من مسند مقعده واستعد للنهوض – أو هكذا بدا الأمر – من المحتمل أن تكون حركة تمويه. فتح وطوى إحدى قبضتيه وأخذ يحدق فى خاتمه، ثم بدأ فى دعك خاتمه الذهبى بإصبع كما لو كان مسدسًا يحرص على المحافظة عليه نظيفًا. فى هذا القطر، لا يمكن لك أن تهرب من الذهب، فهو مختلط فى تراب هذه المدن، ويستخدمه الفنانون كطلاء، ومن الطبيعى جدًا أن يستخدمه رجال البوليس لضرب وجه أى رجل.

تساءل كاسل: "أتحدث عن ماذا؟".

قال مولر: "أنت تشبه معظم الإنجليز الذين يحضرون إلى جمهوريتنا، تشعر بنوع من التعاطف الأوتوماتيكى مع الإفريقيين السود. ويمكن لنا أن نتفهم عواطفك، بل وأكثر من ذلك، لأننا نحن أيضًا إفريقيين. لقد عشنا هنا قبل ثلاثمئة عام وشعب البانتو هم وافدون جدد أيضًا مماثلون لك. لكننى لست محتاجًا لأن أعطيك درسًا فى التاريخ. وكما قلت، نحن نتفهم وجهة نظرك، على الرغم من أنها غارقة فى الجهل، لكن عندما تقود هذه العواطف رجلاً ليصبح عاطفيًا، هنا تتجلى الخطورة التى تصل إلى مرحلة خرق قواعد القانون..".

"أى قانون؟".

"أعتقد أنك تعلم جيدًا أى قانون".

"إنه أمر حقيقى أننى أعد دراسة عن التفرقة العنصرية، والسفارة لا تمانع أبدًا فى ذلك، لكن هى دراسة اجتماعية بحتة – وموضوعية تمامًا – وهى ما زالت فى ذهنى، وأنت بالكاد لك الحق أن تحجر عليها. على أى حال، إنها لن تنشر، كما أتخيل، داخل هذا القطر".

قاطعه الكابتن فان دونك وقد فرغ صبره: "إذا أردت أن تجامع عاهرة سوداء، لماذا لا ترتاد بيتًا مخصصًا لذلك فى ليزوتو أو سوازيلاند؟ فهاتين ما زالتا تمثلان جزءًا ممن تدعونه باسم الكومنولث".

حينئذ، وللمرة الأولى، يتيقن كاسل أن سارة هى التى تواجه الأخطار وليس هو.

قال: "إننى رجل عجوز، ولم أعد أهتم بالعاهرات".

"أين كنت موجودًا فى ليالى ٤، ٧ فبراير، كذلك ما بعد ظهر يوم ٢١ فبراير؟".

"من الواضح أنك تعرف، أو تظن إنك تعرف، بأننى أحتفظ بمذكرة مواعيدى فى مكتبى".

إنه لم يشاهد سارة منذ ثمانى وأربعين ساعة، فهل ما زالت محتجزة بين أيدى رجال يشبهون الكابتن فان دونك هذا؟ تصاعد خوفه كذلك كراهيته بشكل متتابع. نسى أنه نظريا يعتبر ضمن السلك الدبلوماسى، مهما كان درجته بسيطة فى السفارة.

قال كاسل: "ما الذى بحق الجحيم تتحدث عنه؟ كذلك أنت؟".. قال ذلك مشيرًا بيده تجاه مولر: "ما الذى تريده منى؟".

كابتن فان دونك هذا يعتبر رجلاً همجيًا، أيضًا بسيطًا، له اعتقاداته الخاصة التى لها شكل كريه، ومن الممكن غفران أفعاله. لكن ما لا يستطيع كاسل أن يرغم نفسه على غفران تصرفاته هو ذلك الضابط المثقف الناعم، رجل منظمة (بوس). إنهم رجال من هذا النوع- رجال يحصلون على تعليم متميز كى يدركوا جيدًا ما طريقهم وسبيلهم فى الحياة الذى يمكن أن يجعل جهنم بديلاً عن الفردوس. أخذ يفكر فيما طالما أخبره به صديقه الشيوعى كارسون؛ عندما قال له يومًا: "أسوأ أعدائنا هنا ليسوا هم الجهلاء أو البسطاء، مهما كانت درجة قسوتهم، لكن أعتى أعدائنا هم الأذكياء والفاسدون".

قال مولر: "بالتأكيد تعلم جيدًا أنك قد انتهكت قانون العلاقات العنصرية هنا بعلاقتك مع صديقتك فتاة البانتو". كان يتحدث بلهجة تأنيب معقولة، كما لو كان هو موظف البنك الذى يشرح لعميل غير مهم موضوع السحب النقدى الزائد عن المقبول، "يجب أن تكون على علم تام أنه لولا المزايا الدبلوماسية التى تتمتع بها، إذن لكان مصيرك هو السجن".

طلب منه الكابتن فان دونك: "أين خبأتها؟"... شعر كاسل بعد إلقاء هذه السؤال بالراحة.

"تقول خبأتها؟".

كان الكابتن فان دونك واقفا الآن على قدميه، منشغلا بدعك خاتمه الذهبى، بل وبصق عليه.

قال مولر: "هذا كل ما فى الأمر يا كابتن، سوف أهتم أنا بمسألة مستر كاسل. لن أطلب أكثر من ذلك من وقتك. أشكرك لكل المساعدات التى قدمتها إلى إدارتنا. أود أن أتحدث مع مستر كاسل بمفردنا".

عندما أغلق فان دونك الباب وراءه، وجد كاسل نفسه فى مواجهة، من كان يصفه كارسون، بأنه العدو الحقيقى. استمر مولر فى الحديث: "لا تهتم بما قاله كابتن دونك، فرجال مثله لا يمكن لهم أن ينظروا أبعد من أنوفهم. هناك طرق أخرى لتسوية هذا

الموضوع بشكل أكثر معقولية بدلاً من ذلك الاضطهاد الذى سوف يعمل على تدميرك وفى الوقت نفسه لا يساعدنا".

سمع صوت نسائى سحبه إلى عالم الحاضر: "أستطيع أن أسمع صوت سيارة مقبلة". كان هذا صوت سارة التى كانت تخاطبه وهى واقفة على قمة سلم الدور العلوى. ذهب إلى النافذة. كانت هناك سيارة مرسيدس سوداء تسلك طريقا صاعدا نحو بعض منازل شارع كنجز. من الواضح أن السائق كان يبحث عن رقم منزل معين، لكن كما هو معتاد، كان هناك عدد من لمبات الشارع مطفأه.

نادى كاسل: "إنه بالفعل مستر مولر". وضع فى الحال كأسه، ملاحظا أن يده كانت ترتعش بسبب قوة قبضته على الكأس بشكل متحفز.

مع صوت جرس الباب، أخذ بولر فى النباح، لكن ما أن فتح كاسل الباب، حتى أخذ الكلب يبصبص بذنبه مرحبًا بالغريب بافتقار كامل للتمييز والحصافة، ثم ترك بعضًا من لعاب المحبة على بنطلون مولر. أخذ الضيف يداعب الكلب بحذر: "كلب لطيف، فعلاً كلب لطيف".

لقد أحدث كر الزمن تغييرًا ملحوظًا فى هذا الرجل ... أصبح معظم شعر رأسه أبيض، ووجهه بدا أقل نعومة. لم يعد ظاهرًا شكل ذلك المستخدم المدنى الذى لا يعرف شيئًا سوى ترديد الإجابات السديدة. ومنذ أن تقابلا آخر مرة، يبدو أن هناك شيئًا ما قد حدث: بدا عليه أنه أصبح أكثر إنسانية؛ ربما يرجع ذلك إلى أنه اكتسب صفات جديدة بفضل حصوله على ترقيات فى عمله وتكليفه بمسئوليات أكثر خطورة وجسامة، مصطحبًا معها عوامل عدم التأكد الجازم، كذلك العديد من الأسئلة التى لا إجابة عنها.

"مساء الخير يا مستر كاسل. آسف لأننى تأخرت عليك. كانت حركة السير فى منطقة واتفورد سيئة، أظن أن هذه المنطقة تسمى واتفورد".

يمكن للمرء الآن أن ينظر إلى هذا الرجل باعتباره إنسانًا حيًا، أو لعله يشعر فقط بالضياع دون موقع عمله المعتاد ومكتبه المصنوع من أفضل أخشاب إفريقيا، كذلك عدم

وجود اثنين من صغار الموظفين جالسين فى غرفة ملحقة بمكتبه. كانت السيارة المرسيدس قد استكملت سيرها، بالتأكيد هو ذا السائق يبحث عن تدبير وجبة عشاء له، وهو ذا مولر بمفرده داخل مدينة غريبة عليه فى بلد أجنبى، وليس هناك أحد تماثيل الزعيم كروجر تزين أى ميدان أو ساحة هنا.

قام كاسل بصب كأسين من الويسكى. قال مولر: "لقد انقضى وقت طويل منذ أن تقابلنا للمرة الأخيرة".

"إنها سبع سنوات".

"شىء رائع أن تدعونى للعشاء معك فى منزلك".

"لقد فكر س فى أن تلك هى أفضل فكرة كى نحطم الثلوج المتراكمة. يبدو أنه محتم علينا أن نعمل معًا فى مشروع العم راموس".

تحولت أنظار مولر ناحية التليفون، كذلك نحو اللمبة والمائدة، ثم إلى فازة الورود.

قال كاسل: "لا تشغل بالك، ولا تهتم إذا كانت موضوعة تحت المراقبة، فهذا لن يحدث إلا من مواطنى. لكن على أى حال، أنا متأكد تمامًا أنه لا توجد أجهزة تنصت هنا"... ثم رفع كأسه: "فى نخب آخر لقاء لنا. هل تتذكر اقتراحك بموافقتى للعمل لحسابكم؟ حسنًا، هوذا أنا الآن تحت أمرك لنعمل معًا. هل تعتقد أن هذا يمثل سخرية للتاريخ، أم إنه ما هو مقدر ومكتوب؟ لاحظ أن كنيستك ذات الأصول الهولندية تؤمن بذلك".

"بالطبع، فى أيامنا السابقة لم يكن لدى أدنى فكرة عن مركزك الحقيقى، ولو كنت قد عرفت، إذن ما كُنت هددتك بخصوص فتاة البانتو البائسة. إننى على علم الآن أنها كانت واحدة من عملائك، بل وأعتقد أنه كان فى إمكاننا أن نستخدمها معًا. لكن، كما تعلم، كنت أنظر إليك باعتبارك من ذوى الهمم العالية الخياليين المناهضين للتفرقة العنصرية. لقد اندهشت للغاية عندما أخبرنى رئيسى بأنك الرجل الذى سوف أتعامل معه فى مشروع العم راموس. أرجو أنك لا تحمل ضدى أى إساءة. على كل حال، كلينا من المتخصصين، ونحن نعمل الآن لخدمة هدف واحد".

"نعم، أعتقد ذلك".

"مع ذلك، أود أن تخبرنى؛ وهذا لا يهم الآن، أليس كذلك؟ كيف تسنى لك أن تهرب فتاة البانتو هذه، أعتقد أنك صاحبتها حتى سوازيلاند؟".

"نعم".

"كنت أظن أننا قد أحكمنا الحدود مع هذه الدولة جيدًا؛ إلا فيما يختص برجال العصابات المحترفين. أنا لم أعتبرك قط كمحترف، على الرغم من أننى قد تحققت بأن لك بعض الاتصالات بالشيوعيين، لكننى افترضت أنك فى حاجة إليهم للاستعانة بهم فى تأليف كتابك هذا عن التفرقة العنصرية الذى لم ينشر قط. لقد خدعتنى وأنت قائم هناك، ولا حاجة لأن نتحدث عن الكابتن فان دونك، أنت بالطبع تتذكر الكابتن فان دونك؟".

"أوه، طبعًا بكل جلاء".

"كنت مضطرًا إلى أن اسأل بوليس الأمن العام أن ينظر فى مسألتك. لقد تصرف هذا الرجل بكل غباء. كنت متأكدًا أنه إذا قمنا بسجن الفتاة، فإنك سوف توافق على العمل معنا، وهذا هو السبب الذى من أجله استطاعت أن تنفذ من أيدينا. ربما لا تعلم — وأرجوك ألا تضحك — أننى كنت مقتنعًا بأنك واقع فى حبائل حب حقيقى. كنت أعرف العديد من الرجال الإنجليز وقد بدءوا فى مهاجمة التفرقة العنصرية، ثم انتهى الأمر بهم بأن وقعوا أسرى فى حضن بنت من بنات البانتو. إنها تلك الفكرة الرومانتيكية التى تحفزهم على كسر ما يظنونه قانونا ظالما، ثم تجذبهم، كما فعلت أنت، مؤخرة بنت سوداء. لم أحلم يومًا أن المدعوة سارة مانكوسى، أعتقد أن هذا هو اسمها؛ كانت طوال الوقت عميلة تابعة إلى م١٦".

"هى نفسها لم تعلم ذلك. كانت مؤمنة بكتابى أيضًا، هل ترغب فى كأس أخرى؟".

"أشكرك. ممكن".

قام كاسل بصب كأسين، مقامرًا باحتفاظه بعقل متيقظ واع.

"على الرغم من كل الاعتبارات، فأرى أنها كانت فتاة بارعة. لقد بحثنا جيدًا وراء خلفياتها. كانت منتظمة فى الدراسة بالجامعة الإفريقية بالترنسفال، حيث يكثر عدد أساتذة العم توم هناك، الذين دائمًا ما يخرجون لنا أخطر أنواع الطلبة. مع ذلك، وشخصيًا، أدركت دائمًا أنه كلما زادت مهارات الإفريقى كان ممكنا تحويل اتجاهاته – بطريقة أو بأخرى. ولو تيسر لنا أن نودع هذه الفتاة فترة فى السجن، إذن لكان فى إمكاننا أن نحول اتجاهاتها– حسنا، ربما كانت مفيدة لنا الآن فى مشروع العم راموس، أو هل هذا صحيح؟ كثيرًا ما ينسى المرء تلك الأيام الغابرة الشيطانية. هى فى وقتنا الحالى ، بالتأكيد قد برزت أسنانها إلى الأمام، كما أعتقد، فنساء البانتو سريعًا ما يظهر عليهن آثار تقدم العمر. هن بوجه عام ينتهين – على الأقل بالنسبة لذوق البيض – تمامًا قبل وصولهن عمر الثلاثين. هل تعلم شيئًا يا كاسل، أنا حقًا سعيد لقيامنا بالعمل معًا، وأنت لست كما ظننا فى (بوس)– كواحد من هؤلاء المثاليين الذين يريدون تغيير طبائع البشر. نحن نعلم جيدًا نوعية الناس الذين كنت أنت على اتصال بهم – أو معظمهم، ونحن كنا على علم تام بهذا الكلام الفارغ الذى كان يصبونه فى أذنيك – لكن أنت تفوقت علينا، لذلك استطعت بالتأكيد أن تخدع هؤلاء البانتو، كذلك الشيوعيين... أعتقد أنهم أيضًا ظنوا أنك بالفعل كُنت مشغولاً بتأليف كتاب يمكن أن يخدم أهدافهم. ولعلم حضرتك، أنا لست مضادًا للإفريقيين كما كانت الحال مع الكابتن فان دونك .. أنا أعتبر نفسى مئة فى المئة أفريقيًا".

بالتأكيد، ليس هذا هو كورنيلوس مولر الذى كان يعمل فى مكتب بريتوريا ويتحدث الآن، فذلك الكاتب الشاحب الذى يؤدى عمله المحدد لا يمكن له أبدًا أن يتحدث هكذا بتلك السهولة والثقة. حتى مشاعر الخجل وعدم التأكد التى التصقت به منذ لحظات اختفت وزالت. لقد فعل الويسكى عمله المعتاد. إنه الآن ذلك الضابط ذو المركز الرفيع فى مؤسسة (بوس) وقد عهد إليه القيام بمهمة خارجية، يتلقى أوامره ممن هو أعلى منزلة من جنرال. إنه يستحق الآن أن يشعر بالراحة والانسجام، ويمكن له – وهو فكر غير مريح – أن يصبح على راحته تمامًا. بدا الأمر فى نظر كاسل أنه قد أصبح مشابها بالأكثر لما كان يتصف به الكابتن فان دونك الذى يكن له احتقارًا شاملاً، من بذاءة ووحشية.

قال مولر: "لقد قضيت كثيرًا من إجازاتي الأسبوعية فى ليسوتو، احتك كتفًا بكتف مع إخوتى من السود فى كازينو هوليداى. وأحب أن أعترف بأننى حتى إنه كان لدى القليل من .. حسنًا، من المواجهة؛ بشكل كان يبدو مختلفًا حينذاك، بالطبع هذا لم يكن متعارضا مع القانون، حيث لم نكن بعد فى حضن الجمهورية".

نادى كاسل "يا سارة، أحضرى سام معك كى يقول لمستر مولر مساء الخير".

"هل أنت متزوج؟".

"نعم".

"أنا ممنون لأنك دعوتنى إلى منزلك. لقد أحضرت معى بعض الهدايا البسيطة من جنوب إفريقيا، وربما يكون فيها شىء يعجب زوجتك. لكن أنت لم تجب بعد عن سؤالى، والآن ونحن نعمل معًا – كما تمنيت قبلاً، كما تذكر؛ هل يمكن لك أن تخبرنى كيف هربت هذه الفتاة؟ هذا لن يسىء أبدًا الآن بعملائك، وهذا الموضوع له معنى خاص بالنسبة لعملية العم راموس، والمشكلة التى يجب أن نجابهها معًا والولايات المتحدة بالطبع؛ حيث لدينا جميعًا جبهة موحدة الآن".

"ربما يمكن لها بنفسها أن تخبرك، دعنى أقدمها لك ومعها ابنى سام". كليهما هبط السلم بينما كان مولر يلتفت نحوهما.

قال كاسل: "مستر مولر يسأل كيف أمكن لى أن أنقلك إلى سوازيلاند يا سارة".

أخطأ كاسل التقدير، فقد فشلت المفاجأة كلية...

قال مولر وهو يقبض على يد سارة محييًا: "إننى سعيد للغاية بمقابلتك يا مسز كاسل".

قالت سارة: "لقد فاتنى مقابلتك قبل سبع سنوات سابقة".

"نعم، سبع سنوات ضائعة... أنت لديك زوجة جميلة يا كاسل".

قالت سارة: "أشكرك. تقدم يا سام وصافح مستر مولر".

قال كاسل: "هذا هو ابنى". كان يعلم أن مولر هو خبير فى تمييز الألوان، وكان سام بالغ السواد.

قال مولر: "كيف حالك يا سام؟ هل تذهب إلى المدرسة؟".

قالت سارة: "سوف يذهب للمدرسة بعد أسبوع أو أسبوعين، اذهب إلى سريرك الآن يا سام".

تساءل سام "هل تعرف لعبة الاستخفاء؟".

"كنت أعرف هذه اللعبة، لكننى مستعد دائمًا أن أتعلم قواعد جديدة لها".

"هل أنت جاسوس مماثلاً لمستر ديفيز؟".

قالت سارة: "قلت لك، اذهب إلى سريرك يا سام".

"هل لديك قلم حبر به سم؟".

"سام! إلى السلم".

قال كاسل: "والآن، بالنسبة لسؤال مستر مولر، أين وكيف هربت إلى سوازيلاند؟".

"لا أعتقد أنه يتوجب على أن أخبره بشىء، ألست محقة؟".

قال مولر: "أوه، دعنا ننسى سوازيلاند. إنه تاريخ قديم، وهذا كله حدث فى قطر آخر".

أخذ كاسل يراقبه وهو يرتجل، يفعل ذلك بشكل طبيعى مشابهًا الحرباء التى تتلون طبقًا لنوعية التربة. تأكيدًا ارتجل أيضًا أثناء قضاء إجازته الأسبوعية فى ليسوتو، ولعله يكتشف أن مولر أكثر قبولا لو قلل من حالات ارتجاله. طوال فترة المساء، ظل مولر فى مناقشاته المهذبة. نعم، هذا ما فكر فيه كاسل، إنه فى الحقيقة يفضل عنه الكابتن فان دونك؛فهذا الأخير كان جديرًا به أن يغادر المنزل على الفور إذا كان قد شاهد سارة،

فالتعصب هو طبع أصيل عند الشخص المثالى، أما كورنيلوس مولر فهو بلا تعصب وبلا أى نوع من المثالية.

"كيف وجدت حال الجو هنا يا مستر كاسل، بعد جنوب إفريقيا؟".

"أنت تقصد الطقس؟".

"نعم، الطقس".

قالت سارة: "إنه أقل تطرفا هنا".

"ألا تشتاقا أحيانًا لإفريقيا؟ لقد حضرت إلى هنا عن طريق مدريد وأثينا، لذا أكون قد غبت عدة أسابيع عن بلدى، لكن هل تعلمان أكثر ما أشتاق إليه؛ إنها أكوام أتربة المناجم التى تتناثر حول جوهانسبرج، كذلك لونها والشمس تكاد تغيب. ما الذى تفتقدانه أكثر؟".

لم يشك كاسل قط من حيازة مولر لأى مشاعر تناصر تذوق الجمال. فهل ما بدا منه الآن نتيجة لحصوله على ترقية فى عمله أم إنه يداهن بسبب تواجده بينهما؟

قالت سارة "ذكرياتى مختلفة تمامًا، فإفريقيا خاصتى كانت مختلفة عنكما".

قال مولر: "أوه، لا تهتمى. كلينا ينتمى إلى إفريقيا. بهذه المناسبة، كنت قد أحضرت معى عدة هدايا لأصدقائى هنا، ولم أكن أدرى إنك واحدة منهم. لقد أحضرت لك شالاً. أنت تعلمين كيف يصنعون هذه المنسوجات الرائعة – المنسوجات الملكية. هل تقبلين شالاً – من عدوك القديم؟".

"بالطبع. هذا لطف منك".

"هل تعتقدين أن ليدى هارجريفز ممكن لها أن تقبل شنطة من جلد النعام؟".

"إننى لا أعرفها، يجب أن تسأل زوجى فى هذا الشأن".

فكر كاسل. هذا الأمر بالذات مرتبط بذوق تلك السيدة المبجلة المرتبط بمدى تقديرها للتماسيح، إلا إنه أجاب بالقول "أنا متأكد... والهدية مقدمة منك.." .

شرح مولر: "أننى أبدى اهتمامًا عائليًا فيما يختص بطيور النعام. لقد كان جدى واحدا ممن يدعونه اليوم أحد مليونيرات النعام – وقد تخلى عن هذا العمل مع بداية حرب ١٩١٤. كان يمتلك بيتًا واسعًا فى مقاطعة الكاب. كان منزلاً رائعًا، لكنه الآن هو عبارة عن أنقاض. لم يعد ريش النعام يصدر إلى أوروبا، لذا أفلس والدى. مع ذلك، إخوتى ما زالوا يحتفظون ببعض النعام".

تنكر كاسل كيف أنه زار يومًا واحدًا من هذه المنازل ، التى كانت تحتفظ بها السلطات هناك باعتبارها نوعًا من المتاحف، يشرف عليه مدير مهمته أن يشرح كل ما تبقى من مزرعة النعام. كان هذا المدير الضئيل الحجم يبدى اعتذارًا عن الجمال البارع وارتباطه بالذوق الردىء. كانت غرفة الحمام هى أهم مكان للزيارة فى تلك الجولة ، ودائمًا ما يتم اصطحاب الزائرين إلى الحمام باعتباره آخر المعالم ؛ حيث يوجد بداخله مغطس الاستحمام الذى يشبه سريرًا مزدوجًا يثبت على أطرافه صنابير مصبوغة بالذهب، ومرسومة على الجدران نسخ رديئة للرسوم الإيطالية البدائية.. وفوق الهالات وجدت أوراق أشجار منحوتة من الذهب الخالص، التى بدأت تتعرض للفناء التدريجى.

مع نهاية حفل العشاء، استأذنت سارة لتغادر، أما مولر فإنه تقبل كأسا من البورت –زجاجة هذا البورت لم تمس منذ عيد الميلاد السابق – كانت هدية من ديفيز.

قال مولر "بكل جدية، أود أن تشرح لى بعض تفصيلات طريق زوجتك حتى وصلت إلى سوازيلاند. لا داعى طبعًا لذكر أسماء. أعلم أنه كان لديك بعض الأصدقاء من الشيوعيين ؛ وأعلم الآن أن هذا كان جزءًا من عملك. كانوا يظنون أنك واحد من الرحالة العاطفيين .. كما كان هكذا الحال معنا. مثلا، أعتقد أن كارسون كان يظنك هكذا ، إنه ذلك المسكين كارسون"..

"لماذا كارسون مسكين؟".

"لقد وصل إلى أبعد مدى. أصبحت له علاقات مع رجال العصابات هناك. كان شخصًا صالحًا بأسلوبه الخاص، أيضًا يعتبر محاميًا جيدًا. لقد سبب متاعب جمة لبوليس الأمن هناك فيما يختص بتطبيق قوانين الاجتياز".

"وهل لا يزال يمارس ذلك؟".

"أوه، لا. لقد مات منذ نحو عام فى السجن".

"إننى لم أسمع ذلك".

ذهب كاسل إلى رف وصب لنفسه كأسًا مزدوجة من الويسكى.

قال مولر: "هل لا تحب احتساء هذا البورت، لقد اعتدنا أن نحصل على أفضل أنواع البورت من لورنزو ماركيز. لكن للأسف، هذه الأيام قد ولت وانتهت".

"ما سبب موته؟".

"إنه الالتهاب الرئوى. حسنًا، هذا أنقذه من إجراءات محاكمة طويلة الأمد".

"كنت معجبًا بكارسون هذا".

"نعم، الشىء المحزن أنه دائمًا كان يميز بين الإفريقيين بلون البشرة. إنه نوع من الخطأ الذى يقع فيه الجيل التالى من الناس. إنهم يرفضون الاعتراف بكون الرجل الأبيض من الممكن أن يكون إفريقيًا متميزًا مماثلاً للرجل الأسود. مثلاً، لقد نزحت عائلتى إلى هناك عام ١٧٠٠. نحن نعتبر من أوائل القادمين إلى هناك". نظر بعد ذلك إلى ساعته: "يا الهي، معك تأخرت. بالتأكيد سائقى فى الانتظار منذ ساعة كاملة، يتحتم على أن أودعك وأقول لك تصبح على خير".

"ربما يحسن أن نتحدث قليلاً قبل رحيلك عن مهمة العم راموس".

"هذا من الممكن أن ينتظر عندما نتقابل فى المكتب".

عند الباب التفت: "أنا آسف جدًا فيما يختص بكارسون – ولو كنت قد علمت أنك لا تعلم بوفاته، إذن ما تحدثت عنه هكذا سريعا".

قام الكلب بولر بلمس مؤخرة بنطلون الزائر بكل الحب الخالص. قال مولر: "كلب لطيف، إنه ظريف. لا شيء على الإطلاق يشبه إخلاص ووفاء الكلب".

* * *

(٢)

الساعة الواحدة صباحا، قاطعت سارة صمته الذى استمر طويلاً "أنت ما زلت مستيقظا. لا تتظاهر. هل شعرت بالاستياء من مقابلة مولر؟ لقد كان مهذبا معنا".

"أوه، نعم. فهو عندما يصل إلى إنجلترا، عليه أن يضع قناعًا إنجليزيًا مهذبًا ... إنه يتوافق مع المواقف المختلفة سريعًا".

"هل أبحث لك عن قرص منوم؟".

"لا. سوف أستغرق فى النوم حالاً. فقط هناك شىء أود أن أخبرك به. كارسون توفى فى السجن".

"هل اغتالوه؟".

"قال مولر إنه توفى بالالتهاب الرئوى".

وضعت رأسها فى ثنى ذراعه وأدارت وجهها فى الوسادة. خمن أنها تبكى.

قال: "لم أستطع الليلة سوى تذكر آخر مذكرة وصلتنى منه. كان فى انتظارى فى السفارة بعد انتهائى من مقابلة مولر وفان دونك. كتب فيها "لا تقلق فيما يختص بسارة. خذ أول طائرة متجهة إلى ل. م وانتظرها هناك فى فندق بولانا. إنها بين أيدٍ أمينة".

"نعم، أننى أتذكر جيدًا هذه الورقة، لقد كنت بجانبه وهو يكتبها".

"لم تتح لى الفرصة قط أن أشكره إلا بعد سبع سنوات من الصمت و..".

"و...؟".

"أوه، لا أدرى ما وددت النطق به"، ثم أخبرها بما قاله مولر وأضاف: "لقد أحببت كارسون".

"نعم. كنت أثق به، أكثر من ثقتى فى أصدقائه. خلال هذا الأسبوع الذى انتظرتنى فى لورنزو ماركيز، كان لدينا وقت كافٍ لكى ننغمس فى مناقشات شتى. كنت دائمًا ما أخبره بأنه ليس شيوعيًا حقيقيًا".

"لماذا، لقد كان عضوًا فى هذا الحزب. واحد من أقدم الأعضاء المتواجدين فى الترنسفال".

"بالطبع أعلم ذلك. لكن هناك أعضاء وأعضاء. أليس كذلك؟ لقد أخبرته عن سام قبلما أخبرك أنت".

"كانت له طريقته الخاصة فى جذب الناس إليه".

"معظم من عرفتهم من الشيوعيين ... إنهم يدفعون لا يجذبون".

"على كل حال يا سارة، هو كان شيوعى أصيل. كان يوقر ستالين، مثلما كان الكاثوليك الرومان يوقرون آل بورجيا. بل وجعلنى أقدر أيضًا هذا الحزب".

"لكن لا أعتقد أنه جذبك إليه بقدر كبير كما أعتقد".

"أوه، كانت هناك أمور كثيرة تخنق زورى. كان معتادا على القول بأننى أعف عن الناموسة كى أبتلع الجمل. أنت كما تعلمين، لم أكن يومًا رجلاً متدينًا ؛ لقد هجرت الله وأنا فى المعبد الملحق بالمدرسة، لكن كان هناك بعض الكهنة فى إفريقيا الذين جعلونى أؤمن مرة أخرى وأنا اشرب. ولو كان كل القسس كما كان هؤلاء وقابلتهم كثيرا، إذن ربما كان فى إمكانى أن أؤمن بالقيامة ، الولادة العذرية أو أليعازر وكل هذه المسائل. أتذكر أحدهم الذى قابلته مرتين.. كنت أود أن أجعله عميلا لنا مثلما فعلت معك، لكنه لم يكن نافعا. اسمه كونللى أو ربما أوكونيل؟ كان يعمل جاهدا فى الأحياء القذرة لمنطقة سويتو. لقد أخبرنى بالضبط ما قاله كارسون ؛ من إنك تعف عن الناموسة وتبلع الجمل...لفترة كنت نصف مؤمن بإلهه، بشكل يشبه نصف إيمانى بكارسون. ولعلى ولدت لأكون نصف مؤمن. وعندما يتحدث الناس عن براغ وبودابست وإنه يتعذر على المرء أن يعثر على وجه إنسانى فى الشيوعية، كنت أظل صامتًا، لأننى رأيت – مرة – الوجه الإنسانى. كنت أقول

لنفسى أنه لولا كارسون هذا، إذن لكان سام قد ولد داخل السجن وأنت تموتين داخل أحد السجون. واحد من صنف الشيوعيين، أو شخص شيوعى أنقذك أنت وسام. إننى لا أثق البتة سواء فى ماركس أو لينين أكثر من إيمانى بالقديس بولس، لكنْ ألا يجدر بى أن أكون ممتنًا لأحدهم؟".

"لما يشغلك هذا الأمر كثيرًا؟ لن يقول لك أحد إنك مخطئ كى تشعر بالامتنان، أنا أيضًا ممتنة. الامتنان صفة جيدة إذا...".

"إذا..؟".

"أظن أننى كدت أقول إنها خصلة جيدة إذا لم تسحبك بعيدًا".

مرت ساعات قبلما يستغرقا فى النوم. ظل كاسل متيقظا يفكر فى كارسون وكورنيلوس مولر، فى العم راموس وبراغ. لم يرد أن ينعس قبلما يتأكد من واقع تنفسها أنها قد استغرقت فى النوم قبله. ثم سمح لنفسه بأن ينزلق، مثلما كان يفعل بطل أيام صبوته الآن كواترمين، مع ذلك التيار التحتى الطويل البطىء، الذى سوف يحمله إلى عمق تلك القارة السوداء، تلك التى طالما ساوره أملاً فى أن يعثر فيها على مقر دائم، فى مدينة يمكن له فيها أن يتم قبوله كمواطن، مواطن لا يحمل فى جوانبه أى بادرة من الإيمان أو الاعتقاد، ليست هى مدينة الله أو ماركس، لكن مدينة تدعى راحة الضمير.

* * *

الفصل الرابع

(١)

بين الحين والآخر، ومرة واحدة فى الشهر، فى يوم إجازته، كان من عادة كاسل أن يصطحب سارة وسام فى نزهة بالمنطقة الريفية المليئة بأشجار الصنوبر القائمة فى شرق سوسكس بهدف زيارة والدته. لا أحد فكر فى أن يتساءل عن أهمية هذه الزيارة، بل وحتى كاسل كان يشك فيما إذا كانت والدته تسر بهذه الزيارة أم لا، على الرغم من أنه يؤمن بأنها كانت تصنع كل ما فى وسعها كى تجعلهم يشعرون بالسعادة والسرور — طبقًا لمعايير حكمها لما يمثله السرور. وبشكل لا يتغير، كانت تحتفظ فى الثلاجة بكمية من الأيس كريم من نوع الفانيليا لسام — سام كان يفضل الشيكولاتة – وعلى الرغم من أن أمه كانت تعيش على بعد نصف ميل من محطة السكة الحديد، لكنها كانت تستخدم سيارة أجرة لكى تقابلهم. أما كاسل، الذى لم يسع قط لتملك سيارة منذ عودته إلى إنجلترا، فقد كان لديه انطباع أن والدته تنظر إليه كشخص فاشل وعقيم. وقد أخبرته سارة يومًا بأنها شعرت– كضيفة سوداء وسط مجموعة من المناهضين للتفرقة العنصرية – بأنها أكثر ضجرًا وضيقًا وهى وسطهم.

هناك سبب آخر لهذا الشد العصبى يتسبب فيه الكلب بولر. لقد جاهد كاسل كثيرًا كى يبقى بولر فى المنزل، لكن سارة كانت على يقين من أنه دون حمايتهم فإنه سوف يتعرض للاغتيال على أيدى بعض الرجال الملثمين، هذا على الرغم من أن كاسل أكد لها أنهم قد اقتنوا هذا الكلب كى يحميهم لا لكى يحموه. وعلى المدى الطويل، ثبت أنه من الأسهل أن يترك الأمور كى تسير فى طريقها المعتاد، على الرغم من أن والدته تكره الكلاب، لا سيما أنها تمتلك قطة سيامية، تلك التى كان من مطامح بولر أن يدمرها ويتخلص منها؛

لذا كانت الوالدة تحبس القطة فى غرفة النوم ويصبح مصيرها المحزن هو الانعزال التام عن الصحبة البشرية، وهذا ما كانت تشير إليه والدة كاسل فى مجرى سريان هذا اليوم الطويل. فى فرصة معينة، وجد بولر متحفزًا واقفًا أمام باب غرفة النوم منتظرا فرصته، يتنفس بعمق كأنما هو قاتل شكسبيرى. فيما بعد، قامت السيدة كاسل بكتابة خطاب طويل تؤنب فيه سارة بسبب هذا الموضوع، حيث يبدو أن أعصاب هذه القطة قد عانت كثيرًا على مدى أسبوع بأثره. لقد رفضت القطة الريجيم الخاص بها المكون من المشهيات المختلفة وصممت على بقائها على قيد الحياة مقتصرة على لهط اللبن فقط – كأنما هذا إضراب بالتجويع.

وسوف يسود الاكتئاب عليهم جميعًا بمجرد ما تدخل سيارة الأجرة نطاق الظلال العميقة للطريق المشجر الذى يقود حتى ذلك المنزل ذى الجمالون العالى الإدواردى، الذى قام والده بشرائه ليقضى فيه أيام إحالته للمعاش بالقرب من ملعب للجولف (بعدها بقليل، أصيب الوالد بجلطة جعلته غير قادر على أن يسير حتى ولو إلى باب النادى).

كانت السيدة كاسل واقفة عند مدخل منزلها لا تتحرك من مكانها فى انتظارهم. تقف بجرمها الطويل المستقيم ترتدى جونلة من موضة قديمة تبرز سيقانها الرائعة التكوين، كذلك ترتدى سترة علوية بياقة مرتفعة مشابهة للملكة ألكسندرا، استطاعت بها أن تخفى ملامح تقدمها فى العمر؛ لذا كى يخفى قنوطه، تقدم كاسل مزدهيًا بشكل غير طبيعى وحيًا أمه بحضن مبالغ فيه، أما هى فإنها بالكاد ردت عليه بهذه الحرارة نفسها. إنها تؤمن يقينا بأن أى تعبير عاطفى علنى إنما يصدر من لدن مشاعر مزيفة. كانت هذه السيدة تستحق أن تتزوج سفيرًا أو حاكم مقاطعة بدلاً من أن ترتبط بطبيب ريفى.

قال كاسل: "تبدين فى أحسن حال يا والدتى".

"أشعر بأننى فى أفضل حال بالنسبة لعمرى". كانت فى الخامسة والثمانين من عمرها، قدمت بعد ذلك خدًا أبيض نظيفًا ينضح برائحة ماء اللافندر إلى سارة كى تتلق قبلتها. أضافت: "أرجو أن يكون سام قد استرد بالفعل صحته".

قال كاسل: "من العزل؟".

"طبعا".

بذلك وقد حدث هذا التأكيد، منحت السيدة كاسل الولد قبلة مختصرة.

قالت له: "أنت سوف تلتحق بالمدرسة قريبًا كَمَا أعتقد؟".

هز سام رأسه.

"سوف تتمتع بصحبة عدد من أولاد الآخرين وتلعب معهم. أين بولر؟".

قال سام راضيًا: "لقد صعد إلى الدور العلوى باحثًا عن القطة تنكر بيل".

بعد الغداء، اصطحبت سارة سام إلى الحديقة ومعهما بولر، ذلك كى تتيح لكاسل أن يقضى وقتًا منفردًا بأمه. كان هذا هو الروتين الشهرى، فسارة تسعى إلى أن تكون كل تصرفاتها حسنة، لكن كاسل دائمًا ما يداهمه شعور بالراحة العميقة عندما تنتهى هذه الجلسة. تبدأ المقابلة بحالة من الصمت الشامل بينما تنهمك مسز كاسل فى صب قدحين غير مطلوبين من القهوة، ثم تقترح الحديث فى موضوع، يعلم كاسل أنه قد تم التفكير فيه مليا قبل وقت طويل، كل هذا كى تتم التغطية على فترة الانتظار المحرجة هذه.

قالت مسز كاسل، وهى تضع قطعة سكر واحدة فى فنجانها واثنتين فى قدح كاسل: "كانت تلك حادثة اصطدام فظيعة التى حدثت الأسبوع الماضى".

"نعم بالتأكيد، كانت بالفعل حادثة فظيعة". أخذ يتذكر مجتهدا، أى شركة وأى حادثة..هل تلك التى حدثت فى كلكتا؟

"لم أستطع منع نفسى من تخيل ما تكون عليها الحال لو أن سام أو سارة كانا على ظهرها".

تذكر ما تقصده للتو: "لكن هذه حدثت فى بنجلاديش يا أمى، لماذا يمكن أن ..؟".

"أنت تعمل فى مكتب يهتم بالشئون الخارجية، يمكن لهم أن يرسلوك إلى أى مكان".

"أوه، لا بالطبع. لا يمكن. إننى مقيد فى مكتبى بلندن يا أمى. لكن على أى حال، تعلمين بالطبع أننا قد عيناك وصية إذا حدث أى شيء".

"امرأة قاربت على سن التسعين تعمل وصية".

"لا، خمسة وثمانين بالتأكيد يا والدتى".

"كل أسبوع أقرأ عن امرأة عجوز قتلت فى اصطدام أتوبيس".

"أنت لا تستخدمين الأتوبيس مطلقًا".

"لا أرى سببًا من أن أجعلها قاعدة ألا استخدم الأتوبيس".

"إذا حدث لك أى شيء، تأكدى أننا سوف نعين وصيًا آخر يعتمد عليه".

"ربما يكون الأمر متأخرا. يجب على الإنسان أن يأخذ فى حسبانه الحوادث الفجائية. وفى حال سام – حسنا، هناك مشكلات خاصة به".

"كما أعتقد، تقصدين لونه".

" لا يمكن لك أن تجعله حارسا فى المحكمة العليا. عديد من قضاة هذه المحكمة... وهذا كثيرًا ما كان يردده والدك ، هم عنصريون. ثم، إذا حدث هذا معك، وإذا متنا جميعا، ربما يظهر بعض الناس – هناك – الذين ربما يطالبون به؟".

"سارة ليس لها أبوان".

"ما سوف تتركه بعدك، مهما كان حجمه صغيرًا، ربما ينظر إليه البعض باعتباره ثروة؛ أعنى عن طريق أحدهم هناك. وإذا كانت الوفيات متعاقبة، فسوف يتم الحكم بأن الأكبر هو الذى توفى أولاً، أو هكذا ما قيل لى؛ لذا فإن مالى سوف ينضم إليك وبالطبع بالتأكيد سارة لديها لعض الأقرباء الذين ربما يطالبون...".

"أمى، هل تغيرت وأصبحت أنت أيضًا عنصرية؟".

"لا يا عزيزى، أنا قطعًا لست عنصرية، لكن ربما أكون دقة قديمة ووطنية. سام يعتبر إنجليزيًا بالمولد مهما يقول أحدهم".

"سوف أفكر فى هذا الموضوع يا والدتى". كانت هذه الجملة هى النهاية المعتادة لمعظم مناقشاتهما، لكنه كان يفضل أن يحدث نوع من التغيير فى طرق المواضيع المختلفة، لذا أضاف: "إننى أتعجب يا والدتى، هل يجدر بى أن أحيل نفسى إلى المعاش أم لا".

"إنهم لن يعطوك معاشًا جيدًا، أليس كذلك؟".

"لقد ادخرت القليل، ونحن نعيش وندبر معيشتنا".

"كلما زاد معدل ادخارك، كان هذا داعيًا لاختيار وصى احتياطى اتقاء للظروف. أنا أتمنى أن أكون بروح متحررة مماثلة لوالدك، لكننى بالتأكيد سوف أكره أن أرى سام وهو يجر عائدًا إلى جنوب إفريقيا...".

"لكن أنت لن تعاصرى ذلك يا والدتى، تكونين قد قضيت نحبك".

"أنا لست متأكدة من كثير من الأمور يا عزيزى. فأنا لست ملحدة".

كانت تلك أصعب زيارة للوالدة، ولم ينقذهم سوى بولر، الذى عاد بتصميم أكيد من الحديقة قافزًا صاعدًا السلالم باحثا عن السجينة تنكر بيل.

قالت مسز كاسل: "على الأقل، أتمنى ألا أكون أبدًا وصية على بولر".

"يمكن أن أعدك بذلك يا والدتى، ففى حالة وقوع حادث مميت فى بنجلاديش والذى قد يتزامن مع حادث اصطدام أتوبيس الجدات فى سوسكس، سوف أقوم بتحرير تعليمات مشددة بأن يتم القضاء على بولر حيث لا يشعر بأى ألم بقدر الإمكان".

"إنه ليس من نوعية الكلاب التى أختارها لتكون فى صحبة حفيدى، فكلاب الحراسة المماثلة لبولر دائمًا ما تجدها حساسة لمسألة ألوان البشر. وسام هو ولد عصبى. إنه يذكرنى بك عندما كنت فى سنه، ما عدا اللون بالطبع".

"هل كُنت أنا ولدًا عصبيًا حينذاك؟".

"كان لديك إحساس مفرط بتقدير الجميل مقابل أى عمل طيب تتلقاه. إنه نوع من مشاعر عدم الأمان، وأتعجب لماذا كنت تشعر بعدم الأمان وأنت معى ومع والدك...لدرجة أنك مرة قدمت قلم حبر لولد أعطاك كعكة صغيرة بها القليل من الشيكولاتة".

"أوه، حسنًا يا والدتى. إننى الآن أحرص تمامًا على الحصول على حقي كاملا مقابل ما أدفعه من مال".

"أتعجب من ذلك".

"وقد أهملت موضوع الامتنان نهائيًا"، ثم وهو يقول ذلك، تذكر كارسون وهو ميت فى السجن، تذكر ما قالته سارة؛ لذا أضاف: "على أى حال، هذا الأمر أصبح مقتصرًا معى الآن، وتجدنى أطلب ما هو أكثر قيمة مما قد تمثله كعكة ذات بنس واحد".

"هناك شيء وجدته غريبًا فى تصرفاتك. أنت منذ أن تقابلت مع سارة، لم تتذكر قط زوجتك الأولى مارى. لقد كنت دومًا مغرمة بمارى. كنت أتمنى لو كان لكما طفل مشترك".

"إننى أحاول أن أنسى الأموات".... لكن هذا لم يكن حقيقيًا. لقد أدرك عند زواجه الأول أنه عقيم، لذا لم ينجبا أبناء، لكنهما كانا سعيدين. فهى كانت ابنة وحيدة وزوجة، وقد تعرضت لأن تنفجر فيها قنبلة أثناء الحرب فى شارع أكسفورد، بينما كان هو آمنًا ومستقرًا فى لشبونة، يجرى تواصلاً مع آخرين. لقد فشل فى حمايتها، ولم يمت معها. لكل هذه الأسباب، لم يتحدث قط بشأنها إلى سارة.

* * *

(٢)

عندما دخلا السرير وهما يستجليان ما قابلاه فى رحلتها هذه، قالت سارة: "أكثر مما يدهشنى فى والدتك أنها تتقبل بسهولة كون سام هو ابنك ومن صلبك. ألم يخطر فى بالها قط أن الولد قاتم السواد، وأن والده بهذا القدر من البياض؟".

"يبدو أنها لا تلاحظ جيدًا درجات اختلاف الألوان".

"لقد لاحظ ذلك مستر مولر، أنا متأكدة من هذا".

رن جرس التليفون فى الدور الأرضى. كان الوقت نصف الليل تقريبًا.

قال كاسل: "يا للجحيم، من الذى يطلبنا فى هذا الوقت المتأخر؟ هل هو أحد رجالك الملثمين؟".

"ألن تذهب لترد؟".

توقف الرنين.

قال كاسل: "هم بالتأكيد رجالك الملثمون، سوف تتاح لنا الفرصة الآن أن نقبض عليهم".

رن الجرس مرة أخرى، نظر كاسل إلى ساعته.

قالت سارة: "من أجل الله، رد عليهم".

"بالتأكيد هى نمرة خطأ".

"سوف أرد أنا إذا لم ترغب فى النهوض".

"البسى الروب، وإلا أصابك البرد"، لكن ما أن نهضت حتى توقف الرنين.

قالت: "بالتأكيد سوف يدق مرة أخرى. ألا تتذكر الشهر الماضى ثلاث رنات الساعة الواحدة صباحا؟"، لكن هذه المرة، ظل التليفون ساكنا.

سمعا صياحا عبر الممر. قالت سارة: "الله يلعنهم، لقد أيقظوا سام، مهما كانوا".

"سوف أذهب إليه. أنت ترتعشين. عودى إلى السرير".

تساءل سام: "هل هم اللصوص؟ لماذا لم ينبح بولر؟".

"بولر يعرف أفضل منا. لا يوجد لصوص يا سام. إنه فقط صديق يطلبنى فى وقت متأخر".

"هل هو مستر مولر؟".

"لا، انه ليس بصديق. اذهب للنوم. لن يدق التليفون مرة أخرى".

"كيف عرفت ذلك؟".

"أنا أعرف".

"لقد دق أكثر من مرة".

"نعم".

"لكنك لم ترفع السماعة، إذن كيف عرفت أنه من صديق؟".

"أنت تسأل أسئلة كثيرة يا سام".

"هل هى إشارة سرية متفقين عليها؟".

"هل أنت لديك أسرار يا سام؟".

"نعم، الكثير منها".

"أذكر لى واحدة".

"لا، لن تكون سرًا إذا أخبرتك".

"حسنًا أنا لدى أيضًا أسرار".

كانت سارة ما زالت مستيقظة. قال كاسل: "إنه فى أفضل حال الآن، كان يظن أنهم اللصوص الذين يطلبوننا بالتليفون".

"ربما هم كذلك، ماذا قلت له؟".

"أوه، قلت له إنها ليست سوى إشارات سرية".

"أنت دائمًا ما تفلح فى تهدئته. أنت تحبه، أليس كذلك؟".

"نعم".

"شىء غريب، هناك شىء لا أفهمه. كنت أتمنى لو كان سام بالفعل هو ابنك".

"أنا لا أرغب فى ذلك، وأنت تعرفين السبب".

"لم أعرف السبب فى ذلك قط".

"لقد أخبرتك عن ذلك أكثر من مرة. إننى أرى الكثير من ذاتى كل مرة أحلق فيها ذقنى".

"يا عزيزى، كل ما تراه هو وجه رجل طيب".

"لا يمكن، أن أصف نفسى هكذا".

"بالنسبة لى، فإن إنجاب طفل منك هو ما يعيش المرء من أجله عندما تختفى عن الوجود، إنك لن تعيش إلى الأبد".

"لا. شكرا لله على ذلك"..... خرجت هذه الكلمات بلا تفكير، لكنه ندم على النطق بها. كان أسلوبها الرقيق المتعاطف هو دائمًا الذى يجعله يبرز أحاسيسه الحقيقية أكثر من اللازم، على الرغم من أنه كان يحاول دومًا أن يقسى ويضبط نفسه، لكنه كثيرًا ما

يجد نفسه مضطرًا إلى أن يخبرها بكل شيء. وكثيرًا ما كان يقارنها ساخرًا بمحقق ماهر يستخدم عوامل التعاطف وسيجارة يقدمها بين الحين والآخر.

قالت سارة: "أعلم أنك مهموم، وأتمنى أن تخبرنى لما هذا؛ لكننى أعلم أنك لن تقدر. ربما يحدث هذا يومًا ما، عندما تشعر بأنك متحرر.."، ثم أضافت بحزن: "إذا حدث يومًا وشعرت فعلا بالتحرر الكامل يا موريس".

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس

(١)

ترك كاسل دراجته مع محصل التذاكر في محطة بيركهامستد وصعد إلى رصيف المسافرين إلى لندن. كان يعرف معظم المشتركين فى الخط بالنظر؛ بل وكان أيضًا يومئ بالتحية لبعض منهم.. أما ضباب شهر أكتوبر، فإنه كان يرقد فى بركة القصر المعشبة، وينتشر بين الأحراش حتى القناة التى تقع على الجانب الآخر من الخط. سار متهاديًا على طول الرصيف ثم رجع مرة أخرى؛ فكر أنه يتذكر كل الوجوه ما عدا وجه امرأة، ترتدى معطفًا رثًا من فراء الأرانب؛ فالنساء كن قليلات فى رحلات هذا القطار بالذات. لاحظها وهى تصعد إلى مقصورتها، لذا اختار أن يجلس فى مقصورة مجاورة كى يلاحظها. قام الرجال بفرد صحفهم اليومية أما المرأة فإنها أمسكت برواية مكتوب عليها أنها من تأليف دنيس روبنز. بدأ كاسل فى قراءة الجزء الثانى من رواية الحرب والسلام. كانت تلك ثغرة فى أحكام الأمان، بل وتعتبر بها قدر من الازدراء، من أن يقوم بقراءة هذا الكتاب بالذات جلبًا للسرور... "على بعد خطوة واحدة خلف خط الحدود، الذى يشبه الفاصل ما بين الأموات والأحياء، ترقد عوامل الشك والفناء والموت. وما ذاك الذى يتواجد هنا؟ ومن هناك – ما بعد ذلك الحقل، إنها ليست سوى شجرة...". نظر كاسل عبر النافذة، خيل إليه أنه يرى بنفس عيني جندى تولستوى الحد الثابت للقناة تجاه بوكسمور: "هل هذا السطح تنيره إشعاعات الشمس؟ لا أحد يعلم، لكن المرء يود أن يعلم. أنت خائف، مع ذلك تشتاق لأن تعبر هذا الخط...".

عندما توقف القطار عند بلدة واتفورد، كان كاسل هو الوحيد الذى ترك مقصورته. وقف بجوار قائمة المغادرين وأخذ فى مراقبة آخر راكب يعبر الحاجز ... لم تكن المرأة

واحدة منهم. خارج المحطة، تردد قليلاً وهو يقف فى مؤخرة منتظرى وصول الأتوبيس، بينما كان يراقب الوجوه. نظر إلى ساعته، وبحركة مدروسة تدل على نفاد الصبر بخصوص إمكانية أن يكون مراقبًا، تحرك إلى الأمام. لا أحد كان يتبعه، لكنه على الرغم من هذا، فكان مهمومًا بشأن امرأة القطار وفعلته الصغيرة التى تنم عن ازدراء للقواعد العامة للحرص. يجب على المرء أن يكون شديد الحذر. فى أول مكتب للبريد، قام بطلب سنثيا تليفونيًا؛ فهى دائمًا ما تصل قبل نصف ساعة على الأقل قبله وقبل واطسن أو ديفيز.

قال: "هل يمكن لك أن تخبرى واطسن بأننى سوف أتأخر قليلاً؟ أنا مضطر إلى أن أتوقف عند بلدة واتفورد كى أبحث عن طبيب بيطرى. لقد أصيب بولر بطفح غريب الشكل. أخبرى ديفيز أيضا". أخذ يفكر للحظات عما إذا كان من الضرورى أن يزور بالفعل طبيب بيطرى أم لا، لكنه فكر فى أنه باتخاذ خطواتِ أكثر حرصًا ربما تصبح الأمور أكثر خطورة من اتخاذ خطوات أقل حرصًا – فالبساطة هى دائمًا الأفضل، حيث إنها تقود إلى الإفصاح عن الحقيقة التى من السهولة بمكان تذكر تفاصيلها أكثر من اختراع كذبة. ذهب بعد ذلك إلى البار الثالث فى طريقه. هناك جلس منتظرا. إنه لم يتعرف على الرجل الطويل النحيف الذى كان يتبعه مرتديًا معطفًا شاهد أياما أفضل من ذلك. هذا الرجل توقف عند مائدته قائلاً "أعذرنى، لكن ألست أنت وليم هانشارد؟" أجاب: "لا، اسمى كاسل".

"آسف، تشابه غريب".

احتسى كاسل قدحين من القهوة وقرأ صحيفة التايمز. إنه يقدر تمامًا صفة الاحترام التى تسبغه هذه الصحيفة على القارئ. شاهد بعد ذلك نفس هذا الرجل وهو يثبت رباط حذائه على بعد خمسين ياردة من الطريق؛ لذا خامره شعور بالاطمئنان مماثل لما عهده عندما كان ينتقل من جناحه بالمستشفى إلى غرفة العمليات ... شعر مرة أخرى كأنه شىء ملقى فوق سير متحرك، ينقله إلى نهاية محتومة بلا أى نوع من المسئوليات، سواء تجاه أى إنسان أو أى شىء، حتى تجاه جسده. كل شىء سوف يكون محل نظر شخص آخر للتعبير عن الأفضل أو الأسوأ، شخص يتمتع بأعلى درجات التفوق المهنى... هكذا يجب أن يقدم الموت فى النهاية، وهذا ما خطر فى باله وهو يتابع سيره بطيئًا سعيدًا

إثر خطو هذا الغريب. كان دائمًا ما يغمره شعور بالأمل من أن يتقدم للموت بهذا الشعور نفسه، وإنه قبل حين سوف يتخلص نهائيًا من كل عوامل القلق والهم نهائيا.

هذا الطريق الذى سار فيه، يدعى طريق "منظر الدردار"، على الرغم من أنه لا يوجد على جانبيه أى شجرة دردار أو أى نوع آخر من الأشجار، والمنزل الذى تم إرشاده إليه كان مجهولاً يدعو للاهتمام مماثلاً لشخصه، بل وقد كانت هناك عدة ألواح زجاجية مثبتة فوق الباب الأمامى، ولعل من كان يشغل هذا المنزل قبلاً كان طبيبًا للأسنان. أما ذلك الرجل النحيف المتقدم عنه، فإنه توقف للحظات بجوار بوابة حديدية لحديقة تبلغ مساحتها مائدة البلياردو. كانت هناك ثلاثة أجراس بجوار الباب، لكن واحد منها كان بجواره بطاقة بها كلمات شبة مضمحلة – تنتهى بالكلمات "....ليمتد". قام كاسل بالضغط على زر الجرس، ولاحظ أن حارسه المتابع قد عبر شارع "منظر الدردار" متجهًا إلى الجانب الآخر، ثم وهو واقف هناك، سحب منديلاً من كمه وانهمك فى مسح أنفه. كان واضحًا أن تلك رسالة تطمين، حيث سمع كاسل على الفور صوت أقدام تهبط السلالم الداخلية للمنزل. أخذ يتعجب، هل اتخذوا كل هذه الخطوات الاحترازية كى يحموه من أى متابع محتمل له، أم ربما لحماية أنفسهم ضد إمكانية قيامه بخيانتهم أم الاثنين معا. إنه لا يهتم بتاتًا بأى شيء؛ فهو الآن قائم فوق السير المتحرك.

فتح الباب على وجه مألوف لديه، لم يتوقع أن يكون هو ... له عيون فائقة الزرقة فوق ابتسامة ترحيب واسعة، بينما هناك ندبة صغيرة فوق خده الأيسر، يعلم كاسل أنها بسبب جرح حدث له عندما كان طفلاً صغيرًا فى وارسو عندما وقعت تلك المدينة فى أسر هتلر.

صاح كاسل: "بوريس، فكرت فى أننى لن يقدر لى أن أراك مجددًا".

"شيء رائع أن أراك يا موريس".

فكر، إنه أمر غريب، من أن سارة وبوريس هما الوحيدان اللذان يناديان عليه باسمه الأول. فبالنسبة إلىّ والدته، هو فقط "عزيزى" فى أوقات الرضى، وفى المكتب إنما يعيش وسط أسماء العائلات فقط. فى الحال، شعر بأنه فى منزله داخل هذا البيت الذى لم

يزره من قبل: منزل رث بسجاجيد متهالكة على السلالم... ولسبب ما، فكر فى والده. تذكر زيارة قام بها مع والده إلى منزل مماثل لذلك.

قام بمتابعة بوريس حتى غرفة صغيرة مربعة بها مكتب، مقعدين ورسم كبير تتبدى فيه عائلة كبيرة تأكل طعامًا فى حديقة فوق مائدة محملة بمجموعة متنوعة من الأطعمة، وكل النوعيات يتم عرضها تباعًا .... فطيرة تفاح بجوار ضلع من اللحم المشوى، سمك سلمون بجوار طبق ملىء بالتفاح. وبجوار وعاء ملىء بالشوربة هناك قارورة من الماء وزجاجة نبيذ وكنكة قهوة. كانت هناك أيضًا عدة قواميس موضوعة فوق رف، كذلك مؤشر يعتمد فوق سبورة، كتب عليها بعض الكلمات المبهمة بلغة لم يستطع كاسل أن يعرف جنسيتها.

قال بوريس: "لقد قرروا أن يعيدونى بعد تقريرك الأخير الذى ذكرت فيه مولر. إننى سعيد بكونى موجودًا هنا. أنا معجب بإنجلترا كثيرًا، بل وأكثر من فرنسا. كيف كان تعاملك مع إيفان؟" .

"حدث ذلك بشكل جيد، لكنه لم يكن هو المعتاد". أخذ يبحث عن علبة سجائره فى ملابسه، لكنها لم تكن معه، أضاف: "أنت بالطبع تعلم الروس جيدًا. لدى شعور بأن إيفان لا يثق فى، ودائمًا ما كان يطلب أكثر مما وعدت به إلى أى واحد منكم، بل وقد طلب منى أن أعمل على تغيير قسمى".

قال بوريس: "أعتقد أنك تدخن سجائر مارلبورو". أمسك بعلبة فأخذ كاسل منها سيجارة.

"يا بوريس، هل كنت تعلم طوال الوقت وأنت هنا أن كارسون قد توفى؟" .

"لا، لم أعرف. فقط حدث هذا منذ عدة أسابيع سابقة، ولم أعرف التفاصيل حتى الآن".

"مات فى السجن من الالتهاب الرئوى، أو هكذا قال مولر. بالتأكيد إيفان عرف كل التفاصيل ؛ لكم هم أرادوا أن أعرف هذه المعلومات عن كورنيلوس مولر" .

"هل أصبت بصدمة بالغة؟ فى مثل هذه الظروف، وعندما يقبض على المرء ؛ لن يكون أمامه أمل كبير".

"أعلم ذلك. مع ذلك، كنت أمنى نفسى بأن أراه يومًا مرة أخرى... فى مكان آخر آمن بعيدًا عن جنوب إفريقيا – وربما يحدث هذا فى منزلى .... حينئذ سوف يكون متاحًا أمامى أن أشكره لإنقاذه سارة. الآن هو ميت وقد اختفى عن الوجود دون أى كلمة شكر تصدر منى".

"كل ما صنعته لنا يعتبر نوعًا من الشكر. هو سوف يفهم ذلك. يجب عليك ألا تشعر بنوع من الحزن".

"لا... لا يستطيع الإنسان أن يتعلل مع الأسف ؛ إنه إلى حد ما يشبه الوقوع فى براثن الحب، الوقوع فى مصيدة الأسف".

أخذ يفكر بنوع من الانفعال: " أمامى، يبدو الموقف مستحيلاً، وليس فى العالم كله من أتحدث معه عن كل شيء، إلا أمام هذا الرجل بوريس، الذى حتى اسمه الحقيقى ليس معروفًا لى. إنه لا يستطيع أن يتحدث مع ديفيز .. تفصيلات تصف حياته استطاع أن يخبئها عن ديفيز، ولا حتى مع سارة التى لا تعرف حتى الآن أن هناك وجودًا لمن يدعى بوريس؛ بل أنه حتى كان قد أبلغ بوريس عن تلك الليلة التى قضاها فى فندق بولانا، عندما علم الحقيقة بشأن سام. إنه نظام يشبه ما يتبعه القس الكاثوليكى؛ فهو ذلك الشخص الذى يتقبل اعترافات الآخرين مهما كان نوعها بلا أى مشاعر"... قال: "عندما غيروا نظامى وتسلم إيفان العمل منك، شعرت بوحدة غريبة. فأنا لا أستطيع أن أتحدث بأى شيء آخر غير العمل مع إيفان".

"أنا آسف لأننى اضطررت للمغادرة. لقد تحدثت معهم كثيرًا فى هذا الشأن، وبذلت كل ما فى جهدى لأبقى هنا، لكن أنت تعرف بالطبع كيف تجرى الأمور مثلاً فى مؤسستكم، وهذا بالضبط ما يحدث عندنا. إننا نعيش فى صناديق، وهم الذين يختارون لكل واحد صندوقه". كم من مرة أستمع لمثل هذه المقارنة فى مكتبه، فكل جانب يتشارك فى نوعية الأكليشيهات نفسها.

قال كاسل: "حان الوقت كى نغير كتاب الأكواد".

•"نعم. فهل هذا كل شيء، لقد أرسلت لنا رسالة قوية بالتليفون. هل هناك أخبار جديدة عن بورتون؟".

"لا، لست متأكدا من تصديق قصتهم".

كانا جالسان على مقاعد غير مريحة على جانبى المكتب كأنهما أستاذ وتلميذه، إلا أن التلميذ فى هذه الحالة كان أكبر عمرًا من الأستاذ. حسنا، هذا يحدث كثيرا، ذلك ما افترضه كاسل، ففى جلسات الاعتراف أيضًا، كثيرًا ما تجد رجلاً طاعنًا فى السن يعترف بخطاياه أمام قس صغير ربما يكون فى سن أبنائه.. مع إيفان، فى مقابلاتهما النادرة، كان الحوار بينهما قصيرًا للغاية، المعلومات تتلى، التساؤلات يتم استيعابها، وكل شيء فى مكانه الصحيح. أما مع بوريس، فهو يشعر براحة عميقة. أخذ منه سيجارة أخرى متسائلاً: "هل يعتبر بعثك إلى فرنسا هى عبارة عن ترقية لك؟".

"لا أعلم، لا يستطيع المرء أن يعلم كل شيء، أليس كذلك؟ ربما كانت العودة إلى هنا هى التى تمثل بالنسبة لى الترقية الحقيقية. وهذا ربما يعنى أنهم قد ظنوا أن تقريرك الأخير يستحق الاهتمام، فكروا أننى من الممكن أن أتعامل معه أفضل من إيفان. أو لعل إيفان يحاول أن يصل إلى حل وسط؟ أنت لا تصدق موضوع بورتون، لكن هل لديك دليل قوى يؤكد أن ناسك يشكون حقًا فى وجود ثغرة ما؟".

"لا. لكن فى لعبة مثل تلك التى نلعبها الآن، على المرء أن يصدق أحاسيسه. هم بالتأكيد أجروا تفتيشًا روتينيًا على كل قسمنا".

"أنت تقول تفتيش روتينى؟".

"نعم، يمكن أن يكون روتينيًا، البعض منه مفتوح للغاية، لكننى أؤمن بأنه أكثر من ذلك. أعتقد أن تليفون ديفيز مراقب وربما تليفونى أيضًا، على الرغم من أننى لا أصدق ذلك. على كل حال، من الأفضل أن تتوقف الإشارات التليفونية التى ترسلونها إلى منزلى. لقد قرأت بالطبع تقريرى عن زيارة مولر ومشروع العم راموس. أرجو من الله أن يتم نقل ذلك

بشكل مختلف من جانبك ما دامت هناك ثغرة. لدىَّ شعور بأنهم ربما يكونون قد جربوا على طريقة البطاقة المعلمة".

"لست فى حاجة الآن لأن تصاب بالذعر، لقد كنا فى قمة الاحتراز بالنسبة لهذا التقرير، ولو أننى لا أظن أن مهمة مولر يمكن أن ندعوها بالبطاقة المعلمة. ربما يجوز هذا على بورتون لكن ليس مولر. لقد وصلنا تأكيد بذلك من واشنطن. نحن ننظر لموضوع العم راموس بكل جدية، ونطلب منك أن تركز على ذلك، ربما هذا يؤثر علينا فى مجال البحر الأبيض، كذلك الخليج والمحيط الهندى، بل وحتى المحيط الهادى. وفى المدى البعيد..".

"ليس أمامى مدى بعيد يا بوريس، فأنا قد تعديت سن الإحالة على المعاش".

"أعلم ذلك".

"أريد أن أخرج للمعاش الآن".

"نحن لا نود ذلك، العامان المقبلان ربما يكونان فى غاية الأهمية".

"وهذا مهم بالنسبة لى، أود أن أعيشهما بطريقتى الخاصة".

"تفعل ماذا؟".

"أهتم بكل من سارة وسام. اذهب إلى السينما. أكبر فى العمر فى سلام. إنه من الأسلم لك أن تستبعدنى يا بوريس".

"لماذا؟".

"لقد حضر إلىَّ مولر وجلس على مائدتى وأكل من طعامى وكان مؤدبًا مع سارة ومتعاطفا؛ مدعيا أنه لا يشعر بالفوارق اللونية. كم أكره هذا الرجل! وكم أكره مؤسسة (بوس) الدموية تلك. أكره الرجل الذى قتل كارسون والتى يدعوها بالالتهاب الرئوى. أكرههم لأنهم سجنوا سارة وجعلوا سام يولد فى السجن. من الأفضل لك أن تعتمد على رجال لا يكرهون يا بوريس؛ فالكراهية من الممكن أن تقود إلى ارتكاب الأخطاء. إنها فى خطورة الوقوع فى براثن الحب. إننى أمثل مخاطر مزدوجة يا بوريس، لأننى فى حالة حب أيضا، والحب هو الخطأ بعينه فى مجال نوعية خدماتنا".

شعر كاسل براحة عميقة وهو يتحدث بلا لياقة إلى شخص آخر، يعلم تمامًا أنه يتفهمه جيدًا؛ فهذه العيون الزرقاء تقدم له صداقة خالصة، وهذه الابتسامة تشجعه على أن يلقى عنه لوقت قصير بحمل كل هذه الأسرار، قال "عملية العم راموس سوف تكون هى آخر قشة – فخلف الستار نرى الولايات المتحدة وهى تتوحد لتساعد هؤلاء المتعصبين المؤمنين بالتفرقة العنصرية. إن أسوأ جرائمك يا بوريس، دائمًا مستقرة فى رحاب الماضى، أما المستقبل فهو لم يصل بعد. لا يمكن لى أن أردد كالببغاء "تذكر براغ، تذكر بودابست!" ... هذه أحداث وقعت منذ سنين بعيدة سابقة. يجب على المرء أن يهتم بالحاضر، والحاضر هو العم راموس. لقد أصبحت بالتطبع أسود اللون عندما وقعت فى حب سارة".

"إذن أنت لا تظن انك تمثل خطرا؟".

"نعم، لأننى على مدى سبعة أعوام ظللت محتفظًا ببرودى، والآن أشعر بأننى أفقد ذلك أيضا. هو ذا كورنيلوس مولر يجعلنى أفقد ذلك. ولعل س قد أرسله لى هذا الغرض نفسه. لعل س يود أن يجعلنى أنهار".

"كل ما نطلبه منك هو أن تتماسك فترة أطول. بالطبع السنوات الأولى فى هذه اللعبة دائمًا ما تكون هى الأسهل، ألا ترى معى ذلك؟ فالتناقضات لا تبدو واضحة، والسرية ليس لديها وقت لأن تتصاعد لتصبح نوعًا من الهستريا، أو لكى تشبه انقطاع الطمث عند النساء. حاول ألا تقلق كثيرًا يا موريس. خذ لك قرصًا فى اليوم أو قرص موجادون ليلاً، وتعال قابلنى فى أى وقت تشعر فيه بالانقباض وراغب أن تتحدث مع أحد، فهذا اقل خطورة".

"لقد فعلت الكثير معكم، أليس هذا حقًا حتى الآن، كى أسدد ديونى إلى كارسون؟".

"نعم بالطبع، لكن لا يمكن لنا أن نفقدك؛ بسبب عملية العم راموس. وكما عبرت عن نفسك بالقول إنك بالتطبع قد أصبحت أسود الآن".

شعر كاسل كأنما هو خارج من عملية تخدير، وأن العملية قد نجحت تمامًا. قال: "أنا آسف، لقد بدوت مغفلاً أمامك". إنه لا يستطيع تذكر بالضبط كل ما نطق به "أعطنى قليلاً من الويسكى يا بوريس".

فتح بوريس درج بالمكتب وأخرج منه زجاجة وكأسًا، قال: "أعلم إنك تحب نوع "J&B".

ثم صب كمية كريمة، ثم لاحظ تلك السرعة التى جرع بها كاسل مشروبه: "أنت تتناول الكثير من هذا المشروب هذه الأيام يا موريس؟" .

"نعم، لكن لا أحد يعلم ذلك. فقط هى سارة فى المنزل التى لاحظت ذلك" .

"كيف الحال عندك؟" .

"سارة تقلق وتخشى من رنات التليفون، هى دائمًا ما تفكر فى اللصوص الملثمين، وسام تنتابه الكوابيس لأنه سوف يذهب للمدرسة الابتدائية عما قريب – مدرسة للبيض. إننى مشغول عما يمكن أن يحدث لكليهما إذا حدث شىء ما لى. دائمًا ما تحدث أمور غير متوقعة فى النهاية، أليس كذلك؟" . ١

"دع كل هذا لنا. أعدك؛ لقد خططنا طريقة هروبك بكل دقة، إذا ما حدث طارئ.." .

"طريقة هروبى؟ وماذا بشأن سارة وسام؟" .

"هما أيضًا سوف يتبعانك. يمكن لك أن تثق فينا يا موريس. سوف نهتم بهما، فنحن نعلم كيف نعبر عن امتناننا. تذكر بليك نحن نهتم بناسنا" .

ذهب بوريس إلى النافذة: "الكل تمام، يجب أن تذهب الآن إلى مكتبك، فأول تلميذ لدىَّ سوف يصل بعد ربع ساعة من الآن" .

"أى لغة تعلمهم إياها؟" .

"الإنجليزية، أرجو ألا تضحك" .

"لغتك الإنجليزية هى تقريبًا كاملة" .

"تلميذى الأول القادم اليوم هو بولندى مماثلاً لى، وهو هارب من الولايات المتحدة وليس من الألمان. إننى معجب به. إنه من ألد أعداء ماركس. أنت تبتسم. يجب عليك ألا تجعل الأمور تتصاعد فى ذهنك مرة أخرى" .

"هذا الفحص الأمني، إنه يزعج ديفيز، وهو إنسان برىء".

"لا تقلق، أعتقد أن لدىَّ طريقة أستطيع بها أن أثبط بها طلقاتهم النارية".

"سوف أحاول ألا أقلق".

"منذ الآن، سوف ننتقل إلى النقطة الثالثة. إذا شعرت بأن الأمور قد ساءت، أرسل إلىّ إشارة فورا، أنا هنا فقط كى أساعدك؛ وأنت بالطبع تثق فى؟".

"بالطبع، أثق فيك يا بوريس. لكن كل ما أرغب فيه هو أن يثق ناسك فى. وهذا الكتاب الكودى. إنه فظيع وبطىء ودقة قديمة لإجراء الاتصالات، وأنت تعلم مدى خطورته".

"ليس الأمر هو أننا لا نثق فيك. إنه من أجل تحقيق أمانك. يمكن أن يتعرض منزلك إلى هذا التفتيش الروتينى. فى البداية، هم أرادوا أن يعطوك جهاز إرسال ؛ لكننى لم أدعهم يفعلون ذلك. هل هذا يرضى رغباتك؟".

"لدىَّ شيء آخر".

"أخبرنى".

"إننى اطلب المستحيل. أرغب ألا تكون كل الأكاذيب غير لازمة. أود أن نكون نحن واقفون فى الصف نفسه".

"تقول نحن؟".

"اقصد أنا وأنت".

"بالطبع نحن كذلك".

"نعم، فى هذه الحالة...وللوقت الحالى. أنت تعلم بالطبع أن إيفان حاول أن يبتزنى مرة؟".

"إنه رجل غبى، وأعتقد أنه لهذا السبب تمت إعادتى إلى هنا".

"كانت الأمور دائمًا واضحة بينه وبينك، فأنا أعطيك كل المعلومات التى أصل إليها فى قسمى. ولم أتظاهر قط أننى أشاركك اعتقاداتك ... لن أكون أبدًا شيوعيًا".

"بالطبع، لقد تفهمنا دومًا وجهة نظرك. نحن نحتاجك فى شأن إفريقيا فقط".

"لكن ما أنقله لكم علىَّ أن أكون الحكم فى ذلك. سوف أحارب معكم فى إفريقيا يا بوريس، وليس فى أوروبا".

"كل ما نحتاجه منك هى كل التفصيلات عن عملية العم راموس".

"إيفان كان يطلب الكثير، لدرجة أنه هددنى مرة".

"لقد رحل إيفان. انسه تماما".

"سوف تصنع الكثير بدونى".

"لا، إنه مولر وأصدقاؤه الذين سوف يفعلون الكثير".

مماثلاً لمجنون منقبض، استطاع كاسل أن ينفس عن نفسه، فهذا الغليان المتواتر قد كسر الآن، لذا شعر براحة عميقة لم يشعر بمثيل لها فى أى مكان آخر.

* * *

(٢)

كان الدور اليوم على نادى ترافيلز، وهنا، كما كانت حاله وهو وسط الاجتماع، شعر سير جون هارجريفز بأنه فى بيته، خلافًا لشعوره وهو جالس فى نادى ريفورم. كان اليوم أكثر برودة عن مناسبة آخر غداء جمعهما معًا، لذا لم ير سببًا يدعوهما كى يخرجا ليتحدثا فى المنتزه.

قال مخاطبا الدكتور بيرسفال: "أوه، إننى أعلم تمامًا ما تفكر فيه يا إيمانويل، لكنهم كلهم هنا يعرفونك، وسوف يتركوننا بمفردنا مع أقداح قهوتنا. لقد علموا تمامًا أنك لا تتحدث عن شيء سوى صيد السمك. بهذه المناسبة، كم كان معك اليوم طعم سمك اللوت المدخن؟".

"كان إلى حد ما جافًا، بمعايير نادى ريفورم".

"وماذا عن اللحم المشوى؟".

"ربما إلى حد ما مطهى أكثر من اللازم".

" أنت رجل يصعب إرضاؤه يا إيمانويل. خذ سيجار".

"إذا كان واردا حقًا من هافانا".

"بالطبع".

"أتعجب ما إذا كنت تحصل على هذا النوع من السيجار من واشنطن أو لا؟".

"أشك أن الوافدين يمكن لهم أن تصل بهم الحال القدرة على الحصول على السيجار أيضا. على أى حال، مسألة إشعاعات الليزر سوف تكون لها الأولوية. ما نوع وكينونة هذه اللعبة يا إيمانويل. أحيانًا أتمنى أن أرجع إلى إفريقيا".

"إفريقيا القديمة؟".

"نعم، إفريقيا القديمة".

"لقد انتهى حالها إلى الأبد".

"لست متأكدا تمامًا من ذلك. إذا أمكن لنا أن ندمر باقى العالم، فإن الطرق سوف تتنامى وكل الفنادق الفاخرة سوت تتهدم – وسوف تعود الغابات إلى حالتها القديمة، مع رؤساء القبائل، والأطباء السحرة – علما بأنه ما زال حتى الآن ملكة للمطر فى شمال شرق الترنسفال".

"هل سوف تخبرهم بكل هذا وأنت راحل إلى واشنطن؟".

"لا، لكننى سوف أتحدث بلا حماس عن مشروع العم راموس".

"أنت ضد هذا المشروع؟".

"كل من الولايات المتحدة ونحن وجنوب إفريقيا .... نحن حلفاء غير متوافقين، لكن الخط سوف يواصل سيره لأن البنتاجون يود أن يلعب ألعابًا حربية، فهم ليس بين أيديهم حاليًا أى حرب حقيقية. حسنًا، لقد تركت كاسل لكى يلعبها مع مولر. بهذه المناسبة، مولر سوف يسافر إلى بون. أرجو ألا تكون ألمانيا الغربية أيضًا قد دخلت نطاق هذه اللعبة".

"كم سوف تغيب عنا؟".

"لا أكثر من عشرة أيام، كما آمل. أننى غير معجب بطقس واشنطن – بكل ما يعنيه ذلك"... ثم بابتسامة سعيدة نفض عنه كمية ضخمة من رماد السيجار "لاحظ أن سيجار الدكتور كاسترو هو فى جودة سيجار السيرجنت باتستا نفسه".

"كنت أتمنى ألا تسافر فى هذا الوقت بالذات يا جون، بينما نشعر بأن هناك سمكة فى نهاية الخيط".

"إننى أثق فى أنك سوف تصطادها دون معونتى .... على كل حال، ربما يتضح أن ما قمت بصيده ليس سوى فردة حذاء قديم".

"لا أظن ذلك يا جون. يجب على المرء أن يعلم نوع غمزة الحذاء القديم".

"أترك هذا الموضوع بكل ثقة بين يديك يا ايمانويل، وبالطبع بين يدى دانترى أيضًا".

"افرض إننا قد اختلفنا؟".

"إذن يجب أن يكون القرار هو قرارك. أنت نائبى فى هذه المهمة، لكن من أجل الله يا إيمانويل، لا تفعل شيئًا فى عجلة".

"تجدنى دائمًا فى عجلة عندما أركب سيارتى الجاجوار يا جون، لكننى عندما أصطاد تجدنى إنسانا صبورا للغاية".

* * *

الفصل السادس

(١)

تأخر قطار كاسل أربعون دقيقة فى بيركهامستد، حيث كانت هناك إصلاحات تجرى فى الخط فيما بعد بلدة ترنج. عندما وصل أخيرًا إلى مكتبه، بدت غرفته خاوية بطريقة غير عادية. لم يكن ديفيز متواجدًا، لكن هذا فسر القليل من هذا الشعور الغالب بالخواء: لقد عاين كاسل كثيرًا حالة بقائه وحيدًا فى المكتب — ديفيز ذهب للغداء، ديفيز فى دورة المياه، ديفيز ذهب إلى حديقة الحيوانات لمقابلة سنثيا. بعد نصف ساعة، أتته مذكرة فى الصندوق المتحرك مقبلة من سنثيا، بها مذكرة مكتوب فيها: "آرثر يشعر ببعض التعب. الكولونيل دانترى يود رؤيتك". لوهلة أخذ كاسل يتعجب، من هو آرثر هذا. إنه لا يفكر فى ديفيز إلا باعتباره ديفيز. تعجب، هل لانت سنثيا أخيرًا بعد هذا الحصار الطويل؟ هل لهذا السبب تستخدم الاسم الأول لديفيز؟ لذا طلبها تليفونيا متسائلاً: "ما الذى حدث لديفيز؟".

"لا أعلم، أحد رجال البيئة الساكنين معه تحدث تليفونيا، قال شيئًا عن تقلصات معوية".

"هذه ربما تكون وخمة إفراط فى شرب الخمر؟".

"سوف يقدم هو على محادثتنا تليفونيًا إذا كان الأمر كذلك. أنا لا أعلم كيف أتصرف وأنت لست موجودًا، لذا اتصلت تليفونيا بالدكتور بيرسفال".

"ما الذى قاله؟".

"مثلك تمامًا ... ربما تكون وخمة سكر؛ من الواضح أنهما كانا معًا الليلة الماضية.... يجرعون الكثير من البورت والويسكى. قال إنه سوف يراه وقت الظهر، إنه مشغول حتى ذلك الحين".

"لا تظنين بالطبع أن الموضوع خطير كما أعتقد؟".

"لا أعتقد أن الموضوع خطير، لكننى لا أظن أيضًا أنها وخمة سكر. إذا كان الموضوع خطيرا، إذن لكان الدكتور بيرسفال قد ذهب إليه فورا، ألا ترى ذلك؟".

"فى ظروف غياب س فى واشنطن، لا أعتقد أن لديه وقتًا كافيا للطب والعلاج، سوف أذهب لمقابلة دانترى، أى غرفة؟".

فتح كاسل الباب الذى عليه الرقم ٧٢. كان بداخلها كل من دانترى وبيرسفال ... داهمه شعور بأنه قد قاطع نوعًا من النقاش الساخن.

قال دانترى: "أوه، نعم يا كاسل، لقد رغبت فى مقابلتك".

قال بيرسفال: "سوف أترككما معًا الآن".

"سوف نتحدث لاحقًا يا بيرسفال. إننى لا أتفق معك. آسف، لكن الخلاصة هى أننى لا أتفق معك".

"أنت بالطبع تذكر ما قلته لك عن الصناديق، كذلك عن بن نيكلسون".

قال دانترى: "إننى لست رسامًا، ولا أفهم فى الفن المجرد، سوف أراك لاحقا".

ظل دانترى صامتًا فترة طويلة بعد غلق الباب، ثم قال: "إننى أكره الناس الذين يقفزون إلى الاستنتاجات. لقد تربيت على أن أصدق الأدلة والبراهين. البراهين الحقيقية".

قال كاسل: "هل لديك ما يزعجك؟".

"إذا كان الموضوع هو موضوع مرض، إذن عليه أن يجرى فحصا للدم، أشعة إكس...ليس عليه أن يستنتج أعراضًا للمرض".

"دكتور بيرسفال؟".

"لا أعرف كيف أبدأ معك. المفروض أن أتحدث معك فى هذا الشأن".

"تتحدث عن ماذا؟".

كانت هناك صورة لفتاة جميلة على مكتب دانترى. عاودت عينا دانترى كثيرًا الحملقة فى هذه الصورة. قال: "ألا يخامرك أحيانًا شعور بوحدة قاتلة فى مؤسستنا هذه؟".

تردد كاسل، قال: "أوه، حسنا، أنتى متفاهم تمامًا مع ديفيز، هذا يُحدث فرقًا كبيرًا".

"ديفيز؟ نعم. أردت أن أحدثك عن ديفيز".

وقف دانترى وتحرك نحو النافذة . ظهر عليه كأنه سجين محبوس فى زنزانة. أخذ يحملق فى الخارج مكتئبًا نحو سماء كريهة الشكل غير واثق. قال: "إنه يوم رمادى قاتم، لقد حل علينا الخريف أخيرًا".

اقتبس كاسل: "إنه التغيير والفناء، هو ذا يحل على كل ما أشاهده حولى".

"ما هذا؟".

"إنها قطعة شعرية، اعتدت أن أغنيها عندما كنت فى المدرسة".

عاد دانترى إلى مكتبه وواجه الصورة مرة أخرى، قال كأنه يتوجب عليه أن يقدم له صاحبة الصورة: "إنها ابنتى".

"تهانى. إنها فتاة جميلة".

"سوف تتزوج فى يوم الإجازة الأسبوعية، لكننى أظن أننى لن أستطيع حضور حفل زفافها".

"أنت لا تحب الرجل".

"أوه، أجرؤ على القول إنه لا يعيبه شيء. بل إننى لم أقابله يومًا. لكن ما الذى من يمكن أن أتحدث به معه، عن بودرة الأطفال ماركة جيمسون؟".

"بودرة أطفال؟".

"جيمسون هذا يود أن يتفوق على بودرة جونسون ... أو هكذا قالت لى"... جلس صامتا وقد بدت عليه مظاهر التعاسة.

قال كاسل: "من الواضح أن ديفيز مريض. لقد تأخرت قليلاً هذا الصباح. لقد اختار يومًا سيئًا. علىَّ أن أتعامل بنفسى مع البريد الواردة من زائير".

"أنا آسف. من الأفضل ألا أستبقيك طويلاً. لم أعلم أن ديفيز كان مريضًا. بالطبع ليس مرضًا شديدًا؟".

"لا أظن ذلك. سوف يعوده الدكتور بيرسفال فى وقت فسحة الغداء".

"بيرسفال؟ أليس لديه طبيب خاص؟".

"حسنًا، إذا زاره الدكتور بيرسفال فإن تكلفة الزيارة سوف تحمل على عاتق مؤسستنا القديمة، أليس كذلك؟".

"نعم، فقط – ما دام بيرسفال يعمل معنا؛ ربما تكون معلوماته قديمة ... أعنى من الناحية الطبية".

"أوه، حسنًا، من المحتمل أن تكون أعراضه بسيطة". سمع للتو صدى محادثة أخرى.

"يا كاسل، كل ما أردت رؤيتك من أجله ... هل أنت راض تمامًا عن ديفيز؟".

"ما الذى تعنيه بلفظ الرضى؟ نحن نعمل جيدًا وبانسجام مع بعضنا".

"أحيانًا، أجد نفسى مضطرا أن أسأل بعض الأسئلة السخيفة – أسئلة عبيطة – لكن أنت بالطبع تعلم أن مهمة الأمن فى المؤسسة هى من صميم عملى هنا. إنها لا تعنى الكثير. هل ديفيز يقامر؟".

"قليلاً. إنه يحب أن يتحدث عن الجياد، وأشك أنه يكسب الكثير أو يخسر الكثير".

"هل يشرب؟".

"لا أظن أنه يشرب أكثر منى".

"إذن أنت تثق فيه ثقة كاملة؟"

"كاملة. بالطبع نحن أحيانًا معرضون لأن نرتكب بعض الأخطاء. هل توجد بشأننا أى شكوى من أى نوع؟ لا أود أن أرى ديفيز منقولا إلا إذا عين فى الخارج".

"انس ما قلته لك. فإننى أسأل هذه الأسئلة نفسها لكل الموظفين. حتى بالنسبة إليك. هل تعرف رسامًا اسمه نيكلسون؟".

"لا، هل هو واحد منا؟".

"لا، لا. أحيانًا أشعر أننى مرتبك نوعًا. أتعجب ما إذا كنت ... لكنى أعتقد أنك دائمًا ما تتجه ليلا إلى منزلك، إلى عائلتك".

"حسنا، نعم...هذا ما أفعله".

"إذن، لسبب ما، إذا ظللت أنت هنا فى المدينة لليلة واحدة ...ربما نتعشى معًا".

"هذا لا يحدث كثيرا".

"لا، لا أعتقد ذلك".

"كما ترى، زوجتى تصبح عصبية إذا تركتها وحيدة".

"بالطبع: أفهم ذلك. إنها مجرد فكرة طارئة". أخذ ينظر نحو الصورة مجددا: "لقد اعتدنا أن نتعشى معًا بين الحين والآخر. أرجو من الله أن تشعر بالسعادة. ليس أمام الإنسان ما يمكن أن يفعله أزيد. هل يوجد؟".

حل الصمت كأنه دخان وضباب، يفصلهما عن بعض، أيهما لا يستطيع أن يرى الرصيف إلا إذا مد يديه إلى الأمام.

قال كاسل: "ابنى ليس فى سن الزواج، وأنا سعيد لأننى لن أنشغل بسبب ذلك".

"أنت تحضر للعمل أيام السبوت، أليس كذلك؟ أعتقد أنه فى إمكانك أن تظل ساعة أو اثنتين أطول ...أننى لا أعرف أحدًا فى حفل الزواج هذا ما عدا ابنتى وأمها بالطبع. لقد قالت لى – أقصد ابنتى – إنه فى إمكانى أن أحضر معى صديقًا من العمل إذا أردت. للمصاحبة".

قال كاسل: "بالطبع سوف أسر بذلك...إذا كان حقًا تقصد.."... إنه نادرا ما يستطيع مقاومة دعوة مكلوم مهما كانت بشكل شفرى.

* * *

(٢)

لمرة فوت كاسل وجبة الغداء، إنه لا يعانى من الجوع – إنه فقط يعانى من نقض الروتين الخاص به. إنه لا يشعر بالراحة. كان يود أن يطمئن على ديفيز.

بينما كان يغادر هذا المبنى المجهول الهوية الساعة الواحدة ظهرا، بعدما حفظ كل أوراقه فى الدولاب، حتى مذكرة كئيبة كانت قد وصلته من واطسن، شاهد سنثيا فى الصالة، لذا خاطبها: "سوف اذهب لأزور ديفيز وأطمئن عليه، هل تأتين معى؟".

" لا، لما أفعل ذلك؟ لدىَّ لستة طويلة من المشتريات المطلوبة، لما أنت ذاهب إليه؟ إنه لا يعانى من أمر خطير، أليس كذلك؟".

"لا، لكننى فكرت فقط أن أطمئن عليه. إنه يعيش وحيدًا فى تلك الشقة ولا يؤنس وحدته سوى مجموعة رجال البيئة فقط، وهم لا يعودون إلى الشقة إلا فى فترة المساء".

"لقد وعد الدكتور بيرسفال أن يزوره".

"نعم، هذا ما أعلمه، لكن هو بالتأكيد قد غادر الآن. لقد ظننت أنك ربما ترغبين فى أن تأتى معى...فقط لكى تشاهدى..".

"أوه، حسنا، على شرط ألا نبقى طويلاً. نحن بالطبع لسنا ملزمين أن نأخذ معنا زهورًا، أليس كذلك؟ كما لو إننا ذاهبون إلى مستشفى"... إنها فى الواقع فتاة قاسية القلب.

فتح ديفيز الباب لهما وكان مرتديا رداء منزليا. لاحظ كاسل كيف أن وجهه أنار عندما شاهد سنثيا، لكنه فى الحال أدرك أن هناك مرافقًا معها.

علق بلا حماس: "أوه، أنت حضرت أيضًا".

"ما الذى تعانى منه يا ديفيز؟".

"لا أعلم. لا شيء بالغ. الكبد العجوز بدأ يلعب دورا".

قالت سنثيا: "أظن أن صديقك قال لى تليفونيًا انك تعانى من تقلصات معدي".

"حسنًا، الكبد هو شيء قريب من المعدة، ألا ترين ذلك؟ أم هى الكلاوى. الأمور مختلطة علىَّ بالنسبة لمعلوماتى الجغرافية".

قالت سنثيا: "سوف أشغل نفسى بترتيب أغطية سريرك يا آرثر بينما تتحدثان".

"لا، لا. من فضلك لا. إنه فقط غير مرتب قليلا. اجلسى مستريحة. اشربى كأسا".

"يمكن لك أنت وكاسل أن تشربا، لكننى سوف أجهز سريرك".

قال ديفيز: "إنها تتميز بإرادة قوية. ما الذى سوف تشربه يا كاسل، ويسكى؟"

"كمية صغيرة، أشكرك".

"يجدر بك ألا تشرب شيئًا ما دام كبدك يعانى. ما الذى قاله دكتور بيرسفال بالضبط؟".

"أوه، لقد حاول أن يثير مخاوفى. هكذا يفعل الأطباء دائما، ألا ترى ذلك؟".

"إننى لا أمانع أن أشرب بمفردى".

"قال لى إنه إذا لم أقاوم نفسى نوعًا فإننى سوف أكون عرضة للإصابة بتليف الكبد. علىَّ أن أخرج غدا لعمل أشعة اكس، وقد أخبرته بأننى لا أشرب أكثر من أى شخص غيرى، لكنه قال لى إن هناك بعض الأكباد التى تعتبر أضعف من غيرها. دائمًا للأطباء الكلمة الأخيرة".

"إننى لن أقدم على شرب هذا الويسكى لو كنت مكانك".

"قال لى أن أقلل من الشرب، وهذا ما فعلته مع هذا الويسكى، حيث أشرب نصف ما اعتدت شربه. وأخبرته بأننى قد استبعدت البورت نهائيا. وهذا ما سوف أواظب على نهجه لمدة أسبوع أو أسبوعين. أى شيء سوف أفعله لكى يصبح مسرورًا. إننى سعيد بزيارتك هذه يا كاسل. هل تعلم شيئًا، بصراحة دكتور بيرسفال هذا أشعل الخوف فى

قلبى نوعًا؟ ترك عندى انطباعا أنه لم يخبرنى بكل شيء يعرفه. سوف يكون الأمر مريعًا، إذا فكروا أن يبعثوا بى إلى الخارج ثم يرفض هو ذلك. هناك مخاوف أخرى .. هل تحدثوا معك بشأنى؟".

"لا، على الأقل قام دانترى بسؤالى هذا الصباح عما إذا كنت راضيا عنك أم لا، وقد قلت له إننى راض تمامًا".

"أنت صديق رائع يا كاسل".

"هى فقط إجراءات التفتيش والفحص الغبية. تتذكر بالطبع عندما تواعدت على مقابلة سنثيا فى حديقة الحيوانات...لقد أخبرتهم بأنك ذهبت إلى طبيب الأسنان، لكن فى الوقت نفسه..".

"نعم، أنا من نوعية الناس الذين دائمًا ما يكتشف أمرهم سريعًا. مع ذلك، تجدنى دائمًا مطيعًا للتعليمات والأوامر. وكما أعتقد، هذا يمثل طبيعتى التى تقدس الطاعة والولاء. أنت لست مماثلاً لذلك. إذا قمت يومًا باصطحاب تقرير معين لكى أقرأه أثناء تناولى طعام الغداء، يتم فى الحال ضبطى.. لكننى كثيرًا ما شاهدت وأنت تأخذ معك التقارير مرة تلى الأخرى؛ فأنت دائمًا تخاطر؛ مماثلاً لما يضطر إلى أن يفعله الكهنة. وإذا كنت حقًا قد سربت شيئًا – بالطبع دون تعمد – فإننى فى الحال سوف أتقدم نحوك معترفًا بجرمى".

"متوقعًا الغفران؟".

"لا، متوقعا قليل من العدالة".

"سوف تكون مخطئا فى هذه الحالة يا ديفيز، فأنا ليس لدى فهم للمعنى الكامل لكلمة عدالة".

"إذن أنت سوف تحكم علىَّ كى أعدم فى الفجر؟".

"أوه، لا. فأنا دائمًا ما أغفر للناس الذين أحبهم".

"لما إذن، بينما أنت الذى يمثل صورة المخاطر الحقيقى. تعتقد إلى متى سوف يستمر موضوع هذا الفحص اللعين".

"أعتقد إلى أن يعثروا على هذه الثغرة، أو يقرروا أنه لا توجد ثغرة من الأساس. ربما أحد رجال م١٥ قد قرأ خطأ الدلائل".

"أوه، لعلها امرأة يا كاسل. لما لا تكون امرأة؟ ربما تكون واحدة من السكرتيرات، وليس هو أنا أو أنت أو واطسن.. هذا التفكير يجعلنى أرتعش داخليًا. لقد وعدتنى سنثيا بأنها سوف تتعشى معى الليلة الماضية، وقمت بانتظارها فى مطعم سلون، وكانت هناك فتاة جميلة على مائدة بجوارى تنتظر شخصًا أيضًا. لقد تبادلنا معًا نصف ابتسامة لأننا تعرضنا بخيبة الأمل نفسها. فنحن زملاء فى العذاب. كان مفروضا أن أحادثها، فعلى كل حال، لقد خلت بى سنثيا؛ ثم فى الحال داهمنى الفكر ... ربما تكون هذه الفتاة قد زرعت لكى تضبطنى، ربما يكونون قد سمعونى وأنا أحجز هذه المائدة على تليفون العمل. وربما تكون سنثيا قد استبقيت طبقًا للأوامر، ثم تعتقد من انضم وجلس مع هذه الفتاة... خمن من ... لم يكن هو سوى دانترى".

"من المحتمل أن تكون ابنته".

"إنهم يستخدمون بناتهم فى مؤسستنا هذه، أليس كذلك؟ يا لها من مهنة سخيفة التى نعمل بها. لا تستطيع أن تثق فى أى إنسان.. والآن، تجدنى حتى لا أثق فى سنثيا. إنها ترتب سريرى، الله وحده يعلم ما سوف تعثر عليه فيه. لكن كل ما سوف تجده هو فتافيت سندوتشات الأمس. وربما سوف يقومون بتحليل هذه البقايا. فإحدى الفتات ربما تحتوى على تسجيل سرى".

"لن أستطيع البقاء كثيرًا معك، لقد وصل بريد زائير".

وضع ديفيز كأسه "أكون ملعونًا لو أصبح للويسكى الطعم طعمه نفسه المعتاد. لقد غرس بيرسفال فى مخى العديد من الأفكار. هل تعتقد حقًا أننى مصاب بتليف فى الكبد؟".

"لا، فقط عليك أن تبسط الأمور لفترة".

"دائمًا ما يسهل الحديث مقارنة بالفعل.عندما أشعر بالسأم تجدنى أشرب. أنت محظوظ لأنه لديك سارة، كيف حال سام؟".

"إنه يسأل كثيرًا عنك، يقول إنه لا أحد يلعب معه لعبة الاستخفاء مثلك".

"إنه ابن حرام كله معجون بالصداقة. أتمنى أيضًا أن يكون لدى ابن حرام مثله؛ لكن فقط من سنثيا، يا له من أمل!".

"الطقس فى لورنزو ماركيز ليس جيدًا تمامًا..".

"أوه، الناس يقولون العكس، وإنه صالح لتربية الأطفال حتى سن السادسة".

"حسنًا، ربما تضعف سنثيا. وعلى كل حال، هو ذا الآن تقوم بتنظيم سريرك".

"نعم، أجرؤ القول إنها تلعب دور الأم معى، لكنها من صنف البنات اللاتى يبحثن دومًا عن شخص يمكن أن يعجبن به، إنها سوف تعجب بشخص جاد ... مماثلاً لك. المشكلة معى هى أننى عندما أنتوى أن أكون جادًا لا استطيع جعل ملامحى جادة. التحلى بالجدية تجعلنى أشعر بالإحراج. هل يمكن لك أن تتصور أى أحد يمكن أن يبدى إعجابا بى؟".

"هذا ما يفعله سام".

"أشك أن سنثيا يمكن أن تعجب بلعبة الاستخفاء".

عادت سنثيا لتقول: "أغطية سريرك كانت فى حالة مزرية، متى آخر مرة قام أحدهم بترتيبها؟"

"السيدة التى تأتى لخدمتنا تحضر أيام الاثنين والجمع، لكن اليوم هو الخميس".

"لما لا ترتبه وتنظمه بنفسك؟".

"حسنًا، إننى أقوم بإحاطة جسدى بالأغطية عندما أنام".

"ورجال البيئة هؤلاء، ما الذى يفعلونه؟".

"أوه، لقد تدربوا ألا يلاحظوا وجود الملوثات إلا إذا وضعت أمام أعينهم بشكل رسمى".

قام ديفيز بمصاحبتها حتى الباب، قالت سنثيا : "نراك غدا". هبطت السلالم وهى تقول من وراء كتفها أن لديها الكثير من لوازم التسويق مضطرة أن تقوم بها.

أخذ ديفيز فى ارتجال بعض الأبيات الشعرية:

"ما كان لها أن تنظر نجوى إذا قصدت أن لا أدعى حبى لها.

اندهش كاسل. ما كان يظن أن ديفيز يقرأ أشعار براوننج .... ما عدا فى المدرسة بالطبع.

قال: "حسنا، سوف أعود للحقيبة إياها".

"أنا آسف يا كاسل. أعلم كم تزعجك هذه الحقيبة. أنا فى الحقيقة لست متمارضا، أيضًا ما أشعر به ليس وخمة سكر. المشكلة فى ساقى وذراعى – أشعر بها كأنها بعضًا من الجيلى".

"عد إلى سريرك".

"اعتقد أننى سوف أفعل ذلك. لن يجدنى سام الآن شخصًا مفيدًا فى لعبة الاستخفاء". أضاف ديفيز وهو يستند على الدرابزين يشاهد كاسل وهو يرحل. وما أن وصل كاسل البسطة الأخيرة، حتى ناداه "كاسل".

نظر كاسل إلى الأعلى: "نعم؟".

"هل تعتقد أن هذا يمكن أن يوقفنى؟".

"يوقفك؟".

"سوف أكون شخصًا مختلفًا إذا سافرت إلى لورنزو ماركيز".

"لقد صنعت كل جهد فى هذا الموضوع، وتحدثت مع س".

"إنك إنسان طيب يا كاسل. أشكرك، مهما حدث".

"عد إلى سريرك واسترح".

"أعتقد أنني سوف أفعل ذلك"؛ لكنه ظل في مكانه حتى استدار كاسل.

* * *

الفصل السابع

(١)

وصل كل من كاسل ودانترى آخر الناس إلى مكتب تسجيل الزواج وجلسا فى آخر صف من تلك الغرفة البنية الكئيبة. كان يفصلهما عن باقى الناس الذين يبلغ عددهم نحو اثنى عشر فردًا أربعة صفوف خالية. كان هذا الجمع مفصولاً على الجانبين كما يحدث فى زيجات الكنائس، كل مجموعة تنظر إلى الأخرى ليس باهتمام انتقادى لكن بنوع من الازدراء.... ولن يحل الوئام بينها إلا عند تقديم الشمبانيا لاحقا.

قال دانترى وهو يشير نحو شاب صغير انضم إلى ابنته أمام مائدة المسجل "أعتقد أن هذا هو كولين، إننى حتى لا أعرف لقب عائلته".

"من تلك المرأة الممسكة بمنديل، يبدو أنها مستاءة من شيء ما".

"إنها زوجتى. آمل أن ننسحب خلسة قبلما تنتبه لوجودى".

"يجب ألا تفعل ذلك، وإلا لن تدرك ابنتك أنك قد حضرت أساسًا".

بدأ المسجل فى الحديث، قال أحدهم: "هص ص"، كما لو كانوا داخل مسرح وهو ذا الستار سوف يرتفع.

همس كاسل فى إذن دانترى: "اسم صهرك هو كلاترز"

"متأكد؟".

"لا، لكن يبدو كذلك".

قام المسجل بالنطق ببعض الأمنيات المختصرة المحفوظة مهنئًا العروسين، تلك التى تشبه أحيانًا ما يحدث فى الزيجات الكنسية، هنا قام عدد من الحضور بالمغادرة وهم ينظرون فى ساعاتهم كعذر.

تساءل دانترى: "ألا ترى أنه لازمًا علينا نحن أيضًا أن نغادر؟".

"لا".

على كل حال، لم ينتبه إليهما أحد وهما واقفان فى شارع فكتوريا. كانت سيارات الأجرة تجنح كأنما هى فرائس تصطاد، لذا صنع دانترى جهدًا إضافيًا كى يهرب.

نازعه كاسل: "هذا ليس فيه نوع من الإنصاف نحو ابنتك".

"إننى لا أعلم حتى إلى أين سوف يتوجهون، ربما يذهبون إلى فندق".

"يمكن لنا أن نتبعهم".

وهذا ما حدث فعلاً – كل الطريق حتى منطقة هارودز وما خلفها خلال ضباب خريفى خفيف.

قال دانترى: "لا أعرف أى فندق سوف يقصدونه... أعتقد أننا قد أضعناهم"... انحنى إلى الأمام كى يفحص السيارة الأمامية "لست محظوظًا، أستطيع أن ألمح مؤخرة رأس زوجتى".

"ليس بالدليل القوى كى نتبعه".

"مع ذلك أنا متأكد منه. لقد تزوجتها وقضيت معها خمسة عشر عامًا"، ثم أضاف وهو مكتئب: "ولم نتحدث مع بعض لمدة سبع سنوات".

"الشمبانيا سوف تساعد".

"لكن أنا لا أحب شرب الشمبانيا. إنه فضل كبير لك يا كاسل أن تحضر معى، ما كان فى إمكانى أن أواجه كل هذا بمفردى".

"سوف نشرب كأسا واحدة ثم نغادر".

"لا أتخيل إلى أين نتجه، فأنا لم أسلك فى هذا الطريق بالذات منذ عدة سنوات. يبدو أن هناك العديد من الفنادق الجديدة التى أنشئت".

سارت بهما سيارة الأجرة بشكل متقطع حتى وصلا إلى طريق برومبتون.

قال كاسل: "عادة يذهب الناس إلى شقة العروس إذا لم يكن هناك فندق".

"ليس لها منزل مستقل؛ فهى رسميًا تشارك بعض الفتيات الصديقات فى شقة، لكن من الواضح أنها كانت تشارك هذا الشاب كلاترز فى شقته لفترة طويلة. كلاترز يا له من اسم"..

"ربما لا يكون اسمه كلاترز. لم يكن حديث المسجل واضحا".

بدأت سيارات الأجرة تخلى الضيوف كأنهم طرود مغلفة أمام منزل صغير لطيف يقع وسط مجموعة هلالية من المنازل. من حسن الحظ أن عدد الضيوف كان قليلاً؛ فهذه المنازل فى تلك المنطقة لم تبن كى تتقبل الحفلات الصاخبة، وحتى بدستتين من البشر، يشعر المرء هنا بأن الجدران سوف تنثنى والأرضيات تهبط ساجدة.

قال دانترى: "أعتقد أننى عرفت أين نحن. إنها شقة زوجتى، سمعت مرة أنها اشترت شقة فى كنجستون".

هبطا من السيارة وسارا صاعدين بعض السلالم المزدحمة حتى غرفة استقبال. فوق كل مائدة، كذا رف الكتب، فوق البيانو والدفاية، كانت هناك تماثيل لطيور البوم المصنوعة من الصينى تحملق فى الضيوف، شكلها مخيف بمناقير مقوسة. قال دانترى: "نعم، إنها بالفعل شقتها، كانت دومًا مغرمة بالبوم؛ وهذه العاطفة ازدادت منذ أن كنا مع بعض".

صعب عليهما أن يشاهدا الابنة وسط كل هذه الجمهرة التى تكالبت حول البوفيه. فى الحال تطايرت فوهات زجاجات الشمبانيا. كانت هناك كعكة الزواج، بل وكانت هناك بومة جيرية متوازنة فوق القمة السكرية. قام رجل طويل بشارب مشذب مماثلاً لدانترى

بالقدوم نحوهما قائلاً: "لا أعلم من أنتما، لكن ساعدا أنفسكما مع الشمبانيا". كان من الممكن الحكم على هذه الرجل بأنه يعود إلى أهل الحرب العالمية الأولى، فهو يتحلى بذلك الذهن الغائب لمضيف قديم، أخذ يشرح لهما: "لقد استغنينا عن الخدم".

"أنا دانترى".

"دانترى؟".

"إنه حفل زواج ابنتى". قالها دانترى بصوت يشبه البسكويت الجاف.

"أوه، إذن أنت بالتأكيد زوج سلفيا".

"نعم، يبدو أننى لم أسمع اسمك جيدا".

تحرك الرجل مبتعدا وهو ينادى: "سلفيا، سلفيا".

قال دانترى يائسًا: "دعنا نرحل".

"يجب أن تحيى ابنتك".

قامت امرأة بشق طريق لها وسط الضيوف عند البوفيه.. لاحظ كاسل أنها نفس المرأة التى كانت تمسح دموعها عند المسجل، لكن لا يبدو عليها أنها باكية الآن. قالت: "عزيزى، أخبرنى إدوارد إنك هنا. شيء لطيف أن حضرت. أعلم تمامًا مقدار مشغولياتك".

"نعم، حقًا المفروض أن نرحل، هذا هو مستر كاسل، من المكتب".

"هذا المكتب اللعين. كيف حالك يا مستر كاسل؟ يجب أن أعثر على إليزابيث أيضًا كولين".

"لا تزعجيهما، حقًا علينا أن نغادر".

"أنا عن نفسى حضرت لقضاء هذه اليوم فقط. قدمت من برايتون. أتيت فى سيارة إدوارد".

"من هو إدوارد؟".

"لقد ساعدنا مساعدة عظيمة. طلب الشمبانيا وكل هذه الأشياء، فالمرأة فى حاجة لرجل لسداد مثل هذه المناسبات. يا عزيزى، أنت لم تتغير قط، كم وقت مر علينا؟".

"ست ... سبع سنوات".

"كم يجرى الزمن".

"لقد جمعت المزيد من طيور البوم".

"تقول بوم؟" غادرتهما وهى تنادى: "كولين، إليزابيث، احضرا إلى هنا".. حضر العروسان يدًا فى يد، لا يظن دانترى أن ابنته تتمتع بهذا القدر من الرقة الطفولية، لكن لعلها اعتبرت أن موضوع مسك الأيادى يعتبر واجبًا يؤدى فى كل فرح.

قالت إليزابيث: "شيء لطيف أن حضرت يا والدى، أعلم أن مثل هذه الأمور ثقيلة على قلبك".

"أنا لم أعهد مثل هذا الموضوع من قبل". أخذ ينظر إلى رفيقها الذى كان يضع ورد القرنفل فى سترته الجديدة. كان شعره أسود منثورًا يحيط جيدًا حول أذنيه.

قال العريس: "كيف حالك يا سيدي، لقد تحدثت إليزابيث كثيرًا عنك".

"لا أدعى أننى فعلت بالمثل. إذن أنت كولين كلاترز؟".

"ليس كلاترز يا والدى، من الذى دعاك تفكر أن هذا هو اسمه؟ اسمه العائلى كلوف، أعنى أن اسمنا الآن هو كلوف".

عدد من القادمين الذين لم يحضروا الحفل عند المسجل قدموا واستطاعوا أن يفصلوا كاسل عن دانترى. واحد من الضيوف يرتدى معطفًا مزدوج الصدر أخبر كاسل "إننى لا أعرف أحدًا هنا، ما عدا كولين بالطبع".

سمع صوت صينى يتهشم، فارتفع صوت مسز دانترى فوق كل الهمهمات: "من أجل خاطر المسيح، هل هو واحد من البوم الذى وقع أرضًا يا إدوارد؟".

"أوه، لا تقلقى يا عزيزى، إنها فقط منفضة سجائر وقعت".

ردد الرجل بالمعطف المزدوج: "لا أعرف ولا واحد هنا، بالمناسبة ـ اسمى جوينر".

"اسمى كاسل".

"هل تعرف كولين؟".

"لا، لقد حضرت مع الكولونيل دانترى".

"من هو؟".

"إنه والد العروس".

فى مكان ما، رن جرس التليفون. لا أحد انتبه له

"يجب أن تتحدث مع الشاب كولين، إنه شاب نابه".

"لديه اسم غريب، أليس كذلك؟".

"غريب؟".

"حسنا... كلاترز":

"اسمه العائلى كلوف".

"أوه، إذن فقد سمعته خطأ".

مرة أخرى سمع شيئًا يتهشم. قال إدوارد مطمئنا فوق الأصوات: "لا تقلقى يا سلفيا. لا شيء مهم، كل البوم فى أمان".

"لقد استطاع هذا الشاب أن يحدث ثورة فى إعلاناتنا".

"أنتما تعملان معًا؟".

"يمكن لك أن تقول إننى هو بودرة الأطفال جيمسون".

قام الرجل المدعو إدوارد بالقبض على ذراع كاسل "هل اسمك كاسل؟".

"نعم".

"أحدهم يود مكالمتك تليفونيا".

"لكن لا أحد يعلم أننى هنا".

"إنها فتاة. كانت منزعجة نوعا، قالت إنه أمر ضرورى".

فكر كاسل فى سارة. إنها تعلم أنه سوف يحضر هذا الحفل، لكن ولا حتى دانترى كان يعلم إلى أين سوف يتوجهان. هل أصاب المرض سام مرة أخرى؟ سأل: "أين التليفون؟".

"اتبعنى".. لكن عندما وصلا لمكانه – وهو تليفون أبيض بجوار سرير مزدوج لونه أبيض، تحرسه بومه بيضاء – كانت السماعة فى مكانها على العدة. قال إدوارد: "آسف، أعتقد أنها سوف تطلبك مرة أخرى".

"هل أعطت اسمًا لها؟".

"لم اسمعه مع كل هذه الضوضاء الخارجية. عندى شعور بأنها كانت تبكى. تعالى وخذ لنفسك كأس شمبانيا".

"إذا لم يكن لديك مانع، سوف أظل هنا قريبًا من التليفون".

"حسنًا، أعذرنى إذا لم أبقى هنا معك. مفروض علىَّ أن أنتبه لكل هذه المجموعة من البوم. سوف ينكسر قلب سلفيا إذا جرى أى شيء لواحد من هذه التماثيل. كُنت قد اقترحت أن نبعدها من هنا، لكن هى لديها أكثر من مائة منها، وسوف يبدو المكان كله عاريًا بدونها. هل أنت صديق للكولونيل دانترى؟".

"نحن نعمل فى المكتب نفسه".

"واحدة من تلك الوظائف المرفهة، أليس كذلك؟ شيء محرج أن أقابله هكذا. لم تظن سلفيًا أنه سوف يحضر. ربما كان يتوجب ألا أحضر أنا أيضًا، كنوع من اللباقة. لكن من سوف يأخذ باله من البوم؟".

جلس كاسل على حافة هذا السرير الأبيض الضخم، وأخذت البومة البيضاء تحملق فيه وهو بجوار التليفون الأبيض، كما لو أنها قد تعرفت عليه باعتباره مهاجرًا عشوائيًا حط على حافة هذه القارة الغريبة من الثلجى الأبيض ... حتى الجدران كانت بيضاء، والسجادة تحت قدميه بيضاء. شعر بالخوف.... الخوف من أجل سام، خائف من أجل سارة. خائف على نفسه؛ تسلل الخوف كأنما هو غاز يتسرب من فوهة هذا التليفون الصامت، فهو وكل من يحب يتعرضون للتهديد بهذه المكالمة الغامضة. بدت الأصوات المتضاربة التى تصله من غرفة الاستقبال تبدو فى نظره الآن كأنما هى همهمات تصدر من أفواه قبائل بعيدة تعيش فى صحار من الثلج. فجأة، دق جرس التليفون، قام بدفع البومة البيضاء جانبا وأمسك بالسماعة.

وبمزيد من الراحة سمع صوت سنثيا تقول: "هل المتحدث هو م. ك؟".

"نعم، كيف عرفت أن تعثرى على؟".

"لقد اتصلت بمكتب تسجيل الزواج، لكن أنت كنت قد غادرت، لذا وجدت اسم دانترى مكتوبًا فى دفتر التليفونات".

"ما الموضوع يا سنثيا، يبدو صوتك غريبًا".

"يا م. ك. هناك أمر فظيع قد حدث. آرثر توفى".

مرة أخرى، كما حدث له قبلاً، أخذ يفكر للحظات من هو آرثر.

"ديفيز؟ مات؟ لكن هو كان سوف يرجع المكتب الأسبوع المقبل؟".

"أعلم ذلك. عثرت عليه الشغالة ميتًا عندما توجهت كى – ترتب سريره".... صوتها تكسر.

"سوف أعود للمكتب يا سنثيا. هل رأيت الدكتور بيرسفال؟".

"هو الذى اتصل بى تليفونيًا ليخبرنى".

"يجب أن أذهب لأخبر الكولونيل دانترى".

"أوه يا م. ك. كم كنت أود أن أكون لطيفة معه. كل ما صنعت معه كان ... أن أرتب له سريره"... استطاع أن يلاحظ أنها تحاول أن تتماسك كى لا تنفجر باكية.

"سوف أعود بأسرع وقت ممكن"... ثم وضع السماعة.

كانت غرفة الاستقبال مزدحمة عن آخرها ويصدر منها ضوضاء غير محتملة. لقد تم تقسيم كعكة الفرح وكل فرد كان يبحث له عن مكان منعزل حتى يستطيع تخبئة ما اقتطعه منها. وقف دانترى وحيدًا خلف المائدة مليئة بتماثيل البوم ومعه قطعة صغيرة بين أصابعه. ما أن شاهد كاسل حتى قال: "دعنا نرحل يا كاسل، إننى لا أفهم فى مثل هذه المسائل".

"دانترى، لقد تلقيت مكالمة تليفونية من المكتب، ديفيز توفى".

"ديفيز؟".

"لقد مات، والدكتور بيرسفال...".

صاح دانترى "بيرسفال! يا إلهى، هذا الرجل.."... دفع بقطعة الكيك وسط البوم، فانحرفت منهم بومة رمادية كبيرة وتهشمت أرضا.

رن صوت نسائى صارخ "إدوارد، قام جون بكسر البومة الرمادية".

استطاع إدوارد أن يخلص نفسه ويتقدم نحوهما: "لا يمكن لى أن أتواجد فى كل مكان يا سلفيا".

ظهرت مسز دانترى خلفه تقول: "جون، أنت أيها الغبى الممل، إننى لن أسامحك أبدًا لما فعلته الآن – أبدا. ماذا بحق الجحيم تفعله فى منزلى هذا؟".

قال دانترى: "دعنا نخرج يا كاسل، سوف أشترى لك بومة غيرها يا سلفيا".

"إنها لا تعوض، هذه البومة بالذات".

"هناك رجل قد توفى، هو أيضًا لا يمكن تعويضه".

* * *

الجزء الرابع

الفصل الأول

(١)

مرت الليالى التى أعقبت وفاة ديفيز مليئة بالأحلام لكاسل، أحلام تشكلت على هيئة ملامح صغيرة من الماضى تسيطر عليه حتى مطلع النهار. لم يلعب ديفيز أى دور فى هذه الأحلام – ربما لأن التفكير فيه، فى محتواه المتناقص الحزين احتل جزءًا كبيرًا من عالم يقظته. كان شبح ديفيز يحوم حول حافظة زائير والبرقيات التى ترسلها سنثيا بعمل كود لها، أصبحت الآن أكثر تشوها عما ذى قبل.

لذا فى الليل، كان كاسل يحلم بجنوب إفريقيا، أحلام مفعمة بكثير من الكراهية، هذا على الرغم من أنه أحيانًا ما تتجمع قطع ونتف على شكل إفريقيا التى طالما أحبها. فى حلم من هذه وجد نفسه وقد اقترب من سارة وهى جالسة على أريكة مخصصة للسود فقط بمدينة جوهانسبرج، بجوارها أكوام من القمامة المبعثرة.... التفت بعيدًا عنها باحثا عن أريكة مختلفة. أما كارسون البعيد عنه، فإنه اختار أن يدخل حماما محجوزا للسود فقط، تاركا إياه فى الخارج خجلاً من نقص شجاعته، لكن أيضًا داهمه حلم آخر غريب فى الليلة الثالثة.

عندما صحى من نومه خاطب سارة قائلاً: "شىء مضحك فعلا. لقد حلمت بشخصية روجمونت. لم أفكر فيه منذ عديد من الأعوام".

"تقول روجمونت؟".

"لقد نسيت. أنت لم تتعرفى على روجمونت من قبل".

"من هو؟".

"هو فلاح فى الولايات الحرة. كنت معجبًا به كما كان حالى مع كارسون".

"هل كان شيوعيا؟ بالتأكيد لم يكن هكذا ما دام فلاحًا".

"لا، كان واحدًا من الذين سوف يكون مصيرهم الموت إذا استولى أهلك على حكم البلاد".

"تقول أهلى؟".

"بالطبع أعنى "أهلنا" ... نطق ذلك بلهجة حزينة كما لو أنه فى خطر أن يكسر عهدًا.

كان روجمونت هذا يعيش على حافة منطقة صحراوية لا تبعد كثيرًا عن ميدان الحرب القديم للبوير. أجداده من الهوجونوت، وقد هرب من فرنسا وقت الاضطهاد، لكنه لم يكن يتحدث الفرنسية، فقط اللغتان الإنجليزية والأفريكانية. كانت عائلته، قبل مولده، تابعة للطريقة الهولندية فى المعيشة؛ لكن لم يكونوا مؤيدين للتفرقة العنصرية. لذا اتخذ روجمونت موقفًا بعيدًا عن ذلك؛ ولهذا لم يبادر بانتخاب الوطنيين، بل وكان يحتقر الحزب الاتحادى، وبشعور غير محدد بسبب الولاء الذى يكنه لأسلافه، هذا جعله لا ينتخب أحدا من المجموعة الصغيرة من التقدميين. لم يكن هذا موقفًا بطوليًا، لكن ربما من وجهة نظره، كما كانت هى الحال مع أجداده، يرى أن البطولة تبدأ حيث تتوقف وتبتعد عن السياسة. كان يعامل من يخدمون أرضه بنوع من التعاطف والتفهم، بلا أى نوع من التفضل.

استمع إليه كاسل يومًا عندما كان يتناقش مع رئيس عماله عن حالة المحاصيل ... كانا يتناقشان معًا كأنهما أنداد. كل من عائلة روجمونت وقبيلة رئيس العمال قدما إلى جنوب إفريقيا تقريبًا فى الوقت نفسه. لم يكن جد روجمونت مليونيرًا من تربية طيور النعام كما كانت الحال مع جد كورنيلوس مولر؛ عندما كان عمر جد روجمونت الستين، بادر بالركوب بجوار كوماندوز دى ويت ضد الغازين الإنجليز، وقد جرح فى هذه المعركة ثم تماثل للشفاء مع تكاثف سحب الشتاء فوق المزرعة، حيث كانت قبائل البوشمان قبل مئات السنين ينحتون صورًا للحيوانات المختلفة على الصخور.

أبدى روجمونت ملاحظة إلى كاسل: "تصور نفسك وأنت تحت شظى النيران وهناك حمل ثقيل على ظهرك".. ثم أبدى إعجابه بالفيالق البريطانية بسبب شجاعتهم على الرغم من بعدهم عن أراضى وطنهم، كما لو أنهم جماعة من قطاع الطرق الأسطوريين فى كتب التاريخ، مشابهين لقبائل الفايكنج الذين هبطوا يومًا على الشاطئ السكسونى. إنه لا يبدى أى امتعاض بسبب هؤلاء الفايكنج الذين استمروا فى البقاء، لكنه كان يشعر بنوع من الرثاء على هؤلاء الناس الذين بلا جذور فى تلك البلاد الجميلة المتعبة التى فيها استقرت عائلته منذ ثلاث مئة من الأعوام السابقة. أخبر كاسل يومًا وهما يشربان كأسًا من الويسكى:

"أنت قلت لى إنك تؤلف كتابا عن التفرقة العنصرية، لكنك لم توافق قط على تفهم مدى معاناة دولتنا من تعقيدات. إنني أكره التفرقة العنصرية مماثلاً لك، لكننى مع ذلك، أقول لك أنك تعتبر بالنسبة لى غريبًا بالمقارنة بالعاملين معى فى مزرعتى. نحن ننتمى لهذا المكان – لكن أنت رجل غريب عنا مماثلاً لأى سائح يحضر لفترة ثم يرحل". خامر كاسل شعور أكيد من أنه حينما يحل وقت اتخاذ القرار، فإن هذا الرجل سوف يحمل بندقيته المعلقة على جدار غرفة استقباله دفاعا عن هذا المنطقة الصعبة الواقعة على أطراف الصحراء. إنه لن يموت دفاعا عن التفرقة العنصرية، لكن دفاعا عن كثير من جنس المورجن الذين كان يدعى أنهم من أهله، هؤلاء المعرضين لعوامل الجفاف، الفيضانات، الزلازل وأمراض الدواب، كذلك هجوم الثعابين التى يعتبرها من الهوام الأقل شأنًا من البعوض.

سألته سارة: "هل كان روجمونت هذا واحدًا من عملائك؟".

"لا، لكن الشيء الغريب أنه عن طريقه أمكن لى أن أتعرف على كارسون".... ربما كان واجبًا أن يضيف بالقول: "ومن كارسون انضممت إلى أعداء روجمونت. كان روجمونت قد استأجر خدمات كارسون لكى يدافع عن أحد عماله الذى اتهمه البوليس المحلى بالعنف، على الرغم من أنه كان بريئًا من هذه التهمة".

قالت سارة: "أحيانًا أتمنى لو ظللت أنا واحدة من عملائك. أنت تخبرنى بأقل القليل عما فعلته حينذاك".

"إننى لم أخبرك قط بالكثير؛ ربما تظنين أننى تعمدت ذلك، لكننى أخبرتك بالقليل على قدر طاقتى من أجل الحفاظ على سلامتك. حينذاك كان كل ما قلته لك عبارة عن أكاذيب. مثال ذلك الكتاب الذى ادعيت أننى سوف أؤلفه عن التفرقة العنصرية".

"كنت أظن أن الأمور سوف تكون مختلفة ونحن فى إنجلترا. كنت أظن أنه لن يكون بيننا أى نوع من الأسرار".

تصاعدت نبرة أنفاسها، ومرة أخرى استغرقت فى النوم، لكن كاسل استمر مستيقظا فترة طويلة. فى لحظات معينة كان يشعر بحافز قوى أن يثق بها، أن يخبرها بكل شىء، كما لو كان رجلاً على علاقة بامرأة أخرى، وهذه العلاقة قد انتهت الآن ورغب فجأة أن يخبر زوجته بكل تفاصيل هذه القصة المحزنة .. أن يفسر لها كل أحوال الصمت غير المبرر، كذلك أوقات الخدع الصغيرة، وكل المتاعب ومصادر القلق التى لم يستطع أن يشاركها فيها، بالطريقة نفسها التى اتبعها الرجل الآخر عندما عبر عن ختام كل شىء بالقول: "لما تزعجها بأخبارك بعدما انتهى كل شىء؟".... إنه فى الحقيقة كان يؤمن لوهلة، بأن كل شىء قد انتهى بالفعل.

* * *

بدا الأمر غريبا على كاسل أن يجلس فى الغرفة نفسها التى تشارك فيها مع ديفيز لعديد من الأعوام، وأن يرى، مواجها له الآن عبر المائدة، الرجل المدعو كورنيلوس مولر– إنه مولر آخر متغير بشكل عجيب، مولر الذى خاطبه قائلاً : "شعرت بقدر عظيم من الأسى والأسف عندما سمعت هذه الأخبار حال عودتى من بون...بالطبع، أنا لم أتقابل مع زميلك فى العمل من قبل...لكن بالنسبة إليه، لا شك أن وفاته قد تسببت فى حدوث صدمة كبرى لك..". إنه نفس المولر الذى بدا الآن وكأنه إنسان عادى وليس ضابطًا مخضرمًا فى "بوس"، بل كأنه شخص قابله بالصدفة فى القطار وهو فى طريقه إلى إيستون. اندهش كاسل من نبرة الأسف والتعاطف التى ظهرت فى لهجة مولر– بدت بشكل غريب كأنها مخلصة. فكر، فى إنجلترا، أصبحنا ساخرين بخصوص أى وفيات تحدث وليست لها صلة وثيقة بنا، وحتى فى هذه الحالة، من الأدب أن يلبس المرء قناعا من عدم الاهتمام فى مواجهة الغرباء؛ فالموت والأعمال لا يتوافقان معًا، لكن بالنسبة للكنيسة الهولندية الإصلاحية التى ينتمى لها مولر، فإن الوفاة، كما يتذكر كاسل، هو أهم حدث يقع فى المحيط العائلى. لقد شارك كاسل يومًا فى جنازة فى الترنسفال، لم يكن هو الحزن الذى يتذكره الآن، لكن الجلال والهيبة، بل وحتى البروتوكول اللازم إتباعه فى هذه المناسبة. لقد ظل الموت فى نظر مولر له أهمية اجتماعية خاصة، على الرغم من أنه كان ضابطا فى "بوس".

قال كاسل "حسنًا، بالتأكيد كان موضوعًا غير متوقع بالمرة"، ثم أضاف: "لقد طلبت من السكرتيرة أن تحضر لنا ملف زائير وموزامبيق، أما بالنسبة إلى مالاوى فعلينا أن نعتمد على م١٥، وأنا لا استطيع أن أطلعك على محتويات أى تقرير دون الحصول على إذن مسبق أولا".

"سوف أطلع عليها بعدما أنتهى بما معك. لقد سررت للغاية بتلك الأمسية التى قضيتها فى منزلك، ومقابلة زوجتك.."... ثم تردد قبلما يضيف: "أيضًا ابنك".

ساور كاسل أملاً أن هذه الملاحظات الافتتاحية سوف تقود إلى التساؤل عن الطريق الذى سلكته سارة حتى وصلت إلى سويسرا. يجب أن يظل العدو على شكل كاريكاتورى إذا أردت أن تجعله على مسافة آمنة بعيدة... يجب ألا يظل العدو على قيد الحياة. كان الجنرالات على حق عندما قالوا — لا يجب تبادل أنخاب عيد الميلاد بين الخنادق المتناحرة".

قال "بالطبع كنت أنا وسارة مسرورين برؤياك".. ثم دق جرسا: "آسف، لقد استغرقوا زمنًا فى تجهيز هذه الملفات. لقد تسببت وفاة ديفيز فى حدوث كثير من الارتباك فى العمل والروتين".

ظهرت أمامه فتاة لا يعرفها، قال لها: "لقد طلبت الملفات تليفونيًا منذ خمس دقائق. أين سنثيا؟".

"ليست موجودة".

"لماذا ليست موجودة؟".

حدقت الفتاة فى وجهه بعيون حجرية باردة: "لقد حصلت على إجازة اليوم".

"هل هى مريضة؟".

"ليس بالضبط".

"من أنت؟".

"بينيلوب".

"حسنا، هل يمكن يا بينيلوب أن تخبرينى، ماذا تعنين بقولك: ليس بالضبط؟".

"إنها حزينة. وهذا أمر طبيعى، أليس كذلك؟ اليوم هو موعد الجنازة. جنازة ديفيز".

"اليوم؟ آسف. نسيت"، ثم أضاف: "على أى حال يا بينيلوب، أحضرى لنا هذه الملفات".

عندما غادرت، قال لمولر: "آسف بسبب هذا الارتباك. بالتأكيد أعطيت لك فكرة خاطئة عن طريقة أداء أعمالنا هنا. أنا فى الحقيقة نسيت؛ إذن هم يدفنون ديفيز اليوم، ثم تقام عليه الصلوات الساعة الحادية عشرة لقد حدث هذا التأخير بسبب موضوع التشريح بعد الوفاة. تذكرت الفتاه لكن أنا نسيت".

"آسف لسماع ذلك، كان من المفروض أن أغير موعد لقائى معك لو علمت".

"إنها ليست غلطتك. الحقيقة هى أنا لدىَّ مذكرة مسجل بها مواعيدى الرسمية، وأخرى بها مواعيدى الشخصية. هنا تجد أننى قد وضعت اسمك. الساعة العاشرة، الثلاثاء. أما المذكرة الشخصية فقد تركتها فى المنزل، ولازما أكون قد رصدت فيها موعد الجنازة. دائمًا ما أنسى أن أقارن بين هاتين المذكرتين".

"على أى حال...نسيان موعد الجنازة... أليس فيه نوع من الغرابة؟".

"نعم، لعل فرويد سوف يعلق بالقول إننى أردت نسيان هذا الموعد".

"فقط عليك أن تحدد موعدًا آخر لاجتماعنا. غدٍ أو بعد غد".

"لا، لا. فما هو الأكثر أهمية؟ العم راموس أم الاستماع إلى تلك الصلوات التى سوف تتلى فوق جثمان المسكين ديفيز؟ بالمناسبة، أين تم دفن كارسون؟".

"فى بلدته هناك. وهى مدينة صغيرة بجوار كمبرلى. أعتقد أنك سوف تندهش عندما تعلم أننى كنت حاضرا جنازته".

"لا، أتصور أنك ذهبت كى تراقب من هم المعزون".

"على فرد منا – وأنت محق فى ذلك – أن يراقب؛ لكن أنا الذى اخترت أن أذهب".

"وليس الكابتن فان دونك؟".

"لا، سوف يتم التعرف عليه فورا".

"أنا لا أدرى ماذا يفعلون كل هذا الوقت مع الملفات".

"هذا الرجل ديفيز؛ ربما لم يمثل بالنسبة إليك شخصًا عزيزًا؟"

"حسنًا، ليس بقدر اهتمامى بكارسون، ذلك الذى قتله ناسك، لكن ابنى كان مغرما بديفيز".

"كارسون مات بالالتهاب الرئوى".

"نعم بالطبع. هذا ما أخبرتنى به سابقا. لقد نسيت ذلك أيضًا".

عندما وصلت الملفات أخيرا، أخذ كاسل فى تقليب أوراقها، مهتما بالإجابة عن أسئلة مولر، لكن بنصف انتباه. وجد نفسه يقول للمرة الثالثة: "ليس لدينا معلومات مؤكدة حتى الآن بخصوص هذا الموضوع"؛ بالطبع تلك كانت من نوعية الأكاذيب المتعمدة؛ إنه يحمى مصدره من مولر – لأنهما كانا يتواصلان عند نقطة خطيرة، يعملان فى سرية حتى نقطة اللا تعاون التى كانت حتى الآن غير محددة لكليهما.

سأل مولر: "هل مشروع العم راموس هذا هو عملى ومنطقى؟ لم أكن أظن أن الأمريكان سوف يهتمون مرة أخرى؛ أعنى عن إرسال قوات أخرى إلى بلاد غريبة. إنهم ما زالوا يجهلون أحوال إفريقيا كما هو حالهم مع آسيا، ما عدا طبعًا ما ينالونه من مؤلفين كبار أمثال همنجواى. إنه دائمًا تجده مستعدًا لأن يسافر فى رحلة سفارى ويكتب من هناك عن صيادى وقتلة الأسود بالرصاص – وعن هؤلاء المساكين نصف الجوعى المحجوزين من أجل السياح".

"الفكرة المثالية التى يحتفظ العم راموس بمكوناتها فى نفسه؛ هى أن يجعل استخدام القوات المحاربة غير ضرورى. على أى حال لن يكونوا بأعداد ضخمة، بالطبع مع عدد من الفنيين، لكن هؤلاء فى الواقع موجودون لدينا، علمًا أن أمريكا تمتلك لدينا عددًا من مراكز ملاحقة الصواريخ، ولديهم أيضًا حق التحليق جوا لمعاونة هذه المراكز... أنت بالتأكيد تعلم كل هذه الأمور. لم يجرؤ أحد أن يحتج أو يقوم بترتيب مسيرة. لم تكن هناك مظاهرات يشعلها طلاب جامعة بيركلى، كذلك لم تطرح أسئلة فى الكونجرس. لقد ثبت أن أمننا

الداخلى ممتاز. وكما ترى، سوف تلاحظ أن قوانين دولتنا العنصرية لها بطريقة ما، ما يبرر تواجدها؛ إنها تحقق الغطاء الممتاز. لسنا مضطرين إلى أن نتهم أحدًا بالجاسوسية، – فهذا سوف يلفت الانتباه. صديقك كارسون كان رجلاً خطيرًا – لكن ربما أصبح أكثر خطورة إذا كنا قد بادرنا بمحاكمته باعتباره جاسوسا. هناك الكثير الذى يجرى فى مراكز التتبع؛ ولهذا السبب، نحن نود الحصول على تعاون لصيق مع شعبكم. يمكن لكم أن تشيروا لنا إلى أى نوع من المخاطر، ونحن قادرون على التعامل معها بهدوء. بطريقة معينة، أرى أنكم فى موقف أفضل منا فى مسألة اختراق مجتمع المتحررين، بل وحتى الوطنيين السود. خذ مثال على ذلك، أنا ممنون للغاية لما أعطيتمونى من معلومات عن مارك تامبو ... بالطبع كنا نعرف شيئًا عنه مقدما، لكن الآن يمكن أن نعبر عن رضائنا الكامل لأنه لم يفوتنا أى شىء له أهمية خاصة. هناك مخاطر كبرى من تلك الزاوية الخاصة... فى الوقت الحالى على الأقل. لاحظ أن الخمسة أعوام التالية سوف تكون لها أهمية كبرى وحيوية – أعنى فيما يختص بتواجدنا".

"لكننى أستغرب يا مولر – هل يمكن لك أن توجد وتحيا؟ أنتم لديكم حدود ضخمة مفتوحة وطويلة للغاية: تصلح لغرس حقول الألغام".

"من النوعية القديمة، أوافقك على هذا. الشىء المفيد لنا هو أن القنبلة الهيدروجينية جعلت من القنبلة الذرية سلاحًا تكتيكيًا. وكلمة تكتيكى هى مطمئنة للغاية. لن يبدأ أحد بإثارة حرب نووية؛ لأن الأسلحة التكتيكية استخدمت فى أرض شبه صحراوية فى مكان بعيد للغاية".

"ماذا عن التعرض للأشعة الذرية؟".

"نحن سعداء بالرياح الغالبة التى تهب على بلدنا، أيضًا على صحراوينا. بجانب ذلك، هذه القنبلة الذرية نظيفة إلى حد كبير، أنظف من قنبلة هيروشيما. نحن نعلم مدى محدودية تأثير هذه السابقة، وفى المناطق التى ربما تتعرض للإشعاعات على مدى عدة أعوام، هناك القليل من الإفريقيين البيض. نحن نخطط كى نقاوم أى غزوات يمكن أن تحدث".

"لقد بدأت فى الإحاطة بهذه الصورة". تذكر كاسل سام، كما تذكره عندما اطلع على صورة فى صحيفة توضح آثار الجفاف والقحط على البشر – والأجساد المتناثرة لتأكلها الضوارى، لكن حتى الضوارى سوف تنفق بفعل انتشار الإشعاعات الذرية".

"هذا ما أتيت لكى أجعلك مطلعًا عليه – الصورة العامة – لسنا فى حاجة الآن لأن نتبحر فى التفاصيل؛ بذلك تستطيع أن تحلل أى معلومات تحصل عليها. لاحظ أن مراكز المتابعة هى النقط الحساسة فى لحظتنا هذه".

"مماثلة لقوانين التمييز العنصرى التى يمكن لها أن تغطى على الكثير من الآثام والشرور؟".

"بالضبط. كلانا فى حاجة لأن نلعب معًا. أعلم أن هناك تعليمات وجهت لك كى تحجب عنى بعض المعلومات، وهذا ما أتفهمه جيدا. أنا عن نفسى تلقيت هذه التعليمات نفسها التى أعطيت لك. لكن أهم شىء يجب علينا نحن الاثنين أن نكون بشكل متطابق داخل إطار الصورة نفسها؛ نحن سوف نحارب فى الجبهة نفسها، لذا علينا أن ننظر إلى الصورة نفسها".

"فى الحقيقة نحن بالفعل داخل الصندوق نفسه". أراد كاسل بذلك أن يلقى بمزحة ضدهم كلهم، ضد "بوس"، ضد مؤسسته نفسها، حتى ضد بوريس.

"تقول صندوق؟ نعم. أعتقد أنه يحق لك أن تضع الأمور بهذا الشكل". نظر بعد ذلك إلى ساعته. "ألم تقل أن الجنازة سوف تبدأ الحادية عشرة؟ إنها الآن العاشرة إلا إحدى عشرة دقيقة. أعتقد انه لازمًا لك أن تذهب الآن".

" يمكن للجنازة أن تستمر بدونى، وإذا كانت هناك حياة بعد الموت، يمكن لديفيز أن يتفهمنى، وإذا لم يكن..".

"أنا متأكد أن هناك حياة بعد الموت".

"حقا؟ ألا ترعبك هذه الحقيقة؟".

"ولما يحدث هذا. لقد اجتهدت دومًا فى أن أودى واجبى".

"لكن مع كل هذه الأسلحة الذرية التكتيكية لديكم؛ فكر فى كل السود الذين سوف يموتون قبلك ويكونون فى استقبالك هناك".

"الإرهابيون، لا أظن أننى سوف أقابلهم مرة أخرى".

"لا أعنى رجال حرب العصابات. أعنى كل العائلات المقيمة فى المناطق الملوثة، بنات وأولاد وجدات عواجيز".

"أتوقع أنه سوف يكون لهم مكان خاص بهم فى السماء".

"التفرقة العنصرية أيضًا فى السماء؟".

"أوه، أعلم أنك تضحك، لكنى لا أظن أنهم سوف يتمتعون بسمائنا نفسها، ألا تؤمن أنت بذلك أيضًا؟ على كل حال، أترك كل هذه الأمور لعلماء اللاهوتيات. أنت لم تستثن بالطبع أطفال هامبورج، أليس كذلك؟".

"شكرا لله، أننى لم أشارك حينذاك كما أفعل الآن".

"أعتقد أنه إذا لم ترغب حضور الجنازة، إذن يجب أن تلتفت إلى عملنا الخاص".

"آسف، أوافقك على هذا"... فى الحقيقة، كان كاسل يشعر بالأسى، بل والخوف أيضا، كما كانت حاله عندما كان فى مكتب (بوس) فى صباح يوم من أيام بريتوريا. لمدة سبع أعوام، كان يتجول دون حذر خلال حقول الألغام، والآن هو بجوار كورنيلوس مولر يرتكب فعلاً خاطئًا. هل هناك احتمال أن يكون قد وقع فى فخ نصبه له شخص يعلم طوية أفكاره؟

قال مولر: "بالطبع، أعلم أنكم أنتم الإنجليز تحبون المجادلة بغرض الجدال. لكن لماذا، حتى رئيسكم س حاول أن يجذب ساقى بسبب التفرقة العنصرية، لكن عندما فتحنا موضوع العم راموس ... حسنًا كلانا كنا جادين".

"نعم، علينا أن نعود إلى العم راموس".

"لدى سماح بأن أخبرك – بخطوط عامة بالطبع – كيف سارت الأحوال معى وأنا فى بون".

"هل صادفتك أى متاعب؟".

"ليست هى بهذه الدرجة من الصعوبة، فالألمان – بخلاف كل القوى الاستعمارية السابقة – يشعرون بتعاطف سرى تجاهنا. يمكن لك القول إن هذا يعود إلى زمن سابق، إلى الأيام التى فيها أرسل قيصر ألمانيا برقية إلى رئيسنا كروجر. لقد كانا كليهما مشغول بالأحوال التى كانت سائدة فى بلدان جنوب غرب إفريقيا؛ كانا يحبذان أن نحكم نحن بلدان جنوب غرب إفريقيا بدلا من الفراغ السائد هناك. على كل حال، هم حكموا هذه المناطق بشكل أكثر قسوة وضراوة منا، والغرب فى حاجة ماسة لمادة اليورانيوم".

"هل أحضرت معك اتفاق معين؟".

"يجب على المرء ألا يتحدث عن اتفاقات، فنحن لم نعد فى أيام الاتفاقات السرية. لقد تواصلت مع مثيلى هناك، وليس مع وزير الخارجية الألمانى أو المستشار، مماثلاً للطريقة نفسها التى تحادث بها رئيسكم س مع أناس **CIA** فى واشنطن. كل ما آمل فيه أن نصل نحن الدول الثلاث إلى نوع من التوافق الواضح".

"تفاهم سرى بدلا من معاهدة سرية؟".

"بالضبط".

"وماذا عن الفرنسيين؟".

"ليس هناك أى متاعب تواجهنا بشأنهم. إذا كنا نحن نتبع المذهب الكلفانى فهم يتبعون المذهب الديكارتى، وديكارت لم ينزعج قط جراء الاضطهاد الدينى فى زمنه. للفرنسيين نفوذ قوى فى السنغال وساحل العاج، بل وهم على توافق مع موبوتو فى كنشاسا. وكوبا لن تقدم مرة أخرى للتدخل فى إفريقيا (وقد اهتمت أمريكا بهذا الموضوع.) أما أنجولا فإنها لا تمثل أى تهديد لعدد من السنوات اللاحقة، حتى الروسى تجده راغبا فى أن يموت فى

سريره بدلا من مخبأ. على أسوأ الفروض، باستخدام عدد قليل من القنابل الذرية – من النوع الصغير التكتيكى بالطبع – سوف نكتسب خمس سنوات من السلم إذا هوجمنا".

"وماذا بعد ذلك؟".

"هذه هى النقطة الأساسية فى تفاهمنا فيها مع ألمانيا. نحن فى حاجة إلى ثورة آلية مع أفضل أدوات التعدين، على الرغم من أننا قد تفوقنا بالمقارنة بأى جهة أخرى. وعلى مدى خمسة أعوام يمكن أن نشغل نصف قوة العمل لدينا فى المناجم؛ هنا يمكن لنا أن نمنح أكثر من ضعف الأجر للماهرين من الرجال، وحينذاك يمكن لنا أن ننتج كما كل ما هو موجود فى أمريكا، أن نخلق بذلك طبقة متوسطة من السود".

"وماذا عن العاطلين عن العمل؟".

"يمكن لهؤلاء أن يعودوا إلى أوطانهم؛ لهذا خلقت الأوطان. أنا إنسان متفائل يا كاسل".

"وتستمر التفرقة العنصرية".

"سوف تستمر التفرقة العنصرية كما هى الحال عندكم .... التفرقة ما بين الأغنياء والفقراء".

أمسك كورنيلوس مولر بنظارته ذات الأذرع الذهبية وأخذ يلمعها، حتى برق الذهب ولمع، قال: "أرجو أن تكون زوجتك قد أعجبت بالشال. أنت مرحب بك أن تعود إلى جنوب إفريقيا ما دمنا قد علمنا الآن حقيقة مركزك. بالطبع مع عائلتك، وكن متأكدا أنهما سوف ينالان الاحترام والتوقير نفسهما المقدمان للبيض من الناس".

أراد كاسل أن يجيب بالقول: "لكن أنا أعتبر نفسى رعية سوداء"؛ إلا أنه فى هذه المرة آثر أن يكون حاذقًا وماهرًا فى التعامل، لذا قال "أشكرك".

فتح مولر شنطته وأخرج ورقة قائلاً: "كتبت هنا بعض الملاحظات لك عن مقابلاتى فى بون"؛ ثم أخرج قلم حبر – ذهبى بالطبع قائلاً: "يجوز أن تقتبس منها بعض المعلومات

التى قد تفيدك فى اجتماعنا المقبل، هل يناسبك يوم الاثنين؟ فى الوقت نفسه؟"؛ ثم أضاف: "أرجوك أن تحرق هذه الورقة بعد قراءتها. مؤسسة بوس لا ترحب بأن يكون مصير هذه الورقة داخل أفضل ملفاتكم السرية".

"بالطبع، كما تشاء".

عندما رحل مولر، وضع كاسل الورقة فى جيبه.

* * *

الفصل الثانى

(١)

كان هناك عدد قليل من الناس بميدان سانت جورج عندما وصل الدكتور بيرسفال وبصحبته جون هارجريفز الذى عاد من واشنطن الليلة الماضية.

كان هناك رجل يضع الشارة السوداء على ذراعه يقف بمفرده أمام الصف الأول داخل الكنيسة، وقد افترض الدكتور بيرسفال أنه طبيب الأسنان قريب ديفيز القادم من قرية درويتوش. إنه يرفض أن يفسح مكانًا لأحد؛ كما لو أنه يحمى حقه فى احتلال الصف الأول باعتباره قريب الفقيد الوحيد على قيد الحياة. اتخذ الدكتور بيرسفال والمدير العام س مقعديهما فى أحد الصفوف الخلفية، كانت سكرتيرة ديفيز، سنثيا، على بعد صفين خلفهما، أما دانترى وواطسن فقد جلسا على الجانب الآخر من الصفوف. كان هناك أيضًا عددا آخر من الوجوه يعرفها الدكتور بيرسفال معرفة سطحية، ربما يكون قد ألقى نظرة سطحية عليهم وهم سائرون فى ممر بمكان عمله أو ربما فى مؤتمر عقد فى م١٥، بل وربما يكونون من الغرباء – فالجنازات تجتذب الغرباء مماثلة للأفراح. كان يجلس فى الصف الأخير شابان، وتقريبًا هما من رجال البيئة واللذان كانا يشاركان ديفيز السكن. بدأ أحد الحاضرين فى عزف ناعم على الأرغن.

همس الدكتور بيرسفال فى أذن هارجريفز: "هل كانت عودتك بالطائرة مريحة؟".

"حدث تأخير قدره ثلاث ساعات فى مطار هيثرو، الطعام داخل الطائرة كان لا يستساغ"... تنهد الرجل، لعله تذكر فطيرة الكلاوى التى تعدها زوجته بمهارة، أو السمك

المدخن الذى يتناوله فى النادى. اختتم القائم على الأرغن عزفه فحل الصمت. بعض الحاضرين أحنى رأسه تخشعًا والآخر وقف مكانه، هناك نوع من عدم التأكد عما سوف يحدث لاحقًا.

تقدم القس، المحتمل أنه غير معروف لأحد من الحاضرين، ولا يعرفه حتى الراقد فى صندوقه. بدأ فى ترديد اقتباس يقول: "أبعد عنى الوباء، لقد هلكت بسبب يدك القوية".

"ما هو الوباء الذى قتل ديفيز يا إيمانويل؟"

"لا تخشى شيئًا يا جون. لقد مر موضوع التشريح بعد الوفاة بسلام".

بدأت مراسم الصلاة على الجثمان، ومن وجهة نظر الدكتور بيرسفال، الذى لم يحضر جنازات منذ عدد من الأعوام، كان الموقف الحالى مفعمًا بالمعلومات غير المترابطة. بدأ القس فى القراءة بعض مما جاء فى الرسالة الأولى إلى الكورنثيين: "ليس للأجساد كلها شكل واحد. للناس جسد وللحيوانات جسد آخر وللسمك آخر وللطير آخر".. فكر الدكتور بيرسفال، هذه حقائق معلومة لا مراء فيها، فالتابوت الذى أمامه لا يحوى داخله سمكة؛ وسوف يكون اهتمامه وشغفه بالغًا لو كان يحوى مثلاً سمكة تروت ضخمة. التفت حوله بحركة سريعة... كانت هناك دمعة حبيسة تتراقص على جفون الفتاة سنثيا، أما وجه دانترى، فقد ارتسمت عليه نظرة غاضبة، أو ربما تعبير حزين يوحى بأنه مقبل على الإصابة بمرض ما. أيضًا كان واضحًا على واطسن أنه يعانى من شىء ما — من المحتمل أنه كان يفكر من ذاك الذى سوف يعمل على ترقيته ليحل بدلا من ديفيز.

قال هارجريفز: "أريد أن أتحدث معك قليلاً بعد انتهاء هذه المراسم". هذا أيضًا يبدو طلبًا مرهقًا.

قال القس: "انظروا وسوف أدلكم على سر"... تعجب الدكتور بيرسفال متفكرا : "لعله سر يتلخص فيما إذا كنت قد قتلت الشخص المناسب أم لا؟ لكن كل هذا لن يتأكد بدون توقف عمل الثغرة، أما إذا استمرت، فهذا يعنى أنه قد ارتكب خطأ لا يغتفر. بسوف

يغضب س غضبا ماحقًا كذلك دانترى. شىء محزن أنه ليس فى استطاعة المرء أن يلقى برجل من نهر الحياة كما يجرى عندما يلقى بسمكة فى النهر. هنا ارتفع صوت القس مكررا جملة معروفة فى الأدب الانجليزى "أيها الموت، أين شوكتك؟" فعل ذلك كأى ممثل فاشل يؤدى دور هاملت فى مناجاته النفسية الشهيرة التى هبطت إلى مستوى الدندنة مرة أخرى فى ختام أكاديمى. قال الرجل مستكملا: "شوكة الموت هى الخطية، وقوة الخطية فى الناموس". بدا هذا الختام كأنه واحد من أعمال أقليدس.

همس هارجريفز: "ماذا تتمتم؟".

"كنت أقول Q.E.D".

* * *

(٢)

"ماذا تعنى بقولك Q.E.D"... تساءل هارجريفز وهما يسيران معًا خارجا.

"بدا فى نظرى أنها أكثر قبولا مما كان ينطقُ به هذا القس، بل وأفضل من آمين".

سارا بعد ذلك تقريبًا بلا أى تبادل للحديث حتى وصلا إلى نادى ترافيلز، وبتوافق صامت، بدا فى نظرهما أن تناول طعام الغداء فى نادى ترافيلز اليوم هو أفضل من تناوله فى نادى ريفورم ... لقد أصبح ديفيز مسافرًا شرفيًا بعد رحيله إلى مناطق لم يكتشفها أحد من قبل، وبالطبع فقد حقه فى منظومة "رجل واحد صوت واحد".

قال دكتور بيرسفال: "لا أتذكر آخر مرة حضرت فيها مراسم إحدى الجنازات. أعتقد أننى قد حضرت جنازة خالة عجوز لى قبل خمسة عشر عاما، إنها مراسم خشنة رزيلة، أليس كذلك؟".

"كنت دائمًا ما أستمتع بالجنازات التى كانت تعقد فى إفريقيا. كثير من الموسيقى– على الرغم من أن الآلات الموسيقية كانت عبارة عن جرار وأوان وعلب السردين الفارغة. إنهم يجعلون الفرد يظن أن الموت، على الرغم من كل شىء، ربما يكون ممتعًا. من هى الفتاة التى شاهدتها تبكى؟".

"إنها سكرتيرة ديفيز. اسمها سنثيا. من الواضح أنها كانت مغرمة به".

"أعتقد أن هذه الأمور مستمرة ومتوقعة، لا يمكن فى مؤسسة مثل مؤسستنا أن نتفاداها، بالتأكيد بحث دانترى فى شأنها بكل تدقيق كما آمل؟".

"أوه، نعم، نعم. فى الحقيقة دون وعى منها ؛ أمدتنا بمعلومات مهمة للغاية، أنت بالطبع تتذكر موضوع حديقة الحيوانات".

"حديقة الحيوانات؟".

"عندما قام ديفيز..".

"آه، هما، أتذكر".

كما هو المعتاد فى أيام الإجازات، كان النادى خاليًا تقريبًا. سوف يبدآن فى تناول طعام الغداء إنها مهمة تتم بشكل أوتوماتيكى – بسمك التروت المدخن، لكن هذا الصنف لم يكن متاحا، لذا قام الدكتور بيرسفال بكل تردد بقبول البديل، وهو سمك السلمون المدخن. قال: "كنت أتمنى لو تعرفت على ديفيز أفضل من ذلك. أعتقد أننى كنت مقبلاً على الإعجاب به".

"مع ذلك، ما زلت تعتقد أنه يمثل الثغرة فى عملنا؟"

"لقد لعب دور الرجل البسيط بمهارة فائقة. إننى أعجب بالمهارة – والشجاعة أيضًا– لا شك أنه كان على قدر كبير من الشجاعة".

"فى انتهاج السبيل الخاطئ؟".

"يا جون! أنا وأنت لسنا فى موقف يسمح لنا بأن نتحدث عن الهدف والسبب. نحن من رجال واحدة من الحملات الصليبية. كلانا يعيش فى القرن الخطأ. لقد تم طرد صلاح الدين منذ زمن من أورشليم، لكن أورشليم لم تكتسب شيئًا من ذلك".

"مع ذلك يا إيمانويل...أنا لا أعجب أبدًا بارتكاب جريمة الخيانة".

"منذ ثلاثين عامًا عندما كنت طالبًا، تصورت نفسى كأننى واحد من الشيوعيين. الآن...؟ من هو الخائن ... هل أنا أم ديفيز؟ كنت مؤمنًا بالعالمية الشاملة. الآن، تجدنى أحارب تحت الأرض حماية لوطنيتى".

"لقد كبرت يا إيمانويل، هذا كل ما فى الأمر. ماذا تود أن تشرب .... كلاريت أم بورجاندى؟".

"كلاريت، إذا كان هذا لا يمثل فرقًا لديك".

قبع سير جون هارجريفز شاغلا كل مقعده واستغرق فى التأمل فى قائمة الخمور. لم يبد عليه أنه سعيد للغاية؛ ربما فقط لأن رأيه لم يستقر بعد ما بين خمر سانت إيميليون وميدوك. أخيرًا استقر وعبر عن طلبه، ثم أضاف: "أحيانًا أتعجب يا إيمانويل، لماذا أنت مستمر معنا؟".

"أنت قلتها منذ قليل. لقد كبرت. لا أظن أن الشيوعية سوف تنجح – على المدى الطويل – بشكل أفضل مما صنعته المسيحية، فأنا لست من نوعية جنود الصليبيين. هل هى الرأسمالية أم الشيوعية؟ أود أن أكون بجانب من يفوز أثناء فترة بقائى على قيد الحياة. لا تبدو هكذا مصدومًا يا جون. أنت تظنني إنسانًا ساخرًا، لكننى فى الواقع لا أود أن أضيع وقتًا طويلا. الجانب الذى سوف ينتصر هو الذى سوف يستطيع أن يبنى أفضل المستشفيات، يصرف أكثر على بحوث مرض السرطان؛ ذلك بعدما ينتهى كل هذا الحديث الفارغ عن المصنوعات الذرية. فى الوقت نفسه، تجدنى مستمتعًا باللعبة التى نلعبها. استمتع أنت أيضًا، فقط استمتع. أنا لا أتظاهر بأننى متحمس سواء لله أو ماركس. كن على حذر من الناس الذين يؤمنون، إنهم لاعبون لا يمكن الاعتماد عليهم؛ مع ذلك، تجد أن المرء يعجب باللاعب الجيد على الجانب الآخر من ساحة اللعب، فهذا يزيد من قدر الاستمتاع".

"حتى لو كان هذا اللاعب خائنًا؟"

"أوه، خائن – إنها كلمة عفى عليها الزمن يا جون. اللاعب له القدر نفسه من الأهمية مماثلاً للعبة ذاتها. أنا لا أستمتع باللعب مع خصم سيئ يحتل الجانب الآخر من المائدة".

"مع ذلك...قمت أنت بقتل ديفيز؟ أم هذا لم يحدث؟".

"لقد مات بسبب كبده يا جون. اقرأ تقرير التشريح".

"مصادفة سعيدة؟".

"الكارت الذى عليه علامة – هذا ما تظنه – وقد استعدل وضعه، كما نرى – إنها أقدم خدعة. فقط كان هو وأنا اللذين نعلم مدى اهتمامى بمؤسسة بورتون".

"كان من المفترض أن تنتظر حتى أعود للديار. هل ناقشت هذا الموضوع مع دانترى؟".

"لقد تركتنى متحملاً مسئولية إدارة مؤسستنا، وعندما تشبك الصنارة فى فم السمكة، بالطبع لا ينتظر قدوم أحد ليخبرك ما الذى يجب أن تفعله لاحقا".

"الخمر الذى اسمه شاتو تالبوت، هل تعتقد أنه من صنف جيد؟".

"إنه ممتاز".

"أعتقد أنهم استطاعوا أن يدمروا كل شهيتى فى واشنطن، بكل هذا المارتينى الصافى". ثم أخذ يحدق مرة أخرى فى قائمة الخمور، "أو لعل كل ما فعلته هو الخطأ بعينه. ألا يقلقك شيئًا أبدًا يا إيمانويل؟".

"حسنًا، نعم، أشعر بقلق بسيط بسبب حفل الجنازة؛ لعلك لاحظت أنهم حتى قد استخدموا الأرغن، ثم هناك باقى التجهيزات. كل هذا كلف الكثير، ولا أعتقد أن ديفيز قد خلف وراءه الكثير من المال. هل تعتقد أن قريبه طبيب الأسنان قد دفع كل هذه المصروفات.. أو ربما من فعل هكذا هو صديقنا من الشرق؟ هذا لا يبدو فى نظرى أمرًا مقبولاً".

"لا تشغل بالك بكل هذه الأمور يا إيمانويل، مكتبنا سوف يدفع، ليس مطلوبًا منا أن نقدم حسابًا عن المصروفات السرية". قام هارجريفز بدفع كأسه إلى جانب "نوعية خمر التالبوت هذا لا يماثل أبدًا طعم ٧١".

"لقد فوجئت يا جون برد الفعل الفجائى الذى حدث لديفيز .... لقد قمت برصد وزنه بكل دقة كى أعطيه ما كنت أظن أنه قادر على إحداث الوفاة الفورية.... لعلك لا تعلم أن مادة

الأفلاتوكسين لم تجرب من قبل على البشر، وكنت أرغب فى أنه فى حالة الطوارئ أننا قد قمنا بإعطائه الجرعة المناسبة. ولعل بالفعل كان كبده فى حالة سيئة".

"كيف ناولته هذه الجرعة؟".

"وضعتها فى كأسه عندما قدم لى مشروبًا دعاه باسم هوايت ووكر، كان طعم هذا الخمر كافيًا أن يخفى داخله طعم الأفلاتوكسين".

" كل ما أصلى من أجله هو أنك بالفعل قد اصطدت السمكة المناسبة".

* * *

(٣)

استدار دانترى حزينًا فى شارع سانت جيمس، وبينما يعبر محال هوايت فى طريقه إلى شقته، نادى عليه صوت وهو يبدأ فى ارتقاء السلالم. نظر من خلال مزراب، تعرف على وجه المنادى، لكنه عجز عن تذكر اسمه، بل وحتى لم يتذكر ظروف مقابلته لهذا الرجل. طرأ على فكره أسماء مثل بوفين أو بافر؟

"هل أحضرت معك بعض شيكولاتة المالتيزر أيها العجوز؟".

هنا عاد إليه منظر اللقاء السابق بنوع من الإحراج والحيرة.

"ما رأيك أن نعود معًا إلى مكان مناسب نتغدى فيه يا كولونيل؟".

هذا الشخص بالطبع له اسم غريب، نعم إنه بافى، بالتأكيد له اسم آخر، لكن دانترى لم يحط به قط. قال: "آسف، لدىَّ غداء ينتظرنى فى شقتى".... لم تكن تلك كذبة صريحة، فعلاً كان قد جهز لنفسه علبة سردين قبلما يذهب إلى ميدان هانوفر، وهناك بقايا جبن وخبز متبقى من غداء الأمس.

"إذن تعالى نحتسى كأسًا، يمكن للغداء المنزلى أن ينتظر". هذا ما قاله بافى، ولم يجد دانترى عذرا لأن يرفض هذا العرض.

نظرا لأن الوقت كان مبكرًا، لم يكن فى البار سوى اثنين من الرواد، لكن يبدو أنهما على معرفة وثيقة ببافى هذا، لأنهما قاما بتحيته دون حماس واضح، ولم يبد على بافى أنه مهتم بذلك. أخذ يلوح بيده بابتسامة واسعة محييًا الجميع بمن فيهم البارمان، قائلاً: "أعرفكما بحضرة الكولونيل". كليهما صدر منهما صوت أجش بنوع من الأدب المفتعل. أضاف بافى: "لم يحدث من قبل أن التقطت اسمه ونحن فى رحلة الصيد بالبنادق".

"أنا أيضًا لم ألتقط اسمك الحقيقى".

شرح بافى: "لقد تقابلنا فى عزبة سير جون هارجريفز. هذا الكولونيل هو واحد من رجال السر المكتوم، مماثلاً لجيمس بوند".

واحد من الاثنين قال: "لم أوفق قط فى قراءة كتب إيان فلمنج هذه".

أضاف الآخر: "فى نظرى، أعتبرها من الكتب الجنسية المبالغ فيها، إننى أحب أن اقرأ عن الحيل الممتازة، لكن هذا ليس له أى أهمية بالقطع، أليس كذلك؟".

تساؤل بافى: "ما الذى تود أن تتناوله؟".

قال دانترى: "اشرب مارتينى صاف". ثم تذكر مقابلته مع الدكتور بيرسفال، لذا أضاف "صافى تمامًا".

"حضر له يا جو كأسًا صافية، أما أنا فجهز لى كوبا مترعة من النوع الوردى ولا تكن بخيلا".

حل صمت شامل فى كل أنحاء البار الصغير. كل واحد من الحاضرين كان يفكر فى شىء مختلف – عن رواية قرأها لأيان فلمنج، عن رحلة الصيد، أو عن جنازة.

أخيرًا نطق بافى: "أنا والكولونيل لنا ذوق واحد بالنسبة للمالتيزر".

واحد من الرجلين خرج من حالة انغماسه الفكرى قائلاً: "مالتيزر؟ لكن أنا أفضل نوع سمارتيز".

"ماذا بحق الجحيم سمارتيز هذه؟".

"إنها نوع من الشيكولاتة الصغيرة الحجم. كل قطعة لها لون مختلف، لكن الطعم هو نفسه. مع ذلك، لا أعلم لماذا، أفضل منها ما لونه أحمر أو أصفر، لا أحب مضغ ذات اللون البنفسجى".

قال بافى: "شاهدتك قادمًا فى الطريق يا كولونيل. يبدو أنك كنت تخاطب نفسك، إذا لم تعارض قولى هذا. هل كنت منهمكا فى تمحيص واحدة من أسرار الدولة؟ إلى أين كنت ذاهب؟".

"فقط كنت عائدًا إلى شقتى. أنا أعيش قريبًا من هنا".

"كان يبدو عليك الانشغال الكامل. قلت لنفسى إنه لا بد أن بلدنا فى ورطة كبرى، فرجال الأسرار يعلمون أكثر منا".

"كنت حالا قادما من حضور مراسم جنازة".

"ليس قريبًا لك كما آمل".

"لا، إنه شخص كان زميلا لنا فى العمل".

"أوه، حسنًا. أننى أفضل الجنازات عن الزواجات. لا أتحمل حضور حفلات الزواج. الجنازة تمثل نهاية شىء ما، لكن الزواج – حسنًا، إنه يمثل مرحلة يائسة تتبعها مرحلة أخرى. إننى أفضل الاحتفال بمناسبة طلاق؛ لكن هذه أيضًا تمثل مرحلة، ربما يتبعها زواج آخر. لقد اعتاد الناس على ذلك".

قال ديكى، وهو من يحب الشيكولاتة سمارتيز: "على مهلك يا بافى. أنت نفسك فكرت فى أن تندمج فى هذه القصة. نحن نعلم الكثير عن مكتب عقدِ الزيجات الذى كان ملكاً لك. كُنت أنت محظوظ عندما هربت بجلدك. وأنتِ يا جو، أعط الكولونيل كأسًا أخرى من المارتينى".

دانترى، وقد داهمه شعور بالضياع وسط هؤلاء الأغراب، شرب كأسه الأولى حتى الثمالة، قال وكأنه رجل ينتقى جملة من كتاب دبج بلغة لا يعرفها: "كنت أحضر حفل زواج منذ فترة قليلة أيضا".

"السر وعدم العلانية يظهرا الآن، زواج أحد زملائك؟".

"لا، إنها كانت ابنتى. لقد تزوجت".

"يا إلهنا العظيم، ما كنت أفكر أنك واحد منهم.... أقصد من النوع المتزوج أساسا".

قال ديكى: "ليس بالضرورة هذا يتبع ذاك".

قال الرجل الثالث الذى لم ينطق بحرف حتى الآن: "لا داع لأن تتعاظم علينا يا بافى. أنا عن نفسى كُنت واحدًا من هؤلاء المتزوجين، على الرغم من أن هذا حدث منذ أمد بعيد ملعون، فى الحقيقة، كانت هى زوجتى التى عرفت نيكى على الشيكولاتة سمارتيز. هل تذكر فترة ما بعد الظهر هذه يا نيكى؟ لقد تناولنا وقتها عشاءً كئيبًا لأننا كنا على علم بأننا سوف نشرع فى هدم المنزل القديم. فجأة وجدت زوجتى تقول: "سمارتيز!"؛ فقط سمارتيز...لا أعلم لماذا؟ أعتقد أنها كانت تود أن تتحدث عن شىء ما، كانت ممتازة فى التظاهر".

"أنا لا أتذكر كل هذا يا ويلى. يبدو أن الشيكولاتة سمارتيز هذه لها تاريخ طويل عن ذلك فى حياتى. أعتقد أننى قد اكتشفت أمرها بنفسى. أنت يا جو، أعطى الكولونيل كأسا أخرى".

"لا، إذا لم يكن عندك مانع...حقًا يجب أن أعود لشقتى".

قال الشخص المدعو نيكى: "إنه دورى. املأ كأسه حتى الحافة يا جو. إنه قادم من جنازة ومحتاج لما يرفع معنوياته".

"لقد اعتدت على الذهاب إلى الجنازات منذ وقت مبكر"... قالها دانترى وهو مندهش بعدما تناول جرعة كبيرة من كأس المارتينى الثالثة. لاحظ انه يتحدث بطلاقة بشكل مناقض تمامًا لما اعتاد عليه عندما يتقابل مع الغرباء، علما بأن معظم من فى العالم هم غرباء فى نظره. كان يود أن يدفع ثمن دورة شراب، لكنه بالطبع هو فى مكانهم الخاص، لذا احتدمت مشاعر الصداقة والود فى فؤاده نحوهم، لكنه مع ذلك – وهذا ما كان متأكدًا منه – يعتبر فى نظرهم غريبا عنهم. أراد أن يسرى عنهم بأن يثير انتباههم أيضًا، لكن هناك الكثير من الموضوعات الممنوع عليه أن يخوض فى مسالكها.

تساؤل نيكى بفضول أثاره حالة السكر التى كان عليها: "لماذا؟ هل هناك حالات وفيات كثيرة فى محيط عائلتكم؟".

"لا، ليس الموضوع هكذا". قالها دانترى خجلاً وهو يبدأ فى جرع كأسه الثالثة، لسبب ما تذكر محطة سكك حديدية فرعية كان قد وصل إليها مع فصيلته فى الجيش منذ

ثلاثين عاما؛ وقد تم نزع شارة اسم هذه البلدة بعد كارثة دنكرك تحسبًا لقيام الألمان بغزو إنجلترا. بدا الأمر أمامه كأنما هو يتخلص مرة أخرى من حمل يثقل ظهره، وقد جعله الآن يسقط محدثًا صوتًا.

قال: "أنت ربما لا تعلم، أبى كان قسًا، لذلك حضرت الكثير من الجنازات عندما كنت ولدًا صغيرًا".

قال بافى "هذا ما كنت قادرًا على تخمينه إطلاقًا. فكرت فى أن منبتك هو عائلة عسكرية — أن تكون مثلاً ابنا لجنرال، من الدفعات القديمة وهكذا. أنت يا جو، كأس ديكى تشكو الفراغ طالبة بأن تمتلئ. لكن، بالطبع، عندما أفكر جيدًا، كون والدك قسا، هذا يفسر أشياء كثيرة".

تساءل ديكى: "ماذا يفسر؟" ...لسبب ما، بدا عليه بعض مظاهر الضيق التى جعلته مستعدًا أن يتساءل ويدقق فى أى شىء "هل يفسر ذلك المالتيزر؟".

"لا، أبدًا. المالتيزر تلك هى رواية أخرى، لا أستطيع أن أحكيها الآن، سوف تستغرق وقتًا طويلاً. أعنى القول أن الكولونيل ينتمى إلى مجموعة المحافظين على الأسرار، وهذا ما يفعله بالطبع كل قس، إذا فكرت فى الموضوع جيدًا...أنت تعلم بالطبع موضوع الاعترافات الكنسية وما شابه، فهؤلاء أيضًا ينتمون إلى طائفة المحافظين على الأسرار".

قال دانترى: "أبى لم يكن منتميًا للكنيسة الكاثوليكية ولا حتى للكنيسة العليا. كان قسا فى البحرية أثناء نشوب الحرب العالمية الأولى".

"الحرب العالمية الأولى؟" قالها المكتئب ويلى الذى كان متزوجًا يومًا، "لعلها تلك التى نشبت ما بين قابيل وهابيل".... نطق بجملته هذه بكل فتور، كما لو انه ود أن ينهى الحوار غير الضرورى.

شرح بافى المسألة: "لقد كان والد ويلى أيضًا من رجال الدين. كان أسقفًا، والأسقف أمام القس. إنه يغلب".

أخبرهم دانترى: "لقد حضر والدى معركة جوتلند".. لم يقصد بذلك أن يتحدى أحدًا، من أن يضع جوتلند قصاد الأسقفية. إنها ليست سوى ذكرى أخرى وردت على ذهنه.

قال باقى: "مع ذلك، كشخص غير محارب، هذا لا يحتسب لصالحه، أليس كذلك؟ ولم يحدث هذا بالطبع أيام قابيل وهابيل".

قال ديكى متشككًا وهو يمتص كأسه: "أنت لا تبدو عجوزًا هكذا".

"لم يكن والدى متزوجا فى ذلك الحين. لقد تزوج والدتى بعد الحرب، فى العشرينيات" لاحظ دانترى أن المناقشة بدأت تأخذ منحى غريب الشكل. لقد فعل الخمر مفعولا يشبه مفعول عقار كشف الحقيقة...أدرك أنه تحدث أكثر من اللازم.

تساءل ديكى بحدة، كأنما هو وكيل نيابة: "هو الذى تزوج والدتك؟".

"بالطبع، تزوجها فى العشرينيات".

"هل ما زالت حية؟".

"لقد مات كلاهما منذ أمد طويل. يجب أن أعود إلى المنزل. سوف يفسد غدائى". هذا ما أضافه دانترى وهو يفكر فى علبة السردين. أما مشاعر الود التى داهمته وسط هؤلاء الأغراب فإنها قد غادرته وهددت بأن تنتهى تلك المناقشات بشكل بغيض.

"ما صلة كل هذا بالجنازات، وأى جنازة هذه التى تتحدثون عنها؟".

قال بافى: "من فضلك يا ديكى، إنه خبير فى الاستجوابات. لقد كان ضمن العاملين فى م١٥ أثناء الحرب. أعطنا مزيدًا من الخمر يا جو. لقد أخبرنا سابقًا يا ديكى بأن من مات هو زميل غلبان له فى العمل".

"هل شاهدته وهو يوارى فى التراب؟".

"لا، أبدا. أنا فقط حضرت خدمة الصلاة عليه، فى ميدان هانوفر".

قال ابن الأسقف وهو يرفع كأسه أمام جو: "بالتأكيد هى كنيسة سانت جورج".

استغرق دانترى زمنًا طويلاً كى يسحب نفسه من هذه الصحبة، هذا وقد صاحبه بافى حتى سلم البار. عبر تاكسى، قال بافى: "أنت بالطبع تفهم ماذا أعنى بخصوص الأتوبيسات التى تعبر شارع سانت جيمس، لا أحد يسلم منها".

لم يفهم دانترى ماذا يقصد بحديثه هذا. وبينما كان يسير فى الشارع، كان مدركًا أنه قد احتسى أكثر مما شرب فى كل حياته فى مثل تلك الساعة من النهار. كانت المجموعة لطيفة، لكن على الإنسان أن يكون حذرًا. لقد تحدث بانطلاق أكثر من اللازم، عن والده ووالدته. عبر محل لوك للقبعات ثم مطعم أوفرتون ثم توقف قليلاً فى الركن الذى يقع فيها مول بول، بعدها استدار عائدا إلى شقته حيث فى الانتظار غدائه.

بالفعل، كان فى انتظاره بالداخل قطعة الجبن والعيش وعلبة السردين التى لم تكن مفتوحة بعد. إنه لم يكن بارعًا فى استخدام أصابعه، وقد كسر منه غطاء العلبة قبلما يفتح ثلثها، مع ذلك استطاع أن يجذب نصف ما فى العلبة على شكل قطع ونتف. لم يكن جائعًا— وهذا فيه الكفاية. تردد ما إذا كان عليه أن يشرب شيئًا بعد كل ما جرعه من المارتينى، أخيرًا استقر رأيه على أن يشرب زجاجة توبرج.

استمرت فترة تناوله الغداء أربع دقائق، لكن بدا هذا فى نظره وقتًا أطول من المعتاد بسبب استغراقه فى الأفكار. كانت تلك تتوارد وتتذبذب فى ذهنه كأنما هى خيالات سكير. فكر أولاً فى الدكتور بيرسفال والسير جون هارجريفز وقد شاهدهما يسيران معًا عندما انتهت مراسم الصلاة على الجثمان، رأساهما متقاربتان كأنهما اثنان من المتآمرين. فكر بعد ذلك فى ديفيز. إنه لم يكن لهذا الشاب محبة خاصة، لكن ما أزعجه هى واقعة وفاته. أخذ يصيح أمام الشاهد الوحيد الذى حدث أنه لم يكن سوى ذيل سردينة مشبوك فى شوكته "لن يقتنع أحد من المحلفين بهذا الدليل". هناك مدانون؟ ليس لديه أى برهان أن ديفيز قد توفى طبيعيًا كما أظهره تقرير التشريح. هل تليف الكبد يعتبر من أسباب الموت الطبيعى. حاول أن يتذكر ما كان قد أخبره به الدكتور بيرسفال عندما تقابلا فى رحلة الصيد. كان قد احتسى الكثير من الخمر تلك الليلة، كما حدث معه هذا الصباح، لأنه دائمًا ما كان يشعر بالقلق عندما يتقابل مع أناس لا يفهمهم جيدًا، وقد حضر الدكتور بيرسفال غير مدعو إلى غرفته فى القصر وتحدث معه عن فنان اسمه نيكولسون.

لم يقترب دانترى من قطعة الجبن. أعادها إلى مكانها فى طبق به بعض الزيت إلى المطبخ. إنه مطبخ لا يستطيع أن يشغله سوى فرد واحد فى آن واحد. تذكر المطبخ الواسع فى بدروم والده القس فى قرية سافولك، ذاك المنزل الواسع الذى استقر فيه والده بعد معركة جوتلند، ثم تذكر ملاحظة بافى المستهزئة عن الاعترافات. لم يرض والده قط عن موضوع الاعترافات هذا أو كرسى الاعتراف الذى كانت تحرص عليه الكنيسة العليا فى الأسقفية المجاورة.... مع ذلك، كانت الاعترافات تنهال على منزلهم، إذا كانت هى فعلا اعترافات تتلقاها والدته التى كانت محبوبة للغاية فى كل أنحاء القرية. كان دومًا يسمعها وهى تلخص لوالده هذه الاعترافات بدون أى تعاظم أو لؤم أو قسوة، "أعتقد أنه واجبًا أن تعلم ماذا قالت لى مسز بينز بالأمس....".

كان دانترى يتحدث بصوت عال — وهى عادة تعاظمت معه — مخاطبا حنفية الحوض "لم يكن هناك أى دليل ضد ديفيز". شعر بأنه مذنب بالفشل؛ فهو رجل فى منتصف العمر قريبًا من مرحلة الخروج على المعاش... أى خروج هذا؟ إنه سوف يستبدل عزلة بعزلة أخرى. ود لو أنه عاد إلى قرية والديه، ود لو أنه سار مرة أخرى فى الممر المعشب المزين بشجيرات الغار التى لا تزهر أبدًا وأن يدخل من الباب الأمامى. كانت حتى صالة البيت القديم فى حجم شقته الحالية، وهناك عدد من القبعات معلقة على مشجب على اليسار، وعلى اليمين، هناك حافظة فضية تشبك فيها مظلات المطر. يعبر الصالة، ثم يفتح الباب الذى أمامه، يفاجأ بوالديه وقد جلسا على الأريكة الملونة بقماشها الزاهى وقد وضعا يدا فى يد، حيث ظنا أنهما بمفردهما. يسألهما: "هل أستقيل من عملى؟". كان يعلم يقينا أن الإجابة هى "لا" من كليهما — من والده لأن كابتن حملته كان فى نظره مشاركًا فى الحقوق المقدسة للملوك، ومن المحتمل أن ابنه سوف يكون أكثر علمًا من قائده بخصوص القرار السليم الذى يجب أن يتمسك به، أما بالنسبة لوالدته — حسنًا، هى دائمًا ما كانت تخبر فتاة فى القرية كانت تعانى من المعاملة السيئة لرئيسها فى العمل بالقول "لا تتعجلى. ليس سهلاً أن تعثرى على مركز آخر". والدته هى التى دومًا ما تعطيه الإجابة العملية القيمة، فما هى فرصته فى أن يعثر على عمل آخر سوى ما يمكن أن تصنعه خادمة صغيرة تعمل فى قرية حيث عاشوا دهرًا.

عاد الكولونيل دانترى إلى غرفة استقباله، غير ملتفت وناسيا تمامًا تلك الشوكة التى يحملها المغموسة فى الزيت. للمرة الأولى منذ أعوام، يحمل الآن رقم تليفون ابنته.. لقد أرسلته بعد زواجها مطبوعًا فى كارت. كان ذلك أول ما يربطه بحياته اليومية. فكر، ربما من الممكن أن يدعوها إلى العشاء معه يومًا. إنه لن يقترح عليها هذا، لكن إذا تقدمت هى بعرض...

لم يتعرف على الصوت الذى رد عليه. قال: "هل هذا رقم ٦٧٣١٠٧٥؟".

"نعم، من تريد؟ "... إنه صوت شخص غريب.

فقد أعصابه وأخذ يبحث فى ذاكرته عن اسم. قال: "أريد التحدث مع مسز كلاتر".

"النمرة خطأ".

"آسف"؛ ثم أغلق الخط. بالطبع كان واجبًا أن يقول: "مسز كلوف"؛ لكن سبق السيف العزل. افترض، أن هذا الغريب الذى رد عليه، لم يكن سوى زوج ابنته.

* * *

(٤)

تساءلت سارة: "أنت بالطبع لم تمانع عدم قدرتى على الذهاب معك؟".

"لا، بالطبع لا. أنا عن نفسى لم أتمكن من الحضور... كان معى موعد مع مولر".

"كنت أخشى ألا أكون هنا عندما يعود سام من المدرسة، سوف يسألنى أين كنت".

"على كل حال، سوف يعلم بما حدث فى وقت ما".

"نعم، لكن ما زال أمامنا وقتًا طويلاً. هل حضر كثيرون الجنازة؟".

"ليس كثيرين، هكذا أخبرتنى سنثيا. طبعًا حضر واطسن، بصفته رئيس القسم. الدكتور بيرسفال. أيضًا حضر س. شىء رائع أن يحضر س. لم يكن الأمر كأن ديفيز كان رجلاً مهمًا فى المؤسسة. ثم كان هناك قريبه ... سنثيا ظنت أنه قريب ديفيز، لأنه كان يضع شارة سوداء على ذراعه".

"ما الذى حدث بعد انتهاء مراسم الصلاة؟".

"لا أعلم".

"أعنى بالنسبة للجثمان".

"أوه، أعتقد أنهم أخذوه إلى المنطقة المدعوة "الخضراء الذهبية" ليدفن، وهذا متروك للعائلة".

"قريبه الطبيب؟".

"نعم".

"كنا نحتفل بجنازات أفضل فى إفريقيا".

"أوه، حسنًا...أقطار أخرى، عوائد أخرى".

"من المفترض أنكم تنتمون إلى حضارة قديمة".

"نعم، لكن الحضارة القديمة ليست مشهورة دائمًا بإظهار مشاعر حزن عميقة على من يموت فيها. نحن لسنا أسوأ حالا من الرومان".

أنهى كاسل مشروبه. قال: "سوف أصعد إلى سام لأقرأ له لمدة خمس دقائق؛ وإلا ظن أن هناك شيئًا خاطئًا قد حدث".

"أقسم لى أنك لن تخبره بشىء".

"ألا تثقين فى؟".

"بالطبع أثق فيك، لكن..".

أخذت كلمة "لكن" تطارده وهو يصعد السلالم. لقد عاش زمنا طويلاً مع "لكن" هذه. نحن نثق فيك، لكن... يجد دانترى يحملق فى حافظة أوراقه، كذلك ذلك الغريب فى واتفورد، الذى كانت مهمته الوحيدة هى التأكد أنه قد حضر بمفرده لمقابلة بوريس. حتى بوريس نفسه... هذا ما فكر فيه: هل من الممكن يومًا أن تصبح الحياة بهذا القدر من البساطة مماثلاً لأيام الصبوة، أن تنتهى فيها إلى الأبد كلمة "لكن"، أن يثق فيه الجميع بشكل طبيعى كما تفعل سارة كذلك سام؟

كان سام فى انتظاره. وجهه مغرق فى اللون الأسود مقارنة بلون كيس المخدة الأبيض. بالتأكيد قد تم تغيير أغطية السرير ما جعل التناقض واضحًا، كأنما هو إعلان عن ويسكى بلاك أند هوايت.

قال له كاسل: "كيف حالك اليوم؟"... سأل ذلك لمجرد شعوره بضرورة النطق بشىء ما، لكن سام لم يرد. هو أيضًا لديه أسراره.

"كيف الحال فى المدرسة؟".

"تمام".

"ما الدروس التى تلقيتها اليوم؟".

"الحساب".

"كيف صار معك هذا الدرس؟".

"بشكل جيد".

"وماذا غير ذلك؟".

"تعبير إنجليزى".

"تعبير، وماذا فعلت فيه؟".

"بشكل حسن".

كان كاسل على علم كامل بأن هناك زمنًا سوف يحل يومًا فيه يفقد الغلام طفولته إلى الأبد. كانت كل كلمة تصدر منه بالقول "حسن وجيد" تخترق أذنيه؛ كأنما هى صوت انفجارات بعيدة تقوم بتدمير الجسور بينهما. ولو أنه سأل سام: "هل تثق فى؟" ربما تكون إجابته "نعم، لكن.".

"هل أقرأ لك شيئا؟".

"نعم، من فضلك".

"ماذا تحب؟".

"الكتاب الذى فيه ذكر للحديقة".

للحظات شعر كاسل بالحيرة. أخذ يستعرض الرف الوحيد الموضوع فوقه كومة من الكتب المختلفة بلا ترتيب، وقد استقرت فى مكانها بوضع ثقل كلبين من الصينى يشبها فى الشكل بولر. كان بعض من هذه الكتب يخصه من أيام الطفولة، والكتب الأخرى معظمها من اختياره، لأن سارة عندما أحبت قراءة الكتب، أصبحت كل كتبها يخص البالغين. أمسك بكتاب للشعر كان يعتز به منذ أيام الصغر. ليست هناك علاقة دم تربطه بسام، ولا يمكن

ضمان أن ذوقيهما متجانسان، أو هكذا اعتقد، لكن أى كتاب يشبه طريقًا رمليًا يحتفظ بوقع الخطى. لقد قرأ لسام من هذا الكتاب كثيرًا خلال عامين سابقين. لكن وقع أقدامه كانت قد حفرت عميقًا فى هذه الكتاب، لذا فتحه على قطعة شعرية لم يقرأها من قبل. بعدما قرأ سطرا أو اثنين، أدرك أنه يعرف القطعة كلها تقريبًا. فكر فى أن هناك أبياتًا شعرية تستطيع أن تشكل حياة الفرد أكثر من أى نص آخر.

"على الحدود هناك خطية رابضة لا عفو لها،

والأغصان المهشمة تزحف أسفل،

خارجًا هناك ثلمة فى جدار الحديقة،

تحت فى محاذاة شطى النهر، تسير وتتحرك".

"ما هى الحدود؟".

"إنه المكان الذى تنتهى فيه دولة معينة وتبدأ أخرى". بدا الأمر كأنه يمثل تعريفًا صعب الفهم، لكن سام تقبله.

"ما هى الخطية التى بلا عفو؟ هل تمثل نوعًا من الجواسيس؟".

"لا، لا، ليس جواسيس، هذا الولد فى القصة، تم التنبيه عليه ألا يخرج إلى الحديقة".

"من قال له ذلك؟".

"ربما والده أو أمه".

"وهل هذه تعتبر خطية؟".

"هذا الشعر كُتب منذ زمن بعيد. كان الناس فى ذلك الحين أكثر تشددًا. وعلى كل حال، هى كلمات ليست مقصودة حرفيًا".

"كنت أظن أن القتل يمثل خطية".

"نعم، حسنًا، القتل هو بالفعل أمر خاطئ".

"كما هى الحال فى الخروج إلى الحديقة؟".

بدأ كاسل يندم لأنه اختار هذه القطعة الشعرية، أن يحاول العثور على آثار أقدام رحلة حياته الطويلة..أخذ يقلب فى الكتاب باحثا عن قطعة أخرى، تبدو فى نظره مقبولة ولطيفة".

"ليست هذه القطعة، أنا لا أفهمها".

"حسنًا، أى قطعة تود أن أقرأها لك؟".

"هناك قطعة تحكى عن رجل..".

"حامل الضياء؟".

"لا، ليست تلك".

"ما الذى كان يفعله هذا الرجل؟".

"لا أعلم. هو يمشى فى الظلام".

"ليس هناك دليل يساعدنى فى البحث". أخذ كاسل يقلب فى الصفحات باحثًا عن رجل فى الظلام.

"إنه يمتطى حصانًا".

"هل هذه هى القطعة؟ ثم أخذ فى القراءة:

"عندما يشع نور القمر والنجوم،

عندما ترتفع نغمات الرياح،

طوال الليل فى الظلام والأمطار..".

"نعم، نعم. هى القطعة".

"رجل يمتطى .

فى وقت متأخر من الليل، عندما تخفت النيران،

لماذا يعدو ويركض هكذا فى سيره، بهذا الشكل والمنظر؟".

"استمر، لماذا توقفت؟".

"عندها تصرخ الأشجار بصوت عالٍ،

وتتخبط السفن فى البحر،

فى الطريق العام، خفيض أو عال،

يجرى راكضًا،

فى سرعة باهرة، ثم،

يعود أيضًا راكضًا مجددًا".

"إنها هى القطعة، القطعة الشعرية التى أحبها أكثر".

"لكنها إلى حد ما مخيفة".

"لذلك أنا أحبها. هل كان هذا الرجل يغطى وجهه بجورب؟".

"القطعة لا تقول إنه كان حرامى يا سام".

"إذن لما يرحل ثم يعود إلى منزله. هل هو رجل أبيض مثلك ومثل مستر مولر؟".

"ليس هناك ذكر لذلك".

"أعتقد أنه شخص أسود مماثلاً لقبعتى، أسود مثل قطتى".

"لماذا؟".

"أعتقد أن كل البيض خائفون منه، وإنهم يغلقون أبوابهم جيدًا فى حالة ما إذا حضر إليهم قابضا على سكين معقوف ليقطع رقابهم...بطيئًا".. أضاف تلك الكلمة الأخيرة باستمتاع.

فكر كاسل. لم يبد سام من قبل بهذا السواد القاتم. وضع ذراعه حوله بعد ذلك حماية له، لكن هذا لن يحمى الولد من العنف والرغبة فى الانتقام التى بدأت ملامحها ترتسم فى قلبه.

عاد كاسل إلى غرفة مكتبة. فتح درجًا وسحب منه ورقة ملاحظات مولر. كان هناك عنوان لها هو: "الحل النهائى". من الواضح أن مولر لم يتردد وهو ينطق بهذه الجملة فى آذان الألمان، والحل، كما هو واضح، لم يرفض... الموضوع ما زال قابلاً للتفاوض. الصورة نفسها تكررت كأنها وسواس عن الولد المقدم على الموت والنسر.

جلس وكتب نسخة طبق الأصل من مذكرة مولر. لم يبادر حتى إلى كتابتها على الآلة الكاتبة. إن إخفاء مسألة الكتابة على الآلة الكاتبة، كما أوضحت قضية (هيس)، كانت جزئية. وعلى كل حال، إنه لا يرغب فى أن يتخذ لنفسه احتياطات تافهة. أما عن استخدام كتاب كودى، فهذا ما استبعده من ذهنه بعد رسالته الأخيرة التى قال فيها: "وداعا". الآن وهو يكتب "الحل النهائى" راصدًا كل الكلمات التى تتابعت بكل دقة، رأى فى نفسه أنه قد طابق نفسه تمامًا للمرة الأولى مع كارسون. تجد كارسون فى هذه النقطة بالذات متمسكًا بالمجازفة بأقوى المخاطرات. إنه، كما عبرت عنه سارة قبلا: "يزيد فى فعله عن الحد المعقول".

* * *

(٥)

الساعة الثانية صباحًا وما زال كاسل مستيقظًا، فجأة شاهد سارة وهى تصرخ مفزوعة.

"لا، لا!".

"ماذا بك؟".

لم يحصل على إجابة، لكن ما أن أضاء النور حتى شاهد شفتيها مفتوحتين عن آخرهما فى رعب.

"حدث معك كابوس آخر. إنه مجرد حلم".

""""كان فظيعا".

"أخبرينى. أى حلم لا يعود إليك ثانية إذا أخبرتينى به، قولى قبلما تنسين".

لاحظ أنها ترتعش بجانبه، وبدأ الخوف يحوطه هو أيضًا.

"إنه مجرد حلم يا سارة، فقط أخبرينى، وسوف يخلصك منه الله".

"كنت فى محطة قطار، كان يتحرك وأنت باق على الرصيف. كنت وحيدة. أنت لديك التذاكر وسام معك. لم يبد أنه مهتم بى. أنا حتى لم أكن أعلم إلى أين نحن مسافرون. كنت فقط أسمع صوت رجل التذاكر وهو فى الديوان المجاور. كنت أعلم أننى أجلس فى العربة الخطأ المحجوزة للبيض".

"الآن وقد أخبرتينى بتفاصيل هذا الحلم، إذن هو لن يعود مرة أخرى".

"كنت أعلم ما سوف ينطق به. اخرجى من هنا، هذه العربة مخصصة للبيض".

"إنه مجرد حلم يا سارة".

"نعم أعلم ذلك. آسفة إننى أيقظتك. أنت فى حاجة للنوم".

"إنه إلى حد ما يشبه أحلام سام. هل تتذكرين؟".

"أنا وسام تجدنا مهتمين بمشكلة اللون، ألا ترى ذلك؟ إنه موضوع يطاردنا دومًا فى نومنا. أحيانًا أتعجب ما إذا كنت تحبنى فقط من أجل لونى، ولو كنت أنت أسود، هل سوف تحب امرأة بيضاء لمجرد أنها بيضاء؟".

"لا، لست من سكان جنوب إفريقيا أقضى إجازة فى سويسرا. كنت أعرفك قبل سنة من وقوعى فى غرامك، وهذا حدث بشكل بطىء. كل هذه الشهور التى عملنا فيها معًا، لقد خاطرت أنت كثيرًا".

"لم أصب حينذاك بأى كوابيس، لكن كنت معتادة على أن أظل مستيقظة، متعجبة ما إذا كنت سوف تحضر إلى موعد لقائنا التالى أم إنك سوف تختفى نهائيا ولا أعلم ما الذى جرى لك. ربما أتلقى رسالة من واحد من الآخرين يعلمنى بأن الخط قد انقطع".

"إذن أنت كنت حينذاك مشغولة بخصوص الخط؟".

"لا، كنت مرعوبة عما يمكن أن يحدث لك. لقد أحببتك على مدى شهور طويلة، كُنت أعلم أننى لن أستمر فى العيش إذا اختفيت من حياتى. الآن نحن نعيش فى أمان".

"هل أنت متأكدة؟".

"بالطبع متأكدة. ألم يثبت لك هذا على مدى سبع سنوات؟".

"لا أعنى أنك تحبيننى أم لا، أعنى هل أنت متأكدة أننا فى أمان؟".

بالنسبة إلى هذا السؤال الأخير، لم تكن هناك إجابة سهلة. كانت الجملة الأخيرة المشفرة "وداعًا"؛ وهى كلمة متعجلة، كذلك تلك الجملة التى اختارها: "لقد رفعت يدى ثم تركتها لتسقط"؛ هى أيضًا لا تعتبر علامة على مدى توافر التحرر فى عالم العم راموس.

* * *

الجزء الخامس

الفصل الأول

(١)

حل الظلام مبكرًا مع ضباب ورذاذ مطر شهر نوفمبر، ذلك عندما غادر كاسل كشك التليفونات. لم يصله أى رد على إشاراته. وفى شارع كومبتون، برق ضياء أحمر ليافطة مكتوب عليها "كُتب"، حيث يمارس هاليداى الصغير عمله كالمعتاد. كانت تلك اليافطة تبرق وتشع ضياءها على الرصيف بأقل من وهجها المعتاد؛ هذا بينما كان هاليداى الكبير فى محله عبر الشارع منحنيًا تحت شكل يمثل الكرة الأرضية. إنه حريص فى مسألة توفير الضياء. عندما دخل كاسل هذه المكتبة الأخيرة، قام الرجل العجوز بإنارة المكان دونما يرفع رأسه كى ينير بذلك رفوف عرض الكتب الكلاسيكية المغرقة فى القدم.

قال له كاسل: "أنت لا تسرف أبدًا فى استخدام الضوء الكهربى".

"آه، هو أنت يا سيدى. نعم، أصنع القليل لمساعدة الحكومة. على كل حال، أنا لا أستقبل الكثير من الزبائن بعد الساعة الخامسة ظهرًا، هم عدد قليل من البائعين، لكن كتبهم نادرا ما تكون فى حالة جيدة، لذا أجدنى مضطرا إلى أن أصرفهم مخيبى الآمال – هم يظنون أن هناك قيمة كبرى لكتاب صدر منذ مئة عام. أنا آسف يا سيدى بخصوص تأخرى من تدبير رواية ألفها الروائى ترولوب، إذا كان هذا بالفعل هو مرادك. كانت هناك مشكلة ظهرت مع صدور الطبعة الثانية من رواياته، وكانت واحدة منها معروضة على التليفزيون مؤخرًا وتلك تمثل مشكلة ؛ حتى طبعات بنجوين من كتبه فرغت ولم تعد موجودة".

"ليس هناك استعجال بالمرة، ورواية واحدة له فيها الكفاية، وقد أتيت لأخبرك بذلك. لقد رحل صديقى ليعمل فى الخارج".

"آه، إذن أنت فى شوق لاستئناف أمسياتك الأدبية، كنت أقول لابنى بالأمس.. ".

"إنه شىء غريب حقًا يا مستر هاليداى إننى لم أقابل ابنك هذا قط. هل هو فى مكتبته الآن؟ أعتقد أنه من الممكن أن أتناقش معه عن بعض الكتب التى من الممكن أن أستغنى عنها. لقد كبرت عن الاستمتاع بما هو مثير، لعله حكم كبر السن. هل أجده الآن فى مكتبته؟".

"لن تجده يا سيدى؛ ليس الآن. وكى أخبرك بالحقيقة، لقد دفع بنفسه فى لجة المتاعب بدلاً من أن يفعل المعقول. لقد قام بافتتاح مكتبة جديدة له الشهر الماضى فى نوينجتون، والبوليس هناك أقل رحابة صدر من هنا؛ أو ربما يمكنك القول إنهم أكثر تكلفة إذا أردت أن تسخر منهم. لقد اضطر ابنى إلى أن يحضر جلسة تحقيق استمرت طوال فترة ما بعد الظهر بسبب بعض المجلات السخيفة التى يبيعها، وحتى الآن لم يعد".

"أرجو ألا تتسبب مشكلات ابنك إلى نشوء متاعب تصيبك أنت يا مستر هاليداى".

"أوه، لا أبدا. البوليس متعاطف معى. فى الحقيقة أظن أنهم يأسفون لأن لدىَّ ابنًا يعمل فى هذا المجال الفاضح. لقد أخبرتهم بأننى لو كنت أصغر عمرًا، إذن لفعلت مثله، وقد قابلوا ذلك بالضحك".

دائمًا ما يبدو فى نظر كاسل أنه أمر يثير التعجب؛ كيف (أنهم) اختاروا مثل هذا الغامض المبهم مستر هاليداى الصغير ليكون وسيطًا لهم، ذلك الذى دائمًا ما تكون مكتبته مجالا للتفتيش. فكر، لعلها نوع من الخداع المزدوج، إنه يصعب تدريب وسيط لهذه الجماعة يحسن التعامل مع حيل المخابرات. ومن المحتمل أن هاليداى الصغير، مشابه لوالده، لم يكن على علم كامل بالموقف الخطر الذى وضع فيه. كان هذا ما يود أن يكون له به علم وإحاطة لأنه كان موشكا أن يضع ثقته فى هذا الشاب بما يساوى عمره كله.

أخذ يحملق عبر الشارع على اليافطة القرمزية ومجلات الفتيات المعروضة فى نافذة العرض، ثم تعجب من ذلك الإيحاء الغريب الذى يدفعه لأن يخاطر بنفسه هكذا على المكشوف. ما كان بوريس يوافق على هذا النهج، أما الآن وقد أرسل (لهم) آخر تقرير مع طلب إعفائه عن الاستمرار معهم، شعر الآن برغبة جامحة فى أن يتواصل معهم مرة أخرى

ولو بكلام الفم، دون تدخل باستخدام نقاط التقاط الرسائل الآمنة، أو استخدام الكتب المكودة أو إرسال الإشارات المتعمدة باستخدام التليفونات العمومية.

سأل مستر هاليداى: "هل لديك أى فكرة عن موعد عودته؟".

"ليبس لدى أدنى فكرة يا سيدى. هل يمكن لى أن أخدمك بنفسى فيما تطلب؟".

"لا، لا. لا أود أن أشغلك"...لم تكن لديه صيغة إشارة اتصال بدقات التليفون يمكن أن يرسلها لهاليداى الصغير. لقد عمدت الجماعة أن تفصلهما تمامًا عن بعض لدرجة أنه تعجب ما إذا كان بقاءهما قد رتب حيث لا يحدث إلا فى حالة الطوارئ النهائية.

تساءل مرة أخرى "هل لدى ابنك سيارة تويوتا قرمزية؟".

"لا، لكنه أحيانًا ما يستخدم سيارتى وهو ذاهب إلى الأرياف؛ بغرض تحقيق أهداف عملنا يا سيدى. إنه يساعدنى بين الحين والآخر، إنه يصعب علىَّ الآن تحقيق ما كان يحدث معى فى الماضى. لكن لما تسأل؟".

"أعتقد أننى رأيت مرة مثل هذه السيارة خارج مكتبته".

"إنها ليست سيارتنا، ليس داخل المدينة حيث الشوارع المزدحمة. هذا لا يعتبر إجراء اقتصاديا، يجب علينا أن نصنع كل ما فى جهدنا لنحقق للدولة ما تطالبنا به من اقتصاد".

"حسنا، أتمنى ألا تكون جهة التحقيق مع ابنك متشددة".

"هذا لطف منك يا سيدى، سوف أخبره بأنك سألت عنه".

"كما حدث، أحضرت معى مذكرة أود أن يطلع عليها ابنك. إنها سرية إذا لم تمانع. لا أود أن يعلم الناس نوعية الكتب التى كنت أجمعها عندما كنت شابًا".

"يمكن لك أن تثق فى يا سيدى. إننى لم أفقد ثقتك من قبل، وماذا عن روايات ترولوب؟".

"أوه، أنسى ترولوب حاليا".

فى محطة قطارات إيستون، قطع كاسل تذكرة تقله حتى واتفورد .. إنه لا يود أن يظهر مدى تردده فى محطة بيركهامستد، مفتشو التذاكر لديهم ذاكرة نشطة فيما يختص بحصر المترددين. فى القطار، انهمك فى قراءة صحيفة كان قد تركها أحدهم فى المقعد المجاور، فعل ذلك كى يبقى ذهنه مشغولاً. كانت الصحيفة تحتوى على سرد لمقابلة جرت مع أحد نجوم السينما الذين لم يحدث لكاسل أن شاهده من قبل (لقد تم تحويل السينما فى بيركهامستد إلى صالة بنجو). من الواضح أن هذا الممثل قد تزوج للمرة الثانية، أم لعلها الثالثة؟ كان قد أخبر المحرر الفنى قبل عدة سنوات بأنه قد هجر موضوع الزواج هذا تماما، لذا كان التساؤل الوقح الذى وجهه إليه المحرر كاشف الأسرار: "إذن، لما غيرت رأيك الآن؟".

قام كاسل بقراءة تفاصيل هذا الحوار حتى آخره، فهو ذا رجل يستطيع أن يتحدث أمام محرر الصحيفة عن أدق المسائل المختصة بحياته الشخصية: "كنت شابًا فقيرًا عندما اقترنت بزوجتى الأولى. إنها لم تكن قادرة على تفهم...لذا سلكت حياتنا الجنسية مسلكا خاطئا، لكن هذا الأمر مختلف تمامًا مع نعومى. نعومى تعلم أنه عندما أعود من الأستوديو متعبًا...وكلما أتيحت لنا فرصة، نقضى معًا إجازة مدتها أسبوع بمفردنا فى مكان هادئ مثل سانت تروبيز، هناك نفعل ما نشتهى ونود".

فكر كاسل: سوف أعتبر نفسى منافقًا إذا قمت بلوم هذا الرجل. سوف أتحدث بكل جرأة أمام بوريس حينما تحين اللحظة التى يتوجب فيها أن يصرح المرء فيها بما يزحم فكره وباله.

فى واتفورد، سلك طريقه بكل حرص متتبعًا روتينه السابق. تمهل عند موقف الأتوبيسات، ثم أخيرًا تحرك. انتظر قليلاً عند الركن التالى ملاحظًا ما إذا كان أحدهم يتتبعه. وصل إلى مشرب القهوة، لكنه لم يدخل بل استمر فى سيره. المرة السابقة، كان يقود مساره ذلك الرجل الذى كان رباط حذائه مفكوكًا، لكن الآن هذا الشخص لم يعد موجودًا. هل عليه أن يلتفت يمينًا أم يسارًا عند هذا الركن؟ كل الشوارع فى هذا الجزء من واتفورد تبدو متشابهة .... صفوف متتالية من منازل صغيرة فوق كل منها جمالون مع

حديقة أمامية صغيرة مزروعة بأشجار الورد التى تقطر بآثار الندى، وكل منزل متصل بمنزل مجاور وبينهما جراج يسع سيارة واحدة.

سلك شارعًا ثم آخر اعتباطًا، لكنه كان دائمًا ما يواجه بنوعية المنازل نفسها، أحيانًا مصطفة على شوارع وأخرى على شكل هلاليات. شعر فى نفسه بأن هناك من يسخر منه أيضًا تحير بسبب تشابه أسماء الشوارع: جادة لوريل، أوكلاند، الشجيرات — كلها تتشابه مع اسم الشارع الذى يبحث عنه وهو شارع "منظر الدردار". فى إحدى جولاته، شاهده رجل بوليس وهو فى تلك الحيرة، سأل عما إذا كان محتاجًا لمساعدة. شعر فى الحال بأن ملاحظات مولر الأصلية التى يحملها الآن فى جيبه كأنما هى مسدس مخبأ فى ملابسه، لذا رفض مساعدة الشرطى، قائلاً له إنه إنما يبحث عن منزل يكون للإيجار فى المنطقة. أخبره رجل البوليس بأن هناك إعلانًا أو اثنين بعد ثلاثة صفوف على اليسار. بالمصادفة البحتة، ما أن وصل إلى الصف الثالث حتى عثر على اسم الشارع الذى يقصده "منظر الدردار"، لكنه لم يتذكر رقم المنزل، إلا أنه ما أن انعكست أشعة لمبة على زجاج ملوث لباب منزل عليه اليافطة القديمة نفسها التى يتذكرها، حتى أيقن أنه هو المنزل المطلوب. لم يكن هناك أى إنارة فى أى نافذة. اقترب من الباب ودق الجرس. لم يكن محتملاً أن يكون بوريس موجودًا فى تلك الساعة.. فى الحقيقة، ربما لم يكن متواجدًا حتى فى كل إنجلترا. لقد قطع هو كل صلاته بهم، لذا لمَ يبقون مصدرًا كله خطورة مفتوحًا؟ جرب أن يدق الجرس مرة ثانية، لكن لا مجيب. كان يتوقع أن يحصل على ترحيب بالغ فى تلك اللحظة بالذات حتى ولو كان المضيف هو إيفان الذى حاول قبلاً أن يبتزه. لم يكن هناك أى مجيب. لا أحد يمكن أن يتحدث معه.

كان قد عبر على كشك للتليفون عندما قدم، لذا عاد إليه. ومن منزل عبر الشارع، كان فى إمكانه أن يلمح أفراد عائلة متجمعين حول مائدة يشربون الشاى أو ربما يتناولون عشاء مبكرًا. يجلس والد وأمامه ابنان له، ولد وبنت. شاهد بعد ذلك الأم وهى يدخل تحمل بين يديها طبقًا. بدا على الوالد بعد ذلك كأنه يقدم صلاة بركة على الطعام، لأن الابنين كانا خافضى الرءوس. تذكر تلك العادة منذ أيام طفولته، كان يظن أنها عادة قد انتهت تمامًا منذ زمن ... لعل هذه العائلة من طائفة الكاثوليك، فهذه العادة تستمر معهم فترة أطول.

أنهمك بعد ذلك فى طلب رقم التليفون الذى ترك له، رقم لا يستخدم إلا فى حالة الطوارئ القصوى. كان يضع السماعة فى مكانها بين لحظة وأخرى فى توقيتات محددة باستخدام ساعته، لكن بعدما طلب الرقم خمس مرات، لم يحصل على أى استجابة، لذا اضطر إلى أن يهجر كشك التليفونات. بدا الأمر كأنه قد صاح عاليًا خمس مرات فى شارع خال طالبا المساعدة؛ وليس لديه أدنى فكرة عما إذا كان أحدهم قد سمعه أم لا. لعل بعد تقريره الأخير، كل الاتصالات قد قطعت إلى الأبد.

نظر عبر الشارع. يبدو أن الأب قد أطلق نكتة، لاحظ أن الأم تبتسم بينما البنت تغمز لأخيها كما لو أنها تود القول: "الولد العجوز رددها مرة أخرى".

انطلق كاسل عائدًا إلى المحطة... لا أحد يتتبعه أو ينظر نحوه، ومن خلال نافذة وهو يسير، لا أحد يتابعه بالنظرات. شعر كأنه مخفى عن الوجود، موجود فى عالم غريب ليس فيه كائن بشرى يمكن أن يتعرف عليه بصفته واحدًا منهم.

توقف عند نهاية شارع اسمه "الشجيرات" بجوار كنيسة حديثة البناء، شكلها بشع كما لو أنها بنيت فى ظرف يوم وليلة، بأحجار لامعة كأنها قطع البلاستيك فى لعبة "شيدها بنفسك". كانت الأنوار تشع فى الداخل. والمشاعر نفسها التى قادته للتوجه سابقا إلى مكتبة هاليداى، دفعته الآن لأن يدخل هذه الكنيسة. أدرك من شكل الهيكل المزوق أنها كنيسة تتبع طائفة الروم الكاثوليك. لم تكن بالداخل فرقة متحمسة وراسخة من المؤمنين البورجوازيين يصطفون كتفًا بكتف ينشدون ترنيمة المراعى الخضر التى تبرق بعيدا. كان هناك رجل عجوز يتناوم مستندًا على مظلته ليس بعيدًا عن الهيكل، وهناك سيدتان ربما كانتا أختين بسبب ملابسهما المتشابهة منتظرتين بجوار ما ظنه ركن الاعتراف. خرجت امرأة من وراء ستارة، فدخلت واحدة من الأختين بديلاً عنها.

جلس كاسل ليس بعيدًا .... شعر بأنه متعب ... لقد دقت الساعة التى توضح فوات وقته المعتاد فى اجتراع كأسه المترعة من "J&B" وسوف تشعر سارة بالقلق. وبينما كان ينصت إلى همهمة الأصوات داخل ركن الاعتراف، داهمه شعور بأنه يود التحدث مع أحدهم بكل وضوح بلا تحفظ، بعد سبعة أعوام من الصمت الذى نما داخله. فكر، لقد

انسحب بوريس كلية من عالمه. لن أتمكن من الحديث مع أحد مرة أخرى؛ إلا إذا، بالطبع، سوف يكون مصيرى السجن، وهناك سوف يواجه ما يدعونه حقًا بالاعتراف ... بالطبع سوف يحدث هذا أمام الكاميرات، سوف تكون المحاكمة تحت عيون الكاميرا.

خرجت السيدة الثانية ودخلت الثالثة. لقد تخلصت كل من السيدتين السابقتين من كل أسرارهما. كانتا الآن تركعان كل فى مكان مختلف أمام الهيكل، يبدو عليهما الرضى الكامل عن واجب قامتا بتأديته بإتقان رائع. عندما خرجت المرأة الثالثة، لم يكن أحد فى الانتظار غيره. لقد نهض الرجل العجوز ورافق واحدة من تلك النسوة خارجين. من خلال شق فى ستارة القس، استطاع أن يلمح وجهًا أبيض طويلاً، ثم سمع حشرجة تسليك زور من رطوبة شهر نوفمبر. فكر كاسل: أريد أن أتحدث، لما لا أتحدث؟ مثل هذا القس سوف يحتفظ بسرى. لقد أخبره بوريس مرة: "تعال وقابلنى فى أى وقت تشأ أن تتحدث فيه معى.... إنها مخاطرة بسيطة، لكنه كان مقتنعًا أن بوريس قد اختفى إلى الأبد. أن يتحدث الآن، هذا فى نظره يمثل فعلاً علاجيًا مؤثرًا .... تحرك ببطء تجاه الركن كمريض يدخل غرفة الطبيب للمرة الأولى بكل خوف وتردد.

وكأى مريض لا يعلم شيئًا عن القواعد المتبعة، فتح الستارة ووضعها خلفه. وقف مترددًا فى تلك المساحة الصغيرة المزدحمة التى تركت له. كيف له أن يبدأ؟ كانت هناك رائحة ماء كولونيا تخلفت قطعًا من واحدة من السيدات. لاحظ أن هناك مصراعًا صغيرًا قد فتح يطل منه وجه يشبه مخبرى المسارح. هذا الشكل تنحنح أولاً ثم تمتم شيئًا.

قال كاسل: "أريد أن أتحدث معك".

"لماذا تقف هكذا، هل فقدت استخدام ركبتيك؟".

"ما أريده فقط هو أن أتحدث معك".

"أنت هنا لست كى تتحدث معى". سمع كاسل صوت شنك يهمس: شنك شنك شنك. كان فى حجر القس مسبحة "أنت هنا تعترف أمام الله".

"لا، لست كذلك. أنا هنا فقط كى أتحدث".

أخذ القس فى إدارة رأسه هنا وهناك بتردد، كانت عيناه محمرتين كالدم. اعترى كاسل شعورًا بأنه قد وقع مرة أخرى بمحض الصدفة بواحد آخر يعانى الوحدة مولعًا بحالة الصمت مماثلاً له".

"اركع يا رجل، أى نوع من الكاثوليك أنت؟".

"أنا لست كاثوليكيًا".

"إذن لما حضرت إلى هنا؟".

"كل ما فى الأمر هو أننى أريد أن أتحدث".

"إذا أردت بعض الإرشادات، يمكن أن تترك اسمك وعنوانك فى المجلس".

"لا أود إرشادات".

"أنت تهذر وقتى".

"أليس موضوع الاعترافات يصلح أيضًا لغير الكاثوليك؟".

"يجب أن تذهب إلى قس يتبع طائفتك".

"ليست لدىَّ كنيسة محددة".

"إذن أعتقد أن ما أنت فى حاجة إليه هو طبيب"... ثم أغلق الرجل المصراع.

خرج كاسل من الركن. فكر: إنها نهاية سخيفة لفعل سخيف. كيف توقع أن مثل هذا الرجل من الممكن أن يتفهمه حتى إذا سمح له بالحديث؟ إن لديه قصة طويلة وتاريخًا حافلاً عليه أن يحكيه، بدأ ذلك كله قبل عديد من السنوات فى بلاد غريبة بعيدة.

* * *

(٢)

قدمت سارة نحوه كى تحييه بينما كان يعلق معطفه على المشجب.

سألته "هل حدث شىء ما؟".

"لا".

"لم تتأخر هكذا من قبل دونما تبلغنى تليفونيا".

"أوه، كنت هنا وهناك، محاولا أن أرى بعض المعارف. لم أجد أحدا منهم. أعتقد أنهم جميعًا حصلوا على إجازة أسبوعية طويلة الأمد".

"هل تريد أن تشرب كأسك المعتادة؟ أو تود عشاءك مباشرة؟".

"الويسكى، واجعليه كأسا مترعة".

"أكبر من المعتاد؟".

"نعم، دون صودا".

"هناك شىء ما قد حدث".

"لا شىء مهم، لكن الجو بارد ورطب يشبه أيام الشتاء. هل نام سام؟".

"نعم".

"أين بولر؟".

"يبحث عن القطط فى الحديقة".

جلس فى مقعده المعتاد وحل بينهما الصمت نفسه. شعر بأن الصمت يشبه شالاً دفيئًا يغطى كتفيه. الصمت يعنى الشعور بالراحة. الصمت يعنى أن الكلمات ليس من الضرورى

تبادلها... حبهما كان مكينًا وليس فى حاجة للتأكيد؛ فقد درجا على انتهاج سياسة معينة فى التعبير عن حبهما. لكن فى تلك الليلة، بينما أصول ملاحظات مولر فى جيبه وهناك نسخة منها موجودة الآن بين يدى هاليداى الصغير، هنا يشبه الصمت كأنه نوع من الخواء الذى لا يستطيع أو يقدر أن يلتقط أنفاسه خلاله.... الصمت يمثل الحاجة لكل شىء، حتى الثقة، إنها تشكل إنذارًا بالاقتراب نحو اللحد.

"أعطنى كأسا أخرى يا سارة".

"لقد شربت كفايتك، تذكر ما حدث لديفيز".

"إنه لم يمت من الشرب".

"لكننى ظننت..".

"ظننتى مماثلاً لكل الآخرين، لكنك على خطأ. إذا كان يصعب عليك أن تناولينى كأسًا، قولى كذلك وسوف أقوم بخدمة نفسى".

"كل ما قلته، تذكر ديفيز..".

"لا أود أن يشرف علىَّ أحد يا سارة، أنت والدة سام ولست والدتى".

"نعم أنا أمه وأنت لست أباه".

أخذا ينظران لبعضها فى اندهاش وفزع. قالت سارة: "لم أقصد.".

"هذه ليست غلطتك".

"آسفة".

"هكذا سوف تكون حال المستقبل إذا تعذر علينا الحديث معًا. لقد سألتنى ماذا كنت أفعل كل هذا الوقت. كنت أبحث عن أى إنسان يمكن أن أتحدث معه طوال هذه الأمسية، لكن لا أحد كان موجودًا".

"تتحدث عن ماذا؟".

هذا السؤال أخرسه.

قالت: "بالطبع لا يمكن أن تتحدث معى؛ لأنه من المفترض أن هذا ممنوع عليك بالقانون الرسمى الخاص بالحفاظ على السرية ... وكل هذا الغباء".

"ليسوا هم".

"إذن من؟"

"عندما حضرنا إلى إنجلترا يا سارة، قام كارسون بإرسال شخص معين لمقابلتى. إنه هو الذى أنقذك أنت وسام. كل ما طلبه فى المقابل قليل من المساعدة. كنت ممتنًا له ووافقت".

"ما الخطأ فى ذلك؟"

"عندما كُنت طفلاً صغيرًا أخبرتنى والدتى بأننى دائمًا ما أعطى الكثير فى أى مقايضة، لكن هذا لم يكن كثيرًا مع الشخص الذى استطاع أن ينقذك من (بوس). وهذا ما حدث؛ أصبحت بذلك ما يدعونه بالعميل المزدوج يا سارة. فى حالة انكشاف أمرى سوف أقضى باقى عمرى فى السجن".

كان دائمًا على علم كامل أنه فى يوم ما سوف يجرى هذا الحوار نفسه بينهما، لكنه لم يتصور قط نوعية الكلمات التى سوف يتم تبادلها فيما بينهما".

قالت: "أعطنى كأس الويسكى الخاصة بك". ناولها الكأس فشربت جزء بسيطًا منه، أضافت:

"هل أنت فى خطر، أعنى اليوم، الليلة؟".

"كنت فى خطر دائم طوال حياتنا معًا".

"لكن هل توجد أى خطورة الآن؟".

"نعم، أعتقد أنهم قد اكتشفوا أن هناك ثغرة ما، وأظن أنهم فكروا أن المتسبب هو ديفيز. أنا لا أؤمن بأن ديفيز قد توفى بشكل طبيعى، فهناك حديث نطق به الدكتور بيرسفال..".

"أنت تظن أنهم قد قتلوه؟".

"نعم".

"إذن ربما كان من الممكن أن يحدث هذا معك؟".

"نعم".

"هل أنت مستمر فى عملك هذا؟".

"لقد كتبت ما ظننت أنه آخر تقرير أقدمه لهم، لقد قلت لهم وداعًا لكل هذه النوعية من العمل. لكن هناك شيئًا ما حدث. مع مولر. كنت مضطرا إلى أن أبلغهم، وآمل فى أننى قد حققت ذلك بالفعل. لا أعلم".

"كيف أمكن للمكتب أن يكتشف الثغرة؟"

"أعتقد أن لديهم عميلاً مزودجًا فى مكان ما موقعه فى مكان يجعله قادرًا على الاطلاع على تقاريرى ثم يعيد إرسالها إلى لندن".

"لكن ما الحال إذا أخبر عن المراسلة الأخيرة؟".

"أوه، أعلم ما تودين قوله. لقد مات ديفيز وأنا الشخص الوحيد فى المكتب الذى يتعامل مع مولر".

"لماذا داومت العمل معهم يا موريس؟ إنه نوع من الانتحار".

"هذا يمكن أن ينقذ عديد من الأرواح ..... أرواح أناس من أهلك".

"لا تتحدث معى عن أهلى. لم يعد لى أهل. أنت كلُ أهلى".... فكر، بلا شك أنها قد استقت حديثها هذا من الكتاب المقدس. لقد استمعت لمثل هذا الحديث من قبل، كانت هى

تتعلم وهى صغيرة فى مدرسة تابعة لطائفة الميثودست. وضعت ذراعها حوله ووضعت الكأس قريبة من فمه، أضافت: "كنت أتمنى لو أنك لم تنتظر طوال هذا الوقت حتى تخبرنى بكل شىء".

"كنُت خائفا يا سارة". عاد إليه فجأة اسم المرأة التى نطقت بالكلمات السابقة نفسها فى كتاب العهد القديم. إنها امرأة اسمها روث هى التى نطقت بكلماتها نفسها؛ أو شىء قريب من ذلك.

قالت: "هل كنت خائف منى أكثر منهم؟".

"خائف من أجلك. أنت لا تدرين كم من وقت انتظرتك فى فندق بولانا. ظننت أنك لن تحضرى أبدًا. فى أثناء وقت النهار، اعتدت أن أراقب السيارات بمنظار مكبر، الأرقام الزوجية تعنى أن مولر قد قبض عليك، والأرقام الفردية تعنى أنك فى الطريق. فى وقتنا الحالى، ليس هناك فندق بولانا أو كارسون. هذا لا يحدث مرتين بالأسلوب نفسه".

"ما الذى تريدنى أن أفعل؟"

"أفضل شىء هو أن تأخذى معك سام وتذهبين إلى والدتى. افصلى نفسك عنى. تظاهرى بأنه كانت هناك معركة عنيفة جرت بيننا وأنك تسعين للحصول على الطلاق. وإذا لم يحدث شىء فإننى سوف أظل هنا ويمكن أن نعود لبعض".

"ما الذى يمكن أن أفعله طوال هذا الوقت؟ أراقب أرقام السيارات؟ أخبرنى أفضل شىء تال".

"إذا كانوا لا يزالون يبحثون عنى .... لا أعلم ما إذا كانوا مثابرين على ذلك أم لا — (هم) وعدونى بتدبير طريق للهروب. لكن سوف أكون مضطرًا أن أرحل بمفردى. لذلك من الأفضل أن تذهبى إلى والدتى ومعك سام. الفرق الوحيد هو أننا لن نتمكن من التواصل. لن تعلمى ما الذى حدث — وربما يستمر ذلك لفترة طويلة. أظن أنه من الأفضل لى أن يحضر البوليس .... هذا على الأقل له فائدة فى أنه فى إمكاننا أن نرى بعضًا فى المحكمة".

"لكن ديفيز لم يصل قط للمحكمة، هل حصل هذا؟ لا، إذا كانوا يبحثون عنك، إذن ارحل يا موريس. هذا على الأقل يعلمنى أنك فى أمان".

"أنت لم توجهى لى أى لوم يا سارة".

"أستخدم أى نوع من الكلمات؟".

"حسنًا، أنا الآن أدعى بشكل عام رجل خائن".

"ومن يهتم بذلك؟"... وضعت يدها بين يديه، إنه وضع أكثر ودًا من تبادل قبلة، يمكن للمرء أن يقبل الغريب. قالت له: "نحن لدينا بلدنا الخاص. إنه أنت وسام. وأنت لم تخن قط هذا البلد يا موريس".

"ليس جيدًا أن نقلق أكثر من ذلك هذه الليلة. ما زال لدينا وقت. دعينا ننام".

لكن ما أن رقدا على السرير، حتى تجامعا بلا تفكير، بلا حديث متبادل، كأنما هو فعل توافقا على تنفيذه قبل ساعة، وكانت مناقشاتهما ليست سوى تأخير لما فعلا. لقد مرت شهور منذ أن توحدا معًا هكذا. الآن وقد فضح سره، انطلق الحب واستغرق فى نوم عميق بمجرد الانتهاء. كان آخر فكر طرأ على ذهنه: ما زال هناك وقت؛ سوف تكون المهلة عبارة عن أيام، ربما أسابيع، قبلما يتم كشف الثغرة الجديدة. غدا هو يوم السبت. لدينا إجازة أسبوعية طويلة قبلما نقرر شيئًا ما.

* * *

الفصل الثانى

جلس سير جون هارجريفز فى مكتبة منزله بالأرياف يقرأ رواية لترولوب. لعلها كانت فترة مفعمة بالسلام الكامل ... إنه الهدوء المصاحب بفترة الإجازة الأسبوعية التى لا يسمح فيها سوى لضابط عامل بأن يقطعها برسالة عاجلة تمامًا، والرسائل العاجلة هى من الأمور النادرة فى مجال الخدمات السرية – إنها ساعة تناول الشاى وفيها تحترم زوجته غيابه عنها، فهى تعلم أن تناول شاى إيرل جراى يفسد عليه تناوله لكأس من شراب كاتى سارك فى السادسة مساء. خلال كل فترة خدمته فى غرب إفريقيا، درج على تقدير روايات الكاتب الإنجليزى ترولوب، على الرغم من أنه لم يكن من هواة قراءة الراويات. وفى أوقات التوتر والقلق، وجد أنه عندما يقرأ سلسلة روايات "العميد وأبراج مدينة بارشستر" يجد أن ثقته بنفسه تعود إليه. إنها تقوى فى ذاته عامل الصبر الذى يلزم للتعايش فى إفريقيا. يرى أن شخصية مستر سلوب فى الرواية يذكره بشخصية المعتمد المحلى المزعج المتظاهر بالتقوى الزائفة، أما شخصية مسز برودى فإنها تذكره بزوجة الحاكم. الآن وجد نفسه منزعجا وهو يقرأ رواية كان من المفترض أن تسرى عنه كما كان حاله فى إفريقيا. الرواية اسمها "الطريقة التى نعيش بها الآن" وقد أخبره شخص ما، لا يتذكره الآن، بأن هذه الرواية قد تم تحويلها إلى مسلسل تليفزيونى ناجح. إنه لا يحب التليفزيون، لكنه كان متأكدًا من حبه لروايات ترولوب.

لذا فى تلك الأمسية، شعر بالمتعة نفسها الناعمة التى دائمًا ما كان يشعر بها عندما كان يقرأ لترولوب... إنه شعور بالهدوء الذى كان دائمًا هو طابع العصر الفكتورى، عندما كان كل ما هو جيد جيدًا وكل ما هو سيئ سيئًا، ويمكن بسهولة للفرد أن يميز بينهما. إنه ليس لديه أطفال يمكن أن يعلموه بشكل مختلف... لم يرغب قط أن تنجب زوجته

أطفالاً، كذلك كانت تلك رغبة زوجته أيضًا؛ هما كانا متحدى الرأى فى هذا الشأن، لكن ربما لأسباب مختلفة. إنه لم يود أن يضيف إلى مهامه الرسمية مهامًا ومشغوليات خاصة (يمثل الأطفال همًا مضاعفًا لمن يعيش فى إفريقيا)، أما زوجته – حسنًا – إنه يفكر فى ذلك بكل التعاطف... كانت ترغب فى أن تحافظ على قوامها واستقلاليتها. كان عدم اهتمامها بإنجاب الأطفال سببًا فى تقوية أواصر الحب بينهما. بينما كان يهنأ بقراءة رواية ترولوب وزجاجة الويسكى بجواره، كانت هى تحتسى الشاى فى غرفتها بسعادة غامرة. إنها إجازة أسبوعية كلها راحة وهناء لكليهما... لا إطلاق لرصاص الصيد، لا ضيوف، والظلام يجثم سريعًا فى نوفمبر على المنتزه، إنه حتى يمكن له أن يتخيل نفسه قائما فى إفريقيا، فى استراحة داخل قلب الغابة، فى واحدة من رحلاته الطويلة التى طالما عشقها، بعيدًا عن موقعه الرسمى، يشاهد الطباخ وهو ينتف ريش الفرخة خلف الاستراحة، حيث تتجمع الكلاب باحثة عن تصيبها...والأنوار تبرق على البعد حيث يمتد طريق السيارات، لعلها أنوار قرية قريبة؛ حيث تتجمع الفتيات اللاتى انهمكت كل واحدة فيهن فى تنقية قمل زميلتها.

كان يقرأ عن ميلموت العجوز؛ ذلك المحتال الذى أطلق عليه أتباعه هذا الاسم. اتخذ ميلموت موقعه فى مطعم تابع لمجلس العموم البريطانى: "كان من المستحيل طرده؛ كذلك من المستحيل أن تجلس بجواره، حتى الجرسونات كانوا يستنكفون خدمته، لكن بالصبر والتحمل استطاع أخيرًا أن يحصل على وجبة غدائه".

بدون إرادة منه، شعر هارجريفز بأنه متعاطف مع ميلموت فى عزلته هذه، تذكر بكل أسف، ما قاله الدكتور بيرسفال سابقًا عندما عبر عن شعوره بالحب تجاه ديفيز، استخدم الطبيب لفظة "خائن" مماثلاً لزملاء ميلموت الذين كانوا يستخدمون لفظة "محتال" عليه. استمر فى القراءة، "أما من راقبوه فإنهم أعلنوا فى أوساطهم أنه كان سعيدا بتهوره؛ لكن فى الحقيقة، من المحتمل أنه فى تلك الساعة كان هو أتعس الناس فى مدينة لندن". إنه لم يعرف ديفيز قط – لم يكن فى إمكانه أن يتعرف عليه إذا شاهده مارا فى طرقة عمله. فكر: ربما أكون قد تعجلت فى حديثى.... تصرفت بغباء ... ما كان واجبًا أن أترك بيرسفال يتصرف بمفرده فى هذا الشأن ...استمر فى القراءة... "حتى هو، وقد هجر العالم كله، لا

يجد أمامه سوى التعاسة الكاملة التى تستطيع عقوبات القانون الصارمة أن تصبها عليه، تلك التى كانت قادرة أن تقضى على آخر لحظات فترة الاستمتاع بحريته، تلك التى صبغت سمعة له التصقت به تحدد مقدار ما كان يتمتع به من طيش وتهور". فكر، يا له من شيطان مسكين، يجب مع ذلك أن نصفه بالقول إنه شخص شجاع. هل فكر ديفيز فى مقدار الجرعة التى دسها بيرسفال فى كأسه عندما غادر الغرفة للحظات؟

فى تلك اللحظة رن جرس التليفون. سمع زوجته وهى تلتقط السماعة. إنها دائمًا ما تحافظ على سلامه الذهنى أكثر مما يفعل ترولوب، لكن على كل حال، بسبب طارئ عاجل عرضه الشخص المتصل، اضطرت إلى أن تحول له الخط؛ لذا بلا تحمس امسك بالسماعة. سمع صوتًا لم يتعرف عليه يقول: "أنا مولر".

كان لا يزال غارقا فى عالم ميلموت، رد "مولر؟".

"كورنيلوس مولر".

حدث توقف غير مريح، ثم شرح المتصل أكثر: "من بريتوريا".

للحظات ظن سير جون أن المتصل يتحدث معه من هذه المدينة، ثم تذكر: " نعم، نعم. بالطبع. هل فى إمكانى مساعدتك". ثم أضاف "أرجو أن يكون كاسل..".

"أرجو أن أتحدث معك يا سير جون بخصوص كاسل هذا؟".

"سوف أكون فى مكتبى يوم الاثنين. إذا طلبت سكرتيرتى..". ثم نظر فى ساعته "سوف تجدها الآن فى المكتب".

"إنك لن تكون فى المكتب غدًا؟".

"لا. إننى أقضى إجازتى الأسبوعية فى المنزل".

"هل يمكن لى يا سير جون أن أحضر لمقابلتك؟".

"هل الموضوع بهذا القدر من الأهمية؟".

"أعتقد ذلك. عندى شعور ضاغط بأننى قد ارتكبت خطأ خطيرًا. محتاج بشدة أن أتحدث معك يا سير جون".

فكر هارجريفز، هو ذا قد انتهى ترولوب كذلك زوجتى المسكينة .... دائمًا ما كنت أحاول أن أبعد شئون المكتب عنا لكنها دائمًا ما تتدخل... تذكر حفل الصيد عندما كان دانترى متعبا للغاية...تساءل: "هل لديك سيارة؟".

"نعم بالطبع".

فكر، يمكن لى أن أستمتع بيوم السبت إذا كان مضيفنا هذا جيدًا الليلة، قال: "المسافة حتى هنا قد تستغرق منك أقل من ساعتين، إذا تجشمت الحضور لتناول طعام العشاء معنا".

"بالطبع، إنه كرم بالغ منك يا سير جون. ما كنت أجرؤ أن أزعجك لو لم يكن الموضوع عاجل ومهم، أنا..".

"لن نتمكن من استضافتك إلا بطعام يتكون أساسًا من البيض يا مولر".

وضع السماعة متذكرًا الحكاية الشهيرة التى قيلت عنه وهو فى محضر آكلى لحوم البشر. ذهب إلى النافذة ونظر خلالها. تراجعت إفريقيا. بينما تحدد الأضواء طريق السيارات المؤدى إلى لندن والمكتب. شعر بقرب انتحار ميلموت – ليس هناك حل آخر له غير ذلك. ذهب إلى غرفة الاستقبال... كانت زوجته مارى تصب بنفسها قدحًا آخر من شاى إيرل جراى من البراد الفضى الذى كانت قد اشترته من مزاد عقد بصالة كريستى للمزادات. قال لها:

"آسف يا مارى، لدينا ضيف سوف يتعشى معنا".

"كنت أخشى حدوث ذلك إثر محادثتك...من هو؟".

"هو الرجل الذى أرسلته هيئة (بوس) من بريتوريا".

"ألم يكن فى إمكانه أن ينتظر حتى يوم الاثنين؟".

"قال إن الموضوع عاجل".

"إننى لا أحب هؤلاء المناصرين للتفرقة العنصرية الأغبياء". كانت الشتائم الإنجليزية العالية دائمًا ما تبدو غريبة عندما تصدر منها بلكنتها الأمريكية.

"ولا أنا أيضًا، لكننا مضطرين إلى أن نتعامل معهم. أعتقد أنه فى إمكاننا أن نجهز شيئًا للعشاء".

"هناك بعض اللحم البارد".

"هذا أفضل كثيرًا من البيض الذى وعدته به".

كانت وجبة العشاء جامدة؛ لأنه امتنع الحديث أو ذكر أى شىء يختص بالعمل، هذا على الرغم من أن ليدى هارجريفز بذلت كل جهدها لكى تعثر على موضوع مناسب لتبادل الحديث. اعترفت بأنها على جهل كامل بالفن والأدب الأفريقى، لكن ظهر لها أنه جهل يشاركها فيه مولر أيضا. اعترف بأن هناك فى بلده عددًا من الشعراء والكُتَّاب الروائيين؛ ثم ذكر اسم جائزة معروفة هناك باسم هرتزوج، لكنه اعترف أيضًا بأنه لم يقرأ شيئًا من هذه الأعمال.

قال: "معظمها أعمال لا يمكن الاعتماد عليها أو اعتبارها".

"لا يمكن الاعتماد عليها؟".

"تجدين أنها مختلطة دومًا بالأفكار السياسية. هناك حاليًا أحد الشعراء مقيم فى السجن لأنه كان يعضد الإرهابيين".

حاول هارجريفز أن يغير الموضوع، لكنه لم يستطع أن يفكر فى أى شىء يختص بجنوب إفريقيا سوى الذهب والماس؛ وهذه أيضًا مختلطة بالسياسة، مماثلة للكتاب الروائيين.

الحديث عن الذهب والماس جرهما لذكر ناميبيا متذكرا المليونير أوبنهايمر الذى كان يدعم الحزب التقدمى. كانت إفريقيا فى نظره هى القارة التى ينتشر فيها الفقر كانتشار الغابات، لكن السياسة ترقد فيها كحطام وبقايا منجم فى الجنوب. شعر بأنه سعيد وهو

جالس بعد الوجبة وبجواره زجاجة الويسكى ومقعدين وثيرين... من السهل التحدث عن أمور شائكة وأنت جالس على مقعد مريح ... لقد اكتشف أنه من الصعوبة بمكان أن يغضب الإنسان وهو جالس على مقعد وثير.

قال هارجريفز: "يجب أن تعذرنى من أننى لم أكن فى لندن لأرحب بك. كنت مضطرًا إلى أن أرحل إلى واشنطن. إنها واحدة من تلك الزيارات الروتينية التى لا يمكن للمرء أن يتفاداها. أرجو أن يكون ناسى قد اهتموا بك بشكل جيد".

"كنت أنا أيضًا مضطرا للرحيل إلى بون".

"لكن أتصور أنها لم تكن زيارة روتينية بالضبط. لقد استطاعت الطائرة كونكورد أن تجعل لندن قريبة بشكل عجيب من واشنطن هم تقريبًا يتوقعون أن تشاطرهم طعام العشاء. أتمنى أن كل شىء قد سار حسنًا فى بون ... بشكل معقول بالطبع. لكننى أظن أنك قد تناقشت فى كل هذا باستفاضة مع صديقنا كاسل".

"إنه صديقك، كما أظن، أكثر من كونه صديقًا لى".

"نعم، نعم. أعلم انه كان بينكما نوع من الاختلاف قبل عدة سنوات، لكن هذا بالتأكيد تاريخ قديم".

"هل حقًا يا سيدى يوجد ما يسمى بالتاريخ القديم؟ الأيرلنديون لا يعترفون بذلك، وما تدعونه انتم بحرب البوير لا تزال حتى الآن هى حربنا، لكن ندعوها بحرب الاستقلال. أننى أشعر بالانشغال فيما يختص بكاسل؛ ولهذا السبب أزعجك هذه الليلة. لقد كنت متهورًا، فقد جعلته على علم ببعض ملاحظاتى عن زيارتى لبون. بالطبع، هى ليست أمورًا غاية فى السرية، لكن مع ذلك يمكن لأحدهم أن يقرأ ما بين السطور..".

"يا عزيزى، يمكن لك أن تثق تمامًا بكاسل. ما كنت أكلفه بمتابعتك إذا لم يكن هو أفضل رجل ..".

"لقد ذهبت إلى منزله وتناولت طعام العشاء معه، وقد دُهشت عندما أدركت أنه متزوج من امرأة سوداء. إنها نفس الفتاة التى دعوت أنها سبب تلك المتاعب البسيطة. بل ويبدو أنه قد أنجب منها ابنًا".

"ليست لدينا محاذير فيما يختص باختلاف الألوان. وقد تعرضت هذه السيدة لفحص شامل، وهذا ما أؤكده لك".

"مع ذلك، من ساعدها فى الهروب هو رجل شيوعى، وكاسل كان صديقًا حميمًا لكارسون. أعتقد أنك تعلم ذلك".

"نعلم كل شىء فيما يختص بكارسون وموضوع الهروب. كانت مهمة كاسل أن يتصل بهذا الشيوعى . هل كارسون هذا يمثل عنصر متاعب بالنسبة لكم؟".

لا. كارسون هذا مات فى السجن – من الالتهاب الرئوى. وقد شاهدت مدى انزعاج كاسل عندما أخبرته بذلك".

"لما لا، إذا كانا صديقين". نظر هارجريفز بكل أسى إلى مجموعة روايات ترولوب التى استقرت خلف زجاجة كاتى سارك. قام مولر بعجلة يسير فى الغرفة. توقف أمام صورة فوتوغرافية لشخص أسود يرتدى قبعة عريضة من النوعية التى يرتديها المرسلون. كان جانب من وجهه مشوهًا من آثار مرض الذئبة، وكان يبتسم لمن أمسك بالكاميرا بجانب واحد من فمه.

قال هارجريفز: "إنسان مسكين، كان مشرفًا على الموت عندما التقطت له هذه الصورة. كان يعلم بذلك. إنه رجل شجاع مماثلاً لكل أفراد جماعته من قبيلة الكراس ... كنت فى حاجة إلى شىء لكى أتذكره".

قال مولر "إننى لم أظهر اعترافًا كاملاً يا سيدى. لقد أعطيت كاسل بعض الملاحظات الخاطئة بالصدفة، لقد ابتكرت الكثير لكى يجعله يطلع على ما هو مكتوب، كذلك صنعت تلفيقات أخرى كى أربكه. فى الحقيقة لا يوجد فى التقرير الذى قمت بتسليمه له ما يعتبر سريًا – أننى لا أضع فى موقعى هنا أى شىء سرى مسجلاً على الورق .... لكن مع ذلك، كان هناك بعض العبارات الطائشة..".

"فى الحقيقة، يجب ألا تشغل بالك هكذا يا مولر".

"لا أستطيع منع نفسى من الانشغال يا سيدى. الإنسان وهو يقيم فى هذا البلد إنما يعيش فى جو مختلف. أنتم لديكم القليل من المخاوف التى تثيركم بالمقارنة بنا. هذا الرجل الأسود فى الصورة؛ هل كنت معجبًا به؟".

"كان صديقًا- صديقًا طالما أحببته".

"لا أستطيع قول هذا بالنسبة لأى شخص أسود"... ثم استدار. كان على الجدار المقابل معلقًا قناعًا إفريقيًا. قال مولر:"إننى لا أثق فى كاسل ... لا أستطيع إثبات شيئًا محددًا، لدىَّ فقط المهم أو حدس..كنت أتمنى لو أنك خصصت شخصا آخر يتعامل معى".

"كان هناك شخصان فقط يمكن أن يتعاملا مع موضوعاتك، هما ديفيز وكاسل".

"هل ديفيز هو الشخص الذى مات؟".

"نعم".

"إنكم تأخذون الأمور بكل بساطة هنا. أحيانًا أحسدكم على هذا. شيئًا مثل تواجد طفل أسود. هل تعلم يا سيدى، فى مجال خبرتنا ليس هناك أكثر تعرضًا للإغراء من ضابط منتمى لمجموعة الاستخبارات. كانت هناك ثغرة حدثت منذ عدة أعوام عندنا فى (بوس)— فى قسم متخصص بالاستخبار عن الشيوعيين. كان هو واحدًا من أمهر وأذكى رجالنا — كان لموضوع الصداقة الدور الأول، وكارسون كان أيضًا مهتما بهذا الموضوع. وهناك قضية أخرى ... أحد ضباطنا كان لاعبا ماهرا فى الشطرنج، وأصبحت الاستخبارات فى نظره ليست سوى رقعة شطرنج. كان اهتمامه يشتعل عندما يجد من يناوره، فهو شخص ماهر حقيقى فى اللعب. فى النهاية، حل عليه عامل عدم الرضى. كانت الألعاب كلها أمامه سهلة، لذا سلك سبيله الخاص. أعتقد أنه كان يشعر بالسعادة ما دامت اللعبة قائمة ومستمرة".

"ما الذى حدث له؟".

"إنه ميت الآن".

فكر هارجريفز مرة أخرى فى ميلموت. الناس يتحدثون عن الشجاعة باعتبارها الفضيلة الأولى. ما الحال إذا فى تلك الشجاعة التى يتميز بها شخص محتال ومفلس وقد احتل مكانا له فى غرفة الطعام بمجلس العموم؟ هل الشجاعة هى المبرر الكافى؟ هل الشجاعة أمام أى حدث تعتبر من الفضائل؟ قال: "إننا سعداء باكتشافنا أن ديفيز هو مصدر الثغرة التى اضطررنا إلى أن نغلق مصدرها".

"موت موفق؟".

"تليف فى الكبد".

"أنا أخبرتك أن كارسون توفى بالالتهاب الرئوى".

"كاسل كما أعرفه، هل هو ماهر فى لعب الشطرنج؟".

"هناك دوافع وأساب أخرى، حب المال مثلاً".

"هذا بالتأكيد لا يتوافق مع كاسل".

" إنه يحب زوجته كذلك ابنه".

"وما فى ذلك؟".

"كليهما أسود اللون"... قالها مولر بكل بساطة وهو يضع عينيه على صورة الزعيم الزنجى فى الصورة كما لو أن، وهذا ما فكر فيه هارجريفز، أنه حتى لو كنت أنا خارج نطاق شكوكه التى- كما هى الحال- فى عالم أدلة البحث بمدينة الكاب، إلا أنها كنست أمامها البحار العميقة العدوانية بعيدًا بحثًا عن سفن الأعداء.

قال مولر: "أتمنى من الله أن تكون محقًا وأن الثغرة مصدرها الحقيقى هو ديفيز. أنا لا أصدق ذلك".

أخذ هارجريفز يراقب مولر وهو يبتعد بسيارته المرسيدس السوداء. انخفض ضوء السيارة ثم أصبح ثابت التألق؛ إنه بالتأكيد وصل إلى مكان الكمين، حيث حدث أنه منذ أن

بدأت التفجيرات الأيرلندية، استقر فى هذا المكمن رجل من الفرقة الخاصة. لم يعد المنتزه كأنما هو امتدادا للغابة الإفريقية – إنها تمثل جزءًا من المقاطعات المحلية التى لا يعتبرها هارجريفز جزءًا من وطنه الأصلى.

كان الوقت يقترب إلى منتصف الليل. عاد إلى غرفة ملابسه، لكنه لم يخلع ملابسه سوى القميص، ثم وضع بشكيرا حول رقبته وبدأ فى حلاقة ذقنه. إنه كان قد حلق ذقنه قبل العشاء، لذا لم يكن من الضرورى أن يحلق مجددًا، لكنه اعتاد أن يفكر بوضوح عندما يباشر حلاقة ذقنه. حاول أن يتذكر الأسباب التى ساقها مولر كى يعلن شكه فى كاسل – هل هى صلته بكارسون؟ هذه لا يعنى شيئًا. زوجة وولد أسود ... تذكر هارجريفز وهو حزين الفترة التى انتابته فيها حالة من الضياع لفقدان عشيقته السوداء التى كان يعرفها قبلما يتزوج. لقد ماتت بسبب واحدة من أعراض مرض الملاريا. عندما توفيت، أدرك هارجريفز أن جزء كبيرًا من حبه لإفريقيا قد وضع فى اللحد معها. تحدث مولر عن الإلهام والحدس . "لا أستطيع أن أبرهن على شىء، لكن لدىَّ حدس أو الهام..". هارجريفز هو آخر شخص يمكن أن يستهين بالحدس أو الإلهام. فى إفريقيا، عاش بالإلهامات، واعتاد أن يختار رجاله بالحدس ؛ وليس بسبب الكروت البالية التى يحملونها من معارف لهم... بل وحتى الإلهام أنقذ حياته مرة.

جفف وجهه وفكر: سوف أطلب إيمانويل تليفونيًا. كان الدكتور بيرسفال هو الصديق الوحيد له فى كل الهيئة. فتح باب الحمام وأطل منه. كانت الغرفة غارقة فى الظلام، لذا ظن أن زوجته قد نامت إلى أن تحدثت: "ما الذى يستبقيك حتى الآن يا عزيزى؟".

"لن استغرق وقتًا طويلا. أردت فقط أن أطلب إيمانويل تليفونيا".

"هل غادرنا هذا الرجل مولر؟".

"نعم".

"إننى لم أحبه".

"ولا حتى أنا".

* * *

الفصل الثالث

استيقظ كاسل وأخذ ينظر فى ساعته، على الرغم من أنه كان يعلم أن فى استطاعته أن يحدد الوقت بإعمال ذهنه — كان يعلم أنها حوالى الثامنة إلا بضع دقائق، هذا يعطيه وقتًا كافيًا كى يذهب إلى غرفة مكتبه كى يستمع إلى الأخبار دون إيقاظ سارة. اندهش عندما أدرك أن ساعته تشير إلى الساعة الثامنة وخمس دقائق.... الساعة الداخلية لم تخذله هكذا من قبل، لذا شك فى ساعته، لكن ما أن وصل إلى غرفته حتى أدرك أن الأخبار الرئيسية قد انتهت إذاعتها... لم يتبق سوى قصاصات ضئيلة من الأخبار يستخدمها المذيع كى يملأ بها فراغات الوقت... هناك حادثة خطيرة فى م ٥، كذلك جرت مقابلة سريعة مع *مسز هوايتهاوس التى كانت ترحب بقيام حملة لمحاربة نشر الكتب الإباحية، وتصويرًا لذلك، كانت هناك حقيقة بسيطة تؤكد أن هناك بائعًا غامضًا للكتب اسمه هوليداى .. آسف، اسمه هاليداى؛ عرض أمره أمام قاضى تحقيق نوينجتون بتهمة بيعه فيلمًا جنسيًا لولد فى الرابعة عشرة من عمره، وقد تم التحقيق معه وحددت له كفالة قدرها مئتان من الجنيهات.

إذن هو مطلق السراح الآن، هذا ما فكر فيه كاسل، بينما هناك نسخة من مذكرات مولر فى جيبه، ومن المفترض أنه مراقب من البوليس، وربما يكون خائفًا من أن يضع هذه الأوراق فى أى مكان للالتقاط حددت له من قبل، بل ولعله أيضًا خائف من إتلاف هذه الأوراق، وربما كانت رغبته هى أن يحتفظ بهذه الأوراق كوسيلة للمساومة مع رجال البوليس. "إننى رجل فى غاية الأهمية أكثر مما تظنون، وإذا تمت تسوية هذه المسألة البسيطة، يمكن لى أن أجعلكم تطلعون على أشياء...دعونى أتحدث مع أحد رجال القسم المخصوص".

يمكن لكاسل أن يتصور نوعية المناقشة التى ربما تجرى الآن فى تلك اللحظة: رجل البوليس المحلى المتشكك، وهاليداى الابن يبرز الورقة الأولى من ملاحظات مولر كوسيلة للإغراء.

فتح كاسل باب غرفة النوم؛ ما زالت سارة نائمة. أخبر نفسه بأن هذا هو الوقت المناسب الذى طالما توقع حدوثه، الذى فيه يجب أن يفكر بكل وضوح ويتصرف فيه بحزم. أصبح الأمل الآن بعيدًا مماثلاً لحالة اليأس التى تحيط به. إنها مشاعر من الممكن أن تربك الفكر السديد. يجب عليه افتراض سفر بوريس، وأن الخط قد قطع بينهما وأن عليه أن يتصرف بمفرده.

عاد إلى غرفة الاستقبال التى فيها لا يمكن لسارة أن تسمعه وهو يطلب تليفونيًا مرة ثانية الرقم نفسه الذى أعطى له فى حالة الطوارئ المستعجلة. إنه لا يدرى فى أى غرفة يرن صوت تليفونه — فالتبادل كان يحدث فى مكان ما بمنطقة كنجزتون: طلب الرقم ثلاث مرات مع فترة انتظار قدرها عشر ثوان بين الطلب والآخر. كان لديه شعور ضاغط يؤكد له أن تليفون الاستغاثة هذا يرن فى غرفة خالية، لكنه لا يستطيع تخيل... لم يعد أمامه أى سبيل الآن للمساعدة، لم يعد أمامه سوى أن يخلى منزله. جلس بجوار التليفون يجهز خططه، أو الأصح يراجعها ويؤكدها، لأنها جميعًا كانت جاهزة فى ذهنه منذ زمن. لم يعد هناك شىء فى منزله محتاج للتدمير أو التخلص منه، إنه تقريبًا متأكدا من ذلك. لم يعد لديه أى كتب كان قد استخدمها قبلا لعمل أكواد...كان مقتنعًا أنه لم يتبق معه أى أوراق يلزم حرقها...يستطيع الآن أن يترك منزله بأمان، مغلق وخال. بالطبع، لا يمكن للإنسان أن يحرق كلبا... ما الذى يمكن أن يفعله مع بولر؟ شىء سخيف أن يهتم فى تلك اللحظة بكلب. كلب لم يعجب به على الإطلاق، لكن والدته لن تسمح أبدًا لسارة بأن تحضر إلى منزلها فى منطقة سوسكس مصطحبة معها هذا الكلب كمقيم دائم. لكن يمكن له أن يبقيه فى دار لإيواء الحيوانات المنزلية، إلا أنه لا يعلم أين... إنها المشكلة الوحيدة التى لم يخطط لها من قبل. ذكر نفسه أنها مشكلة بسيطة وليست بهذه الدرجة من الأهمية، فكر فى هذا وهو يصعد درجات السلم صاعدًا كى يوقظ سارة.

لما هى فى هذا الصباح ما زالت مستغرقة فى النوم؟ تذكر، وهو ينظر نحوها بنوع من الرقة التى قد تستغرق الإنسان حتى وهو ينظر إلى عدو نائم، إنه بعد الجماع تجده مستغرقًا فى نوع من الخواء العميق لم يعهد مثيلاً له منذ أمد طويل، ببساطة لأنهما تحدثا معًا بكل صراحة، لأنهما توقفا عن حجز الأسرار عن بعضهما البعض. انحنى، قبلها،

فتحت عينيها. استطاع أن يعلم فى الحال أنها قد أدركت أنه ليس هناك وقت يكفى للضياع أو الفقدان؛ إنها لا تستطيع، بأسلوبها المعتاد أن تستيقظ بطيئا، ثم تفرد يديها لتقول: "كنت أحلم..".

أخبرها: "يجب أن تطلبى الآن والدتى تليفونيًا وسوف يبدو الأمر طبيعيًا أن تطلبيها إذا حدث عراك بيننا. اسأليها عما إذا كان فى إمكانك أن تقضى بضعة أيام عندها ومعك سام. يمكن أن تكذبى قليلاً، ومن الأفضل أن تدرك أنك تكذبين، هذا سوف يجعل الأمور تجرى بأكثر سهولة. وعندما تكونين هناك، لا تجعلى القصة تتجلى بشكل بطىء، يمكن لك القول إننى فعلت أمرًا لا يغتفر... ما تحدثنا عنه الليلة الماضية".

"لكن أنت قلت أنه ما زال أمامنا وقت..".

"كنت مخطئا".

"هل حدث شىء؟".

"نعم، يجب أن ترحلى مع سام الآن".

"وأنت سوف تظل هنا؟".

"نعم، أما أن يأتى هؤلاء كى يساعدونى أو أن يحضر البوليس بحثًا عنى. يجب ألا تكونى هنا عندما يحدث ذلك".

"إذن فهذه هى النهاية بيننا؟".

"بالطبع ليست هى النهاية، ما دمنا على قيد الحياة سوف نجتمع مرة أخرى، بطريقة ما، فى مكان ما".

بالكاد تحدثا بعد ذلك مع بعضهما، كانا يرتديان ملابسهما سريعًا كأنهما غريبان فى ديوان عربة سفر مشتركة. توقفت عند الباب وهى متجهة لإيقاظ سام: "ماذا عن المدرسة؟ أعتقد أنه لا أحد سوف يشغل باله..".

"لا تقلقى الآن. ممكن أن تطلبى المدرسة تليفونيًا لتقولى لهم إن الولد مريض. أريد أن تغادرا المنزل بأسرع وقت ممكن. فى حالة حضور البوليس".

عادت إليه بعد خمس دقائق: "تحدثت مع والدتك. لم تكن مرحبة تمامًا. لديها ضيف على العشاء. مع العمل فيما يختص ببولر؟".

"سوف أفكر فى شىء بشأنه".

فى الساعة العاشرة إلا تسع دقائق، كانت هى مستعدة للمغادرة ومعها سام. كانت هناك سيارة تاكسى تقف أمام الباب. انتاب كاسل شعور فظيع بأن ما يحدث أمامه هو خيال فى خيال. قال: "إذا لم يحدث أى شىء، يمكن لك أن تعودى. لقد أتيح لنا الوقت اللازم كى نصفى خلافاتنا".

كان سام يشعر بالسعادة، لاحظه كاسل وهو يضحك مع سائق التاكسى.

"إذا..".

"لقد حضرت لك يومًا عندما كنت فى فندق بولانا".

"نعم، لكن أنت قلت يومًا إن الأشياء لا تحدث بالأسلوب نفسه مرتين".

فى التاكسى، نسى كلاهما أن يقبل الآخر، وهذا ما تذكره لاحقًا .... سوف تكون قبلة بلا معنى وخالية من كل شىء سوى الشعور بأن سفره بعيدًا ليس بالأمر الحقيقى ... إنه شىء مشابه لما يحدث فى عالم الأحلام. هما دومًا ما كانا يتبادلان الأحلام ... تلك الأكواد الخاصة الراسخة أكثر من الأحاجى والألغاز.

"هل يمكن أن أطلبك تليفونيًا؟".

"الأفضل لا. إذا انتهى الموضوع على خير سوف أطلبك من تليفون عمومى".

عندما تحرك التاكسى، لم يستطع حتى أن يتحقق منها بسبب الزجاج الخلفى الملوث لسيارة التاكسى.

دخل منزله وانهمك فى إعداد شنطة صغيرة مناسبة للسجن أو الهروب. بيجامات، أدوات نظافة وحلاقة، بشكير صغير .... وبعد تردد أضاف الباسبور الخاص به؛ ثم جلس فى الانتظار. سمع صوت سيارة جار له وهى تتحرك بعيدًا، ثم حل الصمت الشامل الذى يتميز به يوم السبت. شعر كأنما هو الشخص الوحيد على قيد الحياة فى شارع كنجز، ما عدا قسم البوليس القائم عند ركن الشارع. فتح الباب، ودخل ناحيته بولر وهو يهز ذيله. جلس الكلب على مؤخرته وأخذ ينظر نحو كاسل بعينين جاحظتين بهما نبرة تنويمية.

همس كاسل: "بولر، كنت دائمًا مصدر إزعاج لنا يا بولر"... استمر بولر فى الحملقة. إنها طريقته فى طلب نزهة خارجية.

استمر بولر فى مراقبة سيده، لكن بعد نحو ربع الساعة دق جرس التليفون. تركه كاسل يدق. أخذ الدق يتوالى، كأنما هو طفل يبكى. إنها ليسَت الإشارة التى يتوقعها؛ ولا دقة مراقب سوف يظل على الخط كل هذا الوقت ... فكر كاسل؛ إنها بالتأكيد واحدة من صديقات سارة. بالتأكيد لن تكون المكالمة خاصة به، فهو بلا أصدقاء.

* * *

(٢)

جلس الدكتور بيرسفال منتظرًا فى صالة نادى ريفورم بجوار السلالم الضخمة المتسعة التى بدت كأنها قد شيدت هكذا كى تتحمل الأوزان الثقيلة لرجال الدولة من الأحرار الذين تزينوا بلحى كثة أو شوارب تضفى عليهم مسحة من الوقار الدائم. لم يكن هناك سوى عضو واحد جالس عندما حضر هارجريفز، كان هذا رجلاً ضئيل الحجم بلا حيثية ضعيفًا يشعر بصعوبة فى قراءة شىء مكتوبًا أمامه.

قال هارجريفز: "أعلم أن الدور قد حل علىَّ يا إيمانويل، لكن نادى ترافيلز موصد الأبواب. أرجو ألا يكون لديك مانع من دعوة دانترى لكى يحضر لقاءنا".

"حسنًا، إنه ليس ألطف من يقابلهم المرء. هل هناك مشكلة أمنية قد حدثت؟".

"نعم".

"كنت أتمنى أن تشعر بقليل من الأمان بعد رحلتك إلى واشنطن".

"لا يمكن للمرء أن يتوقع الأمان طويلاً فى مهنتنا هذه، ولا أعتقد أننى مستمتع بها، وعلى كل حال، أتعجب لماذا لا أقدم طلبا للإحالة إلى المعاش؟".

"لا تتحدث عن ترك العمل يا جون. الله وحده يعلم نوعية الرجال الذين سوف يدفع بهم مكتب الشئون الخارجية نحونا. ما الذى يشغلك؟".

"دعنى أولاً أشرب كأسًا".... تحركا وارتقيا السلالم ثم جلسا على مائدة خارج المطعم. انهمك هارجريفز فى شرب كأس كاتى سارك، ثم قال: "هل يمكن يا إيمانويل أنك قد قتلت الشخص الخطأ؟".

لم تبد عينا بيرسفال أى نوع من الاندهاش. أخذ يراقب بتمعن لون كأس المارتينى الصافية ثم اشتمها، بعد ذلك استبعد قطعة من قشر الليمون بظفره كما لو أنه يجهز لنفسه الدواء الخاص به. قال: "أنا متأكد من أننى لم أرتكب خطأ فى ذلك".

"مولر لا يوافق على تأكيدك هذا".

"أوه مولر! ما الذى يعلمه مولر بالنسبة لهذا الموضوع؟".

"لا يعلم شيئًا، لكن لديه حدسًا أو إلهامًا".

"إذا كان هذا كل ما فى الأمر..".

"إنك لم تذهب إلى إفريقيا يا إيمانويل، يجب أن تصدق الحدس والإلهام عندما تكون فى إفريقيا".

"سوف يتقبل دانترى أكثر من الإلهامات، على الرغم من أنه لم يكن مقتنعًا تمامًا بالحقائق فى مسألة ديفيز".

"الحقائق؟".

"مسألة حديقة الحيوانات... طبيب الأسنان – إذا أخذنا فى الاعتبار مثالاً واحدًا. كذلك مسألة بورتون. كان موضوع بورتون هذا قاطعًا. ما الذى سوف تخبر دانترى به؟".

"حاولت سكرتيرتى أن تتصل بكاسل هذا الصباح، لكنها لم تحصل على أى رد".

"محتمل أن يكون قد رحل فى نزهة مع عائلته فى فترة الإجازة الأسبوعية".

"نعم، لكننى طلبت أيضًا أن تفتح خزنته؛ لم نجد بداخلها ملاحظات مولر. أعلم ما سوف تخبرنى به، يمكن لأى إنسان أن يكون مهملاً. لكننى ظننت أنه لو قام دانترى بزيارة بيركهامستد، حسنا، إذا لم يجد أحدًا هناك يمكن له أن يفتش المنزل بشكل سرى. وإذا حضر كاسل سوف يندهش من حضور دانترى، وإذا كان مذنبًا...سوف يكون منفعلاً".

"هل أخبرت قسم ٥ بذلك؟".

"نعم، أخبرت فيلبس، وقد قام بطلب كاسل تليفونيًا مجددًا. أتمنى من الله ألا يحدث شيئًا من كل هذا. ذلك سوف يعنى أن ديفيز كان بريئًا".

"لا تشغل بالك كثيرًا بديفيز.... إنه لا يمثل خسارة كبيرة للمؤسسة يا جون. ما كان واجبًا تعيينه من الأساس. كان شخص منخفض الكفاءة مهملاً ويشرب كثيرًا، يمثل مشكلة طال الزمن أم قصر. لكن إذا كان مولر على حق، فإن مسألة كاسل سوف تسبب لنا صداعا. لا يمكن لى أن أستخدم الأفلاتوكسين. الجميع يعلم أنه ليس سكيرًا، هذا يعنى اللجوء للمحاكم يا جون، إلا إذا فكرنا فى شىء مختلف. الاستشارات الدفاعية، دليل بالكاميرا، وهذا ما يكرهه رجال الصحافة، حيث تصدر العناوين الضخمة المثيرة. أعتقد أن دانترى سوف يسر إذا لم يكن هناك آخر متهم، إنه من النوع الذى يفعل كل شىء طبقًا للقانون والإجراءات".

قال سير هارجريفز "ها هو ذا قادم".

كان قادما نحوهما دانترى صاعدًا الدرجات بتمهل، لعله يود أن يفحص كل درجة كما لو كانت هى إحدى الدلائل الدامغة.

"أتمنى معرفة كيف أبدأ معه".

"لما لا تصنع معه مثلما فعلت معى، أن تكون وحشيًا فى معاملتك".

"آه، لكن هو ليس لديه الجلد السميك الذى تتمتع به يا إيمانويل".

* * *

(٣)

بدت الساعات غاية فى الطول. حاول كاسل أن يقرأ، لكن لا كتاب استطاع أن يخفض من حجم توتره بين فقرة وأخرى، كان الفكر يطارده من أنه ترك خلفه فى المنزل فى مكان ما شيئًا يمكن أن يدينه. أخذ فى فحص كل كتاب على الرف.... لم يعد هناك أى كتاب سبق أن استخدمه فى التكويد.. كتاب الحرب والسلام تم حرقة تماما. من مكتبه، سحب كل قطعة ورق أو فرخ كربون مستخدم – مهما كان مظهره بريئًا – وحرقه، لا يحتوى دليل تليفونه على أى أرقام سرية سوى رقم الجزار والطبيب؛ لكن مع ذلك، كان متيقنًا أنه قد ترك خلفه ما يمكن أن يدينه. تذكر الرجلين اللذين انتدبا من القسم المخصوص لكى يفتشا شقة ديفيز؛ تذكر تلك الأبيات الشعرية التى وضع ديفيز أمامها الحرف (س) فى كتاب شعر براوننج الذى كان فى الأساس ملكًا لوالده. لن يكون هناك أى آثار للحب فى منزله. إنه لم يتبادل مع سارة أى خطابات حب ... حكاية الغرام فى جنوب إفريقيا تعتبر دليلاً قاطعًا على ارتكاب الجرم.

لم يقضِ من قبل مثل هذا اليوم المفعم بالوحدة. لم يكن جائعًا، هو فقط سام الذى تناول إفطاراً، لكنه أخبر نفسه عما يمكن أن يحدث قبل حلول الليل أو أين سوف يأكل وجبته التالية. جلس فى المطبخ أمام طبق به بعض قطع اللحم البارد، لم يأكل سوى قطعة واحدة قبلما يتذكر أنه قد نسى أن يستمع إلى أخبار الساعة الواحدة ظهرًا. استمع إلى الأخبار حتى نهايتها، بما فيها أخبار كرة القدم لأنه لا أحد من الممكن أن يطمئن؛ ربما يكون هناك خبر عاجل سوف يرد فى النهاية.

لكن بالطبع، لم يكن هناك أى شىء يختص به أو حتى أى إشارة لهاليداى الصغير. لم يكن هناك احتمال أن يحدث ذلك؛ فحياته منذ الآن سوف تكون بأكملها تحت عيون الكاميرا، وبالنسبة لرجل قضى أعوامًا عديدة من عمره يتعامل مع ما يدعونه بأسرار الدولة، شعر بإحساس قوى من عدم الاتزان. كان هناك إغراء قوى يدفعه لأن يرسل إشارة الاستغاثة مرة أخرى، لكن ليس من الحكمة على الإطلاق أن يفعل ذلك داخل منزله للمرة الثانية. ليس

لديه أدنى فكرة من سوف يدق جرسه، لكن من يراقبون تليفونه يسهل عليهم كثيرًا أن يتتبعوا هذه الدقات. كان الاعتقاد الجازم الذى شعر به الليلة الماضية هو أن الخط قد قطع نهائيًا، وإنه قد تعرض للهجران، وتعاظم لديه هذا الشعور مع توالى الساعات.

أعطي ما تبقى من اللحم إلى بولر الذى كافأه بلطع خيطٍ من لعابه على بنطلونه. كان واجبا أن يدفع بالكلب خارجًا من قبل، لكنه لم يكن راغبًا أن يغادر الجدران الأربعة لبيته أو أن يخرج إلى الحديقة. إذا وصل رجال البوليس، فإنه يشاء أن يتم القبض عليه داخل منزله وليس فى الخارج؛ بينما نساء الجيران يطللن عليه من نوافذ منازلهن. لديه مسدس فى الدور العلوى داخل درج بجوار سريره، وهو مسدس لمَ يصرح لديفيز بأنه يحمل واحدا مثله. مسدس مرخص يرجع تاريخه إلى أيام عمله فى جنوب إفريقيا. تقريبًا كل رجل أبيض هناك يحمل واحدًا. فى الوقت الذى فيه تملك هذا المسدس اكتفى بملء خزنة واحدة فيه، أما الخزنة الأخرى فقد خصصها لمنع الإطلاق المندفع، كذلك ظل مفتاح الأمان فى وضعه الأصلى على مدى سبعة أعوام قضاها هناك. فكر: يمكن لى أن أستخدمه فى جسدى إذا هجم علىَّ البوليس، لكن كان يعلم جيدًا أن فكرة الانتحار لم تساوره على الإطلاق. كان قد وعد سارة بأن يتلاقيا معًا يومًا مرة أخرى.

أخذ يقرأ، يفتح التليفزيون، ثم يقرأ مرة أخرى، ثم داهمته فكرة مجنونة أن يلحق بقطار متجه إلى لندن ويذهب إلى محل هاليداى الكبير يسأل عن الأخبار، لكنهم ربما الآن يقومون بمراقبة المنزل كذلك محطة القطارات. فى الساعة الرابعة والنصف، ما بين الكلب والذئب، بينما يتجمع المساء الرمادى، دق التليفون للمرة الثانية. فى تلك المرة، بلا منطق معقول، قام بالرد على المكالمة. كان يأمل فى أن يستمع إلى صوت بوريس، على الرغم من أنه يعلم يقينا أن الطالب لن يكون بوريس، فهذا الرجل لن يخاطر بطلبه هكذا فى منزله.

وصله الصوت الحاد لوالدته يتلقاه كأنما هو صادر من الغرفة المجاورة: "هل هذا موريس؟".

"نعم".

"أنا سعيدة أنك ما زلت موجودًا، ظنت سارة أنك قد سافرت إلى جهة ما".

"لا، ما زلت هنا".

"ما هذا الكلام الفارغ الذى بينكما؟".

"إنه ليس كلامًا فارغًا يا أمى".

"أخبرتها بأن تترك سام وتعود إليك على الفور".

"هى لن تأتى، أليس كذلك؟" .. تساءل فى خوف، فوداعٍ ثان يبدو أنه أمر لا يحتمل.

"لقد رفضت أن تأتى إليك، تقول إنك لن تدعها تدخل المنزل. هذا شىء سخيف بالطبع".

"ليس سخيفا بالقطع. إذا حضرت سوف أغادر أنا".

"ماذا بحق الجحيم حدث بينكما؟".

"سوف تعلمين يومًا ما".

"هل تفكر فى طلاقها؟ هذا سوف يكون سيئا بالنسبة إلى سام".

"حاليا هى مسألة انفصال. فقط دعى الأمور تستقر لفترة يا والدتى".

"أنا لا أفهم. أكره الأشياء التى لا أفهمها. سام يود أن يعلم هل قدمت طعامًا للكلب أم لا".

"أخبريه بأننى فعلت كذلك".

أنهت هى المكالمة. تحير ما إذا كان أحدهم قد سجل هذه المكالمة أم لا. شعر بأنه فى حاجة لكأس من الويسكى، لكن الزجاجة كانت فارغة. هبط إلى الكرار الذى كان يومًا مخزنا للفحم حيث يحتفظ بزجاجات الخمر والنبيذ. لقد تحول مزلق الفحم إلى شباك منحدر. نظر إلى أعلى عبر النافذة وشاهد الرصيف والضوء المنعكس للمبة الشارع، كذلك شاهد ساقى رجل كان بالتأكيد واقفًا تحت العمود.

هاتان الساقان لا ترتدى الملابس الرسمية، لكنهما بالطبع ربما تنتميان إلى أحد رجال القسم المخصوص مرتديًا الملابس المدنية. مهما كانت شخصية هذا الرجل، لاحظ كاسل أن وضع ذاته هكذا أمام الباب يعتبر غريبًا وشاذًا. بالطبع ربما تكون مهمة هذا المراقب هى تخويفه فقط كى لا يتصرف باندفاع. تابعه بولر إلى الأسفل، هو أيضًا لاحظ هاتين الساقين لذا بدأ فى النباح، بدت عليه مظاهر الخطورة وقد قعد على مؤخرته وجانبا فمه مرفوعان، لكن لو كانت هاتين الساقين قريبتين نوعًا لما جرؤ أن يعضهما، سوف يسيل لعابه حولهما. ثم بينما هما الاثنان يراقبان، تحركت الساقان وبعدت عن مجال النظر، لذا شعر بولر بخيبة الأمل... لقد فقد فرصة اقتناء صديق جديد. وجد كاسل زجاجة "J&B" وصعد بها إلى أعلى. فكر لو لم يتخلص من رواية الحرب والسلام، إذن لتسنى له الوقت الكافى كى يقرأ عدة فصول منها للاستمتاع.

مرة أخرى، جعلته حالة القلق أن يندفع إلى غرفة النوم يبحث ضمن متعلقات سارة عن خطابات قديمة لكى يقرأها، على الرغم من أنه لم يتصور كيف يمكن أن يكون هناك خطاب كتبه لها يمكن أن يدينه، لكن وهذه بين يدى رجال القسم المخصوص، يمكن أن تلوى الكلمات لتصبح دليلاً إجراميًا، إنه لا يثق من أنهم سوف يمتنعون عن ذلك ... دائمًا توجد فى تلك الحالة الرغبة القبيحة المجنونة للانتقام والتشفى. لم يجد شيئًا – عندما تحدث حالة الحب وأنتما قد أصبحتما معًا، تفقد الخطابات القديمة أى سحر لها.

أحدهم دق جرس الباب الرئيسى. وقف يتنصت، ثم سمع الجرس يدق مرة اخرى ثم مرة ثالثة. أخبر نفسه بأن زائره لا يمكن طرده بمجرد الصمت، وإنه من الغباء ألا يفتح الباب الآن. إذا لم يكن الخط قد قطع تمامًا، ربما تكون هناك رسالة له أو تعليمات... بدون تفكير، سحب من الدرج مسدسه ووضعه بخزنته المفردة فى جيبه.

فى الصالة، لا يزال مترددًا. كان الزجاج المصنفر أعلى الباب يعكس لونًا أصفر، أخضر وأزرق على الأرضية. فكر: لو حمل المسدس فى يده وهو يفتح الباب، سوف يكون للبوليس الحق فى إطلاق النار عليه بحجة الدفاع عن النفس ... إنه فى الواقع حل سهل، لن يحدث أن يتم برهان ذنب ارتكب أو جريرة على رجل ميت؛ ثم وجد نفسه يوبخ ذاته، فلا

يوجد فعل دافعه اليأس أو حتى الأمل. جعل المسدس راقدًا داخل جيبه وفتح الباب.

صاح: "دانترى!"... لم يتوقع أن تقع عيناه على وجه مألوف.

قال دانترى بلهجة بها بعض الشعور بالإحراج: "هل تسمح لى بالدخول؟".

"بالطبع".

فجأة ظهر بولر من مكمنه، قال كاسل وهو يلاحظ تحرك دانترى إلى الخلف: "إنه ليس خطرًا". ثم قبض على طوق بولر، فسال لعاب الكلب على يديه كما يفعل العريس المرتبك عندما يسقط منه خاتم الزواج "ما الذى تفعله هنا يا دانترى؟".

"كنت أسوق سيارتى فى الجوار وفكرت فى أن أطل عليك". كان العذر واضح الزيف لدرجة أن كاسل رثى لدانترى. إنه لا يشبه أحد هؤلاء المحققين الناعمين الخطرين الودودين الذين تربوا فى م ١٥. إنه مجرد مفتش أمن يمكن أن يعهد إليه تطبيق القواعد المعهودة التى يراعى فيها ألا تخدش، كذلك أن يفتش الحقائب.

"هل تشرب شيئا؟".

"أود ذلك"... قالها بصوت خشن، كأنما لزم عليه أن يعثر على عذر لأى شىء: "إنها ليلة باردة مطيرة".

"إننى لم أخرج طوال النهار".

"لم يحدث ذلك؟".

فكر كاسل... يا لها من غلطة سخيفة، إذا كان تليفون الصباح قد ورد من المكتب، لذا أضاف: "فقط كى أصطحب الكلب فى نزهة فى الحديقة".

تناول دانترى كأس الويسكى ونظر طويلاً نحوها؛ ثم تفحص غرفة الاستقبال. حدث هذا بلقطات سريعة كأنما هى عدسة مصور، بل وكان فى الإمكان الاستماع إلى جفونه وهى تطقطق.. قال: "أرجو ألا أكون مصدر إزعاج لك أو لزوجتك..".

"إنها ليست هنا. أنا وحدى ما عدا بالطبع بولر".

"بولر؟".

"الكلب".

كان الصمت الشامل للمنزل قد تأكد بهذين الصوتين اللذين يترددا بشكل تبادلى، ينطقان بجمل ليس لها أى قدر من الأهمية.

قال كاسل، بينما دانترى لم يلمس كأسه: "آمل ألا أكون قد ملأت كأسك أكثر من اللازم، كنت أظن..".

"لا، لا. إنه كما أرغب تمامًا". حل الصمت مرة أخرى، بشكل يشبه إسدال ستار كثيف فى المسرح. بدأ كاسل يتحدث بثقة: "فى الواقع، أنا أعانى من مشكلة".... كانت تلك فرصة متاحة كى يبرئ ساحة سارة.

"مشكلة؟".

"لقد تركتنى زوجتى مع ابننا وذهبت إلى والدتى".

"تعنى أنكما قد تشاجرتما معًا؟".

"نعم".

"أنا آسف، إنه أمر فظيع عندما يحدث مثل هذا". بدا عليه أنه يشرح موقفًا كأنه الموت المحتم، أضاف: "هل تتذكر المناسبة الأخيرة التى تقابلنا فيها معًا فى حفل زواج ابنتى؟" كان لطيفًا منك أن تحضر معى بعدها إلى شقة زوجتى، لكننى قمت هناك بتحطيم واحد من تمثيل البوم".

"نعم، أتذكر".

"لا أظن أننى شكرتك بشكل لائق لما صنعته معى. كان هذا يوم سبت مثل اليوم. لقد اغتاظت بشكل عنيف. أقصد زوجتى، بخصوص كسر تمثال البومة".

"كان علينا أن نغادر سريعًا بسبب وفاة ديفيز".

"نعم، ذلك المسكين". مرة أخرى أسدلت ستارة الصمت، كما لو أن هذا قد حدث بعد النطق بإحدى الجمل المعتاد قولها فوق خشبة المسرح، الآن سوف يبدأ الفصل الأخير. حان الوقت لأن يذهبا إلى البار، كلاهما يشرب من كأسه بشكل متتابع.

تساءل كاسل: "ما رأيك فيما يختص بمسألة موته؟".

"لا أعلم بالضبط مسار تفكيرى. فى الحقيقة أحاول ألا أفكر أبدًا فى هذا الموضوع".

"كانوا يظنون أنه مصدر ثغرة حدثت فى قسمنا، أليس كذلك؟".

"أنهم لا يفصحون بالكثير أمام ضابط للأمن، ما الذى جعلك تظن هكذا؟".

"إنه ليس من الأمور المعتادة أن يستدعوا رجال القسم المخصوص ليفتشوا فى حالة موت أحدنا".

"لا، أعتقد لا".

"وأنت نفسك ظننت أن موته كان حادثا غريبا".

"لما تقول هذا؟".

فكر كاسل، هل يا ترى قد تباد لنا المواقف، أنا الذى استوجبه؟ "أنت قلت حالاً إنك لا تود أن تفكر فى هذا الموضوع بالذات".

"حدث هذا فعلاً؟ لا أدرى ماذا قصدت، ربما يعود هذا لكأس الويسكى هذا".

"لم يحدث أن ديفيز قد سرب شيئًا لآخرين"... داهم كاسل شعور بأن دانترى يركز نظره على جيبه المنتفخ بالمسدس.

"هل تصدق ذلك".

"إننى أعلم ذلك؟".

كان من الممكن أن ينطق بشىء ما يمكن أن يدينه بشكل كامل. لعل دانترى ليس على كل حال هو المحقق السيئ، وأن مظاهر الخجل والارتباك وعدم اليقين هى جميعًا جزء من طريقة جديدة تضعه فى رتبة تفوق فى درجتها أفضل رجال م١٥.

"أنت علمت بذلك؟".

"نعم".

تعجب كاسل مما سوف يفعله دانترى لاحقًا. ليست لديه السلطة لأن يقبض عليه. سوف يضطر إلى أن يبحث عن تليفون ليستشير. أقرب تليفون يقع فى قسم البوليس فى نهاية شارع كنجز – بالتأكيد لن تسمح له أعصابه بأن يطلب استخدام تليفون كاسل. هل يا ترى قدر دانترى وزن ما يثقل جيبه. هل هو خائف؟ فكر كاسل، سوف يتاح لى زمن كافى بعد مغادرته لأن أهرب.. هذا إذا عثر على مكان مناسب يختبئ فيه؛ لكن أن يهرب بلا تحديد لمكان معين، هذا سوف يؤدى فقط إلى تأخير عملية القبض عليه. إنه أمر مفزع، إنه يفضل أن يظل فى مكانه ؛ هذا على الأقل سوف يحفظ له كرامته.

قال دانترى: "أقول لك بصراحة، كثيرًا ما شككت فى هذا الأمر".

"لذلك هم يأتمنونك".

"فقط بالنسبة للتفتيش الأمنى. على أن أقوم بهذه المهام".

"إنه بالتأكيد كان يومًا مزعجًا بالنسبة إليك، أليس كذلك، أولاً أن تكسر تمثال البومة ثم تشاهد ديفيز ميتا فى سريره؟".

"لم يعجبنى قط ما قاله دكتور بيرسفال".

"ماذا قال؟".

"توقعت أن يحدث له هذا".

"نعم، هذا ما أتذكره الآن".

"هذا فتح عيناى، جعلنى أرى ما هم منغمسين فيه".

"لقد قفزوا سريعًا فى استنتاجاتهم، لم يفحصوا جيدًا البدائل".

"هل هذا يعنى أنت؟".

فكر كاسل، لن أجعل هذه الأمور سهلة عليهم، لن اعترف بترديد الكثير من الكلمات، بالرغم من براعة هذا التكنيك الجديد الذى يستخدمونه الآن".

قال "واطسن".

"أوه نعم، نسيت واطسن".

"كل شىء فى قسمنا يمر عليه. أيضًا، بالطبع هناك العميل ٦٩٣٠٠ فى L.M، يمكن لهم أن يفحصوا حساباته بدقة. هل يعلم أحد ما إذا كان له رصيد حساب فى بنوك روديسيا أو جنوب إفريقيا؟".

"حقيقى".

"كذلك السكرتيرات لدينا. ليس فقط السكرتيرات اللاتى يعملن معنا يمكن أن يتورطن، كلهن من العينة نفسها. لا تقل لى إن الفتاة منهن تذهب إلى صالة الرقص قبلما تغلق على البرقية التى كانت منهمكة فى تكويدها أو التقرير الذى كانت تكتبه على الآلة الكاتبة".

"أنا مدرك كل هذا. لقد تحققت من كل هذه الأمور. دائمًا ما كنت ألاحظ أن هناك مجالات كثيرة للإهمال".

"هذا الإهمال يمكن أن يبدأ عند الكبار أيضًا. وفاة ديفيز ربما تمثل مثالاً للإهمال الإجرامى".

"إذا لم يكن مذنبًا، إذن هى مسألة ارتكاب لجريمة قتل. لم تتح له فرصة للدفاع عن نفسه أو حتى كى يستعين بخدمات محام. كانوا يخشون من تأثير إجراءات التقاضى على الأمريكان. أخبرنى الدكتور بيرسفال مرة عن الصناديق..".

"آه... نعم. أعلم هذه النوعية من الكلام المعسول وكثيرًا ما استمعت إليه. حسنا، نلاحظ أن ديفيز قد وضع فى الصندوق المناسب له تماما".

لاحظ كاسل أن عينى دانترى مرزتان على جيبه. هل كان دانترى موافقًا على كل ما أبداه من آراء فقط لكى يهرب عائدا إلى سيارته؟".

قال دانترى "كل منى ومنك نرتكب الخطأ نفسه؛ القفز إلى الاستنتاجات. ربما كان ديفيز مذنبا . ما الذى يجعلك متأكدا عكس ذلك؟".

"يجب أن يسعى المرء وراء الدوافع". هذا ما نطق به كاسل مترددًا. لقد تجنب شيئا. إنه لا يأمل أبدًا فى الحصول على المساعدة، إذن ما معنى التأخير؟ إنه يحب دانترى، وقد زاد إعجابه به منذ واقعة زواج ابنته. فجأة شاهده كإنسان وهو واقف أمام البومة المهشمة، كذلك انغماسه فى مشاعر الوحدة بسبب زواجه الفاشل. إذا شاء أحدهم أن يحصل على فخر ما، فإنه يود أن يكون هو دانترى. إذن لم لا يستسلم له ويذهب معه بكل هدوء، كما يصنع رجال البوليس كثيرًا؟ تعجب، ما إذا كان يطيل أمد اللعبة فقط من أجل الصحبة، كى يتفادى الوحدة داخل زنزانته.

قال دانترى: "أعتقد أن الدافع الذى كان عند ديفيز هو الحصول على المال".

"ديفيز لم يهتم كثيرًا بالمال. احتياجاته كلها كانت منصبة على أن يكون لديه ما يكفى للرهان على الجياد، كذلك الحصول على خمر البورت الجيد. يجب أن تمتحن الأمور بأكثر دقة عن ذلك".

"ما الذى تعنيه؟".

"إذا كان قسمنا هو الوحيد المشتبه فيه، إذن كل ما يصدر منا من تسريبات سوف يكون مختصًا بإفريقيا فقط".

"لماذا؟".

"هناك الكثير من المعلومات التى تمر من خلال قسمنا ومن ثم وهذا نمررها إلى الآخرين.... أمور سوف يكون لها أهمية فى نظر الروس، لكن إذا كانت هناك ثغرة ما، ألا ترى أن الأقسام الأخرى سوف تكون أيضًا معرضة للشبهة أيضًا؟ بذلك لن تكون الثغرة متصلة فقط بنوعية عملنا مع إفريقيا".

"نعم، هذا ما أعيه".

"هذا سوف يدل – حسنًا، إذا لم تكن نوعًا من الإيديولوجية الخاصة .... ليس من الضرورى أن تبحث عن شيوعى، لكن أن تبحث عن جهة لها صلة وثيقة بإفريقيا – أو الإفريقيين. أشك أن ديفيز قد تعرف يومًا بإفريقى". توقف عن الحديث، ثم أضاف وقد غمرته مشاعر البهجة بهذه اللعبة الخطرة التى يلعبها: "ما عدا بالطبع زوجتى كذلك سام". كان بذلك كأنه يضع النقطة فوق الحرف الانجليزى i ... ثم استمر فى القول "لاحظ أن العميل ٦٩٣٠٠ قضى زمنًا طويلاً فى L.M ولا أحد يعلم نوعية الصداقات التى كونها هناك؛ لديه هناك عملاؤه من الإفريقيين وكثير منهم شيوعيون".

بعد عدة أعوام من التخفى، بدأ يشعر الآن بالاستمتاع بلعبة السلم والثعبان "كما كان هكذا حالى عندما كنت مقيما فى بريتوريا"... أضاف وهو يبتسم: "حتى س، كما تعلم، يحتفظ بحب خاص لإفريقيا".

"أوه، ها أنت تهزل الآن".

"بالطبع أهزل. فقط أردت أن أوضح لك المقدار القليل من الإثباتات لديهم ضد ديفيز مقارنة بالآخرين، كذلك أنا والعميل ٦٩٣٠٠ وكل السكرتيرات اللاتى لا نعلم عنهن شيئًا".

"لقد تعرضن جميعًا للفحص الدقيق".

"بالطبع هذا ما حدث معهن. سوف تضعون أسماء من يحبوهن فى الملفات عن هذه السنة الحالية، لكن هناك بعض الفتيات اللاتى يغيرن أحبابهن كما يغيرن ملابسهن الشتوية".

"أنت ذكرت عددًا كبيرًا فى المشتبه بهم، لكنك مع ذلك متأكد تمامًا من موقف ديفيز". ثم أضاف وهو غير سعيد: "أنت محظوظ لأنك لا تشغل وظيفة ضابط أمن. كدت أوشك على تقديم استقالتى بعد وفاة ديفيز، وتمنيت لو كان هذا قد حدث بالفعل".

"لِمَ لم تفعلها؟".

"ما الذى سوف أفعله بعد ذلك لقضاء وقتى؟".

"كان فى إمكانك أن تنشغل برصد أرقام السيارات. أنا فعلت ذلك مرة".

"لماذا تشاجرت مع زوجتك؟ سامحنى إذا كان هذا قولاً ليس من شأنى".

" إنها لم تكن موافقة على ما كنت أفعل".

"تعنى بالنسبة لعملك فى المؤسسة؟".

"ليس بالضبط".

كان بإمكان كاسل أن يتكهن بأن اللعبة قد أوشكت على الانتهاء. كان دانترى ينظر خفية إلى ساعته. بدأ كاسل يتعجب ما إذا كانت تلك ساعة حقيقية أم ميكرفونًا. ربما تكون قد وصلت إلى نهاية شريط التسجيل. هل سوف يطلب الذهاب للحمام لكى يستبدل الشريط؟"

قال كاسل "تشرب كأسا أخرى؟".

"لا، لا أفضل ذلك، علىَّ أن أسوق عائدا إلى منزلى".

ذهب معه كاسل حتى الصالة، كذلك بولر. كان بولر تعيسًا لأنه يرى صديقًا جديدًا يغادر. قال دانترى: "أشكرك على المشروب".

"أشكرك للفرصة التى أتيحت كى نتحدث فى عديد من الموضوعات".

"لا تخرج معى، إنها ليلة ليلاء". لكن كاسل رافقه تحت رذاذ المطر البارد. لاحظ أن هناك ضوء خلفية سيارة تبعد خمسين ياردة على الجانب الآخر من قسم البوليس.

"هل هذه سيارتك؟".

"لا، سيارتى على بعد قليل فى هذا الاتجاه. اضطررت. إلى أن أسير لأنه تعذر علىَّ مشاهدة أرقام المنازل بسبب المطر".

"تصبح على خير إذن".

"تصبح على خير. أرجو أن تسير الأمور بشكل جيد ... أعنى مع زوجتك".

وقف كاسل تحت رذاذ المطر البارد الذى كان يتساقط بطيئًا كى يلوح لدانترى وهو يمر بسيارته. لم تتوقف السيارة عند قسم البوليس، بل سارت يمينًا واتخذت لنفسها طريق لندن. بالطبع يمكن له بسهولة أن يتوقف عند كنجز آرم أو عند محل البجعة لكى يستخدم التليفون، لكن حتى إذا فعل هكذا، فإنه لن يكون بجعبته شىء ضح المعالم يبلغ عنه. بالتأكيد سوف يصرون على سماع تسجيله قبلما يقررون شيئًا ... تأكد كاسل الآن أن الساعة كانت عبارة عن ميكرفون. بالطبع، ربما تخضع محطة القطارات الآن للرقابة، كذلك قد تم إخطار ضباط الهجرة فى المطار. هناك حقيقة معينة قد وضحت من زيارة دانترى. لقد بدأ هاليداى الصغير فى التحدث وإلا ما كانوا قد بعثوا دانترى إليه.

عند بابه، أخذ ينظر فى هذا الاتجاه وذاك. لم يكن هناك من يراقبه، لكن ضوء السيارة التى تقف فى مواجهة قسم البوليس ما زالت تلمع خلال المطر. إنها لا تشبه إحدى سيارات البوليس، ويشك أيضًا أنها من السيارات التى تتبع القسم المخصوص، بل ويمكن ألا تكون بريطانية الصنع.. هذه، وإن لم يكن متأكدًا، سيارة ماركة تويوتا. تذكر تلك السيارة التويوتا الأخرى التى رآها سابقًا فى الطريق إلى آشردوج. حاول أن يتحقق من اللون، لكن الأمطار أخفت ذلك، فاللونان الأسود والأحمر لا يمكن تبيانهما خلال الرذاذ المتساقط الذى بدأ الآن فى التحول ليصبح مدرارا. دخل إلى منزله وللمرة الأولى جرؤ على أن يداعبه الأمل.

أخذ الكأسان إلى المطبخ وغسلهما جيدًا. كان يفعل ذلك كأنما يخفى علامات اليأس منهما. ثم أرسى كأسين أخريين فى غرفة الاستقبال. للمرة الأولى شعر بأن الأمل بدأ ينمو ويتصاعد، إنها نبتة بسيطة فى حاجة للكثير من الرعاية والتشجيع، لكنه أخبر نفسه بأن هذه السيارة بالتأكيد ماركة تويوتا. إنه لم يدع نفسه تحصى عدد هذه النوعية من السيارات فى منطقته، لكنه انتظر صابرًا لمن يدق الجرس. تعجب عمن سوف يدق جرس بابه ويقف فى المكان نفسه الذى احتله دراننترى من قبل عند مدخل الباب.. لن يكون بالطبع هو بوريس– إنه متأكد من ذلك – ولن يكون بالطبع هو هاليداى الصغير... الذى هو بالتأكيد خالى السبيل الآن لكنه يعانى، ومن المحتمل إنه محاصر الآن برجال من القسم المخصوص.

عاد إلى المطبخ وأعطى بولر طبقًا مليئًا بالبسكويت .... ربما سوف يحل وقتًا طويلاً قبلما يتناول هذا الكلب وجبته التالية. كانت دقات الساعة فى المطبخ عالية ومزعجة، يبدو بها الزمن كأنه يسير بطيئًا. إذا كان له صديق فى السيارة التويوتا، إذن يمكن القول إنه قد استغرق وقتًا طويلاً حتى يظهر.

* * *

(٤)

توقف كولونيل دانترى بسيارته عند مقصف كنجز آرم. كانت هناك سيارة وحيدة تنتظر فى الباحة. جلس الرجل لفترة وراء مقوده، متحيرًا ما إذا كان واجبًا عليه أن يرسل معلوماته تليفونيا أم لا، وما الذى سوف يخبر به. لقد اهتز كيانه بغضب مكبوت أثناء تناوله طعام الغداء فى نادى ريفورم مع س ودكتور بيرسفال. حانت لحظة ود فيها أن يزيح جانبا طبقه المتخم بقطع لحم سمك التروت المدخن قائلاً: "إننى مستقيل، لا أود أن يكون لى أى صلة بمؤسستكم المجرمة". كان يشعر بتعب يصل إلى حد الموت من كل هذه الأسرار والأخطاء التى يجب إخفاؤها وعدم الإفصاح عنها. خرج رجل من الحمام الخارجى وهو يصفر ما لا يعد لحنًا، ثم انهمك فى غلق أزرار بنطلونه متسترًا بالظلام، بعدها دخل إلى البار. فكر دانترى: لقد قاموا بتدمير زواجى بسبب أسرارهم تلك. أثناء الحرب كانت هناك مبررات بسيطة ... أكثر بساطة مما تعرض إليه والده. لم يكن قيصر ألمانيا هو هتلر، لكن فى رحى تلك الحرب الباردة المنخرطين فيها الآن، أصبح ممكنا، كما فى أيام حرب القيصر، أن تتم مناقشة ما هو صواب وما هو خاطئ. لم يكن هناك سبب واضح يمكن أن يبرر ارتكاب جريمة قتل بالخطأ. مرة أخرى شاهد نفسه مستقرًا داخل منزل طفولته الكئيب، يعبر الصالة، يدخل الغرفة حيث جلس والده مع والدته يدًا فى يد. تخيل والده يقول وهو يتذكر جوتلند وأدميرال جيليكو "لكن العلم الكامل هو من عند الله". أما والدته فقد خاطبته قائلة: "يا عزيزى، فى عمرك هذا، من الصعوبة بمكان أن تعثر على وظيفة أخرى".

قام دانترى بإطفاء أنوار سيارته، وسار خلال سيل الأمطار المنهمرة بطيئًا داخلاً البار. فكر: زوجتى لديها ما يكفيها من المال، وابنتى قد تزوجت. يمكن لى – بطريقة ما – أن أعيش مكتفيا بمعاشى فقط.

فى هذه الليلة الباردة الرطبة، لم يكن هناك سوى رجل واحد على البار .... كان يحتسى كوبًا من البيرة. قال الغريب ما أن شاهد دانترى "مساء الخير يا سيدى". قالها كأنهما على معرفة سابقة.

قال دانترى: "مساء الخير"، ثم خاطب البارمان: "أعطنى ويسكى مزدوجة". فاستدار هذا وأمسك بزجاجة جونى ووكر.

قال الرجل الآخر: "إذا شئت، يمكن لك أن تطلق عليها هذا الوصف".

"أطلق ماذا على ماذا؟"

"إنها تلك الأمسية يا سيدى، على الرغم من أننا نتوقع هذا الجو فى نوفمبر".

سأل دانترى البارمان "هل يمكن لى استخدام تليفون محلكم؟".

دفع البارمان بالكأس نحوه بشكل رافض، ثم أشار برأسه تجاه كابينة التليفون. بالتأكيد هو رجل قليل الكلام؛ إنه هنا كى يستمع لما ينطق به الزبائن، لكن ليس له أن يتداخل معهم بأكثر مما هو ضرورى، إلى أن – وهو سعيد – ينطق بجملة وحيدة متكاملة: "حان وقت الإغلاق يا سادة".

طلب دانترى رقم تليفون دكتور بيرسفال، وبينما يستمع إلى إشارة أن الخط مشغول، أخذ يسمع لنفسه الجمل التى يرغب فى ترديدها : "لقد قابلت كاسل اليوم...إنه وحيد فى منزله...لقد تشاجر مع زوجته...ليس لدىَّ الكثير أبلغ عنه...ثم يقوم بخبط السماعة فى مكانها كما يفعل الآن .... عاد بعد ذلك إلى البار وكأس الويسكى وإلى ذلك الرجل المصر على تبادل الحديث مع الآخرين.

كان البارمان يردد: "آه"، ومرة صدرت منه جملة : "هذا حقيقى؟".

استدار الزبون ناحية دانترى محاولاً جره للمشاركة فى الحوار: "إنهم لا يدرسون فى المدارس الآن حتى الرياضيات البسيطة. قلت لقريب لى – فى التاسعة من عمره – ما هو حاصل ضرب أربعة فى سبعة، هل تعتقد أنه رد على بجواب؟".

احتسى دانترى كأسه وهو ينظر إلى كابينة التليفونات، ما زال يجرب فى ذهنه الكلمات التى سوف ينطق بها.

خاطب الرجل دانترى: "أرى أنك موافق لرأيى، ماذا عنك أنت؟" ... وجه هذه الجملة الأخيرة للبارمان: "سوف تعمل على فقدان وظيفتك هنا إذا لم تستطع أن تعطنى حاصل ضرب أربعة فى سبعة".. قام البارمان بمسح بعض من قطرات البيرة مرددا: "آه".

"أما أنت يا سيدى، فى مقدورى أن أحدد أى وظيفة تمتهن. لا تسألنى كيف. إنه إلهام ووحى خاص، آت من دراستى للوجوه، كما أعتقد كثيرًا فى الطبيعة البشرية، وفى الموضوع الذى كنت أتحدث عنه وأنت منهمك مع التليفون. إنه موضوع، كما أخبرت مستر باركر هنا، بأنه يجب على الرجل المحترم أن يكون فى كامل وعيه به، أليست تلك هى كلماتى نفسها ؟".

رد عليه البارمان مستر باركر: "آه".

"ناولنى كوبًا آخر من البيرة إذا لم يكن لديك مانع". قام مستر باركر بملء كوبه.

"أحيانًا ما يسألنى بعض الأصدقاء كى أقدم لهم عرضًا، بل وأحيانًا كانوا يتراهنون على بين الحين والآخر. أحيانًا أقرر عن رجل معين بالقول إنه يمتهن وظيفة مدرس، وعن آخر أنه كيمائى، ثم تجدنى أسأل هذا الشخص بكل أدب، وهم لا يغضبون منى عندما أشرح لهم؛ وتسع مرات من عشرة أكون مصيبًا فى تخمينى. وقد رآنى مستر باركر هنا وأنا أفعل ذلك. أليس كذلك يا باركر؟".

"آه".

"الآن أنت يا سيدى، اسمح لى بأن أصنع خدعتى الصغيرة معك، ذلك لكى أجعل مستر باركر مسرورًا ومبتهجًا فى تلك الليلة الباردة .... أنت تعمل فى خدمة الحكومة. هل أنا محق فى ذلك يا سيدى؟"

أجاب دانترى: "نعم". ثم أنهى كأسه. حان الوقت كى يطلب النمرة مرة أخرى.

قال الزبون وعيناه التى تشبه خرزتين لامعتين: "لك مركز مهم، أنت تعلم الكثير مقارنة بنا".

قال دانترى: "علىَّ أن أطلب رقمًا".

"فقط لحظة يا سيدى، أود أن أجعل مستر باركر.."، مسح الرجل بعض البيرة بمنديل من على شفتيه وقرب وجهه من دانترى "أنت تتعامل مع الأرقام، أنت تعمل فى مصلحة الدخل العام".

تحرك دانترى نحو كابينة التليفونات، قال الزبون: "كما نرى، هو شخص حساس. إنهم لا يرغبون أن يكشفهم أحد. من المحتمل الغالب أنه مفتش".

هذه المرة سمع دانترى صوت الخط المفتوح وهو يطلب، وحالا استمع إلى الصوت القاطع الواثق للدكتور بيرسفال، يبدو كأنه قد نفض عنه آثار النوم بعدما غادر سريره: "نعم؟ دكتور بيرسفال هنا. من هذا؟".

"دانترى".

"مساء الخير يا صديقى العزيز. هل هناك أخبار؟ أين أنت الآن؟".

"أنا فى بيركهامستد. رأيت كاسل".

"نعم. وما انطباعاتك؟".

داهم دانترى غضب وحنق مسحت من ذهنه الكلمات المنمقة التى انتوى النطق بها، تمزقت تلك إلى أشلاء كأنما هو خطاب قرر المرء ألا يرسله.

"رد فعلى هو أنكم قد قتلتم الرجل الخطأ".

"لم نقتل... إنه خطأ فى تحديد الوصفة، فالعقار لم يتم تجربته من قبل على البشر. لكن ما الذى يجعلك تظن أن كاسل ...؟".

"لأنه متأكد أن ديفيز برىء".

"قال ذلك؛ بترديد كلمات عديدة؟".

"نعم".

"ما الذى ينتويه حاليًا".

"إنه فى الانتظار".

"انتظار ماذا؟".

"شيء ما يحدث. لقد هجرته زوجته وأخذت معها الولد. قال إنهما قد تشاجرا".

"لقد بعثنا بالفعل منشورًا وتحذيرًا إلى سلطات المطار كذلك موانئ البحر. إذا أراد أن يهرب سوف يتحقق حينئذ دليلنا؛ لكن مع ذلك نحن فى حاجة إلى الدليل المادى الدامغ".

"لكن انتم لم تنتظروا ظهور الدليل القاطع الدامغ مع ديفيز".

"لقد أصر س على أن نتحرك. ما الذى تفعله الآن؟".

"عائد إلى منزلى".

"هل سألته عن مذكرات مولر؟".

"لا".

"لماذا؟".

"لم يكن لذلك أى ضرورة".

"لقد فعلت جهدًا ممتازًا يا دانترى، لكن ما الذى يوحى لك بأنه إنسانٍ سليم لا غبار عليه؟".

وضع دانترى السماعة فى مكانها دونما يرد وغادر الكابينة. قال الزبون: "كنت محقًا؟ أليس كذلك؟ أنت مفتش فى مصلحة الدخل العام".

"نعم".

"هل رأيت يا مستر باركر، لقد كسبت مرة أخرى".

سار دانترى بطيئًا متجهًا إلى سيارته. للحظات جلس داخلها والموتور يعمل بينما كل قطرة من المطر تتابعها أختها على الزجاج الأمامى. ثم استدار بسيارته سالكًا طريق لندن إلى شقته التى تقع فى شارع سانت جيمس، بينما كانت فى انتظاره منذ الأمس وجبة عشائه المكونة أساسًا من جبن كاممبرت. أدار سيارته ببطء. لقد تحول رذاذ المطر إلى انهمار حقيقى، وكانت هناك بشائر لنزول البرد أيضا. فكر: حسنًا، لقد فعلت ما يدعوه بواجبى، لكن على الرغم من أنه كان يتجه فى مسيره قاصدا شقته ليجلس بجوار وجبته من الجبن ثم على يكتب خطابه، لم يكن متعجلاً فى الرجوع. فى ذهنه تكاملت مبررات تقديم استقالته. أخبر نفسه بأنه إنسان حر، وإنه ليس ملزمًا الآن بأى نوع من الواجبات أو الالتزامات، لكن مع ذلك، لم يحدث من قبل أن شعر بهذا القدر من الشعور بالوحدة.

* * *

(٥)

دق جرس الباب، كان كاسل في انتظاره طويلاً، مع ذلك تردد في الذهاب ناحية الباب، أدرك الآن أنه كان مبالغًا في تفاؤله بشكل سخيف. بحلول هذا الوقت، سوف يكون هاليداى الصغير قد بالغ في الحديث، والسيارة التويوتا هذا ربما تكون واحدة من آلاف، ولعل القسم المخصوص كان في انتظاره لأن يصبح بمفرده. يعلم الآن كما كان طائشًا بشكل بالغ في حديثه مع دانترى.... مرة أخرى دق جرس الباب، ثم مرة ثالثة؛ ليس لديه شيء يمكن أن يفعله سوى أن يفتح الباب.

ذهب ناحية الباب وإصبعه على المسدس الراقد في جيبه، لكن هذا المسدس لا فائدة ترجى منه أكثر من ساق أرنب. لن يستطع أبدًا أن يجد له طريقًا في أرجاء كل هذه الجزيرة. أعطاه بولر تعضيدًا مزيفًا، وأخذ ينبح بحرقة، لكن كاسل كان يعلم يقينًا أنه مجرد أن يفتح الباب، سوف يستكين في الحال تحت يدى القادم مهما كان صنفه. لم يستطع أن يرى شيئًا خلال الزجاج المصنفر وقطرات المطر تجرى عليه، حتى عندما فتح الباب، لم ير أمامه شيئًا محددًا – فقط رأى شكلا منكمشًا في ذاته.

سمع صوتًا يعرفه يشكو في هذا الظلام السائد: "إنها ليلة ليلاء".

"مستر هاليداى! ما كنت أتوقع حضورك".

فكر كاسل: لقد حضر الرجل كي أساعده في مشكلة ابنه، لكن ما الذى يمكن أن أفعله؟

قال غير محدد المعالم مستر هاليداى الأب المتوتر مخاطبا بولر "ولد لطيف..ولد لطيف".

أكد له كاسل: "أدخل، إنه كلب لا يؤذى أحدًا".

"أرى أنه كلب ممتاز".

دخل مستر هاليداى، أما بولر فإنه استمر فى هز ما تبقى من ذيله ولعابه يسيل.

"كما ترى يا مستر هاليداى، إنه صديق للعالم كله. ادخل لكى أجهز لك كأسًا من الويسكى".

"أنا لست شريبًا مخضرمًا، لكننى لن أرفض لك طلبًا".

"لقد أسفت عندما سمعت عن أخبار ابنك. أنت بالتأكيد فى غاية القلق".

تبعه مستر هاليداى إلى غرفة الاستقبال، قال: "كان ابنى واعيًا وهذه المسألة تطبق عليه، لعلها تعلمه درسًا. لقد كنس رجال البوليس حمولة سيارة من مكتبته، وقد قام المفتش بجعلى أطلع على بعض الأشياء المخجلة حقا. لكن كما أخبرت الضابط، لا أعتقد أن ابنى قد قرأ شيئًا من هذه الكتب".

"آمل ألا يكون رجال البوليس قد أزعجوك".

"أوه، لا، كما أخبرتك. أعتقد أنهم يشعرون بالأسف من أجلى. إنهم يعلمون أننى أحتفظ بمكتبة من نوع مختلف تماما".

"هل أتيحت لك فرصة أن تسلم خطابى الذى تركته معك إلى ابنك؟".

"آه، هنا يا سيدى. ظننت أنه من الحكمة ألا أفعل ذلك، تحت ظل كل هذه الظروف. لكن لا تقلق، لقد وضعت خطابك فى اليد التى وددت أن تتواصل معهم".

حمل الرجل كتابًا كان كاسل يحاول قراءته ونظر إلى العنوان.

"ماذا بحق الجحيم تعنى؟".

"حسنًا يا سيدى، أعتقد انك ظللت طويلاً ضحية فهم مغلوط. ابنى لم يشارك قط فى نوعية العمل الذى أنت منخرط فيه. لكن (هم) فكروا فى أنه ليس بالأمر السيئ – فى حالة وقوع أى نوع من المتاعب – أن تعتقد أنت أن..". ثم انحنى يدفئ يديه على النار الغازية، بينما عيناه مرفوعتان باستمتاع ماكر: "حسنًا يا سيدى، كما حدث. نحن مضطرون إلى أن نخرجك من هذا البلد بأسرع وقت ممكن".

أصيب كاسل بصدمة عنيفة عندما أدرك كم كان هو غير جدير بِثقة هؤلاء الناس الذين لديهم أسباب وجيهة للثقة فيه.

"إذا سمحت لى يا سيدى، أين بالضبط زوجتك وابنك؟".

"فى هذا الصباح، عندما سمعت عما حدث لابنك، أبعدتهما، ذهبا إلى والدتى التى ظنت أن هناك مشاجرة قد نشبت بيننا".

"أوه، وهذه صعوبة قد أزيحت عن طريقنا".

قام مستر هاليداى، وقد دفأ يديه جيدًا بالتجول فى أنحاء الغرفة: ثبت أنظاره على رفوف الكتب. قال "يمكن لى أن أعطيك سعرًا مناسبًا كأى مشتر للكتب النادرة. إنها تستحق خمسًا وعشرين جنيهًا؛ وهذا المبلغ المسموح لك بأن تأخذه وأنت مسافر إلى الخارج. معى أوراق النقد. إنها كتب مناسبة للعرض فى مكتبتى، كلها كلاسيكيات عالمية محترمة. إنها لم تتعرض لطبعة تالية، يا له من سعر".

"فكرت أنا فى حالة من العجلة".

"هناك شىء وحيد تعلمته خلال خمسين عامًا هو أن أكون هادئًا. ما أن تبدو متعجلاً حتى تكون معرضًا لارتكاب الأخطاء. إذا كان متاحًا أمامك نصف ساعة فقط، حاول دائمًا أن تتصور أن لديك فسحة من الوقت قدرها ثلاث ساعات. أعتقد أننى سمعتك يا سيدى تذكر شيئًا عن كأس ويسكى؟".

قام كاسل بصب كأسين: "إذا كان لدينا وقت كافى، إذن..".

"لدينا الوقت الكافى. أعتقد أنك قد أعددت شنطة بها مستلزماتك الضرورية".

"نعم".

"ما الذى سوف تفعله مع الكلب؟".

"أعتقد أننى سوف أتركه خلفى، لم أفكر...ربما يمكن أن تأخذه أنت إلى مركز لإيواء الحيوانات".

"ليس من الحكمة فعل ذلك يا سيدى، أن تظهر أى نوع من العلاقات بينى وبينك ... هذا لا يصلح ؛ذلك إذا اجتهدوا فى البحث وراءه. على كل حال، علينا أن نجعله صامتا خلال الساعات القليلة المقبلة. هل هو من النابح إذا تركناه خلفنا؟" .

"لا أعلم. إنه ليس معتادًا من أن يترك بمفرده" .

"ما أفكر فيه هو شكوى الجيران. يمكن لأحدهم أن يطلب البوليس، ونحن لا نود أن يكتشفوا منزلاً خاليًا من سكانه" .

"سوف يكتشفون أن هذا المنزل أصبح خاليًا على كل حال" .

"لن يهم ذلك عندما ترحل إلى الخارج. شيء مؤسف أن زوجتك لم تأخذ الكلب معها" .

"لم يكن فى استطاعتها. والدتى لديها قطة وبولر مغرم بقتال القطط بمجرد النظر" .

"نعم، هذه النوعية من الكلاب البوكسر تعتبر شقية بالنسبة للتعامل مع القطط. أنا عن نفسى لدىَّ قطة" . قام مستر هاليداى بجذب أذنى بولر، فتقرب إليه هذا الكلب سعيدًا "هذا ما قلته. إذا كنت فى حالة من العجلة البالغة، إذن من الممكن أن تهمل أشياء مثل التصرف فى مشكلة هذا الكلب. هل لديك بدروم فى منزلك؟" .

"نعم، لكنه لا يعتبر كاتما للأصوات،هذا إذا قصدت أن نحبسه" .

"لاحظت يا سيدى أن فى جيبك الأيمن ما أعتقد أنه مسدس — أم أنا مخطئ؟" .

"فكرت أنه لو كان القادم من رجال البوليس... ليس هناك فيه سوى خزنة واحدة مملوءة" .

"هل هذا خاطر مبعثه اليأس يا سيدى؟" .

"لم أقرر ما إذا كنت سوف أستخدمه أم لا" .

"أفضل شيء أن تسلمه لى، إذا تم إيقافنا، على الأقل أنا لدىَّ تصريح بحمل سلاح، مع كل المخاطر التى نجابهها فى نوعية عملنا هذه الأيام. ما اسمه يا سيدى؟ أقصد الكلب".

"بولر".

"تعالى يا بولر، إنك كلب لطيف". أرسى الكلب رأسه فوق ركبتى هاليداى. "كلب لطيف أنت يا بولر. أنت بالطبع لا ترغب فى أن تسبب أى أذى لسيدك، أليس كذلك؟ ليس لرجل صالح مثل سيدك". أخذ بولر فى هز ما تبقى من ذيله "أعتقد أنهم يعلمون عندما تبدى إعجابا بهم" أخذ مستر هاليداى يداعب الكلب خلف أذنيه، وقد أبدى بولر إعجابا فائقا بذلك.

"أولا يا سيدى، إذا لم يكن لديك مانع، أعطنى هذا المسدس... آه، إذن أنت من النوع الذى يتقاتل مع القطط...فعلاً هى مخلوقات شريرة".

"سوف يسمعون طلقة الرصاص".

"سوف نهبط إلى البدروم. إنها طلقة واحدة — لا أحد سوف يهتم. ربما يظنون أنها انطلاقة من شكمان سيارة".

"إنه لن يهبط معك".

"دعنا نجرب، تعالى معى يا بولر يا صديقى، نخرج فى نزهة، نزهة يا بولر".

"كما ترى، لن يتحرك معك".

"لقد حان وقت رحيلنا يا سيدى. من الأفضل أن تهبط معى إلى البدروم. كنت أود أن أرحمك من هذا المنظر".

"لا.. أود أن أستبقى بعيدًا".

قام كاسل بقيادة المسير هابطًا السلالم إلى البدروم، تابعه بولر وبعدهما مستر هاليداى الذى قال: "لا أفضل أن تضىء الأنوار، ربما هذا يثير الفضول".

قام كاسل بغلق الشباك الذى كان يستخدم يومًا كمزلق للفحم.

"الآن يا سيدى أعطنى المسدس..".

"لا، سوف أفعلها بنفسى". أمسك كاسل بالمسدس وصوبه نحو بولر الذى كان مستعدًا للاستمتاع بلعبة جديدة، لذا كما لو أنه يلتقط عظمة من الكاوتش، قبض على المسدس بأسنانه محاولا نزعه من قبضة كاسل. ضغط كاسل على الزناد مرتين، بسبب الخزنة الأولى الفارغة. شعر بعدها بالدوار.

قال: "سوف أحتاج إلى كأس من الويسكى قبل رحيلنا".

"أنت تستحق ذلك يا سيدى. شىء غريب أن يغرم الإنسان بحيوان أعجمى، مثلاً تجد أن قطتى.".

"كُنت فى الواقع أكره بولر..حسنًا، أنا لم أقتل أى كائن من قبل".

* * *

(٦)

قال مستر هاليداى وهو يقطع فترة طويلة من الصمت، فقد تسبب موت بولر فى عرقلة ألسنتهما: "أمر صعب قيادة السيارة فى خضم هذه الأمطار".

"إلى أين نحن ذاهبون؟ إلى مطار هيثرو؟ سوف يكون ضباط الهجرة فى انتظارى هناك".

"سوف أصطحبك إلى فندق بجوار المطار. إذا قمت بفتح شنطة القفازات يا سيدى سوف تعثر على مفتاح. خاص بالغرفة رقم ٤٢٣ بالفندق. كل ما سوف تفعله هو أن تركب المصعد. لا تذهب إلى مكتب الاستقبال. انتظر فى غرفتك إلى أن يأتيك أحدهم".

"افرض أن خادمة..".

"علق على باب غرفتك علامة "ممنوع الإزعاج".

"وماذا بعد ذلك...؟".

"لا أعلم يا سيدى، هذه كل التعليمات التى تسلمتها".

تعجب كاسل كيف سوف يستقبل سام خبر موت بولر. يعلم الآن أنه لن يحصل على عفو عن ذلك أبدًا. تساءل: "كيف تشاركت فى هذا الموضوع أساسا؟".

"ليست هى مشاركة يا سيدى. لقد كنت عضوًا فى الحزب، بشكل هادئ كما نقول، منذ أن كنت ولدًا. لقد التحقت بالجيش فى سن السابعة عشرة باعتبارى متطوعًا، كنت قد أعطيت عمرى بالخطأ، وعلى الرغم من أننى كنت مرحلا إلى فرنسا، وجدت نفسى داخل آرشانجل، أصبحت أسيرا على مدى أربع سنوات. رأيت هناك الكثير وتعلمت الكثير خلال هذه الأربعة أعوامًا".

"كيف عاملوك هناك؟".

"كان موقفى صعبًا، لكن الإنسان عندما يكون فتى صغيرًا يستطيع أن يتحمل الكثير، ودائمًا ما تعثر على شخص يتصادق معك. تعلمت القليل من اللغة الروسية، ما يكفى لأكون مترجما لهم، وهم أعطونى كتبًا لأقرأ عندما يتعذر عليهم أن يعطونى طعاما".

"كتب عن الشيوعية؟".

"بالطبع يا سيدى. إنها أياد تبشيرية خلافًا للكتاب المقدس، ألا تدعى هكذا؟".

"إذن أنت واحد من المخلصين؟".

"كانت حياة مغرقة فى الوحدة، هذا ما أعترف به. هل تعلم، لم يكن فى استطاعتى قط أن أحضر اجتماعات أو أشارك فى مظاهرات، حتى ابنى لا يعرف حقيقتى. إنهم يستخدموننى فى إنجاز أمور بسيطة – كما فى حالتك يا سيدى. وقد قمت بالفعل بالتقاط أشياء كثيرة كُنت أنت تتركها فى النقاط المحددة لك... أوه، كان يومًا سعيدًا فى نظرى عندما دخلت أنت للمرة الأولى إلى مكتبتى، شعرت بأننى أصبحت أقل وحدة".

"ألم يتغير إيمانك قليلاً يا هاليداى؟ أعنى – ستالين، المجر وتشيكوسلوفاكيا؟".

"لقد رأيت ما يكفى من روسيا عندما كنت شابًا صغيرًا .... وفى إنجلترا حدث الكساد الكبير وأنا عائد إلى البلاد ؛ كان هذا فيه ما يكفى ليطعمنى ضد هذه الأمور الصغيرة".

"أمور صغيرة؟".

"إذا غفرت لى قولى هذا يا سيدى، فضميرك يسمح لك بأن تكون انتقائيا. يمكن لى أن أرد عليك بذكر: هامبورج، درسدن وهيروشيما. ألم تتسبب هذه الأحداث فى هز ثقتك قليلاً فيما يدعونه بالديمقراطية؟ ربما يكون هذا ما حدث، وإلا ما كنت الآن فى وضعك هذا".

"تلك حوادث تتعلق بالحرب".

"أهلى كانوا فى خضم الحرب منذ عام ١٩١٧".

أخذ كاسل يحملق فى نشاط تلك الليلة المطيرة عبر مساحات السيارة "إنك تأخذنى إلى مطار هيثرو".

"ليس بالضبط"..... قام هاليداى برفق إزاحة ورقة شجر خريفية من على ركبة كاسل "لا تقلق يا سيدى، إنهم يراعونك جيدا. إننى أحسدك. سوف ترى موسكو، ولا أتعجب من ذلك".

"ألم تذهب يومًا إلى هناك؟".

"أبدا. أقرب مكان إلى موسكو كان هو معسكر السجن فى آرشانجل. هل شاهدت يومًا مسرحية "الأخوات الثلاث" التى كتبها تشيكوف. لقد شاهدتها مرة واحدة، لكننى دائمًا ما أتذكر ما نطق به أحد أبطال المسرحية مذكرًا نفسى عندما يعصينى النوم: "أتمنى أن أبيع المنزل كى أنهى كل شىء ثم أهرب إلى موسكو".

"سوف تعثر على موسكو أخرى غير التى قصدها تشيكوف".

"هناك شىء آخر نطقت به واحدة من الأخوات الثلاث، قالت: "السعداء لا يلتفتون إذا كان الوقت شتاءً أم صيفًا، وإذا عشت فى موسكو لن أهتم بنوعية الطقس هناك". أوه، حسنا. عندما أشعر بهبوط معنوياتى، أخبر نفسى بأن ماركس(*) نفسه لم يعرف موسكو أيضًا، ثم تجدنى أحدق فى شارع كومبتون القديم وأفكر، لندن ما زالت هى لندن ماركس، أيضًا سوهو هى سوهو ماركس، وهنا هو المكان الذى طبع فيه "المانيفستو الشيوعى" للمرة الأولى".

من خلال الأمطار، ظهرت أمامهم لورى يكاد ينحرف ليصدمهم. قال هاليداى: "يا لهم من سائقين مغفلين، لا يعلمون أن شيئًا يمكن أن يصيبهم بأذى وهم داخل تلك القوى الجبارة. يجب أن تكون لدينا عقوبات أقوى للقيادة الخطرة. هل تعلم يا سيدى، لقد كانت تلك هى أساس المشكلة فى المجر وتشيكوسلوفاكيا - القيادة الخطرة. دوبشك(**) كان سائقًا يتصف بالخطورة فى قيادته ... هكذا الموضوع بكل بساطة".

(*) كارل ماركس:(١٨١٨-١٨٨٣) فيلسوف واقتصادي وصحفى ألمانى الأصل، دراساته فى الاقتصاد أدت إلى توضيح علاقة العمل برأس المال.. عاش زمنًا طويلاً فى لندن.

(**) دوبشك: (١٩٢١-١٩٩٢) هو سياسى سلافى كان زعيم تشيكوسلوفاكيا خلال ١٩٦٨-١٩٦٩.

"هذا لا ينطبق علىَّ، أننى لم أتمنى قط أن تنتهى حياتى فى موسكو".

"أعتقد أن هذا يبدو غريبًا نوعًا — أنك لست واحدًا منا، لكن لا تخشى شيئا. أنا لا أعلم ما الذى فعلته من أجلنا، لكن بالتأكيد هى أمور مهمة، لذا يهتمون بك. كن متأكدا من ذلك. لكن لماذا، لن أكون مندهشًا إذا لم يعطوك نظام لينين أو يضعوا صورتك على طابع بريد مثل سورج".

"سورج هذا كان شيوعيا".

"أنا أشعر بالفخار وأنا أفكر أنك فى طريقك إلى موسكو داخل سيارتى القديمة هذه".

"إذا تزاملنا فى هذه السيارة على مدى قرن من الزمان فإنك لن تستطيع تحويلى يا هاليداى".

"مع ذلك، أتعجب، لقد فعلت الكثير من أجلنا".

"لقد سايرتكم فيما يختص بإفريقيا فقط، هذا كل ما فى الأمر".

"بالضبط يا سيدى. أنت الآن فى الطريق. إفريقيا هى الأطروحة، وتلك هى كلمات هيجل نفسها(*)، لكن أنت تنتمى إلى نقيض هذه الأطروحة ؛ مع ذلك أنت تعتبر واحدًا من المنتمين إلى هذه التوليفة".

"هذا كله يعتبر لغوًا فى نظرى، لست بالفيلسوف".

"ليس مهمًا أن يكون المناضل فيلسوفًا، ما زلت أقول إنك مناضل".

"لكن ليس من أجل الشيوعية، أنا بالصدفة أصبحت معهم".

(*) هيجل (١٧٧٠–١٨٣١) فيلسوف ألمانى، يعتبر أول المبشرين بالمذهب الذى سوف يرفع لواءه ماركس.

"سوف يعالجونك هناك فى موسكو".

"فى جناح للأمراض النفسية؟".

هذه الجملة الأخيرة أخرست هاليداى. هل يا ترى قد عثر على ثغرة فى جدالية هيجل، أم هو صمت الألم والشك؟ هذا لن يعرفه كاسل أبدًا لأن الفندق كان أمامهما، كانت أضواؤه تبرق من خلال الأمطار.

"انزل أنت الآن هنا، من الأفضل ألا يشاهدنى أحد معك" توقف بالسيارة ومر عليهم طابور من السيارات، كانت الأنوار الأمامية لكل سيارة تنير خلفية السيارة المقبلة، أيضًا كانت هناك طائرة بوينج ٧٠٧ تهبط الآن فى مطار هيثرو. قام هاليداى بفتح شنطة سيارته الخلفية قائلاً: "هناك شىء نسيته". قام بسحب كيس بلاستيك "ضع الأشياء التى فى شنطتك داخل هذا الكيس، ربما يلاحظك القائمون على مكتب الاستقبال إذا ذهبت ناحية المصعد ومعك شنطة".

"لا يوجد مكان فى هذا الكيس لكل الأشياء التى معى".

"إذن اترك ما يمكن الاستغناء عنه".

أطاع كاسل، حتى بعد كل تلك الأعوام التى قضاها فى عالم الأسرار، تحقق أنه فى حالة الطوارئ، فإن هذا الذى كان يومًا شابًا متطوعًا فى آرشانجل هو الخبير الحقيقى. قام وهو متردد بالاستغناء عن بيجاماته.. فكر، فى السجن يمكن لهم أن يدبروا له بيجامات — كذلك السويتر. إذا تدرج معى الأمر، سوف يكونون مضطرين إلى أن يمدوننى بلباس دافئ.

قال هاليداى "لك عندى هدية صغيرة. نسخة من رواية كتبها ترولوب التى كنت قد طلبتها. لن تكون بالطبع فى حاجة إلى نسخة أخرى. إنها رواية طويلة، لكن سوف يكون أمامك كثير من أوقات الانتظار، وهذا ما يحدث فى أوقات الحروب. اسم الرواية "الأسلوب الذى نعيش به الآن".

"هذه الرواية حفلت بتوصية من ابنك؟".

"أوه، لقد خدعتك قليلاً فى هذا الأمر. فأنا الذى أقرأ لترولوب وليس هو. كاتبه المفضل شخص اسمه روبنز. أرجو أن تغفر لى خدعتى الصغيرة .... أود أن تفكر فيه بشكل أفضل على الرغم من كل ما يفعله فى مكتبته. إنه ولد طيب".

هز كاسل يد هاليداى: "أنا متأكد من ذلك. أتمنى أن تسير الأمور معك أفضل من ذلك".

"تذكر، اذهب مباشرة إلى الغرفة ٤٢٣ وانتظر".

تحرك كاسل فى اتجاه أنوار الفندق حاملاً الكيس البلاستيك. شعر بالفعل بأنه فقد كل اتصال له بأى شىء يعرفه فى إنجلترا.. كل من سارة وسام لا يتواصلان معه الآن وهما فى منزل والدته الذى لم يكن قط منزلا له. فكر: كنت أشعر بالفعل بأننى فى منزلى عندما كنت فى بريتوريا، كان لدىَّ عمل أنجزه هناك، لكن الآن لم يعد أمامى أى عمل. ناداه صوت وصله من خلال الأمطار: "حظ سعيد يا سيدى، أفضل الحظوظ"؛ ثم سمع السيارة وهى تبتعد.

* * *

(٧)

كان هو فى حيرة عندما عبر باب الفندق سار مباشرة إلى الجناح الكاريبى الواسع داخل الفندق. لم يكن هناك أى مطر، اشتم الهواء الدافئ المشبع بالرطوبة، تذكر فى الحال إجازة كان قد قضاها بعد انتهاء الحرب.. كان يحيط به – وهذا ما يجب أن يكون موجودًا فى أى منطقة كاريبية– أصوات أمريكية متعددة. لم يكن هناك أى مخاطر أن يرقبه أحدا ممن زحموا مكتب الاستقبال الطويل، الذين كانوا فى تلك اللحظة منهمكين بالتعامل مع دفق من القادمين من الأمريكان، لعلهم وصلوا الآن من المطار، هل هو مطار كمنجزتون آن بردجتاون؟ سار أمامه جرسون أسود يحمل كأسين من الروم متجهًا نحو رجل وامرأة يجلسان حول البركة. أما المصعد فهو هناك، بجواره منتظر مفتوح الأبواب، لكنه مع ذلك جلس فى مكانه مندهشًا. بدأ الزوجان فى احتساء مشروبهما باستخدام الشفاطات تحت أضواء النجوم الاصطناعية. مد كاسل يده ليتأكد أنه لا مطر ما زال يهطل، ثم لاحظ أن أحدهم ينادى خلفه: "ماذا، معقول هذا موريس؟ ما الذى تفعله فى هذا الجناح؟" منع كاسل يده وهى فى منتصف طريقها إلى جيبه واستدار ينظر. شعر بالسعادة لأن المسدس لم يعد معه.

هذا المتحدث هو شخص اسمه بليت، كان يومًا واحدًا من عملاء كاسل لعدة أعوام ينقل إليه أخبار السفارة الأمريكية، إلى أن تم نقله إلى المكسيك، ولعلهم فعلوا ذلك لأنه لا يتقن التحدث باللغة الإسبانية. صاح بحماس مفتعل: "بليت!" كان الموقف كما هو، بليت يدعوه باسمه الأول منذ مقابلتهما الأولى لكن كاسل لم يتعد قط مرحلة بليت.

تساءل بليت: "إلى أين أنت راحل؟"، لكنه لم ينتظر إجابة، فهو دائمًا معجب بالحديث عن نفسه. قال: "أنا عن نفسى مسافر إلى نيويورك، لكننى أقضى الليلة هنا. إنها فكرة رائعة، هذا الجناح يشبه جزر العذراء. كنت أتوق أن أرتدى الشورت البرمودى لو كان معى الآن".

"كنت أظن أنك فى المكسيك؟".

"إنها قصة قديمة. إنني الآن في المكتب الأوروبي مرة أخرى. هل ما زلت قائما في إفريقيا السوداء؟".

"نعم".

"وأنت تأخرت هنا؟".

قال كاسل مجتهدا أنه لا يكتشف موضوع تخفيه: "عليَّ أن أنتظر هنا".

"ما رأيك أن نتقابل معًا لنحتسى الشراب المخصوص، إنهم يخلطونه هنا بشكل رائع".

"إذن سوف أقابلك بعد نصف ساعة من الآن".

"أوكى، وليكن هذا بجوار البركة".

"بجوار البركة".

دخل كاسل المصعد فتبعه بلنت وهو يقول: "أنت صاعد إلى الأدوار العليا، أنا كذلك. أى دور؟".

"الرابع".

"إنه دورى أيضًا. سوف أجعلك تستمتع بركوب مجانى".

فكر كاسل: هل هناك احتمال أن الأمريكيين يراقبونه أيضا؟ فى تلك الظروف يبدو أنه ليس من الأمان أن يضع الإنسان كل أموره وينسبها لمجرد الصدفة".

تساءل بلنت: "هل سوف تتناول طعامك هنا؟".

"لست متأكدا، أنت ترى أن هذا يعتمد على..".

"أنت بالتأكيد ما زلت محتفظًا بذهنك الأمنى أيها العجوز موريس".

سارا معًا فى الممر. أتت الغرفة ٤٢٣ أولاً. تلجلج كاسل قليلاً مع مفتاحه ليراقب أين سوف يذهب بليت. الغرفة ٤٢٧.... لا إنها الغرفة ٤٢٩. شعر كاسل بالأمان عندما أغلق الباب ورائه بينما علامة طلب عدم الإزعاج معلقة على بابه من الخارج.

كان مؤشر التدفئة الرئيسى ثابتًا عند ٧٥. إنه جو مناسب للكاريبى. ذهب إلى النافذة ونظر إلى الأسفل، رأى البار الدائرى وأعلاه تلك السماء الصناعية، بينما هناك امرأة بشعر أزرق تخترق طريقًا لنفسها متجهة ناحية حافة البركة. يبدو أنها قد شربت الكثير من الروم. انهمك بعد ذلك فى فحص غرفته جيدًا خوفًا من احتوائها على بعض هنات المستقبل، كما كان يفحص منزله خوفًا من احتوائه على هنات الماضى. سريران للنوم، مقعد وثير، دولاب، خزانة بأدراج، مكتب خالى السطح ما عدا قاعدة مفكرة خشبية. باب يؤدى إلى الحمام، مقعد حمام مغطى بالورق ما يؤكد أنه صحى، مستلزمات غسيل ونظافة الأسنان ملفوفة بورق من البلاستيك. عاد إلى غرفة النوم وفتح قاعدة المفكرة. علم من العنوان المطبوع أن اسم الفندق هو ستار فلايت، وهناك كارت يشرح موقع المطاعم والبارات الداخلية– فى أحد المطاعم، تتوافر الموسيقى والرقص – اسمه البيزارو، بينما على النقيض، وجد أن مطعم المشويات اسمه ديكنز، كذلك هناك مطعم ثالث اسمه أوليفر تويست "يمكن أن تخدم نفسك هنا بشكل أفضل"... فى كارت آخر، هناك تنبيه يذكر أن هناك أتوبيسًا يتجه إلى مطار هيثرو كل نصف ساعة.

اكتشف تحت التليفزيون ثلاجة تحتوى على بعض زجاجات صغيرة من الويسكى، الجن، البراندى وماء الصودا، مع أنواع مختلفة من البيرة، كذلك ربع زجاجة من الشمبانيا. اختار كعادته خمر "J&B" وجلس فى الانتظار. كان مستر هاليداى قد أخبره عندما أعطاه رواية ترولوب بأنه "سوف يكون أمامك وقت طويل للانتظار"؛ لذا أمسك بالرواية وبدأ فى القراءة، لحاجته أن يفعل شيئًا "فلندع القارئ يتعرف أولا على الليدى كادبورى، التى بموجب شخصيتها وأفعالها يعتمد كل ما تنضح به الصفحات التالية من إثارة واهتمام، حيث تجلس الآن على منضدة الكتابة فى غرفة منزلها القائم فى شارع بليك"... وجد أنها رواية لا يمكن لها أن تبعد أفكاره عن طريقة الحياة التى تجابهه الآن.

ذهب إلى النافذة، كان الجرسون الأسمر يمر تحته. شاهد بعد ذلك الشخص بلنت يظهر وهو يدير أبصاره هنا وهناك، بالتأكيد لم تمر نصف ساعة المتفق عليها، ومرور عشر دقائق لا تستحق أن يفتقده هذا الرجل.. هذا ما أكده لنفسه. قام فى الحال بغلق أضواء حجرته كى لا يتمكن بلنت من رؤيته إذا رفع رأسه إلى أعلى. جلس بلنت إلى البار الدائرى وطلب مشروبًا. كان البارمان منهمكًا فى وضع قطع من البرتقال والكريز فى كأسه. خلع بلنت الجاكت، إنه يرتدى قميصًا نصف كم، هذا أضاف إلى منظر النخيل والبركة ومنظر الليل المرصع بالنجوم. شاهده كاسل بعد ذلك وهو يستخدم تليفون البار طالبا رقما. هل هذا مجرد تخيل طرأ على ذهن كاسل من أن بلنت قد رفع رأسه نحو نافذة الغرفة ٤٢٣ بينما يتحدث؟ يخبر عن ماذا؟ لمن؟

سمع باب غرفته يفتح خلفه والإضاءة تشع مرة أخرى. استدار سريعًا، شاهد خيالاً يبرق في مرآة الدولاب، كأنما هو شخص لا يود أن يراه أحد شكل رجل صغير الحجم بشارب أسود يرتدى بذلة سمراء ويحمل شنطة سوداء. قال له الرجل بلغة واضحة وإن لم تكن بلغة إنجليزية صحيحة: "لقد تأخرت بسبب المواصلات".

"أنت أتيت من أجلى؟".

"الوقت قصير بالنسبة لنا، من الضرورى أن تصعد إلى الأتوبيس التالى المتوجه إلى المطار". بدأ بعد ذلك فى تفريغ حاجياته على المكتب.. أولا تذكرة طيران، باسبور، زجاجة بدت أنها مليئة بالصمغ، كذلك شنطة بلاستيك متخمة بأشياء مختلفة، أيضًا فرشة شعر ثم موسى حلاقة.

قال كاسل بلغة واضحة: "لدىَّ هنا كل احتياجاتى".

تجاهله الرجل قائلاً: "سوف تلاحظ أن تذكرتك إلى باريس فقط. وهذا أمر سوف أشرحه لك".

"إنهم يراقبون كل الطائرات مهما كان مقصدها".

"سوف يراقبون على الأخص الطائرة المتجهة إلى براغ التى سوف تغادر فيه فى الوقت نفسه الطائرة المتجهة إلى موسكو، تلك التى تأخرت بسبب بعض الأعطال الميكانيكية، وهذه للعلم مشكلة نادرة الحدوث. ربما تكون شركة طيران إيرفلوت الروسية فى انتظار راكب مهم. سوف يكون البوليس مهتمًا للغاية بالطائرتين المتجهتين إلى كل من براغ وموسكو".

"المراقبة سوف تتم فى وقت مبكر... فى مكاتب ضباط الهجرة. لن يكون هؤلاء فى حالة انتظار عند بوابات الدخول".

"هذا سوف يتم الاهتمام به. يجب عليك الآن أن تقترب من المكتب....دعنى أنظر إلى ساعتك فى ظرف خمسين دقيقة من الآن. والأتوبيس سوف يغادر من هنا بعد ثلاثين دقيقة. إليك هذا الباسبور".

"ما الذى أفعله فى باريس إذا وصلت فعلاً إلى هناك؟".

"سوف تجد من يقابلك بمجرد خروجك من المطار، هناك سوف تعطى تذكرة أخرى، وسوف يكون أمامك وقت كافٍ لتلحق بطائرة أخرى".

"إلى أين؟".

"ليس لدى أدنى فكرة. سوف تعلم عن ذلك عندما تصل باريس".

"سوف يكون عند الإنتربول خبر وإنذار فى ذلك الحين".

"لا، الإنتربول لا يتدخل أبدًا فى المسائل السياسية. هذا ضد التعليمات والقواعد لديهم".

فتح كاسل الباسبور. قال: "بارتردج، لقد اخترتم اسمًا جيدًا لطائر، وموسم صيد الطيور لم ينته بعد"؛ ثم نظر إلى الصورة: "لكن هذه الصورة لا تصلح أبدًا. لا تشبهنى على الإطلاق".

"هذا حقيقى، لكن الآن سوف نجعلك أكثر شبها بهذه الصورة".

أمسك الرجل بأدواته وذهب إلى غرفة الحمام، وبين أدوات غسيل الأسنان وضع صورة مكبرة للشخص الذى صورته على الباسبور.

"من فضلك اجلس على هذا المقعد". بدأ أولاً بترفيع حواجب كاسل، ثم عمل فى شعره... كانت تسريحة الرجل فى الصورة من نوع تسريحة الديك. شاهد كاسل فى المرآة المقص وهو يعمل، اندهش عندما أدرك أن تسريحة الديك هذه قد غيرت من شكله تماما، وأبرزت مقدمة رأسه بشكل واضح، بل وإنها استطاعت أن تغير من تعبيرات العين.

قال كاسل: "لقد شطبت عشرة أعوام من عمرى".

"اجلس ساكنا من فضلك".

بدأ الرجل بعد ذلك فى لصق شعيرات شارب رفيع.. شارب رجل حسيس ينقصه عنصر الثقة بالنفس. قال الرجل "لصق لحية أو شارب كث هى من الأمور اللافتة للنظر".

بهذا ظهر فى المرآة شخص غريب تمامًا.

قال الرجل: "أخيرًا، انتهينا. أعتقد أننا صنعنا عملاً جيدًا". ذهب بعد ذلك إلى شنطته وأخرج عصا تليسكوبية قصيرة، عندما فردها استطالت "أنت رجل أعمى. سوف تنال كل العطف يا مستر بارتردج، هذا وقد تم تخصيص مضيفة فرنسية سوف تقابل أوتوبيسك المقبل من الفندق وسوف تقودك خلال مكتب الهجرة حتى طائرتك، وفى فرنسا عندما تخرج من مطار رواسى سوف تتم قيادتك حتى مطار أورلى؛ حيث تنتظرك هناك طائرة اخرى كانت أيضًا قد تأخرت عن الإقلاع بسبب عطل ميكانيكى مفاجئ. وربما لن تكون بعد ذلك باسم بارتردج، سوف تتعرض إلى عمل ماكياج مختلف وأنت داخل السيارة المتجهة للمطار. من السهولة بمكان تغيير ملامح الوجه الإنسانى، وهذا يمثل طعنة قوية لأهمية دور الوراثة. لقد ولدنا جميعًا بملامح متشابهة ... فكر فى الأطفال، لكن البيئة هى التى تحدث التغييرات".

"تبدو كل المسائل سهلة فى نظرك، لكن هل هذا كله سوف ينجح؟".

"نظن أنها سوف تنجح".... قالها الرجل وهو يغلق شنطته: "أخرج الآن ولا تنسى أن تستخدم عصاك. أرجوك لا تحرك عينيك أبدا، حرك كل وجهك إذا نادى عليك أحد. حاول أن تجعل العين بلا تعبير".

بلا تفكير تناول كاسل رواية ترولوب.

"لا يا مستر بارتردج، الرجل الأعمى لا يقتنى روايات مكتوبة، أيضًا يجب أن تترك كيسك هذا هنا وراءك".

"إنها تحتوى فقط على غيار وموس للحلاقة..".

"الغيار عليه ختم المغسلة التى كنت تتعامل معها".

"أليس هو أمرًا غريبًا أن أسافر بلا أمتعة؟".

"هذا لن يكون معلوما لضابط الهجرة، إلا إذا طلب أن يشاهد تذكرتك".

"احتمال أن هذا يمكن أن يحدث".

"لا تهتم. أنت فقط راجع إلى منزلك وأنت تعيش فى باريس، والعنوان موجود فى الباسبور".

"ما مهنتى؟".

"على المعاش".

"هذا على الأقل أمر حقيقى".

خرج كاسل من المصعد وأخذ يدق بعصاه متجهًا إلى باب الخروج حيث الأوتوبيس فى الانتظار؛ بينما يعبر الأبواب التى تقود إلى البار والبركة، شاهد بلنت. كان هذا ينظر فى ساعته قلقًا. قامت سيدة عجوز بالقبض على ذراع كاسل قائلة: "هل سوف تصعد الأوتوبيس؟".

"نعم".

"أنا كذلك، دعنى أساعدك".

سمع صوتا ينادى خلفه: "موريس!" ... كان مضطرا إلى أن يسير ببطء لأن السيدة العجوز كانت تفعل كذلك. قالت له السيدة: "أعتقد أن أحدهم ينادى عليك".

"خطأ".

سمعت أصوات أقدام تسرع خلفه. سحب ذراعه من يد السيدة والتفت بكامل رأسه كما تم إبلاغه بذلك وحملق بثبات على جانب بلنت. نظر بلنت نحوه باندهاش قائلاً: "آسف، ظننت..".

قالت المرأة "سائق الأوتوبيس يشير إلينا، يجب أن نسرع".

عندما جلسا داخل الأوتوبيس متجاوزين، نظرت المرأة من الشباك، قالت: "بالتأكيد أنت تشبه صديقه، إنه ما زال واقفًا مكانه يحملق".

أجاب كاسل: "كل إنسان على الأرض، كما يقولون، له شبيه".

* * *

الجزء السادس

الفصل الأول

(١)

استدارت سارة وهى فى التاكسى لتنظر إليه، لكنها لم تتمكن من فعل ذلك بسبب زجاج السيارة الخلفى الرمادى المدخن. كان الأمر يبدو كأن موريس قد أغرق نفسه، بأكثر من صرخة وحيدة، فى خضم مياه بحيرة عميقة. لقد تعرضت سارة إلى السرقة، بلا أمل فى استعادة ما سلب منها، من المنظر أو الصوت اللذين طالما اشتهت أن يظلا معها على الدوام، شعرت بالغضب يسيطر عليها بسبب أى إحسان يقدم لها كأنما هو إجراء خسيس يقدم على فعله جزار عندما يقدم للعميل قطعة ممتازة من اللحم كان قد احتفظ بها من أجل زبون أفضل.

تناول طعام الغداء فى بيت حماتها وسط أشجار الغار، إنما يمثل قمة المحنة الغارقة فيها. كان لدى حماتها ضيف لا يمكن إلغاء موعد قدومه، هو أحد رجال الدين له اسم غير جذاب، اسمه بوتوملى – وتدعوه العجوز باسم إزرا – حضر إلى هذا المنزل بعد قضائه مهمة عمل فى إفريقيا. شعرت سارة كأنهما أحد عروض البروجكتور التى يلقى مادتها هذا الرجل. لم تقم مسز كاسل بتقديم سارة إليه، فقط قالت: "هذه هى سارة". كما لو أن المرأة قادمة من بيت من بيوت الأيتام، وهذا ما كانت تشعر به سارة بالفعل. هذا الرجل، بوتوملى، كان رقيقًا للغاية مع سام، يعامله كأنه أحد أفراد رعيته باهتمام محسوس. أما القطة، تنكر بيل التى هربت بمجرد رؤية سارة وسام، وأنها تخاف من بولر، فإنها أصبحت صديقة لهما ودائمًا ما تخمش فى جونلة سارة.

قال مستر بوتوملى: "أرجو أن تخبرينى عن الأحوال السائدة الآن فى سويتو، فكما تعلمين، كان مجال عملى منحصرًا فى روديسيا، وقد بالغت الصحف الإنجليزية فى هذا الشأن، فنحن لسنا بهذا القدر من السواد كما يتم رسمنا". هذه الإضافة الأخيرة جعلت وجهه يحمر بسبب خطأه. قامت مسز كاسل بصب كوب من الماء وقدمته له، أضاف بالقول "أعنى، هل يمكن لك أن تنشئى ولدًا صغيرًا هناك بشكل جيد؟". كانت حملقته الدائمة الموجهة إلى سام كأنما هى حزمة من الضوء المركز فى مسرح نادٍ ليلى.

قالت مسز كاسل بتردد: "كيف يمكن لسارة أن تعرف ذلك؟ إنها زوجة ابنى".

زادت حمرة خدى مستر بتوتوملى: "آه، إذن أنت هنا فى زيارة؟".

قالت مسز كاسل: "سارة تعيش معى حاليا. ابنى لم يعش قط فى سويتو، كان يعمل فى سفارة".

"بالتأكيد هو أمر لطيف أن يقدم هذا الولد الظريف ليزور جدته".

فكرت سارة: هل هذا هو مسار حياتهما منذ الآن؟

بعد مغادرة مستر بوتوملى، أخبرتها مسز كاسل بأن بينهما حوارًا عميقًا، ثم أضافت: "لقد طلبت موريس تليفونيًا. كان فى حالة نفسية سيئة"، ثم التفتت ناحية سام: "اذهب يا عزيزى إلى الحديقة لتلعب".

قال سام "إنها تمطر".

"لقد نسيت ذلك يا عزيزى، اذهَب إلى الدور العلوى والعب مع القطة تنكر بيل".

"سوف أذهب للدور العلوى، لكن لن ألعب مع قطتك. بولر هو صديقى. إنه يعلم جيدًا كيف يتعامل مع القطط".

عندما أصبحا بمفردهما قالت مسز كاسل: "موريس قال لى إنه إذا أنت عدت إلى منزلكما فإنه سوف يغادره، ما الذى فعلتيه معه يا سارة؟".

"أفضل ألا أتحدث عن هذا الموضوع. أخبرنى موريس بأن أحضر إلى هنا، لذلك حضرت".

"أيكما – حسنا، من الذى يمكن أن يقال إنه المذنب؟".

"هل من الضرورى أن يكون هناك مذنب بين زوجين؟".

"سوف أطلبه مرة أخرى تليفونيًا".

"لا أستطيع أن أمنعك، لكن كل هذا بلا فائدة".

طلبت مسز كاسل النمرة مرة أخرى، وقدمت سارة صلاة لله الذى لا تؤمن به بأن تسمع صوت موريس، لكن: "لا مجيب"... هكذا قالت مسز كاسل.

"احتمالاً أن يكون فى المكتب الآن".

"ظهر يوم السبت؟".

"الأوقات مختلفة بسبب طبيعة عملهم".

"كنت أظن أن مكتب العلاقات الخارجية يحتفظ بأوقات أكثر انتظاما".

ظلت سارة حتى المساء، وبعدما وضعت سام فى السرير، سارت بعد ذلك فى شوارع المدينة، ذهبت إلى بار كراون ومنحت نفسها كأسا مزدوجة من "**J&B**" فى ذكرى موريس، ثم ذهبت إلى مكان التليفون الداخلى. كانت تعلم أن موريس قد حذرها من أن تتصل به إذا كان ما زال فى المنزل، لأن تليفونه مراقب. سوف يتظاهر بالغضب من اتصالها، متابعًا حبكة الشجار بينهما الذى لم يكن قائمًا فى الأساس، لكن على الأقل سوف تعلم انه ما زال فى المنزل وليس فى قسم البوليس أو فى طريقه إلى قطر أوروبى لم يزره من قبل. دعت التليفون يرن لفترة طويلة قبلما تضع السماعة كانت تدرى أنها تجعل الأمور سهلة بالنسبة (لهم) كى يتتبعوا هذه المكالمة، لكنها لم تهتم. إذا أتوا لمقابلتها على الأقل سوف تصلها أخبارًا عنه. تركت مكان التليفون ورجعت لكى تجرع كأسها، ثم عادت إلى منزل مسز كاسل؛ قالت هذه لها: "سام كان يطلبك". صعدت سارة إلى أعلى.

"ما بك يا بسام؟".

"هل تظنين أن بولر بصحة جيدة؟".

"بالطبع هو فى أفضل حال، ما الذى يمكن أن يحدث له؟".

"حلمت حلما".

"بماذا حلمت؟".

"لا أتذكر. سوف يشتاق بولر لى. كنت أتمنى لو أحضرناه معنا".

"لا يمكن هذا. وأنت تعلم ذلك. آجلاً أو عاجلاً سوف يقضى على تنكر بيل".

"لن أهتم بذلك".

هبطت بعد ذلك بتردد إلى الدور الأرضى، حيث كانت مسز كاسل تشاهد التليفزيون. تساءلت سارة: "هل يوجد أى شىء مثير فى الأنباء؟".

"نادرًا ما أستمع للأخبار، أفضل أن أقرأ الأخبار فى صحيفة التايمز".

لكن فى اليوم التالى، فعلاً لم تكن هناك أى أخبار يستحق أو يسترعى الاهتمام فى صحف الأحد، فهو لا يعمل أبدًا يوم الأحد. فى منتصف النهار ذهبت مرة أخرى إلى محل كروان وطلبت منزلها تليفونيًا، واستمرت ممسكة بالسماعة فترة طويلة ؛ ربما يكون فى الحديقة مع بولر، لكن فى النهاية تخلت حتى عن هذا الأمل. أخذت تعزى نفسها بفكرة أنه اضطر إلى أن يهرب، لكن عندما ذكرت نفسها أن لديهم المقدرة الفائقة أن يقبضوا عليه ... أليس مقدار الحجز هو ثلاثة أيام ؛ إذا لم يوجه إليه أى اتهام؟

أعدت مسز كاسل طعام الغداء، ذاك الذى يتم تقديمه دومًا الساعة الواحدة ظهرا. تساءلت سارة: "هل يمكن أن نستمع للأخبار؟". عثرت سارة على محطة الراديو رقم ٣، قالت لها مسز كاسل "لا يوجد أى أخبار يستحق الاستماع إليه أيام الآحاد". كانت هذه السيدة محقة فى قولها بالطبع. لم يمر يوم أحد بهذا البطء على سارة. توقف هطول المطر،

حاولت الشمس جاهدة أن تعثر لنفسها على ثغرة وسط كل هذه السحب المتكاثفة، قامت سارة بمصاحبة سام فى تمشية خلال المكان الذى يدعونه باسم الغابة. لم يكن هناك أى أشجار، فقط بعض الشجيرات الضئيلة وأعشاب (أحد أجزائها استصلح ليصبح مضمارا لرياضة لعبة الجولف).

قال سام "إننى أفضل آشردوج عن هذه"... ثم بعد ذلك بقليل: "التمشية لا تعتبر تمشية دون بولر". تعجبت سارة: إلى متى سوف تستمر حياتهما بهذا الشكل؟ قاما بعد ذلك بالعبور عند أحد أطراف ملعب الجولف ليعودا إلى المنزل. أحد لاعبى الجولف الذى كان واضحًا عليه أنه قد تناول غداءً شهيًا، صاح فيهما أن يبتعدا ويسلكا الطريق العام. عندما لم تتجاوب سارة سريعا، نادى عليها قائلاً: "هاى، إننى أتحدث معك يا توبسى!" .. تذكرت سارة أن توبسى هذه كانت شخصية زنجية فى رواية ما، وقد قامت طائفة الميثودست بإعطائها هذا الكتاب لتقرأ فيه عندما كانت طفلة.

تلك الليلة، قالت لها مسز كاسل "حان الوقت لكى نتبادل معًا حديثًا جادًا يا عزيزتى".

"عن ماذا؟".

"أنت تسأليننى عن ماذا؟ حقًا يا سارة! عنك أنت وحفيدى بالطبع... حتى موريس لم يشأ أن يخبرنى عن ماهية هذا الشجار الذى نشب بينكما. هل لديك أو لدى موريس أى نية لأن تتطلقا؟".

"ربما، فالانفصال مماثل لذلك، ألا ترين هذا؟".

"من منكما هجر الآخر؟ لأن تحضرى إلى منزل أم زوجك لا يعتبر هذا هجرانا، وموريس إنه لم يهجرك ما دام ما زال فى المنزل".

"إنه ليس فى المنزل".

"أين هو الآن إذن؟".

"لا أعلم، لا أعلم يا مسز كاسل. ألا يمكن لك أن تنتظرى قليلاً ولا تتحدثى عن هذا الموضوع؟".

"هذا منزلى يا سارة. من المريح لى أن أعرف إلى متى سوف تظلين هنا. يجب أن يذهب سام إلى المدرسة، هناك قانون ملزم بذلك".

"أعدك بأنه إذا رضيت أن نظل هنا لمدة أسبوع فقط، فإننا..".

"إننى لا أطردك من هنا يا عزيزتى، أحاول فقط أن أجعلك تتصرفين كإنسانة بالغة، أعتقد أنه لازما أن تتصلى بمحام تتحدثين معه إذا شئت ألا تتحدثى معى. يمكن لك أن تتحدثى مع مستر بورى فى الغد، إنه يرعى وصيتى".

"فقط أرجو أن تمنحينى أسبوعًا واحدًا فقط يا مسز كاسل".. (كان هناك وقت اقترحت فيه هذه السيدة أن تناديها سارة بـ (ماما)، لكن الآن يبدو أنها مستريحة وسارة مستمرة فى مناداتها بمسز كاسل.

يوم الاثنين، أخذت معها سام إلى المدينة، وتركته فى محل ألعاب وأسرعت إلى محل كراون. هناك طلبت مكتب عمل كاسل تليفونيًا - كان هذا عملاً جنونيًا وبلا معنى، لأنه لو كان موريس ما زال فى لندن فإنه بالتأكيد كان قد طلبها تليفونيًا. فى جنوب إفريقيا، منذ زمن بعيد عندما كانت تعمل لحسابه، لم تكن قط محتاطة بشكل بالغ، لكن فى هذه المدينة الريفية الآمنة التى لم تعهد من قبل أى اضطرابات عنصرية، أو خبطات منتصف الليل على الأبواب، كان التفكير فى المخاطر يبدو غريبًا وشاذًا. طلبت فى التليفون أن تتحدث مع سكرتيرة مستر كاسل، عندما أجابها صوت نسائى، قالت: "هل هذه سنثيا؟ (كانت تعرفها بالاسم على الرغم من أنهما لم يتقابلا من قبل أو تحدثا معًا). مرت فترة صمت طويل - صمت يكفى لطلب أحدهم لأن يستمع إلى هذه المكالمة؛ لكنها لم تصدق ذلك وهى تراقب بعينيها ذلك البار الصغير الذى يحفل بكبار السن ومن هم على المعاش، وهى تنظر نحو اثنين من سائقى التريلات يحتسيان البيرة. أخيرًا وصلها الصوت الرفيع مرة أخرى.

"سنثيا ليست موجودة هنا اليوم".

"متى سوف تكون متواجدة؟".

"أخشى أننى لا أستطيع أن أخبرك بذلك".

"إذن هل يمكن لى أن أتحدث مع مستر كاسل؟".

"من المتحدث من فضلك؟".

فكرت: إننى أكاد أخون موريس. وضعت السماعة مكانها. شعرت أيضًا بأنها قد خانت ماضيها .. المقابلات السرية، الرسائل المكودة، الحرص الذى كان يبديه موريس وهو فى جوهانسبرج لكى ينقل لها التعليمات كى يجعل كليهما بعيدًا عن اليد الغاشمة لمنظمة (بوس). وبعد كل هذا، مولر الموجود حاليًا هنا فى إنجلترا؛ وقد جلس بجوارها على مائدة الطعام.

عندما عادت إلى المنزل، لاحظت أن هناك سيارة غريبة تقف فى الانتظار أمام باب المنزل. قابلتها مسز كاسل فى الصالة لتقول لها: "هناك شخص يود الحديث معك يا سارة، وقد جعلته يجلِس فى غرفة الاستقبال".

"من هو؟".

خفضت مسز كاسل من صوتها لتهمس: "أعتقد أنه أحد رجال البوليس".

هذا الرجل له شارب كث أصفر، كان يشده بعصبية. إنه بالتأكيد ليس من نوعية رجال البوليس الذين عرفتهم سارة فى أيام شبابها المبكر. تعجبت، كيف أمكن لمسز كاسل أن تتكهن مهنته... نظرت نحوه وقدرت أنه لا يشبه سوى تاجر بسيط يتعامل مع العائلات المحلية منذ عدة أعوام. بدا عليه كأنه شخص مستكين لطيف مماثلاً لغرفة استقبال الدكتور كاسل الكبير، التى ظلت كما هى بلا تغيير بعد وفاة هذا الطبيب... ما زالت علبة دخان الغليون على المكتب، كذلك إناء المهملات الصينى، أيضًا المقعد الوثير الذى ربما يخشى أن غريب أن يجلس عليه. كان الرجل واقفًا عند رف الكتب، يكاد يخفى بجرمه العريض مجموعة مجلدات لويب الكلاسيكية، كذلك مجلدات إنسكلوبيديا بريتانيكا الطبعة الحادية

عشرة. تساءل الرجل: "مسز كاسل؟": كادت سارة أن تجيب: "لا".. إنك تقصد والدة زوجى، فهى فى الواقع تشعر بأنها غريبة فى هذا المنزل.

أجابت: "نعم، لكن لماذا؟".

"أنا المفتش بتلر".

"نعم؟".

"لقد تلقيت مكالمة من لندن، تخبرنى بأن أحضر لمقابلتك؛ هذا إذا كنت هنا".

"لماذا؟".

"فكروا أنه ربما فى إمكانك أن تخبرينا كيف يمكن أن نتواصل مع زوجك".

شعرت فى الحال براحة عميقة – إنه على كل حال ليس فى السجن الآن – لكن حتى هذا اللطف والرقة وتلك الأمانة الواضحة فى نبرات صوت هذا المفتش، ربما تخفى وراءها مصيدة، مثل تلك التى كان ينصبها رجال (بوس)، لكن هذه ليس بلاد (بوس). قالت: "لا، لا يمكننى. لا أعلم، لكن لماذا؟".

"حسنًا يا مسز كاسل، إنه شأن يختص بكلب".

صاحت "بولر؟".

"حسنا، إذا كان هذا اسمه".

"إنه اسمه، أرجوك أخبرنى عما حدث".

"إنكما تملكان منزلاً فى شارع كنجز، بيركهامستد، هل هذا صحيح؟".

"نعم" صدرت منها ضحكة ارتياح "هل تورط بولر فى قتل قطة مرة أخرى؟ لكن أنا هنا. أنا بريئة. يجب أن تقابل زوجى وليس أنا".

"لقد حاولنا أن نفعل ذلك يا مسز كاسل، لكننا لم نستطع التواصل معه. مكتبه يقول إنه لم يذهب للعمل، يبدو أنه خرج وترك الكلب، على الرغم..".

"هل كانت تلك قطة ثمينة؟".

"ليست هى قطة التى نحن مشغولون بها يا مسز كاسل. لقد اشتكى الجيران من ضوضاء، من أنين ..أحدهم اتصل بالبوليس تليفونيا، وربما تعلمين أنه كان هناك بعض اللصوص يعملون فى منطقة بوكسمور. أرسل البوليس رجلاً ليستطلع؛ وقد عثر هذا الرجل على نافذة مفتوحة فى المطبخ ؛ لذا لم يكن مضطرًا إلى أن يكسر أى زجاج... والكلب..".

"إنه لا يعض أحدًا؟ أنا لا أعرف أن بولر قد عض إنسانا".

"ما كان فى استطاعة هذا الكلب المسكين أن يعض أحدًا، لقد أطلق أحدهم عليه الرصاص، ومن فعل ذلك لم يكن ماهرًا. أخشى القول يا مسز كاسل أن رجل الشرطة اضطر آسفًا إلى أن يخلص الكلب من عذابه".

"يا الهى، ما الذى سوف يقوله سام؟".

"سام؟".

"ابنى، إنه مغرم ببولر".

"أنا أيضًا مغرم بالحيوانات". بدت الدقيقتان التاليتان ثقيلتين، مماثلة لتلك التى تنقضى وقوفًا احترامًا للأموات فى ذكرى الهدنة. قال المفتش بتلر بعد ذلك: "أنا آسف أن حملت لك هذه الأخبار المحزنة". هنا استمرت حركة مرور المشاة، وعادت إلى طبيعتها.

"أتعجب ما الذى سوف أخبر به سام".

"قولى إن الكلب قد تعرض لحادث سيارة ومات على الفور".

"نعم، أعتقد أن هذا أفضل شىء. أننى لا أحب أن أكذب على طفل".

"هناك كذب أبيض وكذب أسود". تعجبت سارة ما إذا كانت الكذبة التى لقنها إياها ما إذا كانت بيضاء أم سوداء. أخذت تحدق فى هذا الشارب الأصفر وتلك العيون الرحيمة وتعجبت، ما الذى دعا هذا الرجل أن يلتحق بخدمة البوليس. إنه يشبه إلى حد ما موضوع الكذب على الأطفال..

"ألا تجلس قليلاً يا حضرة المفتش".

"أنت عليك أن تجلسى يا مسز كاسل، أرجو أن تعذرينى. لقد كنت جالسًا طوال النهار". أخذ يتأمل فى مجموعة الغلايين المتراصة بتركيز شديد: إنها تمثل صورة قيمة، تمثل له باعتباره خبيرًا قيمة مادية نادرة.

قالت سارة "أشكرك لأنك حضرت بنفسك لتبلغنى ولم تكتف بإعلامى تليفونيا".

"حسنًا يا مسز كاسل، حضرت لأن هناك أسئلة أخرى. يظن رجال بوليس بيركهامستد أنه قد حدثت سرقة فى منزلكما، فهناك نافذة مطبخ مفتوحة، وربما يكون اللص هو الذى ضرب الكلب بالرصاص، لكن لا يبدو أن شىء قد حدث داخل المنزل، لكن لا أحد غيره أو زوجك يمكن أن يخبرنا عما نقص. هم غير قادرين على التواصل مع زوجك. هل كان لديه أي أعداء؟ ليس هناك أى مؤشرات تدل على حدوث عراك أو نضال، لكن بالطبع لن يحدث مثل هذا إذا كان الرجل الآخر يمتلك مسدسا".

"ليس لدى أى علم بوجود أعداء لنا".

"أحد جيرانكم قال إن لديه فكرة، لأنه كان يعمل فى مكتب الشئون الخارجية، وفى هذا الصباح حاولوا أكثر من مرة أن يتوصلوا إلى القسم الذى يعمل فيه زوجك، رؤسائه فى العمل قالوا إنهم لم يشاهدونه منذ يوم الجمعة، قالوا إنه كان من المفترض أن يكون متواجدًا اليوم فى عمله. متى آخر مرة شاهدتيه يا مسز كاسل؟".

"صباح يوم السبت".

"أنت حضرت إلى هنا يوم السبت؟".

"نعم".

"وهو ظل فى المنزل؟".

"نعم، كما ترى، لقد توافقنا أن ننفصل".

"بسبب شجار نشب بينكما؟".

"إنه قرار يا حضرة المفتش. لقد ظل زواجنا متواصلا لمدة سبع سنوات، والإنسان لا يستشيط غضبا بعد سبعة أعوام".

"هل كان زوجك يمتلك مسدسا يا مسز كاسل؟".

"هذا ما لا أعرفه. هذا محتمل".

"هل كان مستاء – بسبب هذا القرار؟".

"كلانا لم نكن نشعر بالسعادة، إذا كان هذا ما تقصده".

"هل فى إمكانك أن تذهبى إلى بيركهامستد وتنظرى أحوال منزلكما؟".

"لا أود ذلك، لكن أعتقد أنهم يمكن أن يجبرونى على فعل ذلك؟".

"ليس هناك ما يدعو لجعلك تفعلين هكذا، لكن، كما ترين، لا يمكن لهم أن يتغاضوا عن موضوع وقوع سرقة ما...ربما كان هناك شيء قيم لا يمكن لهم أن يقرروا ما إذا كان قد فقد أم لا. قطعة مجوهرات ثمينة مثلا؟".

"إننى لم أكن مغرمة باقتناء المجوهرات، نحن لم نكن من الأثرياء يا حضرة المفتش".

"أو لوحة فنية مثلا؟".

"لا".

"إذن هذا كله ربما يدعونا لأن نفكر أنه فى قد أقدم على فعل أحمق مجنون أو فيه اندفاع، لذا وهو غير سعيد وهناك مسدسا ملكه، إذن."... أمسك بالإناء الصينى وأخذ

يتأمل فى الرسوم المنقوشة عليه، ثم استدار ليتفحصها هى. تحققت الآن أن تلك العيون الرقيقة الرحيمة ليست على أى حال عيون طفل. أضاف: "لا يبدو عليك أنك منزعجة من هذا الاحتمال يا مسز كاسل".

"ليس كذلك، ليس هذا من نوعية الأشياء التى يمكن أن يفعلها".

"نعم، نعم. بالطبع أنت تعرفينه أفضل من أى إنسان آخر. أنا متأكد أنك على حق. إذن أنت سوف تبادرين بإبلاغنا، أليس كذلك، إذا حدث واتصل بك، هذا ما أقصده".

"بالطبع".

"تحت الضغوط، أحيانًا ما يرتكب الناس أمورًا غريبة، بل إنهم قد يفقدون الذاكرة".

حدج مجموعة الغلايين بنظرة مطولة كأنما لا يود أن يفارقها.

قال: "سوف أتصل برجال بوليس بيركهامستد تليفونيًا يا مسز كاسل، أرجو ألا تنزعجى، وسوف أخبرك إذا وصلتنا أى أخبار جديدة".

عندما كانا عند الباب، سألته سارة "كيف علمت أننى مقيمة هنا؟".

"الجيران ومعهم أطفال يعرفون أكثر مما تسمحين به يا مسز كاسل".

راقبته وهو يركب سيارته، ثم عادت إلى داخل المنزل. فكرت: لن أخبر سام الآن، ندعه أولاً أن يعتاد على الحياة دون بولر. قابلت بعد ذلك مسز كاسل الحقيقية خارج حجرة الاستقبال، قالت هذه: "لقد برد طعام الغداء. إنه رجل بوليس، أليس كذلك؟".

"نعم".

"ما الذى كان يريده؟".

"معرفة مكان تواجد موريس".

"لماذا؟".

"كيف أعلم لماذا؟".

"هل أعطيتيه مطلبه".

"إنه ليس متواجدًا فى المنزل، كيف لى أن أعلم أين هو؟".

"أرجو ألا يعود هذا الرجل إلى هنا مرة أخرى".

"لن أندهش إذا حضر مرة أخرى".

* * *

(٢)

لكن مرت الأيام دون المفتش بتلر ودون أى أنباء. لم تحاول هى أن تتصل تليفونيًا بلندن، فليس هناك أى معنى لذلك الآن. مرة عندما طلبت شراء قطعة لحم ممتازة من الجزار على حساب حماتها، كان لديها إحساس أكيد أن التليفون مراقب. من المحتمل أن يكون هذا مجرد تخيل وفعل من أعمال الخيال الذى يصبح فنا بالنسبة للهواة. تحت ضغط من مسز كاسل، اضطرت إلى أن تتقابل مع المسئولين بالمدرسة المحلية كى تدبر مسألة التحاق سام بالمدرسة، وبسبب هذا الاجتماع، عادت محبطة منه، شعرت بأنها بذلك قد أنهت وحددت مسلك مسار حياتها الجديدة، وإنها قد ختمت عليه بالشمع الأحمر، ولن يتغير أى شىء الآن. فى طريقها للمنزل، مرت على تاجر الخضروات ثم على المكتبة وعلى الصيدلية .. لقد أعطتها مسز كاسل قائمة طلبات: علبة مليئة بالفاصوليا الخضراء، رواية من تأليف مارجريت هايرن، كذلك علبة أسبرين لمعالجة الصداع، حيث أيقنت أنها وسام من أسباب حدوث هذا المرض. بلا سبب، وجدت نفسها تفكر فى أن تعطى اسمًا لعدد من الأهرامات الرملية ذات اللون الرمادى الأخضر التى تحيط بمدينة جوهانسبرج .. حتى مولر تحدث عن لونها فى تلك الأمسية، لذلك شعرت بأنها قريبة من مستر مولر العنصرى الفارغ أكثر من مسز كاسل. إنها على استعداد الآن أن تستبدل تلك المدينة التابعة لمنطقة سوسكس بكل سكانها المتحررين الذين عاملوها بكل احترام وأدب، بمدينة تتبع دولة متخلفة مثل سويتو. يمكن للذوق والأدب أن يكونا على شكل حواجز ثقيلة أقوى وقعا من الضربة الموجهة للفرد. ليس هو الاحترام والأدب هما اللذان يود الإنسان أن يعيش فى أعطافهما؛ لكنه الحب. إنها تحب موريس، تحب رائحة تراب تلك البلاد المتخلفة، الآن وهى بدون موريس، إذن هى بلا بلد؛ لذلك كله رحبت بصوت فارغ يطلبها على التليفون، أدركت على الفور أنه صوت عدو على الرغم من أن الرجل قدم نفسه بالقول: "إننى صديق وزميل لزوجك"، ثم قال مستكملا: "أرجو ألا أكون قد طلبتك فى وقت غير مناسب يا مسز كاسل".

"لا، لكن أنا لم أسمع اسمك".

"دكتور بيرسفال".

إنه اسم معلوم لها لكن بشكل غامض "نعم، أعتقد أن موريس تحدث عنك".

"لقد قضينا معًا ليلة لا تنسى فى لندن".

"أوه، نعم، لقد تذكرت الآن، مع ديفيز".

"نعم، المسكين ديفيز". حدثت فترة صمت "كنت أتعجب يا مسز كاسل، عن إمكان أن نتحدث معًا".

"نحن نتحدث الآن عبر التليفون، ألا ترى ذلك؟".

"حسنًا، أفضل أن تكون المكالمة وجهًا لوجه بدلا من التليفون".

"إننى فى مكان بعيد عن لندن".

"يمكن لنا أن نرسل لك سيارة إذا كان هذا يساعد".

فكرت: إنه يقول (لنا)، إنه خطأ يرتكبه عندما يتحدث عن مؤسسة خلفه. كلمتا نحن وهم، من التعبيرات غير المريحة. إنها نوع من الإنذار الذى يدعو الإنسان لأن يكون حذرًا.

قال الصوت: "كنت أفكر فى أنه لو أنك حرة يمكن لكلينا أن نتناول طعام الغداء فى يوم من أيام هذا الأسبوع..".

"لا أعلم إذا كان هذا فى إمكانى أم لا".

"أود أن أتحدث معك عن زوجك".

"نعم، هذا ما خمنته".

"إننا جميعًا قلقون بخصوص موريس". شعرت على الفور بالزهو، فكلمة نحن لم تضعه فى مكان سرى غير معلوم كما كانت الحال مع المفتش بتلر. إنه بعيد الآن ... كل

أوروبا تفصله عنهم. كانت تشعر كما لو أنها هى، مماثلة لموريس، قد استطاعت أن تهرب ... أنها فى طريقها إلى موطنها، الموطن الذى يتواجد فيه موريس؛ مع ذلك، يجب أن تكون حذرة تمامًا كما كانت حالها أيام أن كانت تعيش فى جوهانسبرج. قالت: "لا أهتم الآن بموريس، لقد انفصلنا عن بعض".

"مع ذلك، أتوقع أنك سوف ترحبين بالاستماع إلى بعض الأخبار عنه".

إذن هم لديهم أخبارا عنه. إنه موقف يشبه ما أخبرها به كارسون منذ زمن "إنه فى أمان، منتظرك فى "L.M"، والآن ما علينا سوى أن نجمعكما معًا". إذا كان هو حرًا الآن، إذا سريعًا سوف يجتمعان معًا. تحققت أنها كانت تبتسم وهى قابضة على السماعة ... أشكرك يا الهى لأنهم لم يخترعوا بعد تليفون تظهر صورتك من خلاله، لكنها اجتهدت أن تخفى هذه الابتسامة وهى تقول: "أخشى القول إننى لست مهتمة بمكان تواجده الآن. ألا يمكن أن تكتب لى؟ لدىَّ طفل علىَّ أن أهتم به".

"حسنًا، لا يا مسز كاسل، هناك أشياء لا تصلح فيها الكتابة. إذا أمكن لنا أن نرسل لك سيارة غدا..".

"الغد، مستحيل".

"إذن يوم الثلاثاء".

ترددت بقدر طاقتها قبلما تقول "حسنا..".

"يمكن لنا أن نرسل لك سيارة الساعة الحادية عشرة".

"لكن أنا لست فى حاجة لسيارة. هناك قطار جيد يتحرك من هنا الساعة ١١،٤٥".

"حسنا، إذن أرجو أن تقابلينى فى مطعم برومل القريب من محطة فيكتوريا".

"هذا المطعم يقع فى أى شارع؟".

"أظن أنه شارع والتن أو ويلتن... لا تهتمى، أى سائق تاكسى سوف يعلم أين يقع مطعم برومل. إنه مكان هادئ تمامًا". أضاف ذلك برقة متناهية كما لو باستخدام خبرته المهنية يصف موقع مكان صالح للاستشفاء. فى الحال، كونت سارة صورة ذهنية للمتحدث ... إنه شخص واثق من نفسه، من نوعية سكان منطقة ومبول، بنظارة متدلية لا يستخدمها إلا عندما يكتب الروشتة، ثم بإشارة خاصة، ينهض كأنما هو النهوض الملكى، ما يعنى أن الوقت قد حان لأن يغادر المريض.

قال: "حتى يوم الثلاثاء"... إنها حتى لم ترد عليه، وضعت السماعة وذهبت تبحث عن مسز كاسل... لقد تأخرت مرة أخرى عن تناول طعام الغداء، لكنها لا تهتم. أخذت تدندن ترنيمة شكر وحمد كانت قد تعلمتها وهى صغيرة على أيدى جماعة من المرسلين، لذا نظرت مسز كاسل نحوها باندهاش.

"ماذا حدث، أى مكروه؟ هل هم رجال البوليس مرة أخرى؟".

"لا، إنه فقط دكتور من أصدقاء موريس. لا مكروه فى الموضوع. هل توافقين هذه المرة على أن أذهب لندن يوم الثلاثاء؟ سوف أصطحب سام إلى المدرسة فى الصباح ويمكن له أن يعود إلى المنزل بنفسه".

"ليس لدي مانع بالطبع، لكن كُنت أفكر فى أن أدعو مستر بوتوملى كى يتغدى معنا مرة أخرى".

"أوه، سوف يتوافق سام تمامًا مع مستر بوتوملى".

"هل يمكنك أن تقابلى محاميًا وأنتِ هناك؟".

"ربما". إنها تعتقد أن النطق بكذبة تعتبر ثمنا رخيصا مقابل ما تشعر به من سعادة متجددة.

"أين سوف تتناولين غدائك؟".

"أوه، أتوقع أن أشترى بعض الساندويتشات من أى مكان هناك".

"شيء مؤسف أن اخترتى للذهاب يوم الثلاثاء، لقد طلبت من الجزار أن يوافينى بفخذه كاملة. لذلك إذا تناولتى طعامك فى هاروون، هناك شيئا أو اثنان أود أن تحضريهما معك".

رقدت سارة على سريرها وقد جافاها النوم. كان الأمر يبدو كما لو أنها قد حصلت على نتيجة ورقية تستطيع فيها أن تضع علامات على كل يوم من أيام هذه الفترة. هذا الرجل الذى تحادثت معه هو عدو – إنها متأكدة من ذلك – لكنه ليس من رجال الأمن الوطنى؛ وليس هو من رجال (بوس)، إنها لن تفقد ضرسًا أو نعمة النظرَ فى برومل؛ ليس لديها أى سبب لأن تخاف أو ترتجف.

* * *

(٣)

مع ذلك، شعرت بهبوط معنوياتها بمجرد ما تعرفت عليه، حيث كان جالسًا فى انتظارها فى نهاية غرفة متلألئة فى مطعم برومل. لم يبد عليه أنه طبيب متخصص مماثلاً لأطباء شارع ومبول المحترمين، إنه يشبه كثيرًا طبيبًا عائليًا من الصنف القديم بنظارته ذات الأذرع الفضية وكرشه المستدير الذى التصق بحافة المائدة عندما قام لكى يحييها. كان ممسكاً بقائمة طعام كبيرة بدلاً من الروشتة. قال "إننى فى غاية السرور لأنك تحليت بالشجاعة لكى تحضرى".

"لما الشجاعة؟".

"حسنًا، هذا المطعم هو أحد الأماكن المحببة للإيرلنديين لكى يفجرونه، ومنذ عهد قريب ألقوا عليه قنبلة صغيرة، لكن بشكل مخالف للحرب الخاطفة، نلاحظ أن قنابلهم معرضة لأن تصيب المكان نفسه مرتين". أعطاها بعد ذلك قائمة الطعام لتقرأها؛ كانت هناك صفحة بأكملها مخصصة لما يدعونه بالمقبلات، وكل القائمة تقع كلماتها فوق صورة شخص، وإلى حد تشبه تلك القائمة الطويلة الذى كانت مسز كاسل تكتب فيه أرقام التليفونات المحلية.

قال دكتور بيرسفال بكل أريحية: "أنصحك بالابتعاد عن اختيار السمك التروت المدخن، هنا سوف تجدينه ناشف نوعًا".

"ليست لدى شهية بالغة للطعام"..

"دعينا نوقظ هذه الشهية أثناء مناقشتنا، هل ترغبين فى كأس من الشيرى؟".

"أفضل كأسًا من الويسكى إذا لم تمانع".. وعندما سُئِلت عما تختاره من أنواع الويسكى قالت "J&B"، ثم تضرعت للدكتور بيرسفال، "أطلب أنت أنواع الطعام"... فكلما انتهت من هذه المقدمات حان الوقت لأن تحصل على المعلومات التى فى انتظارها بجوع يفوق شهيتها للطعام. بينما كان هو يقرر، أخذت تدير عينيها مستطلعة المكان كله. كانت هناك صورة ملتبسة لامعة معلقة على الحائط مكتوب أسفلها: "جورج برايان برومل"،

إنها الصورة نفسها المطبوعة فى قائمة الطعام؛ أما أثاث المطعم فهو بلا لوم وأنيق يدل على ذوق فائق المستوى .. تشعر بأنه لا نوع من الإنفاق قد منع عنه أو أنه تعرض لنقد ليست له ضرورة: كان العدد المحدود من الزبائن هم جميعًا رجال كبار فى السن يشبهون بعضهم بعضًا كما لو أنهم بزغوا جميعًا من حضن كورس لإحدى المسرحيات الكوميدية العتيقة: شعر أسود، لا طويل ولا قصير، كل يرتدى بذلة بالصديرى لونهما أسود. كانت الموائد تبتعد كل واحدة عن الأخرى بشكل معقول، أما المائدتان المجاورتان للدكتور بيرسفال فكانتا خاليتين... تعجبت، هل هذا كان مقصودًا أم حدث بالصدفة. لاحظت للمرة الأولى أن كل النوافذ مغطاة بشبك معدنى من السلك.

قال الدكتور بيرسفال: "فى مكان مثل هذا، عليه أن يتمسك بإنجليزيته، ما رأيك أن نطلب إناءين ساخنين؟".

"أى شىء تقول عنه". مر وقت طويل لا ينطق بشىء سوى تلك التعليمات التى ينقلها للجرسون يحدد بها نوعية الخمور التى يود أن يتناولها. أخيرًا حول انتباهه إليها ومعه نظارته ذات الذراعين الفضيتين، بدأ بأن أطلق تنهيدة قائلاً: "حسنًا، لقد تم إنجاز العمل الصعب، الموضوع كله الآن بين أيديهم". ثم احتسى بعض من الشيرى "لا شك أنك قد تعرضت إلى وقت زاد فيه معدل قلقك يا مسز كاسل"؛ ثم ربت على يدها كما لو أنه بالفعل هو طبيب العائلة.

"تقول قلق؟".

"كما تعلمين، مرور يوم يلى الآخر".

"إذا كنت تقصد موريس..".

"كنا جميعًا معجبين بموريس".

"أنت تتحدث عنه كما لو أنه قد مات، تستخدم صيغة الماضى".

"أنا لم أقصد ذلك، بالطبع نحن ما زلنا معجبين به ؛ لكنه اختار لنفسه طريقًا مخالفًا، أخشى القول إنه طريق كله مخاطر. نحن نتمنى ألا يكون لك أى صلة بهذا الموضوع".

"كيف يمكن أن يحدث هذا ونحن منفصلان؟".

"أوه، نعم، نعم. إنه الطريق السليم الواجب اتباعه. سوف يكون الأمر أقل وضوحًا إذا كنتما قد سافرتما معًا. لا أظن أن جهات الهجرة سوف تكون بهذا القدر من الغباء لو كان هذا قد حدث. أنت سيدة جذابة، لكن لا تنسى موضوع اللون.."، ثم أضاف: "بالطبع نحن نعلم أنه لم يتحدث معك تليفونيًا فى المنزل، لكن هناك طرق متعددة لأن يرسل لك رسائل – أو استخدام تليفون عمومى أو إرسال وسيط – لا نستطيع أن نحصر كل أصدقائه، حتى لو عرفناهم جميعا". قام بدفع كأس الشيرى جانبًا مستعدًا لالتهام إنائه الساخن. بدأت فى الشعور بالراحة وقد عرض لها الموضوع بكل وضوح على المائدة التى تفصلهما؛ مثل ذلك الإناء الساخن. قالت "هل تظن أننى خائنة مثله؟"

"أوه، فى مؤسستنا، كما تعلمين، نحن لا نستخدم لفظة مثل خائن، هذه تعبيرات خاصة بالصحافة. أنت إفريقية – ولا أقول من جنوب إفريقيا – كذلك ابنك، وموريس بالطبع تأثر بذلك. دعنا نقول؛ إنه قد اختار جانبًا آخر يخلص له". تناول ملعقة يستطعم بها ما ركز فى إنائه الساخن، "كونى على حذر".

"حذر؟".

"أقصد أن الجزر فى هذا الإناء ساخن للغاية". إذا كان هذا استجوابًا، فإنه يبدو مختلفًا تمامًا عما كان يفعله قطاع الأمن الوطنى سواء فى جوهانسبرج أو بريتوريا. أضاف: "يا عزيزتى، ما الذى تنوين فعله عندما يتصل بك؟".

قررت أن تهمل عامل الحذر، فما دام هذا الحذر مستمرًا فإنها لن تحصل على شىء منه. قالت: "سوف أفعل ما يقول لى أن أفعله".

"أنا سعيد للغاية أنك قلت ذلك، هذا يعنى أنه يجب أن نكون صرحاء مع بعضنا. بالطبع نحن نعلم، وأتوقع أنك تعلمين، أنه قد وصل سالمًا إلى موسكو".

"الحمد لله".

"حسنا، أنا غير متأكد فيما يختص بالله، لكن تأكيدًا يمكن لك أن تحمدى مؤسسة "KGB".. (لا يجب على الإنسان أن يكون متمسكًا باعتقادين مختلفين؛ بالطبع ربما يكونا على جانب واحد) أتخيل انه عاجلاً أو آجلاً سوف يطلب منك اللحاق به".

"وسوف أذهب".

"مع ابنك؟".

"بالطبع".

انتبه دكتور بيرسفال مما امتلأ به إنائه الساخن من خيرات، من الواضح أنه إنسان يهتم ويسعد بما يقدم له من طعام شهى. أما هى فقد أصبحت أكثر طيشًا وهى تشعر بسعادة عميقة عندما علمت أن موريس قد أصبح آمنا الآن، قالت: "أنت لا تستطيع منعى من السفر".

"أوه، لا تكونى بهذا القدر من الثقة بالنفس. أنت تعلمين أننا نحتفظ فى مكتبنا بملف كامل عنك. لقد كنت فى حالة من الود والصداقة وأنت فى جنوب إفريقيا برجل يدعى كارسون، وهو عميل شيوعى".

" بالطبع هذا ما حدث فعلاً، كنت أساعد موريس – فى خدمتكم، على الرغم من أننى لم أكن أعلم فى حينه. لقد أخبرنى أن هذا كله بسبب حاجته لمعلومات يرصدها فى كتابه الذى كان ينتوى أن ينشره عن التفرقة العنصرية".

"ربما كان موريس فى ذلك الحين يساعد كارسون، وموريس الآن فى موسكو. هذا الموضوع لا يعتبر من اختصاصنا تمامًا بالطبع، لكن ربما قطاع م١٥ قد يشعر بأنه مضطر إلى أن يحقق معك بشكل عميق، وإذا دعوتى رجلاً عجوزًا أن ينصحك ... رجلا عجوزا كان صديقًا لموريس..".

برقت فى ذهن سارة على الفور صورة شخص مشعث يرتدى بالطو يشبه فروة الدب؛ وهو يلعب لعبة الاستخفاء مع سام وسط أشجار الشتاء. قالت له: "ماذا عن ديفيز، لقد كنت صديقًا لديفيز أيضًا، ألم تكن كذاك؟".

توقفت ملعقة شوربة كانت فى طريقها إلى فم الدكتور.

"نعم، المسكين ديفيز، كان موتًا محزنًا يحدث لشاب فى مقتبل العمر".

"إننى لا اشرب البورت".

"يا عزيزتى، لما أحيانًا نحن نخلط الأوراق؟ دعينا نقرر احتساء البورت عندما نصل إلى مسألة تناول الجبن... لديهم هنا نوعية ممتازة من جبن ونسلى ديل. كل ما وددت أن أقوله لك هو أن نكون معقولين، الأفضل أن تظلى هنا مع ابنك داخل إنجلترا عند حماتك".

"إنه ابن موريس".

"ربما".

"ماذا تعنى بقولك ربما؟".

"لقد تقابلت مع الرجل المدعو كورنيلوس مولر، وهو شخص لا يعرف الرحمة أو الشفقة وهو من رجال منظمة (بوس)! إنه يظن أنه يعرف من هو الوالد الحقيقى لابنك؛ وأرجو أن تسامحينى فى هذا الحديث المباشر البسيط.. لا أود أن تقعى فى الخطأ نفسه الذى وقع فيه موريس، و..".

"لم تكن واضحا بالمرة".

"قال مولر إن والد ابنك هو رجل من أهلك".

"أوه، أنا أعلم من يقصد؛ حتى لو كان هو الوالد الحقيقى، لكن هذا الرجل قد مات".

"لم يمت".

"بالطبع مات، مات فى مظاهرة".

"هل رأيت جثته؟".

"لا، لكن..".

"مولر يقول إنه مسجون، هو على قيد الحياة ... هكذا قال مولر".

"لا أصدق ذلك".

"يقول مولر إن هذا الرجل سوف يطالب قانونيًا بحقه فى أبوة هذا الولد".

"مولر يكذب".

"نعم، نعم. هذا محتمل، ربما يكون الرجل مهرجًا. أنا لم أطلع بعد على طلبه القانونى، وأشك فى أنه يستطيع أن يبرهن على أى شىء. هل ابنك مقيد بالباسبور الخاص بك؟".

"لا".

"هل لديه باسبور خاص به؟".

"لا".

"إذن أنت مضطرة إلى أن تستخرجى له باسبور كى تأخذيه خارج البلاد، وهذا يعنى الكثير من الإجراءات الروتينية الثقيلة، أحيانًا ما يكون المختصون بإخراج الباسبورات فى منتهى البطء".

"يا لكم من وحوش، قتلتم كارسون وقتلتم ديفيز والآن ..".

"كارسون توفى بالالتهاب الرئوى، أما المسكين ديفيز فإنه كان مصابًا بتليف فى الكبد".

"مولر قال إنه التهاب رئوى، وأنت تقول تليف كبدى، والآن تهددوننى أنا وسام".

"ليس تهديدًا يا عزيزتى، لكنها نصيحة".

"نصيحتك.. ".

كانت مضطرة إلى أن تتوقف. لقد حضر الجرسون كي يخلى مائدتهما. كان الدكتور بيرسفال قد أنهى كل طعامه، لكن معظم الأطباق التى كانت أمامها لم تمس.

تساءل الدكتور بيرسفال، وهو يستند إلى الأمام بإغراء متحدثًا بصوت خفيض، كأنما هو يحدد ثمنًا لخدمة يطلبها : "ما رأيك بفطيرة من التفاح الإنجليزى بالقرنفل وعليها طبقة من الجبن؟".

"لا، لا شىء، لم اعد في حاجة لشىء".

"أوه، يا عزيزتى، إذن سوف أطلب الحساب". هكذا كان طلب الدكتور من الجرسون وهو مخيب الآمال. عندما تركهم الجارسون، بدأ فى تعنيفها: "يا مسز كاسل ، لا تغضبى. ليس هناك أى شىء شخصى فى هذه المسألة. إذا أظهرت غضبك فأنت بذلك تتخذين القرار الخاطئ. إنها ليست سوى مسألة خاصة بالصناديق".... بدأ الآن فى الارتجال، لذا توقف مدركًا أن استعارته للمرة الأولى ليست موفقة.

قالت له: "سام هو ابنى وسوف أصطحبه إلى المكان الذى أختاره، إلى موسكو، إلى تومبكتو، إلى .. ".

"لن تستطيعى اصطحاب سام دون باسبور. وأنا مهتم ألا أدعو قطاع م١٥ لأن يتخذ الإجراءات المانعة ضدك، وإذا علموا أنك تستخرجين الباسبور، حينئذ سوف يعلمون.. ".

تحركت خارجة، تركت كل شىء خلفها، ووراءها دكتور بيرسفال فى انتظار قدوم الفاتورة. إذا ظلت دقيقة أخرى لما وثقت فى نفسها عما يمكن أن تفعله بالسكين التى وضعت بجوار طبقها انتظارًا لحضور قطع الجبن. شاهدت مرة فى حياتها شخصًا أبيض ملىء الجسم مثل دكتور بيرسفال وهو يتلقى طعنة فى حديقة بمدينة جوهانسبرج. بدا أمامها أنه أمر سهل التنفيذ.

وهى على الباب نظرت نحوه. كان الشبك المعدنى على النوافذ يعطيه مظهرًا كأنما هو جالس على مكتب تابع لرجال البوليس. من الواضح أنه كان يتابعها بأنظاره، ثم شاهدته وهو يرفع سبابته، يحركها يمينًا ويسارًا فى مواجهتها. يمكن اعتبار هذه الحركة كأنها تحذير أو إنذار، لكن هى لا تهتم بهذا أو بذاك.

* * *

الفصل الثانى

(١)

من نافذة فى الدور الثانى عشر من مبنى ضخم رمادى اللون، كان فى إمكان كاسل أن يشاهد النجمة الحمراء فوق الجامعة، كان يتجلى فى هذا المنظر جمال كما هى الحال فى كل المدن الكبرى، فقط كان ضوء النهار كابيا. لقد أوضحوا له الأمر تمامًا، لا سيما على لسان إيفان الذى استقبله وهو قادم على متن طائرة براغ، ثم اصطحبه إلى مكان معين لاستخلاص جميع المعلومات قرب مدينة إيركوسك، ليس له اسم يسهل نطقه، قائلاً له : إنه شخص محظوظ بشكل غير عادى لأنه قد تم تخصيص شقة له، وهذه الشقة كان يشغلها قبلا، بغرفتيها ومطبخها والحمام الخاص بها، رفيق توفى حديثًا، ذاك الذى استطاع أن يؤثث هذه الشقة، لأنه كقاعدة عامة، تسلم الشقق خالية تمامًا ما عدا الموقد؛ لكن كل شىء خلا ذلك، بما فيها مستلزمات التواليت... يجب على المقيم فيها أن يشتريها، وهذا الموضوع ليس بالأمور السهلة ويستغرق زمنًا ونشاطًا فائقًا. تعجب كاسل، فربما كان هذا الجهد هو الذى قضى على الرفيق السابق وهو يجاهد كى يحصل على هذا المقعد الأخضر الهزاز، أو تلك الأريكة الخشبية القاسية التى بلا أى مساند، أو تلك المائدة التى تبدو كأنها قد تلوثت ببقع مختلفة الأشكال والألوان بسبب الشوربة التى انسكبت عليها، أما ذلك التليفزيون، وهو آخر موضات التليفزيون أبيض وأسود، فهو هدية خالصة من الحكومة، وهذا ما شرحه إيفان عندما زارا تلك الشقة للمرة الأولى، وبأسلوبه الخاص، أبدى تشككه من أن يكون هذا التليفزيون قد أصبح ملكية خاصة لكاسل. بدا إيفان هذا غير مقبول أو مبلوع بدرجة تفوق عندما كان مقيمًا فى لندن، ولعله كان مستاء لعودته الاضطرارية إلى بلاده، معتبرًا أن كاسل هو الملام فى ذلك.

ظهر أن أكثر الأشياء قيمة فى هذه الشقة هو التليفون، كان هذا الجهاز مغطيًا بالغبار وليس موصولاً بالخط، لكنه مع ذلك يمثل قيمة رمزية. يومًا ما، ربما قريبًا، يمكن له أن يستخدمه، ويتحدث عن طريقه إلى سارة .. أن يسمع أصواتا من خلاله، هذا يعنى كل شىء بالنسبة إليه، مهما كانت درجة الكوميدية التى قد تتبدى فى نظر المستمع، وبالتأكيد سوف يكون هناك مستمعون، وإمكانية سماع صوت سارة، هذا سوف يجعل من هذا الانتظار الطويل محتملاً. مرة أخرى ود أن يعرب عن هذه الأمنيات لإيفان، لكنه لاحظ أن هذا الرجل يفضل أن يحدث هذا التبادل خارجًا، مهما كانت درجة برودة الجو. ولأن من مهام إيفان أن يجعل كاسل يشاهد معالم المدينة، لذ استغل كاسل هذه الفرصة وهما خارجان من مول جم (GUM)، وهو مكان جعل كاسل يشعر بأنه فى وطنه وذكره بالصور التى طالما اطلع عليها فى قصر الكريستال. تساءل: "هل تعتقد أنه فى الإمكان أن يتواصل تليفونى بالخطوط العامة؟" ... كانا قد ذهبا إلى GUM لكى يعثروا لكاسل على معطف مبطن بالفرو؛ فدرجة الحرارة الخارجية ٢٣ درجة تحت الصفر.

قال إيفان: "سوف أسال عن ذلك، لكننى أعتقد أنه عن هذه الفترة، هم لا يودون فضح مسالة قدومك إلى هنا بعد".

"وهل هذا إجراء سوف يطول شأنه؟".

"هكذا كانت الحال مع بيلامى، لكن أنت لا تعتبر حالة مهمة، لن نحصل على شهرة كبرى فى حالتك".

"من هو بيلامى؟".

"بالتأكيد أنت تذكر بيلامى، دائمًا ما كان مناسبًا للتغطية، ألا ترى ذلك، كما هى الحال مع قوات السلام؟".

لم يجهد كاسل نفسه لأن يفكر فى هذا الشأن، فهذا أمر ليس من شأنه. قال: "أوه، إننى أتذكره الآن"... لقد حدث ذلك فى تلك الأيام التى تعرض فيها إلى أصعب أيام قلقه وانزعاجه، عندما كان فى انتظار أى أخبار يمكن أن تصله عن سارة؛ بينما كان مستقرًا فى

لورنزو ماركيز؛ لكن مع ذلك، تعذر عليه أن يستدعى إلى ذهنه مسألة ارتداد بيلامى. ولماذا يرتد إنسان وهو يعمل فى مجلس المشورة البريطانى، وما قيمة أو الضرر الذى يمكن أن يحدث لارتداد أى شخص؟ تساءل: "هل ما زال على قيد الحياة؟"... بدا فى نظره أن تلك الأمور قد حدثت منذ عهد قديم.

"لما لا؟".

"ما الذى يفعله الآن هنا؟".

"إنه يعيش بفضل ما قدمنا له، كما هى الحال معك. أوه، لقد قمنا باختراع عمل له، إنه يقدم الآن النصائح والإرشادات إلى القسم المختص بإصدار النشرات والبيانات لدينا، وقد خصص له كوخ فى الأرياف. إنه يعيش حياة أفضل مما كان قد قضاها فى بلده مستعينًا بمعاشه. أعتقد أنهم سوف يفعلون الشىء نفسه معك".

"أن اقرأ كتبًا فى كوخ بالريف؟".

"نعم".

"هل هناك الكثيرون من أمثالنا يعيشون فى حمى أفضالكم؟".

"إننى اعرف على الأقل ستة أشخاص، هناك مثلاً كروكشانك وبيتس – سوف تتذكرهما بالطبع لأنهما كانا يعملان فى مركز خدمتك نفسه، وسوف تقابلهما كما أتوقع فى المطعم الجورجى الشهير أرجافى– يقولون أن أنواع الخمور هناك رائعة ... لا استطيع عن نفسى أن أتحمل تكاليفها ... أيضًا سوف تشاهدهما فى البولشوى بمجرد ما يخلعان دثارهما.

مرا بجوار مكتبة لينين، لذا قال إيفان: "وسوف تشاهدهما هنا أيضا"، ثم أضاف وقد ارتسمت على وجهه علامات الحقد: "وهما يقرأن الصحف الإنجليزية".

استطاع إيفان أن يدبر لكاسل خدمات سيدة سمينة فى منتصف العمر كى ترعاه يوميًا، أيضًا لتساعده فى تعلم اللغة الروسية. كانت دومًا تعطى اسمًا روسيًا لكل شىء

فى الشقة، وتشير بإصبع حاد على كل شىء مرة بعد أخرى. كانت مهتمة للغاية بضرورة النطق الصحيح لكل كلمة. وعلى الرغم من أنها كانت أقل عمرًا من كاسل بعدة أعوام، لكنها كانت تعامله كطفل صغير وتقدم له تعليمات وإرشادات حازمة تطورت بعد ذلك- بشكل بطىء- إلى نوع من الرعاية الأبوية مع تقدمه فى التدريبات المنزلية. عندما يكون إيفان مشغولاً بعمله، نجدها وقد زادت من جرعة ما تقدمه إليه من دروس، ثم تصطحبه معها بحثًا عن الطعام فى السوق الرئيسية أو الهبوط إلى مترو الأنفاق، وكانت تكتب له على ورقة صغيرة الأسعار وأثمان التذاكر. بعد فترة، جعلته يشاهد صور أفراد عائلتها- زوجها الشاب الذى يرتدى زيا عسكريا، الصورة ملتقطة فى حديقة عامة، بينما هناك صورة مطبوعة عليها الكريملين تستقر خلف وجهه. كان يرتدى الزى العسكرى بطريقة غير مهندمة (يمكن للمرء أن يلاحظ أنه لم يكن معتادًا على ارتداء مثل هذا الزى) كان يبتسم للكاميرا بنظرة كلها رقة وتعاطف، ولعلها كانت واقفة بجوار المصوراتى. أبلغته بأن زوجها هذا قد قتل فى معركة ستالينجراد. فى المقابل، قدم لها صورتين صغيرتين لسارة وسام، لم يكن قد أخبر مستر هاليداى بهما وهو يخبئهما داخل حذائه. أبدت السيدة الروسية دهشتها البالغة لأنهما أسودان، ولفترة بعد ذلك كانت معاملتها له باردة، لم تكن مصدومة أكثر من كونها غير مصدقة، لقد قام بكسر قواعد المنطق التى تتمسك بها، فى هذا كانت تماثل والدته تمامًا — لكن بعد عدة أيام، عاد الصفاء بينهما مرة أخرى، لكنه خلال هذه الأيام القلائل شعر بأنه مأسور داخل نطاق أسره وقد ازداد حنينه لسارة.

لقد قضى فى موسكو حتى الآن أسبوعين، استطاع فيهما أن يشترى بالمال الذى أعطاه إليه إيفان بعضًا من مستلزمات المعيشة داخل شقته، بل واستطاع أيضًا أن يعثر على طبعات مدرسية من مسرحيات شكسبير، كذلك روايتان لتشارلز ديكنز هما "أوليفر تويست" و "ايام صعبة". أيضًا عثر على "توم جونز" و "روبنسون كروزو". كان الثلج يصل إلى حد الركبتين فى الشوارع الجانبية، لذا أصبح لديه ميل أقل وأقل من أن يشاهد شيئًا جديدًا مع إيفان أو حتى أن يسير مع السيدة (أنا) فى جولة تعليمية. فى المساء اعتاد أن يدفئ بعضًا من الشوربة ويجلس منكمشًا بجوار الموقد والتليفون الذى لا ينطق القابع بجوار كوعه، يقرأ روبنسون كروزو. أحيانًا كان يستمع إلى كروزو وهو ينطق، كما لو

أن صوته صادرًا من مسجل، يقول: "لقد رسمت كل دقائق أحوال حياتى كتابة، ليس فى الأساس كى أتركها لمن سوف يأتى بعدى، لأنه يبدو أننى قد خلفت نسلاً قليلاً، يمكن أن يتسلموا أفكارى التى أرصدها يوميًا ليتأملوا فيها، كذلك ليتمعنوا فى كل تلك الأمور التى زحمت فؤادى".

كروزو هذا قسم كل ما قابله من أفراح أو أتراح طبقًا لما يصادفه من أحداث يومية إلى ما هو صالح أو طالح. تحت ما هو طالح كتب: "ليست لدىَّ روح أخاطبها تستطيع أن تبعث فى وهج الراحة"... وتحت بند الصالحات يرصد أنه قد حصل على "كثير من الضروريات النافعة من الأشياء التى أستطعت أن أستخلصها من الحطام التى يمكن أن تمدنى باحتياجاتى أو تسد حاجاتى بالمؤن المطلوبة طوال فترة بقائى على قيد الحياة". حسنا، لدى كاسل الآن المقعد الهزاز الأخضر، وتلك المائدة الملوثة بآثار الشوربة، والأريكة غير المريحة، وذلك الموقد الذى يتدفأ به، كل هذا سوف يكون فيه الكفاية لو كانت سارة موجودة هنا معه. لقد عهد من قبل أحوالاً أكثر سوءًا من ذلك. تنذكر فى الحال بعضًا من تلك الغرف الكالحة التى كانا مضطرين إلى أن يتقابلا فيها، حيث يتبادلا الحب فى بعض الفنادق المريبة التى بلا لون وقائمة فى أفقر الأحياء بمدينة جوهانسبرج. يتذكر بالذات غرفة معينة كانت خالية تمامًا من أى نوع من الأثاث، حيث سعدا معًا وهما راقدان على الأرض.

فى اليوم التالى، عندما نطق إيفان بملاحظته المشوشة ذاكرا فيها "أفضال الحكومة"، صاح فيه كاسل بعنف: "هل تسمى هذه أفضالا؟".

"ليس كثيرًا من الناس الذين يعيشون بمفردهم يمتلكون مطبخا وحماما خاص بهم، كذلك غرفتين".

"إننى لا أشكو من ذلك، لكن هم وعدونى بأننى لن أعيش وحيدًا، وعدونى بأن زوجتى وابنى سوف يتبعان".

كان مقدار احتدام غضبه سببا فى شعور إيفان بالانزعاج، قال: "هذا الأمر يستغرق وقتًا".

"أنا ليس لدىَّ أى عمل، عبارة عن رجل أعيش على الصدقات. هل هذه هى نوعية اشتراكيتكم اللعينة".

"اهدأ، اهدأ. انتظر قليلاً، عندما يكشفون عنك الغطاء..".

كاد كاسل أن يلكم إيفان. إيفان أدرك ذلك، لذا أخذ يبرطم بكلام غير مفهوم ثم تراجع سريعًا هابطًا السلالم الإسمنتية.

* * *

(٢)

ربما كان هذا عبارة عن ميكرفون ينقل هذا المنظر إلى جهات أعلى، أو ربما يكون هو إيفان الذى أبلغ عن ذلك؟ ما كان لكاسل أن يعلم، لكن على كل حال، استطاع غضبه أن يكنس أمامه أى نوع من الاستخفاء، وكنس أمامه، كما تحقق لاحقًا حتى إيفان نفسه.

فى الوقت الذى تمت فيه إزاحة إيفان من موقعه المفضل فى لندن، ذلك عندما أدركوا انه إنسانا غضوبًا لا يصلح قطعا لأن يكون رقيبًا على كاسل، هذا الاتجاه جعله يظهر بشكل مختلف؛ هو شكل الإنسان المقهور المضطر، حتى حان الوقت لأن يختفى بعد ذلك إلى الأبد. لعله كان لديهم عدد كبير من الاحتياطيين يستطيعون العمل كرقباء، كما هى الحال فى لندن حيث يتوافر العدد الكبير من السكرتيرات؛ لذا يمكن القول إن إيفان قد سقط فى قاع سلم الاحتياطيين، علما بأنه لا أحد يعمل فى هذه النوعية من الخدمات يستبعد نهائيًا، خوفًا من مشكلات العلانية.

صنع إيفان رقصة موت البجعة النهائى عندما عمل مترجمًا لكاسل فى مبنى خاص لا يبعد كثيرًا عن سجن لوبيانكا الشهير، الذى كان إيفان قد أشار إليه بكل فخار فى إحدى جولاته مع كاسل. سأل كاسل فى هذا الصباح: "إلى أين نحن متجهون"، أجابه إيفان بأسلوب مراوغ: "لقد قرروا أن يكلفوك بعمل ما".

كانت الغرفة التى انتظرا فيها متخمة بالكتب الملفوفة فى ربط اقتصادية قبيحة الشكل. استطاع كاسل أن يقرأ أسماء مثل: ستالين، لينين وماركس بالروسية .. لقد شعر بالسرور لأنه استطاع أخيرًا أن يفسر الحروف الروسية. كان هناك مكتب ضخم فوقه قاعدة نتائج ثمينة من الجلد، كذلك ينتصب فوقها تمثالاً برونزيًا لرجل يمتطى جوادًا، يبدو أنه أثقل من أن يكون مثبتًا للأوراق ... إنه موجود هنا كما أعتقد لأغراض تجميلية. من الباب خلف المكتب، برز رجلا سمينا ترفرف فوق رأسه خصلة شعر رمادية اللون، متحليًا بشارب كث على الموضات القديمة لونه أصفر بسبب تدخين السجائر. تبعه شاب يرتدى ملابس حسنة المظهر يحمل ملفًا، بدا عليه كأنه شماس يتبع قسًا من طائفته. على الرغم من

هذا الشارب الكث، كان الرجل العجوز يحمل فى طياته مظهرًا كهنوتيًا ساميًا، بابتسامة حنون ويد ممدودة كأنما تسعى لمنح البركات. حدثت بعد ذلك مجادلات ومشاورات بين هؤلاء الثلاثة، بعدها انتصب إيفان واتخذ لنفسه دور المترجم: "يريد الرفيق أن يبلغك مقدار تقديرهم لما أنجزته من أعمال، يود أيضًا أن تتفهم أن أهمية عملك قدمت لنا حلولا لبعض المشكلات التى احتاج حلها اللجوء إلى مستويات أعلى، ولذلك تم استبقاؤك هذين الأسبوعين. والرفيق مهتم ألا تظن أبدًا أن هذا يعنى عدم الثقة فيك. من المأمول أن وجودك هنا سوف يعلن على الصحافة فى الوقت المناسب".

قال كاسل: "هم بالتأكيد يعلمون بوجودى هنا فى بلادكم، وإلا أين مكانى؟".

ترجم إيفان، ورد عليه الرجل العجوز، بينما كان الشماس يبتسم ووجهه إلى الأرض. قال إيفان "يقول لك الرفيق إن مسألة معرفة أين أنت هى مسألة مختلفة تمامًا عن موضوع النشر فى الصحف؛ فالصحف هنا لا تستطيع أن تنشر شيئًا إلا عندما تكون أنت هنا بشكل رسمى، وهذا ما سوف تهتم به الجهات الرقابية. وسوف يتم تدبير مؤتمر صحفى لك قريبًا، حينئذ سوف تعلم ما الذى سوف تجيب به إلى رجال الصحافة، وربما سوف تخضع لنوع من التدريبات القليلة لمجابهة ذلك".

"أخبر الرفيق بأننى أود أن أتكسب قوتى من عملى هنا".

"يقول لك الرفيق إنك بالفعل قد اكتسبت الكثير جراء أعمالك السابقة فى خدمتنا".

"فى هذه الحالة أتوقع أن يفوا بالوعد الذى قطعوه لى عندما كُنت فى لندن".

"ما هذا الوعد؟".

"قيل لى إن زوجتى وابنى سوف يتبعاننى إلى هنا. أخبره يا إيفان بأننى أشعر بوحدة قاتلة. أخبره بأننى أود استخدام تليفونى، أن أتلفن لزوجتى، هذا كل ما فى الأمر، ولست مهتمًا بالاتصال بالسفارة الانجليزية أو رجال الصحافة. إذا كان الدثار قد خلع عنى، إذن دعونى أتحدث معها".

استغرقت الترجمة وقتًا طويلاً، وهى ترجمة- كما يعلم، تتخذ لنفسها وقتًا أطول من المحادثة الأصلية، لكن تلك استغرقت وقتًا أطول من المعتاد، حتى الشماس اشترك فيها بجملة أو اثنتين، أما الرفيق المهم فإنه بالكاد تحدث ... استمر متمسكًا بمظهره كأنما هو أسقف جليل. أخيرًا استدار إيفان نحو كاسل، كان يتبدى فى ملامح وجهه تعبير غاضب لا يشاهده الأخرون. قال "إنهم مهتمون للغاية بأمر تعاونك فى قسم النشر الذى يتعامل مع الآداب والأعمال الإفريقية". ثم أشار برأسه تجاه الشاب الشماس، الذى سمح لنفسه بأن يرسم على وجهه ابتسامة تشجيعية، ولعله رسم معهود يستخدمه دائمًا فى مقابل رؤسائه، قال إيفان: "يقول لك هذا الرفيق إنهم يودون أن تصبح مرشدهم الرئيسى فيما يختص بالأدب الإفريقى. يقول إن هناك عددا كبيرًا من الأدباء الإفريقيين وهم مهتمون فى شأن اختيار أفضل الأعمال للقيام بترجمتها، ومن ثم اختيار أفضل المؤلفين (المختارين بواسطتك) الذين سوف يتم استدعاؤهم للحضور إلى هنا لزيارة اتحاد الكتاب. إنه مركز مهم للغاية وهم سعداء بتقديمه إليك".

صنع الرجل العجوز إشارة بيده نحو رفوف الكتب، كما لو أنه يدعو كل من ستالين، لينين وماركس.. نعم، كذلك إنجلز ... لكى يرحبوا بالروائيين الذين سوف يختارهم كاسل.

قال كاسل: "إنهم لم يردوا بشأن طلباتى. أريد زوجتى وابنى معى. لقد وعدنى بوريس بذلك".

قال إيفان: "إننى لا أود أن أترجم ما تقوله، كل ما تطالب به هو من اختصاص إدارات أخرى. خطأ شنيع أن تخلط المسائل، إنهم يقدمون لك هنا..".

"قل له إننى لن أتناقش فى أى شىء قبلما أتحدث مع زوجتى".

هز إيفان كتفيه وتحدث، هذه المرة لم تكن المحادثة أطول من النص الأصلى .. صدرت بعدها جملة غاضبة قاطعة نطق بها الرفيق العجوز، كأنما هى التذييل المبالغ فيه الذى نجده

فى المجلدات الضخمة. وكى يظهر كاسل أن هذا هو منتهى قراراته، استدار وأخذ يحملق عبر النافذة نحو خندق ضيق فى الشارع تحيطه جدران خراسانية، لكن بصره لم يستطع تتبع نهايته العليا بسبب الثلج المتساقط الذى كان يهطل تباعًا بلا توقف، كأنما هنا دلو كبير فى الأعلى يعمل بهمة ونشاط وبشكل لا نهائى لا يهدأ أبدًا. إنه ليس الثلج نفسه الذى يتذكره منذ أيام طفولته المرتبط دومًا بالكور الثلجية والحكايات الخرافية والتزحلق على الجليد. هنا هو ثلج لا يرحم، لا ينتهى، ماحق ساحق، إنه ثلج يتوقع منه الإنسان وقوع نهاية العالم.

قال إيفان غاضبًا: "دعنا نخرج من هنا".

"ما الذى قالوه؟".

"إننى لا أفهم أبدًا الأسلوب الذى يعاملونك به. إننى أعلم منذ كُنت فى لندن مقدار التفاهات التى كنت ترسلها لهم، دعنا نخرج". مد الرجل العجوز يدًا مؤدبة، بينما ظهر ملامح القلق على وجه الشماس. فى الخارج، كان الصمت الذى يحدثه التدفق المتوالى للثلج فائقًا، لدرجة أن كاسل ما ود أن يقطعه. سار كلاهما سريعًا كأنهما عدوان يبحثان عن المكان المناسب كى يمعًا اختلافاتهما بإجراء نهائى. أخيرًا عندما لم يستطع تحمل شكل عدم اليقين، قال كاسل: "حسنا، ما كانت نتيجة كل هذه المحادثات؟".

"أخبرونى بأننى أتعامل معك بطريقة خاطئة، بالأسلوب نفسه الذى أخبرونى به عندما استدعونى به للعودة من لندن. قالوا لى إننى فى حاجة إلى المزيد من استخدام السيكولوجية، المزيد والمزيد منها. سوف يكون حالى أفضل تمامًا لو قورنت بخائن مثلك".

أرسل لهم الحظ سيارة أجرة، قفزا داخلها فى حالة من الصمت المجروح (أدرك كاسل من قبل أن الحديث داخل سيارات الأجرة هو عمل غير صائب).

عند مدخل الشقة، أعطى إيفان المعلومات التى طلبها منه كاسل، وكان يبدو عليه علامات الغضب والتذمر: "أوه، هذه الوظيفة ما زالت فى انتظارك، ليس هناك داع لخوفك، فهذا الرفيق متعاطف معك، وسوف يتحدث مع آخرين بخصوص تليفونك وزوجتك. إنه

يرجوك .... نعم يرجوك، وهى ذات الكلمات التى أستخدمها - أن تكون صبورا وقتًا قليلاً، وسوف تصلك أنباء، كما قال، قريبًا. إنه يتفهم، نعم يتفهم، مدى قلقك. إننى لا أفهم شيئا. يبدو واضحًا أن سيكولوچيتى فى وضع سيئ للغاية".

ترك كاسل واقفا عند المدخل، وسار إيفان وسط الثلوج، غاب عن نظر كاسل إلى الأبد.

* * *

(٣)

في الليلة التالية، بينما كان كاسل منهمكًا في قراءة روبنسون كروزو بجوار الموقد، سمع دقا على الباب (الجرس كان خربا). طغى عليه في الحال شعورًا بعدم الثقة من النوع الذي تنامى معه مع كر الأعوام، لذا كان رده الأوتوماتيكي قبلما يفتح الباب: "من الطارق؟".

"اسمي بيلامي". كان هذا صوت له نبرة حادة، لذا قام كاسل بفتح الباب. دخل إليه وجلاً وحذرًا رجل رمادي اللون، يرتدي معطفًا رماديًا، وعلى رأسه قبعة إستراكان روسية. إنه يشبه كوميدي يلعب دور الفار في عرض بانتومايم متوقعًا أن يحصل على التصفيق من أياد صغيرة.

قال: "أنا أعيش قريبًا منك، قلت في نفسي إنني استجمع شجاعتي وأزورك".. شاهد بعد ذلك الكتاب الذي ما زال في يد كاسل "أوه يا عزيزي، لقد قاطعت قراءتك لهذا الكتاب".

"إنه فقط روبنسون كروزو، لدي وقت طويل يمكن أن أخصصه له".

"آه ... ها، إنه من تأليف الرائع دانيل ديفو، إنه كان واحدا منا".

"واحد منا؟".

"حسنا، ديفو كان أكثر شبهًا بالعاملين في م١٥"... قام بنزع قفازاته الرمادية وأخذ في تدفئة يديه على الموقد، ثم جال بأنظاره فيما حوله.

"أرى أنك ما زلت فوق المسرح العاري، كلنا مررنا بهذه المرحلة. لم أعرف قط أين يمكن لي أن أعثر على احتياجاتي إلى أن أرشدني إليها كرويكشانك، ثم بعد ذلك، حسنا، أصبحت أنا المرشد الخاص لمواطني بيتس. أنت لم تقابلهم حتى الآن كما أظنه؟".

"لا".

"أتعجب من أنهم لم يتواصلوا معه بعد، لقد تم كشف الغطاء عنك وقد سمعت أنك سوف تكون نجما لمؤتمر صحفى سوف يعقد فى أى وقت الآن".

"كيف علمت بكل هذا؟".

"من صديق روسى".. قالها بيلامى مصاحبًا ذلك بضحكة محرجة، ثم أخرج من أعماق معطفه نصف زجاجة ويسكى قائلاً: "هذه هدية بسيطة أقدمها للعضو الجديد".

"شيء لطيف منك، من فضلك اجلس. المقعد أكثر راحة من الجلوس على الأريكة".

"سوف أقشر نفسى أولاً – عملية التقشير هى التعبير الصحيح".. هذا التقشير استمر لفترة، فهناك العديد من الأزرار. عندما استقر أخيرًا على المقعد الأخضر الهزاز، كركر مرة أخرى قائلاً "ماذا عن صديقك الروسى؟".

"لسنا على هذه الدرجة من الصداقة".

"إذن عليك أن تتخلص منه. لا تتساهل مع أى كلام فارغ. إنهم يريدون أن نشعر بالسعادة ونحن هنا".

"كيف أتخلص منه؟".

"فقط أظهر لهم أنه ليس من النوعية التى يمكن أن تتجاوب معها، عن طريق أى كلمة طائشة تلتقطها واحدة من تلك المعدات التى من المحتمل أننا عندما نتحدث معًا سوف تلتقط أصواتنا. هل تعلم شيئًا، عندما حضرت إلى هنا للمرة الأولى، قاموا بتعيين من يرافقنى دومًا – لن تصدق – إنها سيدة فى منتصف العمر من اتحاد الكتاب. حدث هذا كما أعتقد لأننى كنت أعمل فى مكتب المشورة البريطانى بألمانيا. حسنا، بعد فترة تعلمت كيف أتعامل مع هذا الموقف. كلما أكون فى حضرة كرويكشانك اعتدت أن أشير إليها بكل احتقارباعتبارها "مربيتى الخاصة"، لذا لم تستمر معى طويلاً، لقد غادرتنى قبلما يصل بيتس – لكن هناك مفارقة تجعلنى أضحك الآن – لقد قام بيتس بالزواج منها".

"إننى لا أتفهم كيف سارت الأمور معك ... أعنى لماذا أرادوا أن تحضر إلى هنا. لقد كنت خارج انجلترا عندما حدث هذا معك ولم أشاهد تقارير الصحف".

"يا عزيزى، كل الصحف كانت مريعة، قامت بسلخى، قرأت ما كتبته فى مكتبة لينين فيما بعد. يمكن لك أن تظن بعد قراءتها كأننى من أعتى الجواسيس، كما لو كنت ماتاهارى".

"لكن ما مدى نفعك لهما؛ وأنت الذى كنت تعمل فى مجلس المشورة البريطانى؟".

"حسنًا، كان لى صديق ألمانى، ويبدو أنه كان يدير حركة نشطة بها الكثيرون من العملاء المنتشرين فى الشرق، لم يخطر بباله قط أننى أنا الضعيف من الممكن أن أكون رقيبًا عليه أكتب عنه تقارير وملاحظات؛ ثم تعرض هذا الغبى إلى إغراء امرأة خطيرة، واستحق بعدها أن يعاقب بعدما كان يعتقد أنه آمن تماما. وما كنت أجرؤ أن أسبب له ضررًا، لكن عملاءه... لكن بالطبع هو خمن من وشى به. حسنا، أعترف بأننى لم أصعب عليه الأمر كثيرًا فى مسألة التخمين، لكن كان علىَّ أن أغادر سريعًا لأنه ذهب إلى السفارة *الإنجليزية هناك ليتحدث* عنى، وكم *كنت سعيدا* عندما وضعت *تشارلى هذا خلفى*".

"هل أنت سعيد وأنت هنا؟".

"نعم، السعادة فى نظرى تختص بالأفراد وليس بالأماكن. أنا لدىَّ صديق عزيز هنا. بالطبع، هذا مخالف لقوانين الدولة هنا، لكنهم يسمحون بوجود استثناءات. إنه يعمل ضابطًا تابعًا لـــ KGB. بالطبع، يضطر هذا الولد المسكين أحيانًا إلى أنه لا يكون مخلصا تمامًا فى مجال عمله، لكن بشكل مختلف تمامًا عن صديقى الألمانى– إنه ليس نوعًا معينا من الحب، ونحن نضحك قليلاً من ذلك أحيانا. إذا كنت تشعر بالوحدة، أعلمك أنه يعرف العديد من الفتيات..".

"أنا لا أشعر بالوحدة ما دام استمر تدفق الكتب الإنجليزية التى أستطيع قراءتها".

"سوف أعرفك على مكان صغير يمكن لك فيه أن تلتقط كتبًا باللغة الإنجليزية من تحت المائدة".

حل منتصف الليل قبلما ينتهيا من احتساء نصف زجاجة الويسكى، بعدها استأذن بيلامى للخروج. قضى وقتًا طويلاً لكى يرتدى مجموعة فرائه، وكان يثرثر طوال هذا الوقت:

"يحب أن تقابل كرويكشانك يومًا – سوف أخبره بأننى قد قابلتك .... بالطبع سوف تقابل بيتس أيضًا، لكن هذا لا يعنى بالطبع مقابلة مسز – اتحاد الكتاب بيتس". قام بتدفئة يديه جيدًا قبلما يرتدى قفازاته. كان يبدو عليه كما أنه فى منزله، مع ذلك اعترف بقوله "لقد كنت حزينا فى البداية، شعرت بأننى ضائع إلى أن عثرت على هذا الصديق؛ كما عبرت عن ذلك مجموعة الكورس فى ملحمة الشاعر سوينبورن "الوجوه الغريبة، الحراسات غير الناطقة.. كيف تسرى وكيف تسير مع كل هذه الآلام؟" ،لقد اعتدت على أن أعطى محاضرات عن سوينبورن ؛ ذلك الشاعر الذى لم يحصل على حقه من التقدير".

عند الباب قال: "يجب أن تخرج وتأتى لزيارة كوخى عندما يحل وقت الخريف..".

* * *

(٤)

اكتشف كاسل بعد مرور عدة أيام أنه حتى افتقد إيفان. لقد افتقد حضور شخص يمكن له أن يكرهه ؛ لكن معايير العدالة لا تسمح له بأن يكره (أنَا) التى يبدو أنها قد أدركت أنه يشعر بالوحدة أكثر من أى وقت مضى. ظلت مدة أطول من المعتاد هذا الصباح وأخذت تعيد عليه وتكرر على مسامعه بعض الكلمات الروسية مستخدمة فى ذلك إصبعها السبابة، بل وأصبحت أكثر تدقيقًا فى نطقه للكلمات... بدأت أولاً فى إضافة أفعال إلى موسوعة ما تعلمه، مبتدئة بالكلمة التى تعنى "يجرى" عندما صنعت أمامه حركة تمثل الجرى، رافعة كوعيها وكل ركبة على حدة. لا شك أنها تقتضى مالاً لقاء ذلك من جهة ما، فهو لا يعطيها شيئًا، وفى الحقيقة كانت الروبلات القليلة التى أعطاها له إيفان قد انخفض عددها إلى حد كبير.

إنه أمر مؤلم فى وحدته هذه أنه لا يكتسب شيئًا بعرق جبينه، بل وبدأ يشعر باشتياق من أن يجلس على مكتب يستطيع وهو قابع خلفه أن يفحص كتب المؤلفين الإفريقيين – هذا ربما يشغل باله قليلاً عن التفكير فيما يمكن أن يكون قد حدث لسارة. لماذا لم تتبعه حتى الآن ومعها سام؟ ما الذى يفعلونه لكى يفوا بما وعدوا به؟

فى الساعة التاسعة واثنين وثلاثين دقيقة فى أمسية ما، أنهى تمامًا قراءة رواية روبنسون كروزو... أثناء مراقبته هذا الوقت، لاحظ أنه يقلد إلى حد ما كروزو: "هكذا تركت الجزيرة، فى يوم الثلاثين من ديسمبر، وأصبحت من ركابها عام ١٦٨٦ بعدما ظللت فوق أرض هذه الجزيرة لمدة ثمانية وعشرين عاما، وشهرين وتسعة عشر يوما..".

ذهب كاسل إلى النافذة.. لم يكن الثلج يتساقط فى تلك اللحظة، لذا كان فى استطاعته أن يشاهد بوضوح النجمة الحمراء المعلقة فوق الجامعة. حتى فى تلك الساعة، لاحظ أن هناك عددا من النساء منهمكات فى كنس الثلج. من الأعلى ظهرن كأنهن مجموعة من السلاحف الضخمة. سمع أحدهم يدق جرس الباب ... دعه يفعل ذلك، إنه لن يفتح، لعله هو بيلامى أو ربما شخص آخر رزيل، ربما يكون كرويكشانك أو المجهول بيتس؛ لكن بالتأكيد،

تذكر، جرس الباب كان تالفًا. التفت وأخذ يحدق باندهاش ناحية التليفون، إن ما يدق هو جرس التليفون. رفع السماعة، أحدهم تحدث معه بالروسية. لم يفهم كلمة واحدة، ولم يحدث شيء أكثر من ذلك؛ فقط يستمع إلى صوت إرسال التليفون المرتفع .... مع ذلك، ظل قابضا على السماعة مستمعًا، وبغباء منتظرًا. ربما يكون عامل التليفون قد طلب منه أن ينتظر، أم إنه قد طلب من أن يضع السماعة وأننا سوف نطلبك مرة أخرى؟ ربما تكون هناك مكالمة مقبلة من إنجلترا. بشكل فيه قدر كبير من عدم الرضى، وضع السماعة فى مكانها وجلس بجوار التليفون منتظرًا متوقعا أن يرن الجرس مرة أخرى. لقد تم خلع "الدثار" عنه، والآن يبدو انه قد أصبح "متصلاً" تليفونيًا ويصبح فى إمكانه أن "يتواصل"، فقط يا حبذا لو كان فى إمكانه أن يتعلم الجمل التى يجب أن ينطق بها تليفونيًا بمعونة (أنَا)... إنه حتى لا يعلم كيف له أن يتصل بعامل التليفون، أيضًا لا يوجد دفتر تليفونات داخل شقته– لقد بحث عنه منذ أسبوعين سابقين. لكن لا بد أن عامل التليفون أراد أن يبلغه بشيء مهم، وفى أى لحظة توقع أن يرن الجرس مرة أخرى. غلبه النوم وهو هكذا جالسًا بجوار التليفون وحلم، كما لم يحلم لعديد من السنوات، حلم بزوجته الأولى، فى هذا الحلم تعارك معها، وهذا ما لم يصنعاه قط وهى على قيد الحياة.

عثرت عليه (أنَا) فى الصباح نائمًا على المقعد الأخضر الهزاز. عندما أيقظته قال لها "أنَا، لقد أصبح التليفون متصلاً الآن"... ولأنها لم تفهم ما نطق به، أخذ يلوح تجاهها قائلاً: "تنج– آ– لنج – آ– لنج". كلاهما استغرقا فى الضحك بسبب سخافة هذا الصوت الطفولى الصادر من فم رجل كبير. أخرج صورة سارة وأحدث إشارة نحو التليفون، فهزت رأسها وابتسمت تشجيعًا له. فكر فى أنها سوف تتوافق مع سارة وسوف تريها أين تقف، وسوف تعلمها الكلمات الروسية، أيضًا سوف تحب سام.

* * *

(٥)

فى وقت متأخر من هذا النهار، رن جرس التليفون، شعر يقينًا بأنه المكالمة مقبلة من سارة؛ لعل أحدهم فى لندن قد نقل إليها رقم تليفونه، وربما يكون من فعل ذلك هو بوريس. كان فمه جافا عندما أمسك بسماعة التليفون، وبالكاد استطاع أن ينطق بجملة: "من المتصل؟"

"أنا بوريس".

"أين أنت؟".

"هنا فى موسكو".

"هل رأيت سارة؟".

"لقد تحدثت معها".

"هل هى بخير؟".

"نعم، نعم، هى فى أفضل حال".

"وسام؟".

"إنه أيضًا بخير".

"متى سوف يحضران إلى هنا؟".

"هذه هى المسألة التى أود أن أتحدث فيها معك. من فضلك حاول أن تظل داخل شقتك. لا تخرج. سوف احضر إليك الآن".

"لكن متى سوف أراهم؟".

"هناك شىء ما يجب أن نناقشه. هناك بعض الصعوبات".

"أى صعوبات هذه؟".

"انتظر حتى أراك".

لم يستطع أن يظل ساكنًا. أمسك بكتاب ثم وضعه فى مكانه ثانية. ذهب إلى المطبخ حيث كانت (أنَا) منهمكة فى عمل شوربة. قالت له: "تنج- آ- لنج - آ- لنج"؛ لكن هذه الجملة لم تعد مضحكة الآن. عاد مرة أخرى إلى النافذة ... بدأ الثلج يتساقط مرة أخرى. عندما سمع دقًا على الباب، شعر بأن هناك ساعات وساعات قد مرت.

كان بوريس يحمل شنطة بلاستيك، قال:

"أخبرتنى سارة بأن أدبر لك زجاجتين من ويسكى واحدة منها والأخرى من سام".

"ما العقبات التى ذكرتها؟".

"أعطنى فرصة حتى أخلع معطفى".

"هل أنت حقًا رأيتها؟".

"تحدثت معها تليفونيًا، من كشك عمومى. إنها فى الأرياف مع والدتك".

"أعلم ذلك".

"سوف يكون شكلى واضحا لو زرتها هناك".

"إذن كيف عرفت أنها بصحة جيدة؟".

"هى التى أخبرتنى".

"هل بدا فى صوتها أنها بخير؟".

"نعم، نعم يا موريس، أنا متأكد أن ".

"ما العقبات، لقد شغلتنى".

"كانت حالتك السابقة بسيطة، أن نجهز لك باسبورًا مزيفًا، مع خدعة الرجل الأعمى لنتلافى حدوث أى مشكلة أثناء المرور على مكتب مراقبة الهجرة، لذا خصصنا مضيفة فرنسية لتقودك حتى الطائرة، علما بأنه كان هناك رجل يشبهك إلى حد كبير كان مسافرًا إلى براغ، بينما الباسبور الخاص به لم يكن على ما يرام..".

"لم تخبرنى حتى الآن عن العقبات".

"لقد افترضنا عندما وصلت أنت إلى هنا بسلام أنهم لن يستطيعوا منع سارة من اللحاق بك".

"لا يمكنهم فعل ذلك".

"لكن سام ليس لديه باسبور. كان واجبًا أن تلحقه بباسبور والدته. من الواضح أن هذه المسألة سوف تستغرق وقتًا طويلاً لحلها. هناك شىء آخر؛ أناسك أبدوا ملاحظة مفادها أنه إذا حاولت أن تسافر إذن سوف يتم القبض عليها باعتبارها متواطئة معك، فهى كانت صديقة لكارسون وكانت أيضًا عميلتك فى جوهانسبرج..يا عزيزى موريس، أخشى القول إن الأمور ليست بهذا القدر من البساطة".

"لقد وعدتمونى".

"أعلم أننا قد وعدنا بكل إخلاص. مع ذلك، يمكن تهريب سارة لو وافقت على الرحيل بمفردها وتركت ابنها خلفًا، لكن هى قالت إن هذا فى حكم المستحيل. الولد غير سعيد فى المدرسة وغير سعيد وهو متواجد عند والدتك".

كانت الشنطة البلاستيك فى انتظارهم وهى فوق المائدة – دائمًا هناك الويسكى، الدواء اللازم لمحاربة اليأس.

قال كاسل :"لما جعلتمونى أهرب لبلادكم؟ لم أكن معرضًا لخطر عاجل. كنت أظن أننى كذلك، ولعلك علمت..".

"لقد أرسلت لنا إشارة الطوارئ، وقد لبينا طلبك".

مزق كاسل الشنطة البلاستيك وفتح زجاجة الويسكى، كان الشعار "J&B" يحز فى نفسه كأى ذكرى مؤلمة. قام بصب كوبين مترعتين قائلاً: "ليس عندى صودا".

"لا تهتم".

"اجلس على هذا المقعد، الأريكة ناشفة كأنها درج فى المدرسة". احتسى جرعة من كوبه، حتى طعم الـ J&B كان مرًا فى حلقه. يا ليت بوريس كان قد أحضر معه ويسكى من نوعية مختلفة- هيج، هوايت هورس، فيت٦٩، جرانت. أخذ يسمع على نفسه أسماء أصناف الويسكى التى لا تعنى شيئًا بالنسبة إليه، لكى يجعل ذهنه خاليًا، يستطيع بذلك أن يلجم يأسه حتى يبدأ الـ "J&B" فى عمله: جونى ووكر، كوين آن، تيتشر. لم يفهم بوريس معنى صمته هذا، قال: "لا تشغل بالك من وجود ميكروفونات داخل الشقة. هنا فى موسكو يمكن لك القول إنك آمن لأننا نعتبر متواجدين فى قلب الإعصار"؛ ثم أضاف: "كانت مسألة مهمة فى نظرنا أن نخرجك من إنجلترا".

"لماذا؟ لقد كانت مذكرات مولر آمنة وهى بين يدى هاليداى".

"لم تصلك قط الصورة الحقيقية. فى الواقع، كل المعلومات الاقتصادية التى كنت ترسلها لنا لا قيمة لها فى حد ذاتها".

"إذن لماذا....؟".

"أعلم أننى لست واضحًا تمامًا، أننى غير معتاد على شرب الويسكى. دعنى أشرح لك. أناسك كانوا يظنون أن لديهم عميلا يعمل فى مصلحتهم فى مكان ما، هنا فى موسكو. لكن كنا نحن الذين دسسنا عليهم هذه المسألة. وما كنت ترسله لنا، كان هو يرسله لهم بالتالى، كانت تقاريرك تؤكد صدق العميل المزيف فى عيون إدارتك هناك، حيث يمكن لهم التأكد من صحتها، لكن كنا فى الوقت نفسه نرسل لهم معلومات أخرى نود أن يصدقوها، وتلك هى التى كانت تمثل الأهمية الحقيقية لتقاريرك. إنها خدعة متقنة؛ لكن بعد ذلك ظهرت

مسألة مولر والعم راموس. قررنا حينئذ أن أفضل وسيلة للكفاح ضد خطط العم راموس هى أن نجعله موضوعًا مفضوحًا ومذاعًا... ما كان لنا أن نفعل ذلك وندعك قائمًا فى لندن، لقد كنت أنت المصدر الوحيد، أنت الذى كانت فى حوزتك ملاحظات مولر".

"وسوف يعلمون أننى قد حصلت على معلومات فيما يختص بالثغرة أيضا".

"هذا صحيح. ما كان فى إمكاننا أن نواصل مثل هذه اللعبة لوقت أطول من ذلك. سوف يختفى عميلهم فى موسكو فى صمت بالغ، وربما بعد عدة شهور سوف يصل إلى أسماع أناسك عن وقوع محاكمة سرية جرت أحداثها هنا. هذا سوف يؤكد لهم أن كل المعلومات التى وصلت لهم هى صحيحة وحقيقية".

"كنت أظن أن بفعلى هذا إنما أساعد أناس سارة".

"لقد فعلت أكثر مما تظن، وغدا سوف تتقابل مع الصحافة".

"افرض أننى رفضت الحديث حتى تحضروا لى سارة..".

"سوف نتصرف بدونك، لكن بالطبع لا تتوقع أن نبادر بحل مشكلة سارة. إننا ممتنين إليك يا موريس، لكن الامتنان مماثلاً للحب يحتاج إلى تجديد الأواصر يوميا وإلا فإنه يموت".

"أنت تتحدث بأسلوب إيفان نفسه".

"لا، ليس مثل إيفان. أنا صديقك وأود أن أظل صديقك. والإنسان محتاج إلى صديق كى يبنى لنفسه معيشة جديدة فى أرض جديدة".

الآن ظهر أمامه أن عرض الصداقة له صوت التهديد والوعيد. الآن تبدت أمام مخيلته تلك الليلة التى قضاها فى واتفورد عندما كان يبحث بلا جدوى عن تلك الشقة التعليمية القذرة مع صورة برلتز المعلقة على الحائط. بدا له أن كل حياته بعدما التحق بالخدمة وهو فى العشرينيات من عمره، أنه ما كان فى استطاعته أن يتحدث، أصبح مماثلاً

لأى راهب ندر فضيلة الصمت، وفى وقت متأخر هو ذا يدرك أنه قد ألزم نفسه بتعهد زائف وخاطئ.

"خذ لك كأسًا أخرى يا موريس، الأمور ليست على هذه الدرجة من السوء. فقط عليك أن تصبر، هذا كل ما فى الأمر".

صب كاسل لنفسه كوبًا آخر.

* * *

الفصل الثالث

(١)

أكد الطبيب مخاوف سارة بالنسبة لصحة سام. كانت مسز كاسل هى الأولى التى تكهنت بطبيعة الكحة الصادرة من صدر الولد، فالعواجيز ليسوا فى حاجة إلى التدابير الطبية ... يبدو أنهم يكونون مع مرور الزمن معارف شتى بخصوص أعراض وعلاج الأمراض، بدلا من قضاء ستة أعوام فى تدريب ودراسة مكثفة. لا يعتبر الطبيب فى نظرها سوى مبرر قانونى، كى يضع توقيعه فقط على الروشتة بعد نهاية وصفها للمرض وتحديد العلاج المناسب. كان الطبيب شابًا صغيرًا يكن احترامًا فائقًا لمسز كاسل ويعتبرها كأنها اختصاصية متمكنة يستطيع أن يتعلم منها الكثير. قام الطبيب بسؤال سارة: "هل كان لديكم كثيرون من أهلك يصابون بالسعال الديكى". يعنى بذلك إفريقيا.

"لا أعلم، هل الأمر خطير؟"

"ليس بالخطير، لكن الأمر محتاج إلى عزل يستمر وقتا". – إنها جملة غير مطمئنة، لقد بدت الأمور أمامها أنه بدون موريس من الصعوبة بمكان أن تخفى قلقها، فهو قلق لا يشاركها فيه أحد.

كانت مسز كاسل فى منتهى الهدوء؛ وإن كانت إلى حد ما قلقة بسبب كسر قواعد روتينها اليومى. لو لم يحدث هذا العراك الغبى بين الزوجين، إذن لأمكن أن يتعافى سام فى منزله فى بيركهامستد، كان فى إمكانها أن تنقل إليهم نصائحها تليفونيًا. غادرتهما بعد ذلك، ثم بيد معروقة قذفت بقبلة فى الهواء تجاه سام وهبطت إلى الأسفل لتشاهد التليفزيون.

تساءل سام: "ألا يمكن أن أمرض فى بيتى؟".

"لا، يجب أن تظل هنا ساكنًا".

"كنت أتمنى لو كانْ بولر هنا حتى أتحدث معه"... إنه مشتاق لبولر أكثر من موريس.

"هل اقرأ لك؟".

"نعم من فضلك".

"إذن يجب أن تحاول الاستغراق فى النوم".

كانت قد التقطت بعض الكتب بشكل عشوائى واستعجال أثناء مغادرتها لمنزلها. كان بين هذه الكتب واحد يدعوه سام باسم كتاب الحديقة. إنه يحب هذا الكتاب أكثر منها؛ فذكرياتها أيام الطفولة لا تحتوى على أى حدائق.. كان الضوء الساطع القوى يضرب بقوة على أسطح معنية متموجة وعلى ساحة طينية، وحتى مع وجود أفراد من طائفة الميثودست، لم يكن هناك أى نوع من الأعشاب. فتحت الكتاب، بينما صوت التليفزيون يتمتم أسفل فى غرفة الاستقبال، وما كان من الخطأ تمييز حتى على البعد فى كونه صوت أحياء... إنه صوت يشبه فتح علب السردين، صوت معلب.

حتى قبلما تفتح الكتاب، كان سام مستغرقًا فى النوم، بينما هناك ذراعا له ممدودة خارج السرير، كما هى عادته كى يلحسها بولر. فكرت: أوه، نعم، بالطبع أنا أحبه، نعم أحبه، لكنه يشبه تلك القيود التى يضعها رجال بوليس الأمن حول المعصم، وسف تمر أسابيع قبلما يفرج عنها، وحتى بعد ذلك...عادت بذاكرتها إلى مطعم برومل تحملق فى الأوراق المصقولة بينما يجلس الدكتور بيرسفال رافعًا إصبعه محذرًا ومتوعدًا. فكرت: هل يمكن أن هذا بناء على تدبير مسبق؟

أغلقت الباب بهدوء وهبطت إلى الدور الأرضى. انقطع الصوت الصفيحى بينما وقفت مسز كاسل فى انتظارها عند قاعدة السلالم.

قالت سارة: "لقد فاتنى الاستماع إلى الأخبار، لقد أراد سام أن أقرأ له، لكنه نائم الآن".

أخذت مسز كاسل تحملق خلف سارة كما لو أن هناك منظرًا مرعبًا لا يستطيع أحد تبيانه غيرها. قالت: "موريس فى موسكو".

"نعم، أعلم ذلك".

"شاهدته الآن على الشاشة وحوله عدد من الصحفيين، يبرر نفسه. هل سمحت له أعصابه بأن يفعل ذلك، وتلك المواجهة...هل لهذا السبب تعاركتما معًا؟ أوه، كنت على حق عندما تركتيه".

"لم يكن هذا هو السبب. إنه لم يود أن يكون لى شأن بهذا الموضوع".

"هل كان لك شأن؟".

"لا".

"شكرا لله، ما كنت أود أن أطردك وابنك مريض".

"هل كان فى إمكانك أن تطردى موريس إذا علمتى؟".

"لا، سوف أستبقيه أطول مدة ممكنة إلى أن استدعى رجال البوليس"... استدارت وعادت إلى غرفة الاستقبال .. سارت عبر الغرفة إلى أن تعثرت أمام التليفزيون كأنها عمياء. كانت بالفعل كأنها عمياء. عيناها مغمضتين، قامت سارة بوضع يدها على ذراع مسز كاسل.

"بالتأكيد هذا الموضوع يمثل صدمة شديدة لك".

فتحت مسز كاسل عينيها، توقعت سارة أن تشاهد عينيها قد تبللت بالدموع، لكنهما كانتا جافتين قاسيتين، قالت: "موريس خائن".

"حاولى أن تتفهمى الموقف يا مسز كاسل، إنها غلطتى وليست غلطة موريس".

"قلت إنك لست متورطة".

"كان يحاول مساعدة أهلى فى إفريقيا، وإذا لم يكن يحبنى أنا وسام لما فعل ذلك... كان هذا هو الثمن الذى دفعه لكى ينقذنا معًا. لا يمكن لك تصور مدى الرعب الذى استطاع أن يخلصنا منه".

"إنه خائن".

فقدت السيدة قدرتها على التحكم فى ترديد هذه الكلمة. قالت سارة: "حسنًا، هو خائن، لكن خائن ضد من، ضد مولر وأصدقائه؟ ضد بوليس الأمن؟".

"ليس لدى علم من يكون مولر هذا، إنه خائن لوطنه".

"أوه، تقولين وطنه"... قالت سارة ذلك بشكل يائس بسبب تلك التصورات السهلة التى يصدر عنها ومنها قرارات وأحكام: "لقد قال مرة إننى أنا هو وطنه؛ كذلك سام".

"أنا سعيدة أن والده قد مات".

إنه كلاشيه آخر، ففى قلب الأزمة تعتبر تلك الترديدات القديمة صالحة لأن يتمسك بها المرء، كما يفعل الابن مع أبيه.

قالت سارة: "ربما كان بإمكان والده أن يتفهم موقفه أفضل منك".

كان ذلك عراكًا لا معنى له، مثل ذلك العراك الذى نشب بينها وبين موريس فى تلك الأمسية الأخيرة، قالت: "أنا آسفة، لم أقصد قول ذلك"... كانت سارة مستعدة أن تستسلم لأى شىء فى مقابل حلول السلام "سوف أغادر منزلك بمجرد ما يشفى سام".

"إلى أين سوف تذهبين؟".

"إلى موسكو، إذا سمحوا لى".

"لن تأخذى سام معك، أنا الوصية عليه".

"هذا يحدث فقط عندما أموت أنا وموريس".

"سام هو رعية بريطانية، سوف ألجأ إلى مكتب رعاية القاصرين فى المحكمة، وسوف أقابل محاميًا غدًا".

لا تدرى سارة شيئًا عن رعاية القاصرين، افترضت أن تلك ليست سوى عقبة جديدة لم يضعها فى الحسبان ذلك الصوت الذى وصلها عن طريق تليفون عمومى. هذا الصوت أبدى اعتذارًا: ادعى، مماثلاً لما صنعه الدكتور بيرسفال، بأنه صديق لموريس، لكن هى وثقت فى هذا الصوت أكثر، حتى على الرغم من صفة الحذر التى كان عليها فى حديثه، كذلك غموضه أيضًا تلك اللكنة الأجنبية التى تبدت فى صوته.

اعتذر لها هذا الصوت لأنها ليست فى طريقها الآن لتلحق بزوجها. إنه من الممكن أن يدبر ذلك فى الحال إذا وافقت أن ترحل بمفردها .... لقد جعل الولد الأمور فى غاية الصعوبة عليها أن تمر دون التعرف عليها، مهما كان الباسبور متقن التزوير.

أخبرته بصوت غارق فى اليأس "لا أسطيع أن أترك سام بمفرده". قام الصوت بعد ذلك بتطمينها قائلاً " إنه فى الوقت المناسب سوف يتم تدبير طريقة لتهريب سام، إذا وثقت فيهم... ثم أعطى لها هذا الصوت بعض التعليمات والإرشادات التى يمكن بها معرفة كيف ومتى يتقابلان، فقط وهى بشنطة مفردة بها حاجاتها الضرورية؛ لكن معطف ثقيل، وأى شىء آخر، من الممكن شراؤه من الجهة الأخرى – لكن، قالت له "أبدا، لا يمكننى أن أغادر بدون سام"؛ ثم سقطت السماعة من يدها. الآن هو ذا أمامها مرض ابنها كذلك تلك الجملة الغامضة التى استمرت فى مطاردتها وهى فى طريقها إلى غرفة النوم "مشرف على رعاية القاصرين بأمر المحكمة"، بدت هذه الجملة فى نظرها كأنما تشير إلى غرفة فى المستشفى، هل يمكن إرغام ولد صغير على أن يدخل المستشفى كما هى الحال فى مسألة دخوله المدرسة؟

* * *

(٢)

لم يكن لديها فى كل إنجلترا أحد من الممكن أن تستشيره، فهى لا تعرف أحدًا سوى مسز كاسل، الجزار، الخضرى ومعلمة المدرسة ؛ بالطبع أيضًا مستر بوتوملى، الحاضر دائما، أمام الباب العمومى، فى الشارع، وحتى على التليفون. لقد عاش طويلاً فى زى إرساليته الإفريقية، لذا كان يشعر بأنه بين أهله عندما يتحدث معها. إنه يبدو رجلاً رحيمًا كثير التساؤل ويرد على لسانه الكثير من الملاحظات الورعة. تعجبت ما الذى سوف ينطق به إذا أخبرته بأنها تود أن تهرب من إنجلترا.

فى صباح اليوم التالى للمؤتمر الذى ظهر فيه كاسل، قام الدكتور بيرسفال بالاتصال بها تليفونيًا بادعاء غريب. يبدو أنه كان هناك بعض المتأخرات المالية المستحقة لكاسل، لذا أرادوا معرفة رقم حسابه البنكى ليمكن لهم إيداع هذا المال فى حسابه.... يبدو عليهم أنهم على درجة عالية من المثاليات فى شأن مثل هذه الأمور التافهة. ثم فكرت بعد ذلك، ربما ظنوا أن وجود ضيقات مالية أمامها، هذا ربما يدعوها إلى نهج مسلك يائس، وربما تكون هذه هى نوع من الرشوة كى يجعلوها مستقرة فى مكانها. أخبرها الدكتور بيرسفال، بأسلوب طبيب العائلة نفسه "أنا سعيد للغاية لأنك تعقلتى يا عزيزتى، استمرى على إتباع هذا النهج القويم. كان هذا يشبه قوله: "استمرى فى استخدام هذه النوعية من المضادات الحيوية".

ثم فى الساعة السابعة مساء، عندما كان سام نائمًا ومسز كاسل فى غرفتها تفكر فيما سوف تقدمه مع وجبة العشاء، رن جرس التليفون. من المحتمل يكون المتحدث هو مستر بوتوملى، لكن المتصل لم يكن سوى موريس.

كان الخط والصوت واضحين تمامًا، بدا كأن الصوت يصدر من الغرفة المجاورة، قالت مندهشة: "موريس، أين أنت؟"

"تعلمين أين أنا، أحبك يا سارة".

"وأنا أحبك يا موريس".

شرح لها: "يجب أن نتحدث سريعًا، لا يعلم المرء متى سوف يقطعون الخط. كيف حال سام؟".

"ليس بصحة جيدة، لكن لا خطورة".

"قال لى بوريس إنه فى صحة جيدة".

"لم أخبره، إنها فقط مشكلة إضافية، هناك العديد من العقبات المزعجة".

"نعم، أعلم ذلك، بلغى سام حبى".

"بالطبع سوف أفعل".

"لسنا فى حاجة لأن نتظاهر، هم يتسمعون على كلماتنا".

حدث انقطاع، ظننت أنه قد أنهى حديث، ثم سمعته يضيف "إننى فى أشد حالات الشوق إليك".

"أوه، وأنا كذلك، لكننى لا أستطيع أن أترك سام هنا".

"بالطبع لا يمكن أن تتركيه، يمكن لى تفهم ذلك".

قالت باندفاع، لكنها ندمت فى الحال: "عندما يكبر قليلاً..". كان هذا الحديث يبدو كأنه أمل سوف يتحقق فى المستقبل البعيد، عندما يطعنان فى العمر. أضافت: "كن صبورا".

"نعم – حتى بوريس يطلب منى أن أصبر، كيف حال أمى؟".

"أفضل ألا أتحدث عنها. تحدث عنا، أخبرنى عن أحوالك".

"أوه، كل إنسان هنا يعطف علَىَّ. أعطونى نوعًا معينا من العمل. إنهم ممتنون لى بشكل لم أتوقعه"؛ ثم أضاف شيئًا لم تستعبه جيدًا بسبب خرفشة حدثت فى الخط سمعت شيئًا عن قلم حبر وعن كعكة مثبت فيها عمود من الشيكولاتة.: "والدتى لم تكن

مخططة تماما".

"هل لديك أصدقاء؟".

"أوه بالطبع، لست وحيدا. لا تقلقى يا سارة. هناك رجل إنجليزى كان يعمل سابقًا فى مجلس المشورة البريطانى، لقد دعانى كى أزوره فى كوخه بالأرياف فى وقت الخريف، وعندما يحل وقت الربيع.."أخذ يكرر شيئًا بالكاد استطاعت أن تميزه؛ إنه صوت رجل عجوز لا يستطيع أن يعتمد بكل تأكيد على احتمال تمتعه بمقدم الربيع التالى.

قالت: "موريس، موريس. من فضلك استمر فى حالة من الأمل والتفاؤل". لكن مع حالة الصمت الشامل الذى تبع، تحققت أن الخط الواصل من موسكو قد مات وخرس.

(تمت)

التعليق على رواية "العنصر الإنسانى"

بقلم: كولم توييبن

فى ١٥ مايو عام ١٩٦٧، كتب جراهام جرين لأخيه الدكتور ريموند جرين يسأله كيف يمكن أن يتعرض شخص ما للقتل دونما تحوط القاتل أى شبهة، ثم أضاف: "هل يمكن لك أن تقدم لى بعض الاقتراحات؟ إننى أكتب حاليًا رواية بها رجل تحوم حوله شبهات كونه عميلاً مزدوجًا ومطلوبًا أن يظهر عليه أنه قد تعرض للموت بطريقة طبيعية بسبب مرض أو أى شىء آخر، علما بأن إمكانات الحرب الكيميائية هى فى متناول وكالة المخابرات البريطانية. هل يمكن لهم أن يستعملوا واحدة من تلك الأفكار بالاستعانة بهؤلاء الخبراء؟...يجب أن يظهر الحادث كأنه حدث طبيعى كى تتهرب المخابرات من مغبة طرح أى أسئلة محرجة قد توجه لمسئوليها فى البرلمان بسبب عوامل السرية".

ولد فى أيرلندا عام ١٩٥٥، وهو مؤلف مجموعة القصص القصير "أمهات وأبناء"، كذلك مؤلف العديد من الروايات، مثل: "سفينة المياه السوداء"، "السيد". ومن كتبه غير الروائية "دماء خسيسة"، "تقدير بارشلونا". وقد ترجمت أعماله إلى سبع عشرة لغة مختلفة، وهو يعيش فى دبلن.

كتب جرين لاحقا، إنه ظل يفكر عدة أعوام كى يكتب رواية تدور داخل نطاق أجهزة المخابرات فى بلده: "أن أكتب رواية خالية من ذلك العنف المعتاد، الذى كان، بغض النظر عن مغامرات جيمس بوند– هو طابع وكالة المخابرات البريطانية"؛ علما بأنه خلال خدمة جرين فى وكالة المخابرات أثناء الحرب العالمية الثانية، ومقره كان فى جنوب إفريقيا، ثم لندن "صادفت القليل من الإثارة الميلو درامية التى يمكن لها أن تعترض مسيرتى المهنية".

كانت فكرة العمل فى تأليف رواية عن التجسس، مع رفض نهج السبل المعتادة، هذا كان يسحر لب جرين. إنه مغرم برسم المشاهد التى يتجلى فيها الملل، التعب والاستيطان، لأن الوقت الذى قضاه فى المخابرات أثناء الحرب كان ينقصه الكثير من المغامرات أو الأشكال الدرامية الواضحة. كان عنصر الغموض الذى ود أن يعمل فى إطاره يدفعه إلى أن يستجلى الشخصيات الغامضة، الأشواق الغريبة، كذا ذلك الحنين الذى ربما يدفع البعض لأن يخونوا ذواتهم ، أو تلك الهواجس التى تجعل بعض الناس مستعدين أن يخاطروا بكل شىء.

بدأ جرين فى كتابة "العنصر الإنسانى" قبل تسعة أعوام من نشرها. لقد أدرك وهو يكتبها أن معلوماته عن المخابرات السرية أصبحت عتيقة، وهذا يفسر تلك الأوصاف الهزيلة التى وصفت بها شخصياته أساليب العمل داخل عرين المخابرات وما يفعلون ويصنعون فى صلب الرواية. بعد عامين أو ثلاثة، كتب لاحقًا أنه قد ترك روايته هذه يائسا ظانا أنها سوف ترقد بجوار أعمال أخرى غير منتهية التى كانت تزحم مكتبه...قال إنه أهملها بسبب مسألة فيلبى.

ولد كين فيلبى عام ١٩١٢، وظل على مدى عشر سنوات يعمل موظفًا كبيرًا مسئولاً فى خدمة وكالة المخابرات البريطانية فى فرع واشنطن. هناك بدأ فى التعامل مع المخابرات السوفيتية **KGB** منذ عام ١٩٥١؛ ثم عندما حاصرته الشكوك، تم استدعاؤه للعودة إلى بلده عام ١٩٦٣، وكادت التهمة أن تثبت عليه، لكنه استطاع أن يهرب إلى الاتحاد السوفيتى، حيث- فى البداية- كان يشعر بالتعاسة والألم؛ وهذا ما شك فيه مضيفيه، لأنه فى الحقيقة هو رعية بريطانية. بذلك ارتبط اسم هذا الرجل بعدد آخر من الجواسيس الذين كان يزاملهم فى كمبريدج، ومن أشهرهم: دونالد ماكلين، جاى بورجس ثم أتى بعدهما أنتونى بلنت.

عمل جرين مع فيلبى فى لندن عام ١٩٤٤، وشربا معًا فى حانة "ذراع الملك" التى كانت تقع خلف شارع جيمس، ويتحليان بروح الطلبة فى التمسك بروح الدعابة والمرح. لكن من الأهمية بمكان ألا نبالغ فى مدى تقاربهما معًا. لاحقا، أدلى فيلبى ببعض خواطره إلى

نورمان شيرى الذى كان مشغولاً بكتابة السيرة الذاتية لجراهام جرين. قال "لا أتذكر أن جراهام قد زار يومًا مقر إقامتى، ولم يحدث قط أن زرته فى مسكنه. كان تواصلنا يقتصر على تناول الغداء معًا، وبعد الظهر نذهب للحانة قبلما نعود إلى منازلنا". ...بالطبع كان هناك بعض الزملاء لنا الذين ساهموا فى ابتعاد المسافات فيما بينا، لكننى كنت أشعر بأنه يتحلى بعنصر شخصى، إنه شعور عميق متمكن من الحرص على الاحتفاظ بالخصوصية فى مسائل معينة يهتم بها...لم يحدث على الإطلاق أن أشار إلى أسباب تحوله إلى المذهب الكاثوليكى. لم أكن راغبًا أن أدخل أى مناطق ممنوعة. إن بذل أى محاولة لجس وسبر ما يعتقد ويدافع عنه سوف يعرضنى بالتالى لأن يتغلغل هو أيضًا فى الاطلاع على أفكارى وقناعاتى، التى هى- لأسباب واضحة- كانت سوداوية ومحظور الولوج إليها أو طرق أبوابها.

كان جرين على هذا القدر من الطموح والأنفة الروائية؛ مما يجعله غير راغب فى أن تظهر رواياته كأنها واحدة من الأحداث العامة، أو أن يلقى عليها ضوءً باهرًا قدر استطاعته. إنه لم يكن مهتمًا فقط أن يبرز لمواطنيه أحداثًا كانت معروفة ومعلومة للجميع. إنه شخص يهتم كثيرًا بفنه وشخصياته؛ مما يجعله يحجم عن أن يكتب رواية عن فيلبى أو أن يبدع رواية ثم يقضى عشر سنوات لاحقة ينكر أنها كانت عن فيلبى. كتب لاحقًا: "جاسوسى المزدوج، وهو موريس كاسل فى الرواية، ليس فيه أى شبه لفيلبى سواء فى رسم الشخصية أو الدوافع، وليس هناك أى شخص فى الرواية به أقل شبه لشخص أعرفه. لقد كرهت فكرة اعتبار شخصيات هذه الرواية يشبهون أشخاصا بعينهم".

مماثلاً لكثير من الروائيين، استقى جرين إلهاماته من مخزون عقله وتصوراته. إنه لم يحاول قط أن يرسم أو يحور من شكل بطله الرئيسى ليشبه تمامًا شخصًا يعرفه. كان يشعر بكبرياء الفنان وهو يجابه فكرة أنه لم يفعل ذلك. كتب عن هذه المسألة: "أعلم جيدًا من واقع خبرتى كيف يمكن لى أن أرسى خاصية بسيطة أو عابرة على شخصية حقيقية.

إن الشخص الحقيقى دائمًا ما يقف عقبة فى سبيل تدفق الخيال. ربما أستطيع أن أستخدم لمحة من أسلوب فى الحديث أو سمة طبيعية، لكن يتعذر علىَّ سوى أن أكتب القليل من الصفحات قبلما أتحقق أننى بكل بساطة أعلم اليسير عن هذه الشخصية بحيث أستخدمه كاملا، حتى لو كان صديقًا قديمًا".

ليس لجرين أى اهتمام فى أن يجعل حياة شخص ما له اعتقاداته السياسية ومستعد أن يخون وطنه تظهر مكتوبة بشكل درامى. ودائمًا ما كانت شخصيات جرين الكاثوليكية تظهر وقد اكتنفها العديد من الشكوك والأوهام، لذلك لم يكن فى استطاعته أن يرسم شخصية شيوعى يؤمن بكل ثقة وتأكيد فى تعاليم ماركس؛ لهذا نجد أن دوافع بطله فى رواية "العنصر الإنسانى" هى مقدار حبه لامرأة معينة ومدى عرفانه بجميل من أنقذوها أكثر من كونه إنسانا يود أن ينقذ البشرية.. لقد جعل جرين من حب كاسل شأنًا خاصًا كله تفان وتعصب؛ حيث يظهر أن سعادته داخل منزله معرضة دومًا للخطر.

نجد كاسل وهو يتحرك بكل حرص، لا يقدم له جرين أى نوع من الزخرفة أو اللون، فتلك الخطوة التى أقدم عليها وهو يعمل فى جنوب إفريقيا، بينما هو مغرم بالفتاة السوداء، هى خطوته المحددة الفاصلة. إنه ليس بالرجل الحسى، أو رجل يمكن أن يضيع منه شىء، ليس لديه أى نوع من الاهتمامات، سوى ما يشغل ذهنه من هواجس ومخاوف. إنه لا يرغب فى شىء سوى الحفاظ على سعادته البليدة. لقد تم تشكيله ليصبح أقل الجواسيس تألقًا، لذلك، هو فى الحقيقة، جدير بأكبر قدر من الاهتمام.

بالنسبة لكثيرين من الكُتَّاب، فإن مهد الصبا، ومحددات الأماكن التى تعرف عليها الإنسان للمرة الأولى، لا تصبح فقط مفيدة، لكن تعتبر أيضًا من الأدوات اللازمة والضرورية لكتابة الأعمال التالية. مثلاً، نجد الكاتب هنرى جيمس، جعل من منزل جدته الذى كان يعرفه وهو صغير، هو الموقع الرئيسى لروايته "ميدان واشنطن"؛ لذلك أيضًا، قدم جرين لبطله كاسل عدة مناظر من أيام طفولته وصبوته، وهذا كان يمنحه نوعًا من السند العاطفى وهو منهمك فى كتابة هذه الرواية؛ إنها لم تكن مشاهد من وحى الخيال، هى

وسيلة فعالة لإحياء وتنشيط زمن ضائع؛ لذلك، نقول إن كل المناظر التى حدثت فى منطقة بيركهامستد فى الرواية هى جميعًا مناظر مستقاة من طفولة ونشأة جرين؛ كذلك كانت حكايات كاسل وهو يروى لابنه ما عاناه من طفولة قاسية، هذه أيضًا مستقاة من طفولة جرين. كتب نورمان شيرى: "كثير مما قام برصده فى روايته تمثل صفحات وصفحات من تاريخه السرى".. مثلا، نجده وقد جعل مستقر الكولونيل دانترى فى شقة مكونة من غرفتين فى شارع جيمس": وهى نفسها التى كان جرين يسكن فيها، بالمناظر المحيطة نفسها ونوعية الجيران أنفسهم ".كانت غرفة نومه وحمامه يطلان على ساحة صغيرة تحتوى على مزولة ومحل لبيع الفضيات"... تلك هى المناظر نفسها التى كانت تطل عليها شقة جرين.

نلاحظ أن طريقة جرين فى تشكيل وبناء كيان أى رواية تتسم بالدقة، الرشاقة والعملية. أما مشاهده الارتجاعية فإنه يختارها بعناية كى تبدو مألوفة، كما لو كانت همس شخص ما. لقد عملت هذه على تكثيف اللمحات السيكولوجية، لكن لم يكن مسموحًا لها بأن تعيق أو ترجئ تدفق الرواية؛ لذلك جعل أحداث الفصل الأول من "العنصر الإنسانى" تجرى فى مكتب كاسل الذى يقع فى قلب لندن، مرسخًا درجة قلق واهتمام كاسل بسبب الإجراءات الأمنية، كذلك موضحًا مدى حرصه وحذره البالغ المناقض تمامًا لمدى استهتار واستهانة مرءوسه ديفيز.

جعل أحداث الفصل الثانى تجرى فى عرين كاسل، حيث تنتظره زوجته، ويتعرض روتينه اليومى للارتباك، بطريقة تزعجه للغاية، بسبب ما أصاب ابنه من مرض. هذا الفصل ينتهى بمشهد لطيف ومزعج فى آن واحد، حيث تصحو زوجته من نومها لتتساءل عما إذا كان يشعر بالحزن لأن ابنه هذا ليس من صلبه، بهذا تتاح له الفرصة لأن يتذكر أيام هروبهما معًا من قبضة التفرقة العنصرية التى كانت سائدة فى جنوب إفريقيا. لقد وضح الآن أن موريس كاسل هذا يعيش فى خوف مقيم، متوقعًا فى كل لحظة أن يهبط الفأس، لا يحلم سوى أن يقضى سنوات عمره المتقدم مع زوجته وابنه، متحققًا، ومعه القارئ، أنه إذا لم يكن حذرًا ومحظوظًا، ربما لن تتحقق أمانيه هذه.

عندما كتب جرين رواية "القنصل الفخرى"،التى نشرت عام ١٩٧٣؛ كان يتصور أحداث الأعوام المقبلة مقدمًا، كما يفعل الكثيرون من الروائيين، عندما يكتمل إنشاء كتاب جيد، كأنه ساحة من الفراغ؛ كتب فى هذا الشأن "ويبدو الخيال كأنما هو طائر ميت. مع ذلك، كان هناك أمر جيد فى العشرين ألف كلمة التى كنت قد أنشأتها فى رواية العنصر الإنسانى... لقد أحببت على وجه الخصوص حفل اصطياد الطيور التى جرت فى ضيعة (س). كانت ذكرى ما كتبته حتى الآن تؤرقنى، ولم أكن مستعدًا أن ابدأ فى عمل آخر، لذا بكل تردد وشك تناولت هذه الرواية مجددًا، مذكرًا نفسى أن مسألة فيلبى هذه قد أصبحت الآن من مقتنيات وآثار الماضى".

ظهرت أحداث حفل اصطياد الطيور بالبندقية فى الفصل الثالث، بينما ما زالت مشاعر كاسل الدفينة بعدم الأمان والقلق فى مجال وعى القارئ. أصبحت المسألة الآن، أنه بينما كان الثلاثة فى الحفل يقررون أن يستجيبوا بحزم ومضاء جديد، وما إذا كانوا على هذه الدرجة من الكفاءة لكى يدركوا أن العميل ليس هو سوى ذلك الرجل الممل، الأقل عرضة للاشتباه، إنه حقًا المدان وليس ديفيز، ذلك المساعد المتهاون المبهرج.

فى تكذيب ظهر فى بداية طبعة مبكرة من هذه الرواية، كتب جرين: "أى رواية تدبج وتنبنى حوادثها داخل أى وكالة للمخابرات، من الضرورى أن تحتوى على الكثير من عناصر الخيال"؛ مع ذلك، كانت فكرة أن يقوم زملاؤه القدامى فى وكالة المخابرات البريطانية بتسميم زميل لهم أصغر عمرًا لمجرد الشك فى كونه عميلاً مزدوجًا، هذا لم يريحهم أو يبعث السرور فى قلوبهم. نجد مايكل شيلدون وهو يكتب السيرة الذاتية لجرين يقول: "لقد غضب عدد من زملاء جرين القدامى من معالجته هذه لعالمهم. كان فى إمكانهم أن يتقبلوا الرؤية الفكاهية فى رواية جرين "رجلنا فى هافانا" ما دام لا أحد سوف يأخذ ما كتب على محمل الجد، لكن رواية "العنصر الإنسانى" أظهرت الكثير من الخيانة داخل مؤسستهم القديمة وكثير من التعاطف مع فيلبى".

على الرغم من أن جرين يدعى أنه لا يرسم داخل رواياته شخصيات تشبه أناس حقيقيين، لكن من الواضح أن هناك امرأتين فى "العنصر الإنسانى" يشبها والدته وحبيبته السابقة. خلال أيام الحرب الثانية تم إجلاء زوجته فيفيان وأولاده إلى بلدة كراوبورو حيث تعيش والدته، بينما ظل جرين فى لندن. تتذكر فيفيان: "سافرنا من كلافام كومون إلى كراوبورو فى تاكسى. كانت بصحبتى قطيطة وعصفور كنارى بالإضافة إلى أولادى كان منزل والدة جرين باردًا للغاية، ولم تكن به غرف كفاية. لم يكن مسموحا للقطة بأن تظهر فى أماكن الإعاشة، وقد اضطررنا إلى أن نستغنى عن عصفور الكنارى فى كراوبورو". لذلك، ظهرت فكرة تلك الحرب الشعواء التى كانت تدور بين الكلب والقطة فى منزل والدة كاسل فى رواية "العنصر الإنسانى"؛ وفكرة أن زوجته تتعرض للإهمال وهى هناك، والوصف الجسدى لوالدة كاسل تتوافق تمامًا مع صفات والدة جرين، كذلك جمود وتصلب لهجتها. وتتذكر ابنة عم جرين ذلك بقولها: "كانت والدته سيدة مرعبة وباردة.".

فى ديسمبر ١٩٧٥، كتب جرين إلى كاترين والستون تلك التى كانت على علاقة حب معه استمرت عدة أعوام إنه يود ويرغب أن يعود مرة أخرى: "لتلك الرواية التى أهملتها على مدى ستة أو ثمانية أعوام". وعندما نشرت رواية "العنصر الإنسانى" كان باقيا على انتهاء عمر كاترين هذه ستة أشهر. هذا وقد استقى جرين بعضًا من صفاتها ووصفها فى الرواية على هيئة زوجة سير جون هارجريفز، رئيس المخابرات. كانت هذه السيدة فى الرواية تشبه كاترين والستون، فهى سيدة مضيافة بارعة تدعو الأصدقاء فى حفلات نهاية الأسبوع، وفى حديثها لكنة أمريكية، وزوجها، مشابها والستون، يعرج أحيانًا وهو يسير.

لم يكن جرين من النوع الذى يبدى اهتمامًا بالسياسة الطبيعية "الجيوبولتيكا"، أو بقسوة ووحشية معاملات التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا، أو عنف السلطة، كلها مقارنة بدراما الضمير المتوحد، أو بالرجل الذى ينفرد بنفسه محتفظًا بسر معين لا

يفشيه لأحد، وحبه مماثلاً لكراهيته، يمثل خطرًا يهدد أمنه وسلامه؛ ثم باستخدام عناصر استقاها من ماضيه — والدته، حبيبته السابقة، ما عانى منه فى طفولته، كذلك شقته القديمة فى لندن؛ استطاع أن يعبر عن عمق مشاعره فى كتاب يبدو منتظمًا فى بنيانه وأوقاته كأنما هو مسرحية. لكن جرين يعتبر أستاذًا فى استخدام الجمل المفردة التى تجعل القارئ يتوقف، حيث يعمل معه ما يمكن وصفه بشحن الأعماق. مثلاً، عندما ينهمك كاسل فى سرد بعض الحكايات لابنه، يضيف جرين تلك الجملة المتعبة "لا يزال هناك آباء بيننا حتى فى أيامنا هذه يخبرون أولادهم بأن هناك لله". وعندما يسأل كاسل والدته عما إذا كان يومًا ولدًا عصبيًا، تجيبه بالقول: "كان لديك إحساس مفرط بتقدير الجميل مقابل أى عمل طيب تتلقاه. إنه نوع من مشاعر عدم الأمان، وأتعجب لماذا كنت تشعر بعدم الأمان وأنت معى ومع والدك... لدرجة أنك مرة قدمت قلم حبر لولد أعطاك كعكة صغيرة بها القليل من الشيكولاتة". كان جرين بارعا فى تناول التفصيلات والمنمنمات التى يمكن أن تجعل القارئ ينتفض.

عندما صدرت الرواية، أرسل جرين نسخة منها إلى فيلبى فى موسكو، ووقع على الإهداء "إلى صديقى كيم". تعجب فيلبى وتساءل عما إذا كان جرين قد استقى شخصية الدكتور بيرسفال من شخص معين كان يعمل فى وكالة الــ CIA وهو بالتحديد الدكتور (ل). كتب له جرين: "ذاك الذى نعرفه معًا، بالكاد يستطيع أن يسمم رجلاً بشكل متعمد، هذا على الرغم من أن تشخيصاته كانت دومًا وبشكل عجيب غير دقيقة،" كان كاسل فى الرواية قد أبدى ملاحظة من أن الدكتور بيرسفال: "حاول أن يقنعنى من أننى مصاب بمرض السكر، لذلك أرسلونى إلى طبيب متخصص الذى اكتشف أننى مصاب بقلة السكر وليس زيادته". لذا كتب جرين: "لذلك وبشكل مشابه، حاول الدكتور (ل) أن يمنعنى من السفر إلى جنوب إفريقيا لأنه شخص حالتى بأننى مصاب بالسكر، لكننى عندما كشفت عند طبيب متخصص أثق فى تشخيصه اكتشف أننى أعانى من نقص فى سكر الدم".

كتب فيلبى أيضًا إن جرين قد جعل من ظروف كاسل "قاتمة وكئيبة للغاية" وهو مقيم فى موسكو، لكن فيلبى أصر على أنه "وجد كل طلباته مجابة، حتى لبيسة لأحذية، وهى قطعة لم يقتنيها من قبل". كان رد جرين علية "لقد أسست ما كتبته فى هذا الشأن فى تلك الرواية عما ورد فى كتاب إليانور فيلبى المعنون "الجاسوس الذى أحببته". لكن جرين الروائى لم يتعامل مع القصور الذى واجهه كاسل وهو فى موسكو كأنما الرجل يعيش فى الجنة. وعلى الرغم من أن كتاب إليانور وضح فيه أن فيلبى "قد صنع المعجزات داخل شقته بالمستوى الروسى، وأن تلك الشقة كانت واسعة ومريحة" لكن جرين فضل أن يعتمد على وصف إليانور للعمارة التى كانت شقتهما جزء منها بقولها: "من الخلف، كان ذلك المجمع السكنى الضخم الكئيب يذكرنى بسجن لوبيانكا"؛ لذلك وطبقًا لرؤية جرين القاتمة، فإن الفردوس نفسه بهذا الشكل سوف يكون مخيبًا للآمال.

* * *

المؤلف فى سطور:

جراهام جرين (١٩٠٤- ١٩٩١) الذى يعتبر من أشهر الروائيين الإنجليز فى عصرنا الحديث.. وعن هذه الرواية تحديدًا كتبت مجلة "اتحاد الصحافة العالمى" ربما تكون هذه هى أفضل رواية على مستوى العالم كتبت عن الجاسوسية" أما مجلة نيوزويك فقد كتبت عنها: "عمل أنيق...رواية رائعة...مفهومة وخالصة النقاء...أما التحديات التى استخدمها المؤلف للتفرقة ما بين "التسلية" والرواية فقد ذابت وزالت تمامًا...أصبح نجاح جرين كاملاً بلا نقصان".

أما الواشنطن بوست فقد كان تعليقها كالآتى:

"لا أحد يفوق جراهام جرين كراو وممون للإثارة الدراماتيكية عالية المستوى والمقدار".

المترجم فى سطور:

سمير محفوظ بشير

ولد عام ١٩٣٧، تخرج فى كلية تجارة عين شمس عام ١٩٥٨ وخرج على المعاش باعتباره مديرًا بالجمعية التعاونية للبترول عام ١٩٩٧.

كتب عددًا من المسرحيات الكوميدية وترجم من الإنجليزية:

قصة جوجل. دار ميريت

ساعة عدل واحدة. دار الهلال

وما نشره له المركز القومى للترجمة الآتى:

أبى طويل الساقين.

شحات: رجل من مصر.

الكاتدرائية.

أصدقاء وكفار.

جناح النساء.

يوميات مصرية.

المنزل الصغير فى ألنجتون.

المنزل ذو السبعة جمالونات

الروائيات العربيات المعاصرات.

التصحيح اللغوى : **كريمان البدرى**
الإشراف الفنى : **حسن كامل**



المؤلف هو جراهام جرين (1904 - 1991) الذى يعتبر من أشهر الروائيين الإنجليز فى عصرنا الحديث.. وعن هذه الرواية بالذات كتبت مجلة "اتحاد الصحافة العالمى" ربما تكون هذه هى أفضل رواية على مستوى العالم كتبت عن الجاسوسية" أما مجلة نيوزويك فقد كتبت عنها "عمل أنيق...رواية رائعة...مفهومة وخالصة النقاء...أما التحديات التى استخدمها المؤلف للتفرقة ما بين "التسلية" والرواية فقد ذابت وزالت تماماً...أصبح نجاح جرين كاملاً بلا نقصان."

أما الواشنطن بوست فقد كان تعليقها كالآتى:

"لا أحد يفوق جراهام جرين بوصفه راوياً ومبدعاً لفن الإثارة الدراماتيكية عالية المستوى والمقدار."

تصميم الغلاف: عصام عبد الرحمن